NDU SPIRIT

شاشاتُنا اليومَ دميمةٌ ذميمةٌ، غارقةٌ مستغرقةٌ في اللّسِّ والدّسِّ وسائرِ الشّبهاتِ، تَنِزُّ القيحَ والدّماءَ، تَبثُّ الفحيحَ؛ فهي مَزبلةٌ، وهي مَفسَدةٌ.. جحيمٌ من بَرص! إنّها مرآةُ الأحوالِ- يقولون.

ونقولُ: لا العمى نريدُ، ولا التّعامي. نريدُ الحقيقةَ حقًّا، وإنْ مُرّةً ومؤلمة. ولكنْ، أن تتحوّلَ هذه الشّاشاتُ إلى مَحرقةٍ ومَشرحةٍ ومَندبةٍ.. إلى خرائبَ أو مواخيرِ ريبةٍ وشتيمةٍ وفُسّاقٍ، بلا هَوادةٍ وعلى الغاربِ، فَلذلك قَذىً في العينِ ونيرٌ على العنقِ ورحىً على الصّدرِ وغِلٌّ في أيدٍ وفي الأقدام.

لا. ثمّةَ في ظَهرانينا قيمٌ وهممٌ وخَزينٌ قديمٌ من خيورٍ وبركات. وحريٌّ بنا أن نُسفِرَ عن وجهها ونَجلوَ حضورَها والأثر؛ فهي زادُ المَعادِ وذُخرُ الرّجاءاتِ السّعيدة، ولن تقومَ لنا قيامةٌ إلاّ بمفاتيحِها وفي حَومةِ ميادينِها!

السُّودُ الأقوالِ والأفعالِ، هؤلاءِ، لماذا لا نَطردُ ذكرَهم إلى خارجِ أسوارِ بيوتِنا.. نُلقيه في مجاري الظّلمات؟ لماذا لا نَعتِقُ قلوبَنا وعقولَنا من رجسِ شياطينِهم؟ لماذا لا نَحمي أولادَنا من أَوبئتِهم والآفات؟!

إنّ الشّاشاتِ، يجبُ أن تحجبَهم عنّا. يجبُ أن تَتحرّرَ من مالِهم الحرامِ ووقاحتِهم وسَماجتِهم وما مُسخوا عليه من سِقْطٍ كريهٍ بغيض. يجبُ أن تَتعافى على هذا الزّمنِ الرّديءِ، وتضربَ الجَناحَ في أفقِ الشّمسِ وفي دَوحةِ اليَقظات.

شاشاتُنا اليومَ، لتبقى وتدومَ انتماءً ونَماءً، فَلتستعدْ دورَها ورسالتَها.. تَتجدّدْ بميرونِ الأصالةِ البديعةِ.. تُحدِثِ الجنّةَ المفقودة..

الجنّةُ المفقودةُ!

إنّها في وجدانِ أهلِنا الطّيّبين وأهلِنا المبدعين وأهلِنا القدّيسين...، وهل نسمّي ونَعدّ؟!

وإنّ الشّاشاتِ تكونُ من هؤلاء. وإلاّ، فالسّلامُ على البقيّةِ الباقيةِ من «بَصرتِنا».

إنّها مسؤولةٌ، كالمدرسةِ والجامعةِ مثلاً، عن التّنويرِ والتّطويرِ وتوجيهِ الجوارحِ في سبلِ الحقِّ والخيرِ والجمال. هي للتّثقيف. هي للتّحبيبِ بالفضائلِ والمناقبِ وأدبيّاتِ التّواصلِ وأخلاقيّاته. هي المنبّهُ والمرشدُ والمرافقُ الفطِنُ والإلفُ الرّحيم. وإنّها يدُ الغوثِ في ساعةِ الشّدّةِ، تَنتشلُ من الغرقِ...

الشّاشةُ حاجةٌ، وليست تَرفَ المترفين.

فَلنتأمّلْ وَلنتعقّلْ وَلنعملْ.. والتّيسيرُ على الله!

التّحرير

NDU Spirit دوريّة حول علامات
الحياة في عالم جامعة سيّدة اللويزة

هاتف: ٢٠٨٩٩٤/٦ (٠٩)

هاتف/فاكس: ٢٢١٤٢٠٥ (٠٩)

موقع الكترونيّ: www.ndu.edu.lb/research/ndupress/spirit

رئيس التّحرير
جورج مغامس

التّحرير بالانكليزيّة
ماريو نجم

التّنضيد بالعربيّة
ليديا زغيب

تصوير
ع. بجّاني، م. بو شبل، ن. نصر

طباعة
مطابع معوشي وزكريّا



كلمة

بورصةُ الدّماء..
والأقلامُ الخرساء
جورج مغامس
٠٤

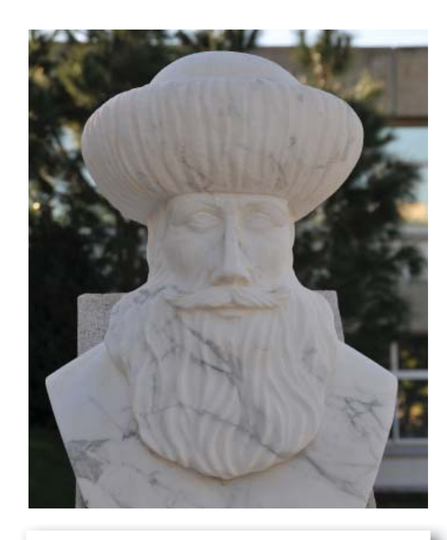


مدارات الجامعة

٦ حصاد تمّوز: ١٠٨٠ خرّيجًا

٢٣ أعرفُ جامعتي، وجامعتي تعرفُني

٣٠ من حَصَاد العمل الرعويّ



ملفّات

إدوار حنين في مئويّة ولادته ١٩١٣-١٩٩٢:

٣٥ **«ماذا ينفع اللبنانيّ لو ربح العالم كلّه وخسر لبنان؟»**
مار نصرالله بطرس صفير

٣٦ **المحامي والصحافيّ والكاتب والمفكّر والنائب والوزير: والإنسان**
الرئيس حسين الحسيني

٣٧ **تعلّمنا منه وأخذنا عنه**
النائب إدمون رزق

٣٩ **إدوار حنين، لبنان الكلمة**
جورج سكاف

٤١ **إدوار حنين الخالدُ الهاني**
عصام الخوري

٤٣ **إدوار حنين طريقي إلى الرئيس حلو**
سيمون عوّاد

٤٥ **نسيبي إدوار حنين**
حكمت شكري حنين

رئيف خوري في مئويّة ولادته ١٩١٣-١٩٦٧:

٤٧ **في حياته وريادته**
د. ربيعة أبي فاضل

٥٤ **ذكريات...**
جان كميد

٥٧ **في جامعة دايتون**
د. عصام الحوراني



أبحاث

٧١ **مريم العذراء في المجمع الفاتيكانيّ الثاني**
المطران جوزف معوّض

٧٥ **البابا و«الكنيسة في الشرق الأوسط»**
الأب مارون الشدياق

٧٩ **المجمع الفاتيكانيّ الثاني..**
الأب بيار نجم

٨٦ **الإيمان في عالم اليوم**
الأب فرنسوا عقل

٩٠ **من خزانة التاريخ**
د. أنطوان يوسف صفير

٩٧ **الشعر الحديث والعولمة - أدونيس نموذجًا**
د. ديزيره سقّال

١٠٨ **وعي المعلومات...**
د. كلاديس سعادة

مقالات

١١٦ **خطورة الفساد: أمثلة من العالم**
د. لويس حبيقة

١١٨ **يا الإنْسانُ الحامِلُ في ذاتِهِ بَذْرَةَ شَقائِه**
عبده لبكي

١٢٢ **جَرَسُ إنذار**
سيمون بطيش

١٢٧ **فشّة خلق**
شربل شربل

١٣٠ **«مدينةُ الله العُظمى»...**
أنطوان افرام سلامه

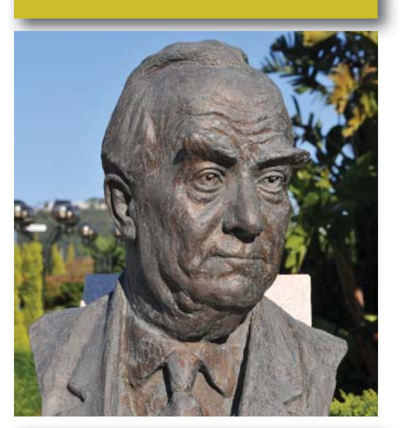
١٣٣ **الأبعاد النفسيّة في الزواج**
د. ديزيره القزّي



مراجعات

١٣٦ قراءة في «نسيان com»
أ/د. عبد القادر سلاّمي

١٣٨ ولادة الإنسان الثانية في ذاته الإنسانيّة
عبده القاعي



براعم

١٤٣ **صباحٌ خريفيّ**
نور زاهي الحسنيّة

شعريّات

١٤٤ **كولسيوم روما: عرس الدم**
جان توما

من منشوراتنا

- **رندلى**، - **قصائد من دفترها**، **كتاب الورد**، **أجمل منكِ لا**، Livre des roses
سعيد عقل
- **سعيد عقل: بيدر مجد وكمال**
رفيق روحانا
- **سعيد عقل: الإرث والمبتكر** - مؤتمر
- **تجديد النظام اللبنانيّ** - مؤتمر
- **What about the other,** Conference

١٤٥





جورج مغامس

بورصةُ الدّماء.. والأقلامُ الخرساء

عواصمُ العربِ، مدنُ العربِ، أريافُ العربِ،.. عربُ الشّرقِ وعربُ الغربِ: يا جوجٌ وما جوجٌ، من دمارٍ ورمادٍ.. من ذليلِ الصّخرِ والخشبِ.. وأدمعٍ حمراءَ.. ودماءٍ تَستسقي الدّماءَ،.. وملءُ النّهاراتِ والليالي بومٌ وغربانٌ.. أعلامٌ خضرٌ أعلامٌ سُودٌ تكبيرٌ وبياناتٌ على الجدرانِ الشّاحبةِ لعنترةَ والزّيرِ وسَيفِ بن ذي يَزَنٍ وأبي زيدٍ الهلاليِّ- طَيّبَ اللهُ ذكرى مجالسهم البائدة!

النّاسُ على قارعاتِ الطّرقِ، في مجاري الشّوارعِ ومَهابِّ العَراءِ وعُفونةِ الملاجئِ: شُعْثٌ جُهْمٌ بُهْمٌ ذُهْلٌ،.. وكم منهم يُستَدلُّ عليهم بأَشلائهم تَنثّرتْ، أو بالأَسمالِ اخلولقتْ، وبشبهِ أشباهِ النّعالِ.

مَجاني الأعمارِ والأجيالِ والآمالِ والأحلامِ، جميعًا جميعًا، في مَرمى التّفجيرِ والتّدميرِ.. في حَمأةِ اللهبِ. إنّها تموتُ موتًا أليمًا رَجيمًا.. تَصيرُ المَنعى موصولاً من جبلِ الزّيتونِ إلى طَفِّ الكربلاءِ.. وفي بعيدٍ دونَه أفقٌ دونَه بيدُ...

وهل مَن يرى إلى الثّكالى والأيامى واليتامى وفجائعِ الآباءِ، وما في حناجرهم وما في مَحاجرهم وما.. ما أُسقِطَ في أيديهم ولبسَته جلودُهم قروحًا وندوبا؟!

إنّ الزّمنَ زمنُ اللعنةِ الأصليّةِ.. زمنُ الهبوطِ إلى الجحيمِ، يَنفثُ الطّوفانَ والبركانَ والرّيحَ الزّعزعَ والزّلزالَ.

ورغمَ رغمَ، الحديثُ حديثُ ربيعٍ.. حديثُ ربيعٍ عربيّ!

أمّا الّذين يقرأون في اللحظةِ، وفي الرّغيبةِ والرّهيبةِ.. في الخبيثةِ الخبيثةِ، ففاتَهم أنّ أنظمةَ الاستبدادِ والقمعِ والقهرِ، وما على ضفافِها من فقرٍ وجهلٍ وقَهقرى، وفي فضائها من فسادٍ ملبّدٍ بالصّدأ،.. إنْ هي إلاّ قبورُ شعوبِها.. مطاميرُ التّرابِ تَعَكبشَ فيه العَوسجُ. فهذا الّذي يُرى ويُسمَعُ إذًا، هو هذي المطاميرُ تَشقّقت، والقبورُ تَفتّحت، والّذين خَرجوا من توابيتِهم يرقصون رقصةَ الشّمسِ.. رقصةَ الولادةِ الجديدة.

وإذًا،

هل يَنتظرُ مَن يَنتظرُ أن يكونوا الألماسَ توشّحَ الحريرَ، أمِ الأزاهيرَ تلألأتْ بعطرِ نداها؟

ومَن ذا العاقلُ الّذي يريدُهم، بعد عقودٍ وعقودٍ من رُقادِهم في رمادِهم، العروسَ المجلوّةَ والأميرةَ المتوَّجةَ وقوسَ السّحابِ وهديلَ الحمامِ الأبيضِ الرّفرافِ؟

وكيف كيف يُؤتى لهم الجمالُ الحلالُ بلا عيبٍ ولا دنسٍ، وهم المفطومون، قبل عهدِ الفِطامِ، عن حقوقٍ وحريّاتٍ طبيعيّةٍ وأساسيّةٍ تليقُ بإنسانٍ وأوطانٍ؟

أفليسَ أنّ أدنى ما يُدنى، حالتَئذٍ، أن يَبيتوا البائسينَ التّاعسينَ مَسَّتهمُ الضّرّاءُ، شَلّتْ في نفوسِهم والأنفاسِ أوتارَ العزّةِ والكرامة؟!

بلى. إنّ أجيالاً توالت دون معانقةِ أمجادِ الحياةِ وأفراحِها، منذ ما تَسَمّى الثّوراتِ الاستقلاليّةَ، فالانقلاباتِ التّصحيحيّةَ، وصولاً إلى أنظمةِ الـ ٩٩،٩٩٪.

لماذا؟

لأنّ الاستئثارَ والاحتكارَ، في السّلطةِ وفي المالِ، كانا الحاكمَ والحَكمَ؛ ولاذت بهما زُمَرُ الرّوافدِ من مُعيِّشين معتاشين، يسخّرون الفتاوى والنّجاوى لحُظوةٍ ومَرضاةٍ. فأَطبقَ التّواطؤُ اللئيمُ على الأرحامِ. فإذا المواليدُ مَختونةٌ بالشّريعةِ الجديدةِ.. شريعةِ الخنوعِ والخضوعِ والذّلّةِ المستدامة!

أمّا المعارضةُ فلها آبادُ السّجونِ، وحرّاسٌ بلا شَفقةٍ ولا رحمةٍ... وللتّمرّدِ نفيٌ مريرٌ وقتلٌ لا يوصَفُ.

هذه هي المأساةُ.

هذا هو الليلُ الطّويلُ.

وإنّ «الرّبيعيّين» لَمن هذه المأساةِ، ومن هذا الليلِ. ولذا، هم كجنٍّ وأشباحٍ.. كبابلَ الوَحشةِ البرّيّة.

ألا إنّها قيامةُ الموتى. وإنّهمُ الموتى يَبحثون عن أرواحِهم وأجسادِهم في كلِّ رميمٍ.. يرمّمونَ صورَ أوطانِهم، وتاريخًا جافى ما أَبدعَ اللهُ في جغرافياها من أنبياءَ وأديانٍ، وطقوسَ البطولاتِ الملحميّة!!

فإنْ رأينا الأهوالَ أقبلنَ يَضربنَ، وأَدمت قلوبَنا الفجائعُ، فلا نلومَنَّ إلاّ الفاعلَ تكرّرَ مُنكَرًا ونكيرا: يكتُمُ الأنفاسَ، يَحبِسُ الأرزاقَ، يَسُدُّ الآفاقَ.. يُمسِكُ المصائر.

إنّ ردودَ الأفعالِ تضاهي أو تجاوزُ الأفعالَ.

ثمّ يأتي مَن يحدّثُك، إصرارًا وإنكارًا، عن تدخّلاتٍ ومؤامراتٍ، يحدّدُ بها الذّنوبَ. ولكنْ، هل للرّيحِ أن تَنفخَ ببيتٍ، إنْ كان البيتُ حصينا؟!

إنّ الشّعوبَ جميعَها ساعيةٌ إلى مصالحِها أوّلاً، بالحُسنى أو غِلابا. فبئسَ مَن لا يَحسَبُ لهذا الأمرِ حسابا.. ويروحُ يَكيلُ الاتّهاماتِ ويُلقي السِّبابَ. بل بئسَ الّذي يفاضلُ ما بين شعبٍ ونظامٍ، وكأنِ الشّعوبُ للأنظمةِ، وليس العكسُ صحيحا.

ويَمضي الغَويُّ في غَيِّه، يَرجمُ في الغيبِ ويَزجرُ من الطّيرِ الأَشأَمَ.. يُنذِرُ يحذّرُ من حقٍّ يُرادُ به باطلاً، من شعاراتٍ وشعائرَ تَسقطُ على حدِّ اللحيةِ والنِّقابِ، من ردّةٍ تَقتلُ بالحَرفِ... وإنّه بالحقيقةِ حقًّا يَنطِقُ، لو لم يكن وراءَ الأكمةِ ما وراءها من تَذاكٍ قُصاراهُ أن يَعمى ويُعمينا!

إنّ البثورَ في البدنِ من فسادٍ في الدّمِ، وعلّةُ المعدةِ مرورةٌ في الفمِ.

بلى. تتأخّرُ الفصولُ، لكنّها تصلُ (عغفلة بيوصل الربيع اللي جايي). والطّبيعةُ، في سرِّها كيمياءُ الدّيمومةِ والتّعويضِ.. حدوثِ ما يجبُ أن يَحدثَ، ولا يمكنُ إلاّ أن يَحدثَ.

ولكنّ التّأخّرَ يولّدُ الانحباسَ والاحتقانَ.. يورثُ الانفجارَ...

وعليه،

ما كان على أحدٍ، والتّاريخُ شاهدٌ، أن يتوقّعَ إلاّ انتصارَ الشّعوبِ على أنظمتِها، مهما عَتَت هذه الأنظمةُ ورَبضت. بل على قَدْرِ معاندتِها تكونُ مواجهتُها. فتنداحُ طاحونةُ الهلاكِ ويَعظُمُ جَرشُها.

وإذا صحَّ الزّعمُ أَنّ الأيديَ الغريبةَ تريدُ تتلاعبُ، فلماذا نكونُ لأيديها اليدَ؟ لماذا نمسكُ بالطّرفِ الآخرِ للمنشارِ؟ لماذا لم نتركْ لمن منّا كان يريدُ... أن يريدَ...؟ ولماذا لا تنبري النّخوةُ إلى إصلاحٍ إلاّ في مَخاضةِ الأزماتِ العسيرةِ، فتُغدَقَ وعودٌ، وتُبدى تَعِلاّتٌ، ويُسدى العفوُ والنّصحُ؟

أما نعلمُ أَنَّ الحريّةَ لا تستأذنُ أحدًا ولا تستصعبُ شيئًا، وأَنَّ الكرامةَ تهونُ دونَها كلُّ التّضحياتِ، وأَنّ الوقتَ إذا فاتَ أَماتَ ولا شيءَ يدومُ؟! فكم كان حَريًّا بالمعنيّين أن يَحذَروا غضبةَ الحريّةِ والكرامةِ وأحكامَ الوقتِ المولّي!

أمّا ظاهراتُ التّطرّفِ فهي من تَخلُّفٍ هم صُنّاعُه، يومَ لم يمهّدوا طريقًا إلى المواطَنةِ المواطَنةِ في التّشريعِ وفي الشّارعِ، بل انبرَوا إلى تقطيعِ أوصالٍ ورفعِ أسوارٍ.. وعاثوا بالأرضِ فسادا...

فلن يجديَهم نفعًا أَنْ بهذه الظّاهراتِ (المحدودةِ.. والبلا أفقٍ حتمًا في عصرِ العولمةِ) يهوّلون، وإنْ تستدعي العلاجَ العاجلَ لئلاّ تستشريَ مقابضُها في كلِّ شاردةٍ وواردةٍ وتَقلِبَ للمُرتجى ظهرَ المِجَنِّ.. تؤخّرَ مجيءَ «الملكوت».

لا. ليس بالتّدميرِ يُؤتى بالتّغيير. هذا هو المبدأ. ولكنّ التّغييرَ لم يأتِ يومًا إلاّ على جسرٍ من التّدمير. هذا هو الواقع. وما بين المبدأ والواقعِ بورصةُ دماءٍ؛ حيالَها، لا تستطيعُ أقلامُنا أن تداهنَ وتواربَ.. أن تَشهدَ بالزُّورِ.. أن تكونَ أقلامًا خرساءَ.

اللهمَّ، إهدِ النّفوسَ، هدّئَ القلوبَ، نوّرِ العقولَ،.. بلّغِ الايمانَ، لا أشباهَه ولا أصحابَه، إلى كراسينا...

إرعَ ربيعَ العربِ.

georgesmghames.com

حصاد تمّوز: ١٠٨٠ خرّيجًا

رئيس الرهبانيّة الأباتي طربيه مصلّيًا: ربِّ سألتك باسم مريم...

رئيس الجامعة الأب موسى: مركزان جديدان: الأوّل للفكر اللبنانيّ، والثاني أنطاكية للأبحاث والتوثيق

رئيس الجمهوريّة العماد سليمان: للبحث العلميّ، والتكنولوجيا الحديثة، وفكر نهضويّ، والتزام «إعلان بعبدا»



سنةً بعد سنةٍ، وحَصادُ تموزَ أوفر. السّنة ٢٠١٢. خرّيجونا: ١٠٨٠.

بارك َالله!

باركَ اللهُ بهذا البذار. بعضُه بَعدُ للعِلمِ، وبعضُه للعملِ، وبعضُه على أرصفةٍ ما ينتَظرُ...

إنّها الحكايةُ إيّاها. وليس في اليدِ إلاّ ما في اليدِ: تزهرُ الأحلامُ. لكنّها لا تثمرُ. ونظلُّ نتمسّكُ بفسحةِ الأملِ.. بحبّةِ الخردلِ!!

حفلُ التخرّجِ، وكان باهرًا حقًّا. تقدّمَ جمهورَه رئيسُ الجمهوريّة العماد ميشال سليمان، فأضفى من رعايته وكلمته عزمًا وعزيمة، مثنيًا على «ما فعلته الجامعةُ بجدارةٍ طوالَ الخمس والعشرين سنةً المنصرمة».

أمّا أوّلُ الغيثِ فكان صلاةً، رفعها الرئيسُ العامّ للرهبانيّة المارونيّة المريميّة **الأباتي بطرس طربيه**، ليبارك ربُّ الحصادِ الحصادَ:

رَبِّ سألتُكَ باسمِ مريَمَ

أن تحفظَ

رئيسَ البلاد وعائلتَه ومعاونيه، المُحِبِّينَ لكَ،

وغبطةَ راعي كنيستِنا، مؤسّسَ هذه الجامعةِ والشاهدَ للحقّ،

والخِرِّيجين وأهلَهم وكُلَّ الحاضرين، أبناءَكَ الملتمِسين مجدَكَ،

وأن تقدِّسَ رهبانَنا وتُزَوِّدَهُم قوّةَ الشهادَةِ والخدمَة،

وأَنْ تَذُوْدَ عن لبنانَ بِالحَياةِ والسَلام

ضِدَّ إراداتِ السُوءِ وَالحَرْبِ وَالمَوت...

ربِّ سألتُكَ باسمِ مريَمَ

أَنْ تُبارِكَ هذه الجامعَة،

وَتُبارِكَنا جَميعًا.

وَيا مريمُ، يا بتولُ، يا أُمُّ،

إنَّكِ نَجمَةُ الرَجاء، عَلامَةُ النُورِ الآتي،
الْمُرْشِدَةُ إلى الْحَقِّ وَالْحَياةِ في ابْنِكِ يسوع.
أَرْشدينا إلى الرجاءِ، لَيِّني القُلوبَ الْحَجِرَة، سَكِّني قَلَقَ الخائِفينَ مِنَ الْمُسْتَقْبَل، وَازْرعي سَلامَ ابْنِكِ في أوطانِنا ومُجْتَمَعِنا وَجامِعَتِنا،
وَانصُري رؤساءَنا الْمُؤمِنينَ باسْمِه.

إنَّكِ مَلاذُ الْحَقيقَةِ وَمَسْكَنُ الكَلِمَة،
فَاسْهَري على طُلاّبِنا وَعَلِّميهم سَبيلَ الْخَيرِ وَالحَقِّ وَالجَمال،
وَزَيِّنيهِمْ بِهَمِّ التَفْتيشِ عَنِ الْحَقيقة، فَيَلْتَقوا بِيَسوع،
وَيَتَحَرَّروا منَ الظُلْمَةِ وَالعَداوَةِ وَالعُنْصُريَّةِ وَالتَحَزُّبِ الأَعْمى،
فيَرَوا النورَ ويَفْرَحوا، وَيُقَدِّروا الحياةَ ويُدافِعوا عَنْها.

إنّكِ أُمُّ البَشَريَّة.
أَحْني، بِقَلْبِكِ الأُموميّ، عَلى إنسانِيَّتِنا الضَعيفَةِ
الْمُتَخَبِّطَةِ بِأَهْواءِ الْحُروبِ وَالقَتْلِ وَالتَسَلُّط،
وَاجْتَذِبي قلوبَنا إلى التَحَسُّسِ بِحاجاتِ الآخَرِ ومَشاكِلِه،

فَنَكونَ وإيّاهُ، سُعاةَ سَلامٍ وَرَجاء، رُغْمَ القَلَق.

إنَّكِ والِدَةُ السَلام،
فَاشْفَعي لَنا عندَ الإلهِ لِكَي يُحِلَّ سَلامَهُ
في قُلوبِنا فَنَحْيا،
في وَطَنِنا فيُشْفى،
في جامِعَتِنا فَتَنْمُوَ،
في الخرّيجين فَيجدوا الطريقَ، طريقَ الملكوت،
ويُعطوا معنى الحياة، أَبْعَدَ مِنَ النَجاحِ الآنيّ.

إنَّكِ سَيِّدَةُ اللويزة،
أبقي عَينَيكِ ساهِرَتَين على هذهِ الجامِعَةِ:
الطلاّبِ والأساتذةِ والعمداءِ والإدارةِ والموَظَّفين...
وَلْنَخْدُمِ الإنسانَ، كُلَّ إنسانٍ وَكُلَّ الإنْسان، بِحَسَبِ تَوجيهاتِك.

لَكِ الإكرامُ يا أُمَّ النور،
وللإلهِ النورِ الْمَجْدُ إلى الأبَد. آمين

رئيس الرهبانيّة الأباتي طربيه مصلّيًا: ربِّ سألتك باسم مريم...



وبعد ترنيمةٍ، أدّتها جوقةُ الجامعة، صدحَ **الأستاذ سهيل مطر**، نائب الرّئيس للثقافة والعلاقات، بالترّحيبِ شعرًا ونثرًا، قال:

قفوا تحيّةَ حبٍّ، أنتمُ الأملُ ... رئيسَ لبنانَ حيّوا، إنّه المَثَلُ
وهو العمادُ وسيفُ الحقِّ في يدِهِ ... يروي بطولاتِ مَن ضحّوا ومن بَذلوا
من جيشِ لبنانَ جاء، رمزُه شرفٌ ... نجومُه رُصّعت بالدّم تكتحلُ
جنودُه أسدُ حبٍّ من بنادقهم ... يطلّ فجرٌ، به، الأمجادُ تغتسلُ
من صخرنا جُبلوا، يا طيبَ منبتِهم ... فخرُ الجبالِ سؤالٌ: أينا الجبلُ؟

***

يا سيّدي، ها هم، أبناؤك نُجُمٌ ... شعّت، ونحن بهم، نسمو ونحتفلُ
من كلّ لبنان جاؤوا، العزّ وقفتهم ... وفي العيونِ تلاقى الحبُّ والمُثُلُ
الزّوقُ، برسا، ومن ديرِ ليشعَ هُدىً ... عرسُ اللويزة، في الأفراح، يكتملُ
إنظرْ اليهم، شبابًا، كالسيوفِ إبا ... أمّا الصبايا، ففي الأخلاق قد جُبلوا
لم يركعوا ركعةً إلاّ لخالقهم ... إلاّ بعطرِ شميمِ الأرزِ ما ثَملوا
ما قدّسوا صنمًا، ما دنّسوا وطنًا ... ما مزّقوا لحمة التاريخِ، ما قَتلوا
بصوتي، اليوم، صوتٌ واحدٌ أبدًا ... أهلًا بكم، وليتغاوَ الأرزُ والجبلُ

***

يا سيّدي، يا ابنَ أصلٍ، طابَ منبتُه ... أعراقُ عمشيتَ بالتاريخِ تتّصلُ
عزٌّ لأمّته مَن سيفُه شرفٌ ... لا مَن يحالفُ مَن باعوا ومَن قَتلوا
نورٌ لأمّته من كفّه قَسَمٌ ... لا مَن يكذّبُ حتّى خانه الخجلُ
مجدٌ لأمّته من ردَّ مرتحلاً ... لا من يوطّن شعبًا وهو يرتحلُ

***

بالروح، بالدم، لا لن نهتفَ أبدًا ... بالروح بالدم بالأعصاب تشتعلُ
نفدي بلادًا، ولا نفدي رجالَ دُمىً ... وجوهُهم بسوادِ الشرِّ تكتحلُ

***

قادوا بلادي إلى فوضى رعونتهم ... واستثمروا عصبَ الطلاّب ما خجلوا
ويلٌ لهم، عارُهم أنّ طوائفَهم ... كلٌّ يغنّي، وبلياه ينشغلُ
مصالحُ، زمرٌ، أخلاقُهم وطئت ... أوطانَهم بقروشِ الذلّ تختزلُ
إغفرْ لهم، لا، لماذا أنت ترحمُهم؟ ... يدرون هم كلَّ ما راموا وما فعلوا

***

يا أصدقائي، وداعًا، لا نحن هنا ... نبقى، وأنتم، حنايا القلبِ والقُبَلُ
وتهجرون؟ لا، لن تهجروا أبدًا ... من أرضِ عزٍّ، شبابُ الأرز ما رَحلوا
دُقّوا القلوبَ، اسمعوا أصداءَ لهفتها ... من يسكنِ القلبَ لا يحلو له بدلُ
وإن وجعتم فهذي الأمُّ تحضنُكم ... لويزةُ النور، للعذراءِ تبتهلُ
هذي شهاداتُكم بالحبّ نكتبُها ... رئيسُ، وقّعْ هنا: حُيّيت يا رجلُ



أهلاً بكم، ومرحبًا في جامعة سيّدة اللويزة

ويا أيّها الخرّيجون

هذه العيون التي تنظر إليكم، هل تدرون كم سهرت وكم تعبت وكم سكبت من دموع، وكم هي اليوم، تبتسم لكم وتفرح. صفّقوا معي تحيّة محبّة وشكر لهؤلاء الأهل والأحبّاء.

ألف ومئة خرّيج وخرّيجة، ألف عرس، ألف قبلة.

مئة طالب وطالبة يحملون لون الجبل، بشوفه ودير القمر. مئة آتون من الشمال، من فرع برسا، مكلّلين بالأرز والزيتون. وتسعماية، من هنا، من أرض اللويزة وذوق مصبح، وقل: همُ جيل العلم والحريّة والغضب الواعي.

باسمهم، أرحّب بكم. وباسمهم أقول: غدًا يوم آخر. ولكنّنا لن نقول أبدًا: غدًا وطن آخر.

تفكّرون بالسفر؟

أجل، عندما يتحوّل الوطن إلى بارودة صيد أو كاتم صوت أو قفص، تحمل العصافير حقائبها وترحل. تخاف على أجنحتها والأحلام أن تتكسّر.

لا، أيّها الأحبّاء قدرُ العصافير أن تتشاجر مع الأقفاص.

سنبقى هنا، مع فخامة الرئيس، ومع هؤلاء الضيوف والأصدقاء. ومهما اسودّت الآفاق وظلُمت الدنيا وكثُرت الدواليب وانتشر قطّاع الطرق، لن ندع جواز السفر ينتصر على بطاقة الهويّة في معركة الانتماء والارتباط بهذه الأرض.

ويا أيّها الخرّيجون والخرّيجات

أنتم بُناةُ هذه الجامعة، فجامعتكم صُنعت في لبنان، لم يصنعها فرد، مهما بلغ شأنه، بل صنعتها هذه المجموعة من الرهبان بقيادة الأب العام بطرس طربيه وهؤلاء الأساتذة والموظّفين وهذه الكوكبة من الطلاّب والخرّيجين... حافظوا عليها، وكونوا لها ومعها.

لقد علّمناكم، سنواتٍ وسنوات، نحن وأهلُكم والمدارس. اليوم أقول لكم: علّمونا.

علّمونا أنّ صناعة المستقبل لا تكون بالثرثرة، وبعبارة يجب، وينبغي، وعلينا... بل بالعمل الواعي الخلاّق.

علّمونا أنّ لبنان- الوطن ليس مجموعة دويلات وشعوب وطوائف، بل هو لبنان الواحد الحرّ.

علّمونا أن لا عَلَمَ يجب أن يرتفع فوق العَلَم اللبنانيّ.

علّمونا أن نكون جسورًا، لا أن نكون جدرانًا.

علّمونا أن بجنون الحبّ نبني ما هدمناه بجنون الحقد والأنانيّة.

نحن فخورون بكم، ومغفور لكم الشغب والعناد والتمرّد والخطايا البيضاء. نريدكم رسلاً للجامعة، مرآةً لها، صورةً عنها. وتأكّدوا دائمًا أنّنا نحبّكم وسنبقى نحبّكم.

ولهذه الجامعة نقول:

وازرعين بالوعر... أرز وسنديان

ملوا الزمان، وقوليلهم لبنان... من بعد الله، يعبدوا لبنان.

رئيس الجامعة الأب موسى:
مركزان جديدان:
الأوّل للفكر اللبنانيّ،
والثاني أنطاكية للأبحاث والتوثيق



رئيس الجامعة الأب وليد موسى شكرَ للرئيس سليمان مشاركتَه الطلاّبَ وأهلَهم الفرحَ والاعتزاز، ثمّ ألقى بعضَ الضوء على بعض ما هو واقعُ الجامعة ومرتجاها:

خمس وعشرون سنة، مضت، كأنّها لحظة عبرت... وها هي الجامعة، إنسانًا وطبيعة، ترحّب بكم، وتفتح ذراعيها لاستقبال فخامة رئيس البلاد، يطأ هذه الأرض، ويلبّي بحبّ، هذا الحفل اليوبيليّ وهذا التخرّج، وهو، لأوّل مرّة، في تاريخ ولايته، يرعى تخرّجًا، قائلاً: هم أيضًا أولادي، وكما خرّجت أولادي، أحبّ أن أشاركهم وأهلهم، الفرحَ والاعتزاز. هؤلاء أبنائي فجئتني بمثلهم. فشكرًا، فخامة الرئيس، تصل، منذ ساعات، من باريس، لتكون مع هذه الجامعة، ومع

هؤلاء الخرّيجين، وهذا ما يشرّفنا ويدفعنا أكثر إلى متابعة الطريق، والى مخاطبتكم، بفرح:

هذا هو لبناننا الجديد، يا ليت عيونهم تتحوّل إلى مرايا فلا نرى إلاّ العزم والبراءة والطيبة والعلم.

وحيث أنّنا في يوبيل فضّي، لا بدّ لي، من أن أضعكم، فخامة الرئيس، وأضع الأهل الأحبّاء، في أجواء الوقفة النوعيّة التي نقفها اليوم:

١. عدد طلاّبنا، يقارب ٧٠٠٠ طالب، وعدد اختصاصاتنا يناهز المئة اختصاص، وعدد أساتذتنا وموظّفينا يقارب الألف...

ذكرتُ هذه الأرقام، لأقول، وبكلّ صراحة: العدد مهمّ، هذا صحيح، ولكن الأهمّ هو النوعيّة. والنوعيّة التي نريد، هي نوعيّة النفوس والعقول، ولا نميّز بين هويّة وأخرى. وهذا ما سنعمل له، بجديّة، مؤمنين أنّ وطننا يزخر بالمتعلّمين... ولكن، ليس المهمّ أن نتعلّم، المهمّ أن نستوعب العلم ونوظّفه في خدمة الوطن؛ كيف؟ في نشاطنا اليوميّ والمهنيّ، وفي كلّ ما نقوم به، في الشركات، في المؤسّسات، في المهن الحرّة، في الإدارات الرسميّة والخاصّة، في عداد القوى العسكريّة، في المجالات المختلفة التي يدعونا إليها الواجب. هؤلاء الخرّيجون، ندفعهم دمًا جديدًا، في شرايين هذا الوطن. أملُنا أن يكونوا بذور الرقيّ والقيم والتقدّم.

٢. في السنة الماضية، تحدّثت إليكم، عن موضوع الاعتماد Ac-creditation، وهذا يعني أنّ جامعتنا تعمل على التميّز، بمناهجها وأساليبها وتجهيزاته وقوانينها. لقد قطعنا شوطًا كبيرًا في هذا الشأن، وآمل أن أنقل إليكم في السنة المقبلة بشائر هذا الاعتماد الذي يضعنا في مصافّ الجامعات العالميّة الكبرى، ويضمن جودة التعليم. وبهذا نؤكّد على الفكرة السابقة: ليس المهمّ عدد الجامعات، بل نوعيّة هذه الجامعات وجودتها.

٣. إنّ التكنولوجيا الحديثة ووسائل الاتصال، جعلت من عالم المعلومات عالمًا متاحًا لكلّ إنسان، ولاسيّما للتلامذة والطلاّب الذين يستطيعون أن يحصلوا على المعلومات، بسهولة ويسر، ما عرفناهما في أيّام دراستنا. لهذا، نحاول، أن نجمع إلى التعليم عامل البحث والحوار والإبداع. الأنصاب التي ترونها على مدخل الجامعة، هي نموذج لعملنا الثقافيّ، واحتفالنا مع كلّ لبنان بمئويّة ولادة الشاعر الكبير سعيد عقل، هو نموذج آخر، لما يمكننا أن نقوم به، لإخراج طلاّبنا من مستنقع السياسة وأوهام الفراغ. ولهذا فإن قرارنا الجامعيّ سيعتمد على تعزيز مراكز البحث وتنويعها، وقد مهّدنا، حديثًا لإنشاء مركزين جديدين: الأوّل للفكر اللبنانيّ، بجميع وجوهه ومراحله، وسنعهد به إلى أحد

كبار أدبائنا ومفكّرينا، أمّا الثاني فهو مركز «أنطاكية» للأبحاث والتوثيق، بحيث نجسّد مفهومنا الأنطاكيّ بما ينسجم مع رؤية سيّد بكركي أبينا البطريرك مار بشارة بطرس الراعي. وهذا سيكون هديّتنا إلى صاحب الغبطة.

٤. إنّ الإبداع ليس حكرًا على اختصاصات معيّنة؛ ففي الفروع العلميّة كما في الفروع الانسانيّة، يمكن التطلّع إلى قضايا إبداعيّة، حتّى في الشؤون السياسيّة، وكم نحن بحاجة إليها، إلاّ أننا نعتبر أنّ موضوع الفنون: كلّ الفنون المرئيّة والمسموعة والمكتوبة، هي الأكثر إشراقًا ولمعانًا. ولهذا، ترون في الجهة المقابلة، هذا البناء الجديد الذي نأمل الانتهاء منه، في الخريف القادم، ليكون مقرًّا لكليّة الفنون والعمارة والتصميم، إلى جانب فنون عريقة أو مستحدثة. وهذا المبنى يعتبر «عيّنة» عن مبانٍ متعدّدة، نخطّط لبنائها، مع كليّات جديدة، ولا إحباط أو يأس؛ فإن كان البعض يهدم، فنحن نعمّر، ولا شيء يمنعنا من متابعة الطريق، أو ضياع البوصلة. وهذه، وبصدق، توجيهات فخامة الرئيس.

٥. إنّ فرعي الجامعة في برسا- الكورة، وفي دير القمر- الشوف، هما، بالنسبة إلينا، كما هذا المركز، من حيث الاهتمام والتجهيز والمستوى التربويّ. ونحن نعمل بجديّة ونشاط مع الآباء المسؤولين والجسمين التعليميّ والإداريّ، على دعم هذين الفرعين، بحيث يكونان، بالفعل والحضور الثقافيّ، مركزين لأهل الفكر والبحث والمجتمع.

٦. إنّ الضجيج السياسيّ والضباب الأمنيّ وملامح سقوط نظام القيم والأخلاق، يدفعنا، أكثر فأكثر، إلى الاهتمام بالشخصيّة الانسانيّة للطالب المنتسب إلى الجامعة. وهذا ما سنعمل عليه، معكم أيّها الأهل، أخلاقيًّا وثقافيًّا وروحيًّا، في السنة المقبلة. ويا فخامة الرئيس، نحن نقدّر معاناتكم في هذه الظروف، وسنتّخذ من كلمتكم، اليوم، أمثولة نحاول أن نفعّلها في نفوس خرّيجينا ونعمل على تعزيزها، بعيدًا عن التعصّب والطائفيّة والشعارات الفارغة.

لن أطيل أكثر، ولكنّني أكتفي بالتهنئة، شاكرًا جهود جميع المسؤولين في الجامعة: المجلس الأعلى برئاسة قدس الأب العامّ بطرس طربيه ومجلس مدبّريه، مجلس الأمناء برئاسة الدكتور فرنسوا باسيل وأعضائه الكرام، نوّاب الرئيس، العمداء، الآباء والمديرين، الأساتذة، الموظّفين، ومحييًا الأهل على جهودهم وتضحياتهم، مؤكّدًا لكم أيّها الخرّيجون: أنّنا فخورون بكم، أنّنا فرحون بكم، أنّنا نراهن عليكم، أنّنا نؤمن بكم سفراءَ لهذه الجامعة في المجتمع، وأنّ ١٣ تمّوز، اليوم، هو عيد لنا ولكم. الله يوفّقكم.

عشتم، عاش الرئيس سليمان، وعاش لبنان.



ضيفُ الشرف وخطيبُ الاحتفال، رئيس الجمهوريّة العماد ميشال سليمان، هنّأ الجامعة بعيدها الخامس والعشرين، آملاً في أن تتمكّن من تخصيص مساحة أوسع للبحث العلميّ والابتكار، ومن إنشاء اختصاصات في مجالات التكنولوجيا الحديثة وتقنيّات استثمار النفط والغاز خصوصًا. ثمّ دعا أهلَ الرأي إلى بلورة فكر نهضويّ، والجميعَ إلى التخلّي عن ارتباطاتهم أو رهاناتهم الخارجيّة والتزام «إعلان بعبدا»... قال سليمان:

حضرة رئيس الجامعة، أيّها المتخرّجات والمتخرّجون، أيّها الحفل الكريم، هنيئًا لجامعة سيّدة اللويزة عيدَها الخامس والعشرين، ونحن، وإن كنّا نحتفل اليوم ببهجة وبهاء، باليوبيل الفضيّ لهذا الصرح التربويّ والأكاديميّ العريق وبتخرّج ألف طالب من طلاّبه الأعزّاء للسنة الدراسيّة ٢٠١١-٢٠١٢، فإنّنا ندرك جيّدًا أنّه لا يسعنا فصل الجامعة بطبيعة الحال عن بيئتها، وعمّا يحوطها من

أحداث، وعن الواقع السياسيّ والأمنيّ والاقتصاديّ والاجتماعيّ الذي يطغى على نفوس الناس وهمومهم.

وإذا كان من الطبيعيّ أن تتأثّر الجامعة بهذه الأحداث، فإنّه يُؤمل منها دومًا، في أن تؤثّر بدورها في الحراك الوطنيّ، وأن تدفع بالمسار الفكريّ والعمل السياسيّ باتجاه بلورة رؤى مشتركة، مبنيّة على الروح الوطنيّة والقيم، وعلى مجموعة مبادئ ونظم تساعد في تحقيق العدالة والسلام والتنمية البشريّة المستدامة.

وهذا ما فعلته جامعة سيّدة اللويزة بجدارة، من خلال الندوات والمؤتمرات والأنشطة العديدة التي نظّمتها، طوال الخمس والعشرين سنةً المنصرمة، إضافةً لالتزامها الدؤوب برسالتها التربويّة، وعملها الدائم من أجل خير الشبيبة والطلاّب، ونضالها المشهود في سبيل الاستقلال والسيادة والحريّة وحقوق الإنسان.

وهي ستكون مع كلّ لبنان شهر أيلول المقبل، في استقبال قداسة البابا بينيديكتوس السادس عشر، الذي يقوم بزيارة رسميّة ورعويّة للبنان، لنثبت مجدّدًا أنّ لبنان هو رسالة حريّة وعيش مشترك، لا مجرّد بلد كغيره من البلدان، كما دعانا من حاريصا الراحل الكبير الطوباويّ يوحنّا بولس الثاني.

رئيس الجمهوريّة العماد سليمان: للبحث العلميّ، والتكنولوجيا الحديثة، وفكر نهضويّ، والتزام «إعلان بعبدا»

أيّها الأعزّاء،

اليوبيل الفضيّ لجامعة سيّدة اللويزة مناسبة طبيعيّة للإعراب عن التقدير للآباء المؤسّسين على شجاعتهم ورؤيويّتهم وإقدامهم، برعاية من الكنيسة الأمّ، التي حرصت منذ القدم على إحاطة أبنائها بالخير ودفعهم باتجاه مقاصد العلم والفضيلة، وتقدير مماثل للّذين توالوا على إدارة هذه الجامعة العزيزة والقيّمين عليها، وعلى رأسهم، منذ انطلاقتها، صاحب شعار شركة ومحبة ابن الرهبانيّة المريميّة غبطة البطريرك مار بشارة بطرس الراعي، وقدس الأب العامّ بطرس طربيه ومجلس المدبّرين، ومجلس الأمناء، والرئيس الحاليّ الأب وليد موسى، لبعد نظرهم وحرصهم على التوسيع والتحديث ورفع المستوى التربويّ والأكاديميّ لـ NDU، بدعمٍ من محبّيها وأصدقائها في لبنان ودول الانتشار. وقد أصبحت جامعتكم من أوسع الجامعات وأكبرها مساحةً وأحسنها تجهيزًا، في موازاة جودة بنائها الإنسانيّ الداخليّ.

آمل بهذه المناسبة أن تتمكّن الجامعة في لبنان من تخصيص مساحة أوسع للبحث العلميّ والابتكار، والعمل على توفير الإمكانيّات اللازمة لذلك، بدعم من الدولة ومن القطاع الخاصّ، وأنتم تعلمون أنّ الدول المتقدّمة تخصّص ما بين ٢ و ٤ بالمئة من ناتجها الوطنيّ الإجماليّ لأغراض البحث العلميّ.

وإنّي على يقين أيضًا بأنّ الجامعة ستحرص كذلك باستمرار، على إنشاء فروع واختصاصات تتلاءم مع الاحتياجات الفعليّة لسوق العمل، وخصوصًا في مجالات التكنولوجيا الجديدة والسياحة والزراعة والصناعة وتقنيّات استثمار النفط والغاز، بحيث لا تشكّل هذه الاختصاصات جوازات سفر أو تأشيرات خروج للهجرة والاغتراب، بل حافزًا للتشبّث بالوطن وعدم بيع الأرض التي ورثناها عن الأجداد، مع العلم أنّ الدولة تعي ما يقع على عاتقها من مسؤوليّة في هذا المجال، وهي ستمضي قدمًا في الإجراءات الآيلة إلى استثمار ما تختزنه مناطقنا البحريّة من ثروات طبيعيّة، وإقرار مشروع قانون اللامركزيّة الإداريّة، إلى غيرها من المشاريع المحفّزة للنموّ الاقتصاديّ وللإنماء المتوازن للمناطق.

أيّها الحفل الكريم،

نعيش منذ العام ٢٠٠٨، وللمرّة الأولى منذ العام ١٩٧٥، سنوات متتالية خالية على السواء من الاقتتال الداخليّ، ومن الاحتلال الإسرائيليّ لمعظم أراضينا، ومن أيّ وجود عسكريّ أجنبيّ، ما عدا ما تضطلع به قوّاتُ الأمم المتحدة العاملة في الجنوب من مهمّة حفظ سلام، مع تسجيل ارتفاع مطرّد في نسب النموّ الاقتصاديّ لغاية عام مضى.

ومع ذلك، أعلم ما يعتمل في نفوسكم ونفوس المواطنين من مخاوف وهواجس بشأن أمنهم وسلامتهم وكيفيّة توفير سبل العيش الكريم لأبنائهم، في ضوء ما شهدته الشهور الماضية من توتّر وتفلّت نعمل جاهدين على ضبطه وكشف ملابساته.

وأعلم ما يتداوله الناس من انتقاد للدولة والسياسيّين، وقد تدنّى الخطاب السياسيّ، وحال الوقت المستهلك لتشكيل الحكومات المتتالية والتناقضات والتجاذبات في داخلها، دون تحقيق العديد من الوعود الواردة في بياناتها الوزاريّة، في ظلّ عدم كفاية الصلاحيّات وملاءمتها مع مسؤوليّات رئيس الدولة لتمكينه من الدفع بالقرارات والأمور باتجاه ما قد تقتضيه الظروف من حسم.

وبالرّغم من ذلك، فإنّ البكاء وجلد الذات لا يليق بشعب أبيّ، مكابر، شجاع؛

والاكتفاء بالانتقاد وبإلقاء اللائمة على الآخرين، لا يجدي ولا يفيد، فليتحمل كلّ فرد من أفراد المجتمع، وكلّ مكوّن من مكوّنات الدولة والوطن، مسؤوليّاته في هذه المرحلة المفصليّة من تاريخنا. وليقدم أهل الرأي على بلورة فكر نهضويّ واقتراحات حلول، تساهم بإخراج النظام السياسيّ ممّا وقع فيه من مآزق على صعيدي الممارسة وتوزيع الصلاحيّات. ولتعمد أجهزة الدولة من جيش وقضاء وهيئات رقابة على فرض سلطة القانون على كلّ مخالف أو مرتكب، بغطاء كامل، من أهل الحكم وأصحاب القرار، على ما هو مفترض، وكما أدعوها لذلك وأحضّها عليه. وليمارس الشعب حقّه في المساءلة والمحاسبة، ما دمنا ننعم بنظام ديموقراطيّ يضمن الحريّات ويسمح للمواطنين بإعادة تكوين السلطة بصورة دوريّة وسلميّة، في وقت تنتظرنا فيه استحقاقات دستوريّة جديدة، عامي ٢٠١٣ و ٢٠١٤، سنلتزم بها.

كما أتطلّع لأن أراكم أيّها الشابّات والشبّان، تمارسون حقّكم في الانتقاد والمساءلة والاعتراض، وتلتزمون واجبكم في الاقتراح والاقتراع، ولا تلوموا السياسيّين الذين سمحتم بانتخابهم، فساوموا أو استهانوا بمصالحكم ومستقبلكم، إذا ما تقاعستم أنتم عن أداء واجبكم الانتخابيّ، أو إذا لم تحسنوا اختيار الأجدر والأشرف من بينهم.

أمّا الفتنة التي يخشاها البعض فليس لها من أفق سياسيّ موضوعيّ في لبنان، ما دمنا توافقنا في الطائف على مشاركة متوازنة في السلطة لمختلف الفئات التي يتشكّل منها المجتمع، كما توافقنا في «إعلان بعبدا» على دعم الجيش على الصعيدين المعنويّ والماديّ، والتمسّك بميثاق الطائف، وتحييد أنفسنا عن سياسة المحاور والصراعات الإقليميّة والدوليّة، وعدم السماح باستعمال لبنان مقرًّا أو ممرًّا أو منطلقًا لتهريب السلاح والمسلّحين، والتزام قرارات الشرعيّة الدوليّة، واستمرار السعي للتوافق على استراتيجيّة وطنيّة دفاعيّة ومن ضمنها موضوع السلاح من مختلف جوانبه.

وأخيرًا، حان الوقت ليتخلّى الجميع عن ارتباطاتهم أو رهاناتهم الخارجيّة ويلتزموا «إعلان بعبدا» ويجاهروا به ويدافعوا عنه، ولا داعي تاليًا لخوف محبط ومربك، بل عزم وإرادة وتصميم على عدم الوقوع في شرك الفتنة، وهي لن تقع، وحرص على مواصلة الحوار وإعادة بناء جسور الثقة بالدولة وتعزيز بنيانها ومؤسّساتها الضامنة الوحيدة للعدالة والوحدة الوطنيّة والانتظام العامّ.

وفي خضمّ التحوّلات التي تجري في محيطنا العربيّ، فقد حان الوقت ليقطف لبنان ثمار نضال شعبه من أجل الحريّة والديموقراطيّة. حان الوقت ليخرج لبنان من كونه ساحة تتصارع عليها الأمم... أو ساحة تجارب للأصدقاء والأشقّاء...

حان الوقت لعودة لبنان جامعة الشرق الأوسط ومشفاه، ورسالة سلام وحوار وثقافة ومحبّة، وفقًا لما كان ولما يجب أن يبقى عليه.

أيّها المتخرّجات والمتخرّجون،

تحتفلون في هذا الصرح الجامع، مع من يحوطكم من أهل وأحبّاء، بنجاح أحرزتموه بجهدكم ومثابرتكم، وتستعدّون للانتقال إلى مرحلة جديدة من مراحل التفاعل مع الحياة، بما تحتويه من تحدّيات وآمال، متسلّحين بالمعرفة والعلم، والإيمان.

فهنيئًا لكم هذا الإنجاز، وتنبّهوا إلى أنّ مساركم الجديد يتطلّب مواصلة تحصين الذات بالثقافة والخبرة والتأهيل وتطوير المعارف والمهارات.

وفي زمن العواصف والتقلّبات، ستحتاجون إلى الحكمة والتبصّر، بمقدار ما ستحتاجون إلى شجاعة الشباب وإقدامه.

حسبي أن تتذكّروا أنّ الثقافة الإنسانيّة الحقّة، الضامنة للنجاح والهناء، هي تلك التي تسمح للأفراد والمجتمعات المتقدّمة والمستنيرة، بتلافي الوقوع في دائرة خطرين متوازيين: خطر التطرّف وخطر اللامبالاة أو الانطواء على الذات، وأعلم كم تركّز جامعتكم على أهميّة «الشخصيّة الثقافيّة» التي يحملها طلاّبها.

أقدموا بذكاء إذًا، وبكثير من الشجاعة والحكمة.ومع انفتاحكم على الحداثة، لا تتخلّوا عن مجموعة التقاليد والقيم الروحيّة والأخلاقيّة والعائليّة والوطنيّة التي صقلت ذواتكم ومكّنت الشعب اللبنانيّ عبر التاريخ من التماسك والصمود والمحافظة على كيانه وخصوصيّته وعنفوانه.

حافظوا على إيجابيّتكم وعزمكم والإيمان، وضعوا نصب أعينكم مصلحة لبنان، ولا تدعوا مصلحة تعلو عليها كما لا تعلو شجرة على شموخ الأرز .

عشتم

عاشت جامعة سيّدة اللويزة

عاش لبنان.

وها هنا، بعدُ، كلمةُ طليعة الخرّيجين **كريستينا عصفور:**

Christina ASFOUR
Financial Engineering
Valedictorian of Class 2012

A couple of years ago, the University of Georgia granted me the Georgia Rotary Scholarship Award, the GRSP, allowing me one year of study there. At the end of that year, I was chosen among 60 other international scholars to speak on behalf of the GRSP Class of 2010. Tonight, in the cordial presence of the President of Lebanon, I feel even more honored to speak on behalf of the graduating Class of 2012. Allow me to tell you why. remember

When I came back from Georgia, many people asked me, "Why"? Why would I return after all the appreciation I received in Georgia? Why did I not seek an opportunity there given that I have the added benefit of an American Passport?

Tonight I will tell you why. It is simply because no feeling is better than succeeding in your home country. Success, wherever achieved is rewarding, but succeeding in your country has a different flavor, a different taste. It has the taste of home. Deciding to come back was not easy. I knew I was jeopardizing a lot, but as a Financial Engineering student, I knew that nothing was devoid of risk. The difference is that some things are worth the risk while others are not. Returning home was definitely worth it. Standing before you tonight, I know I made the right decision.

I am very proud to be this year's valedictorian, but I am even prouder to be one of the eight hundred success stories that you see before you today and soon to be a NDU Alumni. It was not easy for any of us to accomplish what we did. Some of us have juggled two or three jobs to pay tuition fees. Some of us have spent sleepless nights studying to guarantee that our GPAs would not slip below three point four to ensure that we would still be eligible for a scholarship. And needless to say, all the psychological stress we experienced.

Less than a month ago, due to the unstable political situation in the country, we did not know if we would get the chance to celebrate this night together. In 2006, we did not know whether we would live to see tomorrow. We have been brought up hearing, El balad 3ala kaff 3afrit, Allah yestour [The nation stands on the edge of a cliff, God help us]. But we have all dared to dream, and that is why we are all here tonight. What you see before you is a fruit of unwavering com-



mitment; a commitment for a better tomorrow, for change, and for achievement.

When I was in the States and had to give twenty-three presentations on Lebanon, the one thing I emphasized, and of which I am personally proud, was that Beirut was destroyed and rebuilt seven times. Tonight, Beirut is being rebuilt for the eighth time. In times where our hope could have been easily crushed, we said "no" to failure and "yes" to achievement. If four, five, or six years is what it takes for us to succeed, then these number of years it is. This is the Class of 2012; this is tomorrow. This is the epitome of commitment. I am sure that each of us had a thousand reasons to give up and probably only one good reason not to do so. It is that one good reason that got us here tonight and not the other one thousand. So, as we leave here, let us hold onto our one good reason and be sure to pass it down to the next generation, because we will have the say in whether or not thirty years down the road eight hundred other students will be sitting in our places.

Many people have gone farther than they thought they could because someone else thought they could. Tonight, on behalf of my fellow graduates, I would like to thank every administrator, faculty and staff member, and advisor for their continuous support and smiles. We were fortunate to have such accomplished and dedicated faculty members, who served as mentors to many of us over the years. Thank you NDU for the numerous scholarships that you granted us. Without these scholarships, tonight would not be possible for many. Today is a day of gratitude.

Our journey would not have been complete had it not been for the people who held our hands from the beginning: our parents and our families. They are our silent inspirers, our silent shapers. We are so proud to be their sons and daughters, and we sure hope they feel the same way. A special thank you to my parents, my sisters, my uncles, and my aunt for their

perseverance and personal sacrifices. Without you I would not have been the person I am today.

Tonight we receive our diplomas. In the name of commitment and hard work ,we ask you, Mr. President, not to let our diplomas be our ticket to the Gulf or our ticket abroad, but the ticket to a better tomorrow in our homeland. We have proved that we are capable; and we know we are worthy. Grant us the opportunity and we will not disappoint you.

Dear Colleagues, I would like to conclude with one last thought. Three, four, maybe five years ago when we were finishing high school, our teachers and parents asked us to think about who we want to become. We thought, we decided, and we have achieved. We have become engineers, scientists, nutritionists, teachers, designers, psychologists, programmers, and analysts. Today, I ask you to think about the legacy that you want to leave behind. We might not have the ability to decide whether we live or die, but we can always choose what we would like to leave behind. Your legacy is not only your choice, it is your responsibility. Your Legacy starts today.

Graduating Class of 2012!





Congratulations!

FACULTY OF ARCHITECTURE, ART AND DESIGN

MASTER OF ARTS: DESIGN

Academic Year 2011-2012

MARLYSE BAHJA-CHAMOUN
REBECCA JEAN MOURANI
GHASSAN GHATFAN SAFI

BACHELOR OF ARCHITECTURE

Academic Year 2011-2012

* NESRINE TONI ASSAF
* JEAN ANTOINE AZAR
JAD YOUNES BOU ASSI
* MONA FAWAZ BOUTROS
JOE GHAZI CHAHWAN
RICHARD MELHEM EID
BERNARD JOSEPH ESTANOM
CARLA ANTOINE HOBEICA
GEORGES ANTOINE KHAWAM
* GRACE ISKANDAR MATTA
ROGER ATEF NEAIMEH
SAMI ALBERT RASHKIDI AL
MICHEL IBRAHIM RAYESS
* PAULA IBRAHIM RAYESS
LOUIS CHARBEL SAGHBINI
MELHEM ELIAS SFEIR
JEANNE TOUFIC SUCCAR
LEON MICHEL WAKIM
RAMI ELIAS ZGHEIB

BACHELOR OF ARTS: FASHION DESIGN

Academic Year 2011-2012

* HIBA IBRAHIM EID
** FROZIA NOUHAD KHALIFE
* JOANNA ELIE KHARRAT
MARIANNE GEORGES MALLAH
ROUBA GHASSAN MURR EL
* CHANTALE HIKMAT RAAD

GRAPHIC DESIGN

Summer 2011

RACHEL HAITHAM HADDAD
NADINE MICHEL ISSA
ELISSAR IMAD KHODOR
STEPHANIE VALERIE MANSOUR NEMR
STEPHANIE JOYCE SABBAGH
* NADA GEORGES SOUKI

Academic Year 2011-2012

GEORGES EMILE ABDEL MASSIH
SARAH ANNE JOSEPH ABI DAOUD
DENISE BOURHAN ABOU HAMDAN
LEA GEORGES ABOU RJEYLI
HADY HILAL AKIKI
MUMTAZ SALMAN AL BANNA
NADINE GEORGES ASMAR
* PAMELA ANTOUN AYOUB
ANGELA OHANS BARDAKJIAN
JESSY TANIOS BOU DAHER EL KASSIS
MIRELLA MAKHOUL BOU ZEIDAN
NADINE ANTOINE BOUTROS
* PATIL HRATCH GABOUDIGIAN
MARY GERGES HAGE AL
* RAYA MIKE HILANI
* REEM WALID JOUDIEH
* YARA NAJIB KAL YOUSSEF
NAWAL JOSEPH KARIM
** NICOLAS GIBRAN MAALOUF AL
** DIANA IHAB MALAEB
NADA JIHAD MHANNA
* NOHA GABY MOUZANNAR
RITALIE BADAWI NADER
SARAH SAOUD NASSER
* JOANNE MOUNIR NASSIF
JOANNE ANTOINE RACHED
MARY MICHEL CEZAR RIZK
DOUCE SIMON ROUHANA
EDWINE ANTOINE SAADE
CELINE SAMI SAKR
DANY ADEL SFEIR
PATRICIA CHARBEL TANNOURI
ANGELA TONY WANNA
MARYAM SAAD YOUSSIF MAROUN

INTERIOR DESIGN

Summer 2011

KHALIL JAMIL ABI KHEIR
* RAFKA SAID BOUSTANY AL
HANAYA SALEM NAHLOUS
HABIB AHMAD REDA

Academic Year 2011-2012

°** NOUR RACHAD ABI SAAD
* ATAM MESROB ATAMIAN
** GHADA ASSAAD CORBAN
ANTOINE OSCARE DAOU
NANCY PIERRE KAI
** NOUR ANTOUN KORTBAOUI
RODINE PAUL MANIH
* LEA ANTOINE MATAR
KAREN MOUNIR NASSIF
SABINE EDWARD NICOLAKIS
* JOSEPH ELIAS ZGHEIB

MUSIC-ARABIC MUSICOLOGY

Summer 2011

** WALID MITRI BOU SERHAL

MUSIC-MUSIC EDUCATION

Summer 2011

* PAULA SAID CHALHOUB

MUSIC-MUSICOLOGY

Academic Year 2011-2012

NADIM CHARLES ABS OSTA

MUSIC-MUSIMEDIALOGY

Academic Year 2011-2012

ANTHONY JOSEPH FEGHALI

FACULTY OF BUSINESS ADMINISTRATION AND ECONOMICS

MASTER OF BUSINESS ADMINISTRATION

Academic Year 2011-2012

RACHA MOUNZER HAGE YOUSSEF(EL)
JOELLE BOUTROS MERHEB

FINANCE & ECONOMICS

Academic Year 2011-2012

ROY BOULOS BEAINO AL
JAD SAYED BOU DIB
KARIM NAZIR HAWI
JOSEPH ANTOINE KALAYDJIAN
OLGA MOHAMAD KANJ
ALINE GEORGES KEUSSEYAN

FINANCE

Summer 2011

ZIAD ABDALLAH ABDEL NOUR
DORIS ANTOINE KHOURY

Academic Year 2011-2012

BEDWIN GERGES AL TAWNY
WAEL ADEL AZZAM
KARINA NABIL BADDOUR
JOSEPH BARAKAT BARAKAT
HIKMAT ABDALLAH CHAMMA
EDMOND EPHREM SAID FAROUK
EL KHAZEN
CHARBEL AWAD FAHED
LUCIEN JOSEPH FARRAJ
RITA NAZIH FEGHALI
GHADA ANTOINE FRANCIS
CIBELLE EDWARD HADDAD
SAMIR RAFIC HAMADEH
RACHEL TOUFIC HANNOUN
MARY ANIS HELOU
LAURETTE NOHAD MASSAAD
FATEN FAWZI RADIEDDINE
MONIQUE SELIM RAHY
MIRA YOUSSEF RAIDY
MARLEIN ELIAS SABA
ROUDAINA NAZIH SARIEDDINE
JOSIANE SIMON SEMAAN
EDY BECHARA TANIOS
PAUL ASSAAD TOUMA
HADI ADNAN YAGHI

HOSPITALITY MANAGEMENT

Academic Year 2011-2012

HUSSEIN MOHAMMAD FAKIH
JOSE ANTOINE FEGHALI
ELIE MICHEL SALIBA

HUMAN RESOURCES MANAGEMENT

Academic Year 2011-2012

SAMANTHA NAJI ATTIE
RABIH ANTOINE AZAR
SAMAR ELIAS BOU JAOUDEH
RANA NAKAD CORBANI
AMANDA NAZIH ELIAS
RAYA FOUAD FREM
SANDY ANTOINE GHAOUI
ELIAS SAMIR HALABI
BISSAN WALID ISHTAY
MARISE GERGI KHALIL
FADEL MOSTAFA MAKKI
LISETTE MICHEL MATAR
MAYA JOSEPH MATAR
ELIANE YOUSSEF NOUFAILY
TANIA ANTOINE SALAMEH
MOHAMMED ABDUL RAHMAN YOUSSEF

MANAGEMENT & STRATEGY

Academic Year 2011-2012

RAMY CAMMILLE ABOU ANTOUN
CYNTHIA MICHEL AKL
GEORGES ANTOUN AL ALAM
NAIM MICHEL BITAR
REINA SELMAN BOU NEHME
OTHMAN MOHAMMED BOU ORM
RAMI NIMER BOU SALEH
FADI METRI BOU SERHAL
JOY ROGER BOULOS
JOELLE KOZHAYA CHAMOUN
KHALIL OBEID CHAMOUN
ZIAD YOUSSEF CHEDID
WAJIH AHMED ELTURK
RANIA GEORGES FATHALLAH
HANNA SEMAAN FRANGIEH
ROY RAYMOND GEDEON
ANTOINETTE ELIAS HBALINE
RANA MICHEL KANAAN
ZAHI ANTOINE KMEID
ASHOD KARBIS KRUMLIAN
SHADI SAMIR MADI
JAD ASSAAD MALEK
JALAL MOUHAMAD MOUBAYED-BERNARD
GEORGES BADOUI RAAD
IMAN WEHBE RADWAN
PASCALE SAMI SALAMEH
NICOLAS GEORGES SALIBY
GRACE HANNA SARKIS
NANCY ROGER SAYAH
PATRICK JAMIL SFEILA
JEANINE SALAH YOUNES
MARIA SAMIR ZAGHBOUR
ZIAD HABIB ZIADEH

MARKETING

Academic Year 2011-2012

NASSIM RAHIF ABOU CHAKRA
HOUSSAM NAIM BEAINO
HASSAN ALI BOU KASSEM
GILBERT SAMI CHAMIEH
GHADA PIERRE DERBOGHOSSIAN
IRIS RAYMOND EID
ELISE GEORGES EL BERBERI
KARIM GEORGE ISTFAN
JESSY KAISSAR KFOURY
ROY HENRI MAKSO
PASCALE KHALED MATTA

MANAGEMENT & MARKETING

Summer 2011

CHARBEL GEORGES SALAMEH

Academic Year 2011-2012

MARIA JIHAD CHEMALY
ETIENNE CHAFIC DEMIAN
SAMER FAWZI TEMRAZ
MAYA JOSEPH ZARIFEH

PROJECT & OPERATIONS MANAGEMENT

Summer 2011

ELIE RAYMOND HABRE
MAROUN BASSAM MAROUN

Academic Year 2011-2012

ANTOINE CHARBEL ACHKAR AL
KHALIL ABASS AL AYASH
JULIA MILHEM BOU JAOUDE
RIMA FOUAD EL KHOURY ABOU SAAB
RANA ALI HAJJ EL
FADY EDOUARD HAJJAR
RAFFY GEORGE PARSEGHIAN
MAYA FOUAD RASHED

MBA-MASTER OF SCIENCE IN INTERNATIONAL BUSINESS

Summer 2011

ELIE GERGI HANNA
NICOLE EDWARD JABR
HALIM ANTOINE RICHA -GHOSN

Academic Year 2011-2012

ELIE FADY ABOU SALEH
ELISA TANI ANTAR
MARIA MOUNIR BAYRAM
JOELLE SALAH ELIAS
NADER MOUNIR HAJJ SHEHADEH
ELIAS MELHEM KALLAS
CHARBEL NABIL KIWAN
THERESE EDMOND MAALOUF
JOSEPH SELIM MGHAMES
NIKOLAS ELIE NAMMOUR
RANA ELIE SAAD
NAJI NAZIH SLEILATY
ELIAS FARES YOUNES

BACHELOR OF BUSINESS ADMINISTRATION

Summer 20111

JINANE MICHEL ABDALLAH ABOU JAOUDE
CHRISTELLE PIERRE ABI AAD
ANTHONY SAAD ABI SAAD
RALPH JOSEPH ABOU ARAB
GHENWA RIAD ABOU CHEDID
ELIE NASSIM ANDRAOS
CRYSTAL ANTOINE AOUN
HABIB ROBERT AOUN
MICHEL ROBERT AOUN
GHINWA ASSEF AWWAD
MICHEL NABIL BAHJAT
** PASCAL ADNAN BOU DIAB
KARL RAYMOND CHAHDA
ALAIN CHAHINE CHAHINE
SAMI JOSEPH CHAHINE
* CYNTHIA GEORGE CHALLITA
MABELLE MYRIAM MOHAMMAD CHAMMA
KARIM OUSAMA CHEBARO
FATECK NAJIB CHIDIAC EL
GEORGES TANIOS CHKEIBAN
JOELLE JOSEPH CHUKRI
FOUAD PHILIP DOUEIHY
PAMELA BACHIR EL KHAZEN
ANNA-MARIA EMILE EL-KHOURY
* RAMY CHAWKI EI ASMAR
MARIE AWAD FAHED
** ADRIEN SUHEIL FARAH
ALI MOHAMMAD FARHAT
TONY HAMID FRANGIEH
LAURICE FERNAND GEBRAEL MILAN
TONY ELIAS GHANTOUS
SALIM MAJED GHORAYEB
WASSIM HAMID HACHEM EL
NAJIB FARID HOBEIKA
JAMES JAMIL ISKANDAR
WAEL ELIA ISKANDAR
CARINE TOUFIC JAWAD
* RAY CHEHADE KAZAN
ROY KAMAL KHAWAND EL
BERNADETTE KAYROUZ KHOURY EL
CAMILLE NABIL KHOURY EL
SAMI FADI KORBAN
PIERRE YOUSSEF KOUDEISSI
ARA KAJAYER KOUJANIAN
STEPHANY MOUNIR LAMEH
GEORGES MICHEL MAKHLOUF
ZAHI DAHER MEOUCHY
JOANNE CAMIL MITRI
STEPHANIE JOSEPH MOUSSALLY AL
MARC ELIA NAYIF NEHME
BAKHOS SARKIS NOUJAIM
JESSICA JOSEF RAAD
MANAL ANTOINE RACHED
* JAD NADIM RAYDAN
* NADO BOUTROS SAAB
SAMER KAMAL SADAKA
KARIM MICHEL SFEIR
GEORGES JEAN SPIR
RIMA GHASSAN WEHBE

Academic Year 2011-2012

MICHEL ANTOINE ABBOUD
SERGE MILED ABBOUD
ZAD BECHARA ABBOUD
CHRYSTEL FADI ABDEL NOUR
ELSY TANIOS ABI HANNA
* JOELLE ELIAS ABI LOUTFI
GEORGE JOSEPH ABI RACHED
SARA ELIAS ABI SAAD

MURIELLE MILED ABOU ABDALLAH
JACK RADWAN ABOU ABDO
FADI FADLALLAH ABOU ASSI
AMANI FADEL ABOU CHACRA
MAYSAA JAWAD ABOU DARGHAM
ELIANE GHASSAN ABOU FAYSAL
** JOE NABIL ABOU JAOUDE
PIERRE ANTOINE ABOU JAOUDE
JOE GERGES ABOU KHALED
ANTHONY ADEL ABOU ZEID
JESSICA MARIA ADONIS ABOU-CHEDID
PATRICK ERNEST ACHKAR
SHANT MANUEL AGHBOSHIAN
CHARBEL JOSEPH AKIKI
NANCY MELHEM AKIKI
CHARLOTTE ADONIS AKRA AL
* DAVID GEORGES AL TOUMA
** LAURICE ANTOINE AL-ALAM
NIZAR SOUHEIL ALAMELDINE
NATHALIE IHSSAN AMINE(EL)
ELIO ELIE AOUN
GRACE ANTOINE AOUN
* PAULINE ANTOINE AOUN
SALLY CHARBEL AOUN
RITA FOUAD ARIDA
°***CHRISTINA ANDREA ISSA ASFOUR
RICHARD RICHARD ATALLAH
ELIE ADEL ATTIE
GAELLE MARCEL AVEDIKIAN
MARC CHAWKI AYACHE
CHARBEL JOSEPH AYOUB
* MARIE-LINE PIERRE AZAR
NADER SAMIR BACHA
RASHA GEORGE BADAWI
SARAH EDGARD BARAKAT
** JOELLE ELIAS BARDAWIL
RAFKA SIMON BAROUD
* JOHANNE JEAN BASILE
INGRID JOSEPH BECHARA
ROGER ELIE BITAR
MARIAN GEORGE BOU ASSAF
REINE NAZER BOU CHEBEL
WAEL ADNAN BOU DARGHAM
JOANNA ASSAAD BOU DEBS
YOUSSEF BRAHIM BOU FERRAA
KHALDOUN NAJI BOU HADIR
GEORGE RIAD BOU JAOUDE
LILIAN MOUNIR BOU NASSIF
CAROLINE GHASSAN BOUKHZAM
JOCELINE FADI BOURJI
** MAYA NABIL BOUTROS
JINANE AYMAN BTEDDINY
ALAIN MAURICE CHAAYA
PAMELA PHILIPPE CHAAYA EL ACHKAR
RODRIGUE GEORGES CHAGHOURY
GRACE MILAD CHAHDA
KAREN HALIM CHAMAT
* ELIE JOSEF CHAMI EL
KARL ELIE CHAYEB
VANESSA BOUTROS CHAYEB EL
JEAN-PIERRE JOSEPH CHBEIR
CLARA ANTOINE CHEDID
JAD ANTOINE CHEHWAN
RAYAN TOUFIC CHIBANI

SIHAM HALIM CHIBANI
ELIE PAUL CHIDIAC EL
LAURE NASRI DAABOUL
RAFANIA JOSEPH DACCACHE
NATALIE SAADE DAHER
RABIH GEORGES DAHER
** MARIE RAMZI DAOU
PATRICK FADY DAOU
DESPINA JEAN DARAKJI
ANTOINE YOUSSEF DARGHAM
JOSEPH DANIEL DAYE EL
JACK SARKIS DEMIRJIAN
JAD CHARBEL EID
* JENNIFER FOUAD EL AMMOURY-MAALOUF
STEPHANIE GEORGES EL CHAER
MOHAMAD WALID EL KERDI
** RALPH TALAL EL KHOURY GEAGEA
TAREK NAJI EL MASRI
ELIE GIRGIS EL NAJJAR
JOE GEORGE EL-HAYEK
JACK JOHN EL-KHOURY
MELISSA ROMANOS ELIAS
** HWANA BELLA JEAN FADEL
** BARBARA NABIH FADI
JOSEPH ANTOINE FAHED
ELIAS FARES FARES
MIRELLE ANTOINE FARES
LIBANA GEORGES GEAGEA
SARKIS FERNAND GEBRAEL MILAN
FOUAD ANTOINE GERGES
JAD JOSEPH GHANEM
ROLA NICOLAS GHORRA
WISSAM GABY GHOSN
JOANNA MICHEL HABCHI
***CHANTAL HICHAM HACHEM EL
GEORGES MARCEL HACHEM EL
CHRISTELLE SELIM HADDAD EL
MAHER ASSAAD HADDAD EL
RIWA KAMAL HADDAD EL
SAMER SAMIR HADDAD EL
CHRISTINE KIVORK HAGOPIAN
GARINE HAROUTIOUN HAJIMANOUKIAN
** SAMAH FATHI HAJJAR
ROUBA JIHAD HAKIM EL
EMILE KAMAL HALABI AL
MAKRAM MAZEN HAMADEH
* KHALIL TALAL HAMADI
DIMA FADI HARDAN
JESSICA RAYMOND HELOU EL
MARC YOUSSEF HOBEICA
MANAL ZOUHEIR IBRAHIM
JOE CARLO IGHNIADES
** PIERRE YOUSSEF JABBOUR
RITA MAURICE JAWHAR
JESSY GEORGE JERIES
***SABINE WAFIC KAMALEDDINE
JOSEPH SIMON KANDALAFT
ELIE ROGER KARAMEH
PIA ANTONIO KHALIL
JAD ELIAS KHATER
JOSEPH GHASSAN KHOURY EL
PAMELA DORY KHOURY EL
FADI ELIAS KIK EL

SABINE HAROUTIOUN KISSOYAN
PATRICK SAMIR KIWAN
JOEY JOSEPH KMEID
ANTHONY GEORGES KOLAKEZ
* ELIE JOSEPH KORKOMAZ
* MELISSA ELIAS KOUKOU
MARIA TONY KOZAH
DANY NAKHOUL KREIDY
KRYSTEL JOSEPH MAHFOUD
YARA KAMAL MATAR
YARA SABAH MATAR
HABIB CHARBEL MEDAWAR
** CHRISTELLE YOUSSEF MELHEM
YAACOUB GERGES MHANNA
** TARA GABRIEL MICHAEL
* JOELLE TANIOS MOUALLEM
ELIAS EDMOND MOUANES
* RHEA BOUTROS MOUAWAD
SALIM JOSEPH MOUDABBER EL
* ELSA GHASSAN MOUKARZEL
* MYRIAM NASSIF MOUKARZEL
NAAMTALLAH MOUNIR MOUSSALEM
JAD GHASSAN MOUSSALLY
JEAN SALIM NAJEM
NOUR HOUSSEIN NAJI
CHERYL HALIM NAKAD
***SALMA TALAL NAUEIHED
***MAYA SAMIR NOHRA
SYLVAIN ROBERT OUEISS
RABIH JEAN RADI
JAD GHASSAN RADY
ROMINA GEORGES RAHME
MARIO SAMIR RAMADAN
***RASHA FADI RASHID
ROUBA PHILIPPE RAYESS
MARIANNE JOSEPH RIACHI
** MIRNA MALEK RIMAN
* MAHA JEAN ROUKOZ
* IMAD HANNA SAADE
SAMER SELIM SABA
ELIAS SELIM SABBAGH
JOSEPH RONY SABBAGHA
NAJI ELIAS SAFITI
** RITA BECHARA SAKR
GAIA ISKANDAR SALAMEH
GEORGES ELIAS SALAMEH
YOUSSEF MAROUN SALAMEH
LOULOU GEORGES SALIBA
EDMOND TONY SAMAHA
GABY ELIAS SASSINE
LEA MILED SAYEGH
SAMER SOUHEIL SAYYAH
STEPHANIE NAAMAN SEBAALY
URSULA ABDO SEIF
JOSANE YOUSSEF SEMAAN
HALIM ELIE SERHAN
ROY ANTOUN SHAMOUN
PHILIP CHAFIC SKAYEM EL
PERLA PIERROT SLEIMAN
MARIO FARES SOUFIA
SAID SAMI TABET
ELYSE HAYKAL TANNOURY
SERGE SAMIR TAWIL
** YARA FAYEZ TAWK

AZIZ NICOLAS TOHME
STEVEN VICKEN TOMASSIAN
PAMELA PIERRE TURK
MAKRAM HASSAN WALI-ELDINE
JAD FRANCIS YAGHMOUR
NOHAD ANDRE YAMMINE
RAMY GERGES YAMMINE
MANAL NAJIB YAZBECK
GISELLE LABA YOUNAN
AHMAD GHASSAN YOUNES
* JESSICA PIERRE YOUNES
RYAN ABDO YOUNES
ALEXANDER OSCAR YOUNIS
FREDERIC TANI YOUSSEF
* LAMA RAMZI YOUSSEF
YOUSSEF BOUTROS YOUSSEF
JOVANNA RICHARD ZAKHOUR
RANA ANTOUN ZALLOUM
HIKMAT YAACOUB ZAYOUT
CHARBEL RAYMOND ZEIDAN
** ZEINA GHAZI ZEIN EDDEEN
* PATRICK LOUIS ZEITOUN
SAM AZIZ ZOGHBI
MAHER GEORGES ZOGHEIB
REBAL KAMAL ZOUIENI
EDWARD ZIAD ZOUROB
AMAL SLEIMAN ZWEINI

BACHELOR OF HOTEL MANAGEMENT & TOURISM

Summer 2011

YANA ALI EL-ALI SALOU
TONY ROBERT GEITANY
KRYSTEL MOUSSA GHANEM
CRISTEL CHARBEL MAKHLOUF
MARIO FRANCIS MIR EL

Academic Year 2011-2012

EDWARD ELIAS ABOU MOUSSA
CARL GHASSAN ACHARIAN
SOLTAN GHASSAN BOU DIAB
JANA SHAWKI DANIEL
CHRIS CAMIL DAOU
ANTOINE KAMAL GHANEM
* JOEY GUY GHANEM
WISSAM MELHEM GHIEH
** TAMAR AGOP GUDECHIAN
MARIA NAZIH HAJJ EL
TVINN HRAIR HOVIVIAN
SARY IMAD KHACHOUF
RASHAD MOHAMAD KHODR
CARLA GEORGES KHOURY EL
CARLA ELIAS KOZHAYA
NOUR ELIAS MAZRAANI
IMAD ELIE MOUSSA
MARIE MICHEL NASSAR
** ALISSAR SALIM SALAME
RIMA JIHAD SEMAAN
CHRISTOPHE MICHEL STEPHAN
KARIM BOULOS YAMMINE

FACULTY OF ENGINEERING

BACHELOR OF ENGINEERING: CIVIL ENGINEERING

Summer 2011

GABRIEL TONI ABBOUD
** OMAR IBRAHIM ABOUKASM
RAMY CHARBEL BADAWI
** BERTHE KIRILLOS BOU CHAAYA
ANDREA ROUKOZ EL HAROUNY
ANTOINE JACK HAJARIAN
RAMI JEAN HIFAOUI
JACQUES SAMIR SAGHBINI
DORY JAMIL SALIBA
ADIB GEORGES YAMMINE

Academic Year 2011-2012

NASTASIA NAKHLE ABBOUD
NAGI NICOLAS ABOU ARBID
PAUL GEORGE ABOU JAOUDEH
PAUL ROBERT ABOU MERHI
FIRAS RAFEH ABU RAFEH
ALAIN GEORGES AKIKI
LUCIEN HENRI AKIKI
ALAIN ANTOINE AMM
* NOUHAD NICOLAS AYOUB
MARIE MADELEINE BASSAM BEJJANI
CHARBEL MILED BOU TANIOS
RALPH ANTOINE CHALLITA
ELIE GEORGE CHAMOUN
PATRICK FRANCIS CHEHWAN
ELIAS YOUSSEF DAHER
***KHALIL GEORGES DAHER EL
WASSIM GEORGES DARWICHE
RAJA MILAD DEEB
** JOHN JOSEPH EID
RITA ELIAS EL ASMAR
** MICHEL JALAL EL HACHEM
* ROULA TONY FADEL
JOE ANTONIOS FAKHRY
ELIE CHUCRI FARAH
HICHAM RIZK FARES
ANTHONY MICHEL GHOBEIRA
GABRIEL HANNA HABIB
ZIAD SOUHEIL HAJJ EL
IMAD JOSEPH HAJJAR
STEPHANIE TOUFIC HANNOUN
MUNIR SAAD HANNOUSH
NAIM LOUIS KASSOUF
FRANCOIS ELIAS KHALIL
CHADI CHARBEL KHOURY
ANTHONY ROMANOS KHOURY EL
NADER NAZIH KHOURY EL
SEROP SAMUEL KIZIRIAN
MICKEL ANGE BOULOS KRAYEM
JEAN YOUSSEF LAHOUD
DANY JOSEPH MANSOUR
ANTHONY JACQUES MATTA
PATRICK FOUAD MAYO
ELIE GEORGES MENASSA
* TONI-GEORGES MAROUN MOUBARAK
ELIAS GEORGES NAJEM
ROY NASRI NASR
* RAMY BOUTROS RIZK
RONY YOUSSEF ROMANOS
* ROUDI LOUIS SADDIK EL
ZIAD RAYMOND SLEIMAN
* TAREK CHHADE TAWK
RAMI SAMIR YAACOUB
* VASSILI COSTA YASMINE
* JENNIFER MANSOUR ZEIN
** ELIE SAMIR ZGHEIB

COMPUTER & COMMUNICATION ENGINEERING

Summer 2011

MARIO FARES ABDEL MASSIH
TEDDY GEORGES ABI CHEDID
* FARAH SAMIR ABOU SHAKRA
SANDRA SHAWKI AHMADIEH
BASSEL ROBERT AL HAYEK
ROBERT ELIAS ANTOUN
GEORGES NAIM EL MOUALLEM
** KRYSTELL NICOLAS FARES
** JANE CHARBEL HAJJE
OMAR NABIL MASRY
* HAITHAM SULTAN NASR

Academic Year 2011-2012

***DUNIA FOUAD ABDULBAKI
HADEEL WAJDI ABOU HAMDAN
CARL SAMIR ABOU JAWDEH
GEORGE JOSEPH ABOU SAMRA
STEPHANIE GERYES ACHLAWIT
* CHRISTELLE JOESPH AKKARI
** REEM NABIL ALAMEDDINE
STEVEN CAMILLE BITAR AL
HABIB FOUAD BOUERI
***URSULA CAMILLE CHALLITA
JOSEPH GEORGES CHEIKH WAFA-REHBAN
* AYMAN ELIAS CHIDIAC
** ANGY NAIM EL HAJJ
* SAMAH RAFAAT EL HASSANIE
DANIEL TOUFIC EL-BARMAKI
TONI GEORGE EL-KHOURY
* JULIE ANTOINE FINIANOS
MAROUN CHARLES HABIB
AMER WALID HAMZEH
ELIE MILAD KASSIS
* RAYAN PHILLIP KHNAISSER
** LILIANE ABDALLAH KHOURY EL
MICHEL TONY KOZAH
***JOSEPH FADI LOUTFI
ROY SAMIR MAJDALANI
* OMAR RAYMOND MANSOUR
* JALAL GHASSAN MATAR
** STEPHANIE PIERRE MITRI
* FARAH HANI MONTHER
***RAGHID HEKMAT MORCEL
* SAMANTHA JOSEPH NAJM
** TAYMOUR WALID NARCH
ELIE YOUSSEF NASSIF
SABINE ABDO RICHA
ELIAS MICHEL SAYEGH
GENEVIEVE GEORGES SKAF EL
RITA MILED TANNOUS AL BOUSTANY
* HALA NAJIB THEBIAN
CHARBEL BOUTROS ZIADE

RAMY MAROUN ZIADEH
* MAYSAM REFAAT ZOOR

ELECTRICAL ENGINEERING

Summer 2011

JAWAD JEAN ABI RAAD
** RANINE MAROUN SAWMA

Academic Year 2011-2012

IMAD ATAYA ABDESSATER
JOHNNY TONY AKEL
ANTOINE ANTOINE AMMAR
RACHAD JOSEPH ATALLAH
BERNARD YOUSSEF AYOUB
SIMON JOESPH AYOUB
ELIE BECHARA BOU ASSI
* GEORGES GEORGES CHAHDA
EDDY ABDALLAH DAHER
* LAURA MIKHAEL DARROUS
SAMAH MAHMOUD FAYSAL
JOSEPH NABIL GHOSN
HADI ANTOINE HADID
FIRAS MOUNIR HALABI
GEORGE YOUSSEF HLEIHEL
CHARBEL MICHEL IBRAHIM
YOUSSEF SAMIR ISSA
WISSAM IBRAHIM KAADY
JAD ELIE KARY
TONI NAJIB KEYROUZ
MAZEN SAMIR KIK EL
** JOE AKL TAREK KORBANE
DAVID GEORGES KORKMAZ
* MARWAN ELIE MALKOUN
ELIE CHARBEL MATTAR
** CESAR HANNA MRAD
FRANCOIS TOUFIC MRAD
***GILIO MANSOUR NEMR
RAWAD ANWAR QANSO
* PETER RIZKALLAH SALAMEH
ALAIN NAJI SLEIMAN
RICHARD GEORGE TABANJI
***RAZAN SOUHEIL TAJEDDINE
ELSA RAMEZ TARABAY
BAHA NABIH ZEINELDEEN
JULIEN BOUTROS ZIADE

MECHANICAL ENGINEERING

Summer 2011

DAOUD YAACOUB ABOU MOSLEH
* RIMA ELIE AKIKI
ELIAS GERGESS BADER
FADI ADEL CHAABO
FARES SAMI EL BEAINO
* MICHEL ELIAS GHANEM
** LEA CHARBEL KREIDY
JEAN-PAUL CLAUDE MAILHAC

Academic Year 2011-2012

MAROUN ANTOINE ABBOUD
JOSEPH CHARBEL AKIKI
YOUSSEF FARID AOUN
RODRIGUE ZIKAR BARBAR
* JASON HENRI CHAKIEH
ROY ELIAS CHALHOUB
ADEL RAMZI DAOU
* YOUSSEF RACHAD DAOU
** MARC ANDRE EL HADDAD
***NOEL SAMIR EL KHAZEN
TANOUS GERGES FARAJ
** WISSAM JULES FARES
* SAMER YOUSSEF FARHAT
BACHIR MICHEL GHOSN
* KHALIL YOUSSEF GREIGE
DANIEL PHILIP HACHEM
DANIEL ANTOINE HADDAD
ELIE ANTOINE HAJJ
RAMI SAMI HATOUM
ROUDI FAHED HINDI EL
ZIAD SAMIR IBRAHIM
MAYA FOUAD KADY
ANTHONIO TOUFIC KALLAS
JOE ANTOINE KARAM
RICHARD CHARBEL KHALIL
** CARLA SIMON KHOURY EL
ELIE JOSEPH KHOURY EL
* RABIH IMAD KHOURY EL
* TONY RAFIC KHOURY EL
ELIE BECHARA KODEIH
°***JEAN WADIH LAHOUD
ASSEM AMIN MAHMOUD
EMILIO TONY MATAR
RAMZI GERGES MERHEJ
* ELIE HASSIB MOURAD
JAD SAMIR MOUSSAN
HADY ABDO NACOUZY
** RONY TONY NASRANY
JEFF FOUAD NEHME
ALAIN TANIOS OJEIL
** MELANY GABY RAHY
WADIH GEORGES RAPHAEL
YOUSSEF SAMIR ROUKOZ
ISKANDAR RAYMOND SALAME
ELIANE ANTOINE SALAMEH
FOUAD SLEIMAN SAMARA
* JONATHAN ELIAS YACOUB
ELIE NEMER YOUSSEF
ELIE YOUSSEF YOUSSEF

FACULTY OF HUMANITIES

MASTER OF ARTS: EDUCATION

Summer 2011

GEORGIA MICHEL HACHEM

Academic Year 2011-2012

NADA JOSEPH KHOURY
MARIA KRIKOR MARGOSSIAN
NANCY ANTOUN SAHYOUN
RANA GEORGES TRAD
NAYEF NAIM ZAINATY AL

ENGLISH

Academic Year 2011-2012

BETH ANN KHALIL

MEDIA STUDIES

Academic Year 2011-2012

MIREILLE RIAD AL ASWAD
RAMEZ NAJIB ATALLAH
RANIA JOSEPH ATALLAH
Arwa Sami Al-Jardaly
MAY GEORGE KARIM
AIMEE IBRAHIM SAYAH

TRANSLATION & INTERPRETERSHIP

Academic Year 2011-2012

MAGALY ELIE FADEL
JOCELYNE SELIM MGHAMES

BACHELOR OF ARTS

ADVERTISING & MARKETING

Summer 2011

MAKRAM SALIM ABOU DARGHAM
TANIA MAURICE AWAD
* TRAICY GABRIEL BOU GEBRAEL
LYNNE MOUNIR BOURJAS
ANTHONY IMAD EL-DARZI
JAMY YOUSSEF FARES
ZIAD GEORGE HAYEK
* VANESSA ANTOINE IRANI
ELSA JOSEPH ISHAC
LAURENCE SAMI KAZZI EL
HANY ANTOINE KEYROUZ
MAYSSA RIDA KHAZEN EL
TRACY FOUAD KHAZEN EL
ELIE JEAN MANSOUR
ELIE JEAN MATTA
NIVINE NASSRALLAH NASSAR
ALINE CHEHADEH OBEID
JENNIFER HIKMAT RAHME
** MIRA FOUAD SALAH EDDINE
DANIELLE MARY BECHARA SALAMOUNY
SAID JOSEPH SALIBA
FATEN LICHAA SUCCAR
MARYSE MANSOUR TEBCHARANY

Academic Year 2011-2012

SARAH CHARBEL AAD
MAYA DOUKAN ABDUL BAKI
JALAL RAHIF ABO CHAKRA
GHENWA CHEBEL ABOU CHEBEL
AYMAN KAMEL ABOU HAMDAN
NOUR SAMIR ABOU HAMDAN
HRAG MICHEAL BOGHOS AGHYARIAN
LINDSEY KRYSTEL WATCHE AKELIAN
FARAH SALMEN AL ACHKAR
MIREILLE CHAFIC AL KHAWAND
MARYAM ABD EL RAZAK AL ZOUHBIE
KARIM MOHAMAD-OUSSAMA AL-OSTA
** ROMY GEORGES ALAM
PAOLA TANY ANTAR
JESSI ANTOINE ARIDA
** MAREE GEORGE ASHKAR
HAMPARSOUM KEVORK ATAMIAN
SALAM NASSER AZZAM
BASSAM HENRY BARAKAT
THALINE FADI BARTAH MATAR
NAIM RAJI BITAR
ALEEN IBRAHIM BITAR AL
JIHAD YOUSSEF BOU CHAKRA
SAAD SAID BOU KARROUM
RICHARD HABIB BOUCLAOUS

SOHA GEORGES BOUEIRI
CYRIL ELIE BOUSTANI
LEA CLAUDE BOUSTANY
MEDHAT ZAHI BREISH
ELIE ASSAAD CHAFTARI
MARC-ANTONI JOSEPH CHALLITA
JOSEPH COSTAKI CHELHOT
BASSAM JIHAD CORBAN CHOUEIRI
JOHN GEORGES DAABOUL
NIZAM SAADE DAHER
SARAH MOUHAMAD DAKRAMANJI
VANY KRIKOR DERSTEPANIAN
DELICIA JOSEPH EID
MARIANA TONY EL HAKIM
KRISTELLE BAKHOS EL MARDINI
CHARLINE CHARBEL FAHED
NICOLE ROGER FARAH
MARWAN EDGARD FEGHALY
SOURA EMILE FREM
VINCENT MATHIEU MANSOUR GEBRAN
MICHELLE ISSAM GEMAYEL
* ELSA ANTOINE GERMANOS
GHAITH RAAD HACHEM EL
SARA NICOLAS HADDAD
PERLA NASSIF HAJJ EL
ALAA NABIL HANI
LAITH MICHEAL HANNOUSH
NOUR SAMI HARB
ELIE FARID HOBEIKA
** JENNIFER RAMEZ IBRAHIM
JOELLE ELIE JABBOUR
MOHAMMED OMAR JAMAL
DIALA ELIAS JARROUJE
KOUTAIBA GHASSAN JHAIR
BERNARD NASRI KAHI EL
** SAMAR NAJIB KAL YOUSSEF
ELIAS JACQUES KARAM
SARAH ANTOINE KARAM
LEA ANTOINE KASSAB
SALIM DIB KEYROUZ
AMANI ANTOUN KHALIFE
PAMELA LEBNAN KHALIL GHANEM
RAWAD ADDNAN KHATTAR
** GHADA WADIH KHNEIZER
SANAA ERNEST KHOURI
NISRINE IBRAHIM KHOURY
DAYANA ROGER KHOURY EL
ELIANE EMILE KHOURY EL
** TANIA NAJIB KORDAHY
SAMIR ANTOINE LABAKY
CHYREL CHARBEL LICHAA
ROXANE ADIB MAKHRAZ
LEDA HAMPARTSOUM MANOUKIAN
GAREN ARDACHES MARDIRIAN
ELIE GHASSAN MAROUN
ELISSA ELIAS MASSAAD
EMILE ANTOINE MATAR
SARAH SALAM MEDAWAR EL
°***ELIANA GEORGES MOARBES
ROULA MICHEL MOUAWAD
ZEINA JACQUES MOUBARAK
JAD WAJDI MOUCHARAFIEH
KAREN MICHEL MOUKANNAS
CANDY MAURICE MOUKARZEL

MAY NADER MRAD
ELIE ABDO NACCOUR
GEORGES ASSAD NAKHLE
PETRA MALEK NARCH
MARIO IBRAHIM NASSIF
JOWEY SOUHEIL OBEID
RAZMIG SAHAG PAPAZIAN
REEM ABDALLAH RICHA
MOHAMMAD ISSAM RIDA
ALAA TAREK SAAB
RITA MARCEL SAAD
RAMI KAMAL SABER
CHARBEL YOUSSEF SAKR
* JOANNA BAHJAT SALAMEH
HRAG NOUBAR SARAFIAN
MARC SALIM SLEIMAN
MELISSA TOUMA SOUEIDAN
BARBARA EL BADAOUI TAOUIL EL
HABIB ABDALLAH WAKIM
CHARLY ELIAS YAACOUB
ELIE-MICHEL CHARLES ELIE ARSTID ZOUEIN
SALLY SIMON ZOUEINI

COMMUNICATION ARTS

Summer 2011

PINA RAYMOND GHOUSSOUB
NAIM DANIEL ANTOINE KATTAN
GABY SAID MILKY
REMY MARWAN RAHAL
KHALED RACHID TALEB

Academic Year 2011-2012

** MARIA SAMI ABDUL KARIM
* SARA RAJA ABI HASHIM
ELHAM MICHEL ABI RACHED
SHAHEED-ELIAS GEORGES AWKAR
ZOYA JABRA AWKY
ALBERT JEAN BOU FARHAT
* YARA HALIM CHALHOUB
LAURE RAFIC CHAMOUN
CHANTAL JEAN CHEHADE
FADY ANTOINE ESTEPHAN
TONY MILO GHANEM
DANIEL-CHARBEL JOSEPH HABIB
* ROMY BASSEL HAJJAR
MIRNA NABIL HAKIM AL
KRYSTLE ELIAS HOUIESS
* CHRISTELLE CARLO IGHNIADES
KARAM NICOLAS KARAM
MARY ANTOINE KHAWAM
LAVINIA NAJIB KORDAHY
** TAREK NAZIH KORKOMAZ
CHARBEL ROBERT MAKHLOUF
***ZENA AHMED MAKKI
** JIHAD GEORGES SAADE
PIA ROGER SAFI
CHANTALE JOSEPH SFEIR
AYA JOSEPH YOUNES
MIRIAM HASSIB ZGHEIB

EDUCATION

Academic Year 2011-2012

MARIANE JOSEPH ACHKAR EL
YARA SARKIS DOUEIHI EL
** JENNIFER PIERRE GHORAYEB

SETRIDA BECHARA SEMAAN
MIRNA AGOP SEMERJIAN

ENGLISH

Academic Year 2011-2012

SANDRA MARWAN BOU HAMDAN
HALA HICHAM HALAOUI
* GRACE TONY NAKHOUL

PHYSICAL EDUCATION & SPORT

Summer 2011

GEORGES CAMIL AKIKI

Academic Year 2011-2012

DIALA CHAKIB KHAZEN EL
ALFRED NADIM MIKAEL
** NAIM ANTOINE SAAD
MARK CHARBEL TANIOS

PSYCHOLOGY

Academic Year 2011-2012

MELISSA YOUSEF ABOU ANTOUN
JESSICA NAJI ABOU JAWDEH
* TAMARA JIHAD ALI HUSSEIN
GEORGE NAJI ANTONIOS
** JENNIFER NAJI CHEBLI
LAMA NAJIB EL ZOGHBI
** REMY RENE ELIAS
SANDRA KAMAL HALABI EL
ANTHONY MICHEL HANY
* CARLA SALAM MADY
YARA NAZIH MIR EL
ELIE JOSEPH SARKIS
JESSICA ANTOINE YOUNES
* FABIENNE FADY ZARIFEH

TRANSLATION & INTERPRETERSHIP

Academic Year 2011-2012

MARISSA RAYMOND HITTI
JOANNA BASSAM MAROUN
***ELIANE FADY MOUAWAD
SHOROUK RIMA WALID SALAMEH

FACULTY OF NATURAL AND APPLIED SCIENCES

MASTER OF SCIENCE: COMPUTER SCIENCE

Academic Year 2011-2012

MARIOS TANIOS AZZAM
NADER BASSAM CHMAIT
ASSAAD RAYMOND GHOUSSOUB

MATHEMATICS

Academic Year 2011-2012

HANIN JIHAD KHATTAR

BACHELOR OF SCIENCE: ACTUARIAL SCIENCE & INSURANCE

Academic Year 2011-2012

** RITA MICHEL ANTONIOS
** RACHEL WASSIM ASMAR
** JENNIFER RICHARD ATALLAH
** SUZANNA NAZIH ESTEPHAN
JOE ELIAS NAJEM

BIOLOGY

Summer 2011

*   AYBAK SAMIR HASSAN

Academic Year 2011-2012

ROGER SIMON BAKHOS
***RACHELLE JOSEPH DOUAIHY
CHRISTABELLE GERIOS FAHEL AL
*   DAYANA JOSEPH HAYEK EL
**   JUDI AHMAD HAZIM
***ZIAD IMAD KHOURI
°***ADELE MIKHAEL NICOLAS
YVETTE TONY SAMAHA
ALINE JEAN SPIR
YOUSSEF TOUFIC TOHME
**   INGRID FARID YOUNES

BUSINESS COMPUTING

Summer 2011

ELIE SAAD ALAM EL
CHARBEL ANDRE AOUN
GEORGES JOSEPH KMEID

Academic Year 2011-2012

ELIE YOUSEF ABI RACHED
RICHARD GEBRAEL ABI RIZK
ELIO GEORGES AZAR
NIZAR AMIN BOU AYACHE
CHRISTIAN TOUFIC CHAHLA BOU HOCH
RODRIGUE TALEB EID
GILBERT JEAN EL MAAMARY
ELIAS NEEMTALLAH HAYEK
MIRNA LABIB ISSA
ANTOINE SAYED MAKARY
GHASSAN ABDO MATTA
TAREK MELHEM MORCOS
ELIE HENRY YOUNAN

CHEMISTRY

Academic Year 2011-2012

ELIAS BECHARA ABOU NACCOUL
NANOR SARKIS KIRAJIAN
***KARIM YASSER MAKHOUL
**   ANGIE FADI RAHME
FRIDA HAROUTYUN TOROSYAN

COMPUTER SCIENCE

Summer 2011

HANI CHAFIC BOUERI
MARWAN NADIM DOUMIT
YOUSSEF SARKIS FRANGIEH

Academic Year 2011-2012

JOE ANTOINE ABI YOUNES
*   MIREILLE ELIAS AL-BAYEH
AMANDA MTANIOS ANTOUN
JOSEPH MILED AOUN
ELIO HANNA AZIZ
PAUL EDMOND AZZI
VASKEN HRAIR BAKKALIAN
GIUSEPPE MILED UGO VINCENZO BOSCHIERO
JOSE JEAN-GEORGES CHAHINE
*   CHARLES GEORGE DACCACHE
ELIE DAVID DAVID
WISSAM ELIAS EL HAJJ
RAYAN AHMAD GHOSSEIN
*   SIMON GEORGE HAYKAL
**   ANTOINE PIERRE HOKAYEM EL
WADAD JOSEPH KAYROUZ
**   KARAM ELIE KEYROUZ
JOSEPH ANTOINE KORKMAZ
SAMI-JOE RAYMOND MAKHLOUF
PIERRE GABRIEL MINASSIAN
TONI HANNA ROUHAYEM
MARYLINE ANTOINE SAADE
*   MARIE-THERESE JOSEPH SARKIS
*   MARIANNE GABRIEL SAWAYA
BERNARD MICHEL SFEIR
MAKRAM ISSAM SUKARIEH
CHARBEL ASSAD ZGHEIB

GEOGRAPHICAL INFORMATION SYSTEMS

Academic Year 2011-2012

JOSEPH TANIOS FARES
ORY ELIAS FEGHALY
JOSEPH RAYMOND HACHEM

MATHEMATICS

Academic Year 2011-2012

MAYA KHALED ABOU ALI
ELIE HABIB CHALHOUB
*   AIDA ELIAS LTEIF

FACULTY OF NURSING AND HEALTH SCIENCES

BACHELOR OF SCIENCE: MEDICAL LABORATORY TECHNOLOGY

Summer 2011

**   SALWA ABDELKHALEK ABDELKHALEK
*   HALA SHAWKI AL-KHESHIN
**   LAYAL SOHEIL SHEHAYEB

Academic Year 2011-2012

*   PASCALE RAMZY ABOU CHAHLA
CEZAR RAYMOND ASSAF
*   MIRA JOSEPH AZZI
NATALY YOUSSEF BOU HAMDAN
NASSIB JIHAD BOU JAOUDE
ROY EDWARD GERYESS
SALLY MUFID GHAITH
JOVANNA ISSAM GHOSN
BILAL ABDALLAH MASRI EL
SAMER RAYMOND NASR
RIHAB NABEEH SALMAN
**   RANA SALMAN SHEHAYEB

NURSING

Academic Year 2011-2012

MAYA-MAY GEORGES HARFOUCHE

NUTRITION & DIETETICS

Academic Year 2011-2012

RAZANE ROZANA HATEM ABOU FAKHR
ARWA AHMAD AHMAD
MIRELLA ELIE DABAJ
PIA KAMIL DAGHER
BELINDA SASSINE DAOU
*   LEA GABRIEL HELOU
REEM NAJIB KAL YOUSSEF
*   TALA WASSEF KARIMEH
REBECCA ANTOINE KHATER
°***MARINA KARKOUR KHEDERLARIAN
JESSICA GABY MAALOUF
RANIA ABDALLAH MASRI EL
JESSICA PIERRE MASSOUD
MAYA JEAN NAHOUL
PAULA BOULOS NASSAR
LYNN GEORGES SABA
MYRIAM ELIE SAKR
*   HODA KHEIR-EL-DINE SANKARI
STEPHANIE BECHARA SEMAAN
NATHALY YERVANT TABOUJIAN
HAYAT AZZAM TADMOURI
*   JANINE TAREK TAHA AL JOUNDI
JENNIFER CHRISTO TOMAZOU
*   STEPHANIE PIERRE YAMMINE

FACULTY OF POLITICAL SC. PUBLIC ADMIN. & DIPLOMACY

MASTER OF ARTS: INTERNATIONAL AFFAIRS & DIPLOMACY - INTERNATIONAL LAW

Academic Year 2011-2012

NABIL DAHER FREM
SANDRA CHAWKI KAHI
SABINE GEORGES SALIBA

BACHELOR OF ARTS: POLITICAL SCIENCE - EURO-MEDITERRANEAN STUDIES

Summer 2011

ELIE HASSIB AZZI

INTERNATIONAL AFFAIRS & DIPLOMACY

Summer 2011

SAMER GHASSAN CHATTAHY
**   DINA ZAMAN DARWICHE
MARINA ELIE NAWAR

Academic Year 2011-2012

MARC ELIAS ABI ADAM
MELISSA DAOUD BADER
**   ADRIANA ELIAS BOUDIWAN
MARINA MICHELE MIKHAEL CHAGHOURY
LAYAL GHASSAN DAHER
**   FADIA GEORGES HABIB
**   JESSICA NICOLAS HALLAK
*   GHIA GHASSAN JHAIR
SAMAYA MICHEAL MATTOUK
MARWAN FADY TOHME

PUBLIC ADMINISTRATION

Summer 2011

SAMER GERGI ABI ABDALLAH

Academic Year 2011-2012

°***YOUSSEF BEDWANY FARHAT
IMAD ELIAS SFEIR

أعرفُ جامعتي، وجامعتي تعرفُني

ختامًا ليوبيل الجامعة الفضّي، اسمُ البطريرك الكاردينال بشاره الراعي على صدر القاعة الكبرى الجديدة؛ واحتفاليّةٌ موسيقيّةٌ أوبراليّةٌ على مسرحها، أحيتها الأوركسترا الفلهارمونيّة اللبنانيّة بقيادة المايسترو مَنفرِد مُوساوِر والسّوبرانو ريما الطّويل.. وكورال اللويزة والأنطونيّة

الأب موسى: وعدْنا لكم، يا صاحبَ الغبطة والنيافة، أَنّ هذه القاعة لن تستهينَ باسم راعيها.

الأباتي طربيه: لا فرح يوازي فرحنا باستقبال صاحب الغبطة والنيافة.

الراعي: نرجو أن تنطلق الجامعة انطلاقة تجدّديّة نحو الأهداف التي حدّدتها يوم افتتاح اليوبيل.

مساء الجمعة، ١٤ كانون الأوّل ٢٠١٢، لم يكن كسائر المساءات في جامعة سيّدة اللويزة: فلقد ظلّلته بركة سيّد بكركي، ودعاءات قلوب الرّجاءِ حول عزائمه والمكارم.

«السيّد»، تقولُ الجامعة، علّةُ وجودي الأوّلِ هو، وهو منارةُ الهدى... إليه يُركَنُ وبه يُستعانُ، به أتشدّدُ.

فله أن يقولَ: أعرفُ جامعتي، وجامعتي تعرفُني.

واستهلالاً، كان تذكّرٌ مع الأستاذ سهيل مطر:

الزمان: ١٤ كانون الأوّل ١٩٧٨. كأنّه اليوم. كأنّنا على موعد. وأربع وثلاثون سنة، لحظة عبرت.

المكان: مدرسة سيّدة اللويزة، حيث أصداء المجمع ١٧٣٤، لا تزال تتردّد.

الأشخاص: أب راهب، قل: شاعر حالم... يصلّي، يمشي، ينتقل، ينتظر، يقلق، ثمّ يقرع الجرس: سبعون طالبًا جامعيًّا يدخلون... ثلاث غرف، كانت الانطلاقة... الخطوة الأولى في تأسيس جامعة سيّدة اللويزة...

بعد سنتين... ضاقت الأمكنة... الراهب نفسه يبحث عن مركز أكثر اتّساعًا، أين؟ في مدرسة مهجورة قريبة. أذاكر، يا أبانا، ذلك اليوم؟

بعد سنوات، الراهب نفسه يُصرّ: نريد جامعة. قدّموا المستندات الضروريّة.



وفي لمحة من الزمن، الأب الراهب ينتقل أسقفًا إلى بكركي. نتابع الطريق، يصدر مرسوم الترخيص سنة ١٩٨٧. ونحتفل اليوم باليوبيل الفضّي.

ذاك الراهب اسمه اليوم: صاحب الغبطة والنيافة البطريرك الكاردينال...

أذاكر، يا أبانا؟ كلّنا نتذكّر مرحلة التعب والشقاء والهموم، مرحلة السهر والكدّ، مرحلة لا طاولة ولا كرسيّ، ولا قاعة، ولا ملعب، مرحلة «شدّوا الأحزمة». كان ضيق، ورافقه كثير من الفرح والدفء والحلم...

أؤكّد، يا سيّدي، أنّك تذكر، ومعنا يتذكّر الراهب الآخر، العامل، على تواضع ووداعة قدس الأب العامّ بطرس طربيه.

وأزهرت الجراح، وأثمر كرم الزيتون، وكرم الربّ غنيّ؛ وها هي جامعة سيّدة اللويزة، تستقبلكم اليوم بكلّ ترحاب ورحابة وحبور، تلتفت إليكم بقاعاتها والشجر وهذا الحضور لتقول: أنتم الصخرة الأولى، وعلى هذه الصخرة ارتفع البنيان. فشكرًا يا مؤسّس، وتحيّة أيّها الأسقف. ومنذ أُعطيت من الكرسيّ الرسوليّ لقب أسقف، تأكّد لنا أنّك السقف، وفي ظلال هذا السقف نحيا ونفرح ونحلم...



الأب موسى: وعدُنا لكم، يا صاحبَ الغبطة والنيافة، أَنّ هذه القاعة لن تستهينَ باسم راعيها.

عمرٌ مضى، سنوات مرّت، حروب ودماء وعنف... ونحن نتحدّى...
أدمنّا الحزنَ والدمع، سامحهم الله:

هــم علّمـونــا البُكــا الحــزنَ والألمــا
يــا ليتهــم علّمونــا كيــف نبتســمُ

ما لنا ولهم... فنحن اليوم نحيا، يا صاحب الغبطة والنيافة، أعيادًا بالجملة:

- ذكرى الانطلاقة: ١٤ ك١ ١٩٧٨
- اليوبيل الفضّي: ٢٥ سنة على الترخيص (١٩٨٧-٢٠١٢)
- عيد الفن والجمال: في افتتاح هذه القاعة.
- عيد الموسيقى: مع الأوركسترا اللبنانيّة.
- عيد تهنئتكم واستقبالكم، يا صاحب الغبطة؛ ولا تقل لماذا يصل العاشق دائمًا متأخّرًا؟
- عيد الميلاد... والمجد لله في العلى وعلى الأرض السلام.

ويا أيّها الأصدقاء والأحبّاء،
إنّه التاريخ. لا تقولوا: كبرتَ يا رجل.
رغم العمر، أصارحكم: لا أزال أنتظر Papa Noël، يحمل لي ولكم، هديّة الفرح والسلام.
أجل، سيأتي حاملاً لنا الربيع...
وأهــلاً وســهلاً بكـم.

«ويكفي أنّه يستحقّ».. وهديّتان.. وتكريم..، ذلك ما زفّه **الأب وليد موسى**:

يوم نقلت إلينا وسائل الإعلام من الفاتيكان، في ٢٤ ت١ الماضي، خبر منحكم يا صاحب النيافة رتبة الكاردياليّة، حملت إلينا المفاجأة الفرح وبضعة تساؤلات:

- لماذا، البطريرك الراعي، وهو ما يزال حديث السنّ في البطريركيّة؟
- لماذا البطريرك الراعي، وسيّدنا الكاردينال نصرالله صفير يحمل الرتبة ذاتها ويمنحه الله العافية والصحّة؟
- ثمّ: هل وراء هذا التكريم، رسالةٌ ما، أراد الحبر الأعظم توجيهها إلى لبنان والعالم؟
- ثمّ: كيف سيواجه غبطة أبينا البطريرك هذه المسؤوليّة؟ وهل يفهم اللبنانيّون مغزى هذا التكريم، أم... كلٌّ يغنّي على ليلاه.

وجاءت الأجوبة، على اختلافها، تتّفق على أمر واحد: يكفي أنّه يستحقّ. فمنذ ولادته في حملايا العزيزة وحتى التحاقه بهذا الدير العتيق، وانتمائه إلى الرهبانيّة المارونيّة المريميّة، وسيامتِه كاهنًا ثمّ أسقفًا ثمّ انتخابِه بطريركًا، وهو النموذجُ في الأخلاق، والمثالُ في العطاء، والمؤمنُ إلى حدّ الشهادة، فضلاً عن أنّه صاحبُ رؤىً تمنح لبنان مجدًا فيعيد لبنان له هذا المجد... ومن له يُعطى ويُزاد.





من هذه الرؤى، أيّها الأحبّة، كانت هذه الجامعة التي كان له فضلُ تأسيسها، والتي تفخر اليوم، باستقباله كاردينالاً...
هديّتنا لك، يا صاحب النيافة، هديّتان على تواضع:

- الأولى: قرار الجامعة، بعد استئذان الأب العام بطرس طربيه ومجلس المدبّرين، بإطلاق اسم «بشارة الراعي» على هذه القاعة الجديدة؛ ووعدُنا لكم يا صاحب الغبطة أنّ هذه القاعة، لن تستهين باسم راعيها، ولن تكون إلاّ قاعة للرقيّ والحضارة والجمال.
- أمّا الهديّة الثانية، فيشاركنا في تقديمها المعهد الوطنيّ العالي للموسيقى (كونسرفتوار)، من خلال تقديم الأوركسترا الفلهارمونيّة اللبنانيّة لهذه الأمسية الفنيّة الجميلة.

ليس أجملَ من افتتاح هذه القاعة، الليلة، إلاّ افتتاحُها بهذين التكريمين: كاردينال يعلو بنا نحو السماء، وأوركسترا تطير بنا إلى العُلى. وأضف هذا الحضور الكريم، الذي يشكّل أوركسترا جديدة، في خدمة هذه الجامعة وهذا الوطن.
قبل أن أُنهي، أريد أن أسجّل الشكر لسعادة المدير العامّ للكونسرفتوار الأستاذ حنّا العميل، ولقائد الأوركسترا المايسترو منفرد موساور Manfred Mussaeur، ولقائد جوقة الجامعة الأنطونيّة الأب توفيق معتوق وأعضاء الفرقة، ولقائد جوقة جامعة سيّدة اللويزة الأب خليل رحمة وأفراد الكورال، وللسيّدة الفنّانة السوبرانو العالميّة ريما الطويل، ولكلّ من ساهم في تنظيم هذا الاحتفال، ولاسيّما العاملين في مكتب العلاقات العامّة.

وتبقى كلمة شكر ووفاء: لكلّ من سكب نقطة عرق، أو نقطة حبر، أو نقطةً من دمه، أو دمعةً، أو بعضًا من ضوء عينيه، في بناء هذه الجامعة وتقدّمها؛ ولاسيّما الذين عملوا، بقدرة ومحبّة، على بناء هذه القاعة وتجهيزها. ومن دون أن أجرح تواضع البعض، لا بدّ من الإضاءة على أدوار نموذجيّة:
المهندس حبيب سلامة، فنّان إلى حدّ الهوس بالجمال.
شركة متّى للتعهّدات، بشخص الأستاذ جاك متّى والصديق المهندس لبيب عقيقي، ومن عمل معهما بتفانٍ ونشاط.
شركة Apave: بشخص الأستاذ نسيب نصر رقيبًا وحسيبًا على التنفيذ والتجهيز.
والأب بشارة الخوري، رجل التحدّيات، على بعض العصب، ولا تعصّب.
شكرًا للجميع.

ويا أيّها الأصدقاء
هل هو اختتام اليوبيل الفضّي؟ لا إنّه بداية الطريق نحو اليوبيل الذهبيّ. فلنعمل معًا، بشفاعة مريم العذراء. وبرعاية أبينا غبطة البطريرك، وبتوجيهٍ من رهبانيّتنا العزيزة، وبجهدكم ومحبّتكم، سنصل.
أهلاً وسهلاً...



الأباتي طربيه:
لا فرح يوازي فرحنا باستقبال صاحب الغبطة والنيافة.

أمّا الأباتي بطرس طربيه فحرص أن يبقى الراعي الأب والمعلّم والموجّه لمؤسّسات الرهبانيّة. قال:

لا فرح يوازي فرحَنا باستقبال صاحب الغبطة والنيافة. ومهما علت المراتب والمدارج، ومهما كثرت الألقاب والنعوت، يبقى «أبونا بشارة» ابن الرهبانيّة المارونيّة المريميّة.

من هنا انطلق، وإلى هنا يعود. الأمّ التي احتضنته صبيًّا دارسًا في هذا الدير العتيق، هي نفسها الأمّ التي صلّت له، ورافقته في كلّ خطوة، حتّى وصوله إلى المذبح ومروره على طريق الجلجلة، وصولاً إلى مرتبة الكاردياليّة. لهذا، الزيارة إلى دير سيّدة اللويزة، أو إلى جامعة سيّدة اللويزة، ليست حدثًا، ولا مفاجأةَ فيها؛ إنّه الأمر الأكثر من طبيعيّ. ومن يتطلّع بعمق إلى بعض زوايا الدير، وإلى الكنيسة الصغيرة، بصورة خاصّة، سيجد ملامح الأب بشارة الراعي مرسومة على الحجارة والشجر وصور القدّيسين ومداخل الدير والمدرسة.

أمّا هنا، فمن يعمّق النظر، تتراءى له رؤى شجاعة أسهمت في تأسيس هذه الجامعة: ففي خضمّ الأحداث الأمنيّة والسياسيّة في منتصف السبعينات من القرن الماضي، أقدم الراعي، بتشجيع من الأباتي المغفور له بطرس فهد، وبرفقة بعض العلمانيّين الكرام، وفي الطليعة الأستاذ سهيل مطر، وبعض الجنود المجهولين، الذين ضحّوا بالكثير، منذ تأسيس الجامعة ولغاية اليوم، على تحدّي الأوضاع الصعبة، وإنشاء مركز اللويزة للتعليم العالي، بمساعدة من جامعة LAU. هذا المركز الذي أسّسه الراهب المريميّ الراعي، على أسس من الإيمان والثقافة والخدمة، تحوّل اليوم إلى جامعة مرموقة يحقّ لسيّدنا أن يفخر بها، ويحقّ لنا أن نستقبله، لا بالزهور والبخور فحسب، بل بصلاة التكريم: تعظّم نفسي الربّ.

مع أبينا، انطلقت الجامعة سنة ١٩٧٨، واستقلّت سنة ١٩٨٧، وبدأت نهضة البناء الحاليّ سنة ١٩٩٤ مع الأب الرئيس فرنسوا عيد، وكانت السنة، سنة اليوبيل الفضّي (٢٥ سنة)، ونحن نتابع الطريق. كثيرون من الآباء نذكرهم اليوم بمحبّة، أطال الله عمرهم: الأباتي مرسيل أبي خليل، الأباتي أنطوان صفير، الأباتي سعد نمر، الأباتي سمعان أبو عبدو وآباء كثيرون لا تزال بصماتهم مرسومة على جدران هذه الجامعة، ولا يزالون يعملون بإخلاصٍ ومحبّة.

لماذا بشارة الراعي بطريرك وكاردينال في أشهر قليلة؟ حقّ أن نسأل. أمّا أنا فأقول: من كان بمثل هذه الديناميكيّة، وهذا التخطيط، وهذه القدرة على تجاوز المشاكل والصعوبات؛ ومن يملك قلبًا واسعًا، وعقلاً راسخًا، وإيمانًا كبيرًا... يستحقّ أن يكون في أعلى المراتب وفي أسمى الدرجات، ولا كبرياء ولا أنانيّة ولا ادّعاء.

سيّدي سعادة السفير

أرجو أن تبلّغ شكرنا وتقديرنا، شكر الرهبانيّة المارونيّة المريميّة التي أُمثّل، لقدس الحبر الأعظم بنديكتوس السادس عشر، الذي

خصّ رهبنتنا بهذا التكريم؛ فنحن لا نميّز بين صاحب الغبطة والرهبانيّة التي تحدّر منها: كلاهما واحد في خدمة الله والانسان. ونشكركم، يا سعادة السفير، شخصيًّا، على كلّ ما تقومون به، من أجل الكنيسة وإنقاذ لبنان، من براثن الفوضى ودخان التعصّب والانغلاق.

ويا صاحب الغبطة والنيافة

البعض يقول، وبعض القوانين تقرّر أنّ الراهب عندما يصبح أسقفًا، يستقلّ عن رهبانيّته، كما تحرّره هذه الرهبانيّة من التزاماته تجاه إدارتها.

أما نحن، في رهبانيّتنا المريميّة، فنقول: ستبقى أنتَ، يا سيّدي، الأب والمعلّم والموجّه. نحن نستمدّ من حكمتكم بوصلة الطريق. رهبانيّتنا تحبّكم، وهي بحاجة إلى صدركم الواسع. وأرجو أن تعتبر كلامي هذا دعوة دائمة لزيارة ديرنا العتيق ومؤسّساتنا المختلفة، وتوجيه الدروس المناسبة. كما نؤكّد لكم أنّنا مستعدّون لكلّ خدمة وعطاء.

ويا حضرة الأب الرئيس، رئيس الجامعة وأسرة الجامعة

إنّه عيدكم، إنّه اليوبيل الفضّي. لكم كلّ التقدير وللآباء العاملين معكم. آمل أن نحتفل معًا بالذهبيّ. كما أصلّي لربّنا يسوع، وبشفاعة مريم، أن تتابع هذه الجامعة مسيرتها الحضاريّة. فشكرًا لكم جميعًا، مجلسَ مدبّرين، ومجلسَ أمناء، ومجلسَ جامعة، وأساتذةً وموظّفين وطلاّبًا وخرّيجين. ومع الموسيقى، نرتقي، الليلة، سلّمًا نحو العُلى والفرح.

عشـــتم، سيّدي غبطة البطريرك

عاشـــت الرهبانيّة، عاشـــت جامعة سيّدة اللويزة، عـــاش لبنـــان.

الراعي: نرجو أن تنطلق الجامعة انطلاقة تجدّديّة نحو الأهداف التي حدّدتها يوم افتتاح اليوبيل.

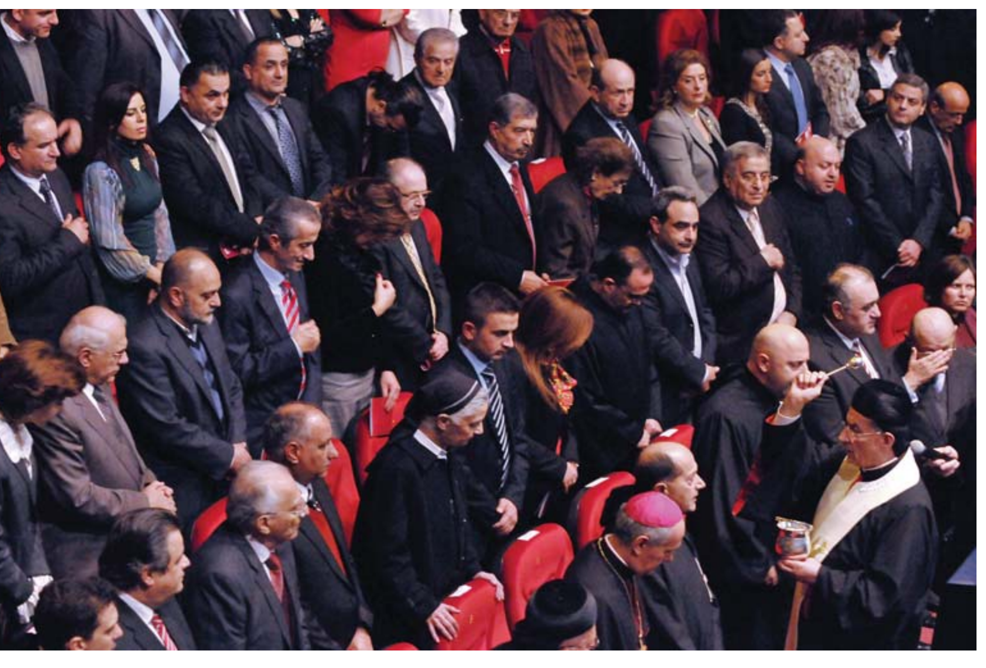
وأخيرًا توجّه البطريرك الكاردينال مار بشاره بطرس الراعي إلى الجمع بكلمةٍ حول دور الجامعة والشؤون الوطنيّة الإقليميّة والأحداث الكنسيّة الأخيرة، فقال:

١. يسعدني أن أشارك معكم في الحفل الختاميّ ليوبيل جامعة سيّدة اللويزة الفضيّ، وتدشين القاعة الكبرى فيها، وتُحييهما الأوركسترا الفلهارمونيّة اللبنانيّة. وإنّي أعرب عن شكري وامتناني لحضرة رئيس الجامعة الأب وليد موسى والآباء المعاونين والإدارة والأساتذة والطلاّب والأهالي، على المبادرة، وقد شاؤوا، مع المعهد الوطنيّ العالي للموسيقى، إدراج تهنئتي بالكردياليّة في هذا الاحتفال. وإنّي أقدّم للرهبانيّة المارونيّة المريميّة الجليلة، وللجامعة ومجلس الأمناء وكلّ أسرتها التربويّة، أخلص التهاني باليوبيل، مع الدعاء إلى الله وإلى شفيعتها سيّدة اللويزة بانطلاقة متجدّدة نحو اليوبيل الذهبيّ وسواه، محطّةً بعد محطّة.

٢. إنّنا نتطلّع إلى دور هذه الجامعة ورسالتها ومسؤوليّتها، ومن خلالها إلى كلّ جامعاتنا، عبر الأحداث الوطنيّة والإقليميّة المقلقة، وعبر الأحداث الكنسيّة المنيرة.

نعيش في لبنان زمن نزاع سياسيّ آخذ في التوتّر، مع انقسامات حادّة لها تداعياتها على المؤسّسات الدستوريّة، وزمن أزمة اقتصاديّة ومعيشيّة واجتماعيّة صعبة. البلاد مرهقة بالدَّين العامّ الذي يتزايد بشكل مخيف، والحركةُ الاقتصاديّة متعثّرة، وفرصُ العمل ضئيلة، والبطالةُ على تزايد، وشبابُنا لا يرى ما يرغب فيه ويحقّ له من آفاق مستقبليّة مشرقة.





والجامعة، بالرّغم من كلّ ذلك، مدعوّة لتزرع الرجاءَ في قلوب أجيالنا الطالعة والثقةَ بالنفس وبالوطن، وتجتهدَ مع المؤسّسات العامّة والخاصّة لإيجاد فرص عمل للمتخرّجين، لكي يتمكّنوا من تحفيز قدراتهم وإبداعهم على أرض الوطن. والجامعة مدعوّة لكي تساعد الطلاّب على التعالي عن الانقسامات، وعلى نشر ثقافة الديمقراطيّة وكرامة الشخص البشريّ وحريّة الرأي والتعبير، واحترام الآخر المختلف. وتذكّرهم أنّ مقاعد الدراسة الجامعيّة إنّما هي لنسج علاقات الصداقة والتعاون، تأسيسًا لحياة مستقبليّة يبنونها معًا.

وينبغي أن يتصاعد من أسرتها التربويّة نداء إلى المسؤولين السياسيّين بالخروج من هاتين الأزمتين السياسيّة والاقتصاديّة، كأساس لحياة كريمة في لبنان ولشبابنا وللعائلة.

فنحن ، مع كلّ ذوي الإرادات الحسنة، الذين يعنيهم لبنان الوطن، بحيث يعلو فوق كلّ اعتبار شخصيّ وفئويّ، ويعينهم الخير العامّ، ننادي المسؤولين السياسيّين، ليتحمّلوا مسؤوليّتهم الوطنيّة أمام محكمة الضمير الوطنيّ والتاريخ، فيخرجوا من مصالحهم وحساباتهم وأسْر مواقفهم، وينفتحوا على آفاق جديدة. ينبغي أن يكونوا على مستوى التحدّيات الراهنة، بحكم مسؤوليّاتهم ومواقعهم، فيعملوا بجدّية وسرعة على إقرار قانون جديد للانتخابات النيابيّة غير قانون الستين، والى تأليف حكومة جديدة حرّة ومسؤولة تقود البلاد إلى إجراء الانتخابات النيابيّة في موعدها الدستوريّ، وتضع خطّة للنهوض الاقتصاديّ، وتمهّد للمصالحة الوطنيّة التي هي حاجة حيويّة للبنان.

٣. وتعيش المنطقة العربيّة أحداثًا سياسيّة مقلقة، وحروبًا وعنفًا ودمارًا، لها تداعياتها في لبنان وفي العالم العربيّ ككلّ. كان الكلّ يأمل أن تؤدّي مطاليب شعوبها المحقّة إلى ما يصبون إليه، وفق حاجات أوطانهم، من إصلاحات سياسيّة واقتصاديّة واجتماعيّة وإنمائيّة، من دون اللجوء إلى العنف والحرب. والجميع كانوا يأملون بربيع عربيّ يبلغ إليه بواسطة الاعتدال، لا بالراديكاليّة والتعصّب والأصوليّة.

إنّ لجامعتنا المنفتحة على اللبنانيّين بكلّ مكوّناتهم الدينيّة والثقافيّة، وعلى الشباب الآتي إليها من بلدان الشرق الأوسط، دورًا كبيرًا في هذا المجال على مستوى التربية والتوجيه وإذكاء الوعي؛ وفي إظهار دور لبنان، بحكم موقعه على ضفّة المتوسّط الشرقيّة وميثاقه الوطنيّ وتكوينه السياسيّ وخصوصيّته وتاريخه النهضويّ في المنطقة، في أن يكون عنصر سلام واستقرار في المنطقة؛ فلا يكون، لا متفرّجًا، ولا متورّطًا، ولا محرّضًا، ولا ممرًّا أو مقرًّا للعنف والسلاح.

٤. أمّا الأحداث الكنسيّة فمميّزة وموجّهة. بين أيدينا إرشاد رسوليّ عنوانه: «الكنيسة في الشرق الأوسط، شركة وشهادة».





تسلّمناه رسميًّا من قداسة البابا بندكتوس السادس عشر أثناء زيارته التاريخيّة للبنان في أيلول الماضي. وترتبط به كلماته المكمّلة في الخطابات والعظات التي ألقاها، وأبرزت قيمة لبنان ورسالته على كلّ صعيد، في خطّ الشركة والشهادة. يجدر بالجامعة أن تجعل من هذا الإرشاد الرسوليّ خريطة طريق في التربية والتثقيف وتوجيه المبادرات.

ونعيش منذ الحادي عشر من تشرين الأوّل الماضي سنة الإيمان، أي سنة البحث عن وجه الله الظاهر في وجه المسيح، واللقاء الشخصيّ والوجدانيّ به، «كطريق وحقّ وحياة». فندرك أنّنا بدون هذا الطريق نحن في ضياع، وبدون هذا الحقّ نحن في ضلال، وبدون هذه الحياة نحن في موت.

٥. وترتبط سنة الايمان بحدثين كبيرين: الأوّل، مرور خمسين سنة على افتتاح المجمع المسكونيّ الفاتيكانيّ الثاني (١٩٦٢-٢٠١٢)، الذي سمّاه الطوباويّ البابا يوحنّا بولس الثاني «ربيع الكنيسة». ما يقتضي العودة إلى ما ترك لنا من تعليم في كلّ قطاعات الحياة الروحيّة والمدنيّة، الاقتصاديّة والسياسيّة، الراعويّة والاجتماعيّة، الإلهيّة والإنسانيّة. إنّه ينبوع ثقافة لا تنضب.

والحدث الثاني، انعقاد جمعيّة سينودوس الأساقفة في تشرين الأوّل الماضي حول الإعلان الجديد للإنجيل، بكلّ ما يحتوي عليه هذا الإعلان من خبرة شخصيّة في اللقاء بالمسيح وحميّة وحرارة ونهج ووسائل وتقنيّات، لكي يبلغ هذا الخبر المفرح- الإنجيل إلى كلّ إنسان، فيجد ذاته ومعنى وجوده وقيمته ومكانه في التاريخ، بفضل فرادته غير المتكرّرة.

إنّ جامعتنا تشكّل المكان الطبيعيّ المميّز لعيش مضامين هذه الأحداث، واستخلاص مضامينها وإضافتها إلى الثقافة المتنوّعة التي تقدّمها لشبابنا.

٦. في هذا الإطار من الأحداث المحليّة والإقليميّة والكنسيّة، تندرج مبادرة قداسة البابا، إذ شرّفني برتبة الكرديناليّة. لكنّه أراد بذلك إعلاء شأن لبنان والكنيسة، كما يعلو بها شأن أمنّا الرهبانيّة المارونيّة المريميّة التي أنتمي إليها، وتربّيت في رحابها، وأغرف من معينها الروحيّ والتاريخيّ والكنسيّ. وأراد أن يعطي دفعًا للكنائس الشرقيّة ولمسيحيّي الشرق الأوسط. وهذه قراءة عامّة ومشتركة لدى الجميع. نأمل بمؤازرتكم أن نثمّر هذه المبادرة في خدمة أفضل وأشمل وأكثر مسؤوليّة.

٧. في ختام هذا اليوبيل الفضّي، نرجو، بالاتكال على النعمة الإلهيّة وعناياتها وعلى إلهامات الروح القدس، أن تنطلق الجامعة إنطلاقة تجدّديّة نحو الأهداف التي حدّدتها يوم افتتاح اليوبيل، وأن تجعل من الثقافة التي تغدقها ومن تربية الأجيال فيها ومن نتاجها المتنوّع والغنيّ «أوركيسترا» مجد وتسبيح للآب والابن والروح القدس إلى الأبد.

المخيّم الصيفيّ ٢٠١٢- دير مار شلّيطا كفرذبيان

شارك شبيبة العمل الرعويّ الجامعيّ في المخيّم الصيفيّ الذي أقيم في دير مار شلّيطا كفرذبيان في ٢٩، ٣٠ حزيران و١ تمّوز ٢٠١٢ تحت عنوان: «**لأجل تقدُّمكم وفرحِكم في الإيمان**» (فيليبّي ١٥/١). خُصِّص اليوم الأوّل للرياضة الروحيّة حيث ناقشوا مع الأب المرشد فادي بو شبل مواضيع روحيّة، وتشاركوا رتبة التوبة والسّجود للقربان المقدّس. أمّا اليوم الثاني فكان ترفيهيًّا. واختُتم بالقدّاس الإلهيّ وباستلام اللجنة الجديدة مهامّها.

وفي المناسبة قال الأب فادي:

إنّ الكنيسة في كُلّ العالم، تستعدّ مع خليفة بطرس، بابا روما، لتدخلَ مجدّدًا «باب الإيمان» (أعمال ٢٧/١٤) من ١١ ت[١] ٢٠١٢ وحتّى ٢٤ ت[٢] ٢٠١٣. ونحنُ أبناءَها نُريد الدّخول معها في هذا الإختبار الذي يرفعُنا، ويُقوّينا ويفرّحُنا، لأنّنا بالإيمان وحدهُ نستطيع أن نُرضي الله كما تقول الرّسالة إلى العبرانيّين.

وبالإيمان نُتمّم طاعتنا للمسيح القائل لنا بشخص توما الرّسول، كونوا مؤمنين لا غير مؤمنين. لأنّه يعلم أنّنا بالإيمان نرى مجد الله كما أوضح لمرتا: إن كنتِ تؤمنين فسوف ترَين مجد الله.

وأكثر من ذلك: المؤمن الذي لم يرَ، أعطاهُ الربّ الطّوبى، حين قال: «طوبى للّذين يؤمنون ولم يرَوا» (يو ٢٠/٢٩).

لذلك، عندما فكَّرَت اللجنة بإعطاء عنوانٍ لهذا المُخيّم، استدعت الرّوح القدس الذي يُنير ضمائرنا، ففتحنا الكتاب المُقدّس، فكان أن وقع نظرنا على هذه الآية الرّائعة «لأجل تقدُّمكم وفرحكم في الإيمان»، وكان القرار بالإجماع أن يحمل المُخيّم هذا الشّعار.

وبعد التأمُّل في هذه الكلمات، شعرتُ أنّ كلّ ما نقوم به في العمل الرعويّ الجامعيّ، في كُلّ لبنان وخصوصًا في الـ NDU، لهُ هدفٌ واضح وهو تقدُّم وفرح كُلّ شابّ وصبيّة بالإيمان المسيحيّ الذي نقله إلينا أهلنا ورعيّتنا، وربّما مدارسنا وجامعاتنا.

خلال سنة كاملة عشناها معًا في الجامعة، إستطعنا بنعمة الله أن نقول: «لقد رأينا الربّ في أحداثٍ كثيرة، واحتفالاتٍ مُختلفة، ووقفات تأمُّل وصلاة ومحبّة»! رأينا الربّ بعضنا في وجوه بعض، وسمِعنا صوته النّاعم في كلام الإنجيل وفي صمت نفوسِنا، وشهِدنا له بكلماتِنا وحياتِنا، وربّما كنّا موضعَ أكثر من سؤال لدى من هم حولنا، ومن المؤكّد أنّهم عندما رأوا طريقة التّعاطي بعضنا مع بعض قالوا: أنظروا كيف يُحبّ بعضُهم بعضًا، إنّهم حقًّا تلاميذ الربّ. ألم تحصل اللجنة على جائزة أفضل لجنة؟!

اليوم، وفي هذا المخيّم أوجّه شُكري معكم ولأجلكم، إلى الله الذي أُحبّه وأعبده وقد منحتُه ذاتي نفسًا، جسدًا، وروحًا، لأنّه دعاني لخِدمتكم ولمُعاينة عملِه في نفوسِكم.

أُوجّه شُكري للعذراء الأمِّ السّاهرة ملكةِ الجامعة وشفيعةِ مَن فيها، لأنّها رأفت بِنا وصلَّت لأجلِنا، فكان ما إن وضعنا السّنةَ تحت حمايتِها، حتّى أصبح كُلّ ما عمِلنا ناجحًا وعاد علينا بالفرح والإكتفاء.

ثمّ أشكُر الرهبانيّة التي أعادت تعييني لمرحلة ثالثة في هذه الجامعة الغالية على قلبي، ووثقَت بأنّ ما أقوم به هو جزء من خدمتِها هي للكنيسة الشابّة؛ ولم تكتفِ بهذا، بل عيَّنت معي الأب المُدبِّر جورج ناصيف الذي أكُنّ له كلّ احترامٍ وتقدير وشُكر على كُلّ التّعاون الذي أبداهُ نحوي ونحوكم.

ثُمّ، أشكُر الجامعة وعلى رأسِها الأب وليد، هذا الرّئيس الذي لم يُبدِ نحو الـ Pastoral سوى المحبّة الأبويّة، داعِمًا إيّانا برفقة الآباء جميعًا بكلّ أنواعِ الدّعم. فلَهُم جميعًا يتوجّه شُكري.

إسمحوا لي أن أشكُر Sola على التّعب والجديّة، والسّهر على أمورِكُم، والخِدمة المُحبّة التي تُقدّمها للمكتب ولكُم ولي شخصيًّا. وبإسمكم أسأل الله أن يُبارِك حياتها ويمنحها كُلّ ما تحتاج إليه.

كما أريد أن أشكُركم واحِدًا واحِدًا، لأنّكم كُنتم بقُربي ومعي تعملون وتُصلّون، وتشهدون ليسوع الحبيب في وسط الجامعة وما بين الجامعيّين. فأنتم الشّباب والصّبايا الذين وثق بهم المسيح وسلّمهم كلمته وروحه وأمّه وطلب منهم أن يبنوا ملكوته في الـ NDU، فكنتم البنّائين النّشيطين والعُمّالَ المُخلِصين. أحسنتم أيّها الأحبّاء، أشكركم أيّها الكُرماء. باركم إلهي.

وقبل أن أشكُر اللجنة، أريد أن أقول للخرّيجين، لا تنسوا أنّكم مريميّون مطبوعون بملامح مريم، فكونوا مُعظِّمين الربّ على مِثالها بإيمانكم ورجائكم ومحبّتكم، وابقوا أُمناء للجامعة التي منها تخرَّجتُم، وأحِبّوها أينما كُنتم.

والآن عليَّ أن أشكُر أعضاء اللجنة باسمكم وباسمي وباسم الجامعة، على الخدمة التي أدّوها خلال العامّ الدراسيّ ٢٠١١-٢٠١٢.

١. ليا عقيقي: على الرّغم من انّكِ إبنة كفرذبيان الجرديّة، ذات الطّبيعة الصخريّة، إلاّ أنّني أُشبّهُكِ بزهرة الياسمين الوديعة النّاصعة البياض. بحضورك يفرح الكثيرون ويطيبُ لهم عطر نجاحكِ ونُضجكِ والتزامكِ، وأنا واحد من هؤلاء الكثيرين.

كنتُ أظنّكِ ضعيفة، إلاّ أنّ الأيّام قد كشفت لي أنّكِ إبنةُ جردٍ عالٍ يتميّز بالكرم والهمّة وعطاء الذّات، وأعتقد أنّ كلمة الربّ لكِ هي: «الآب يُحبُّني لأنّي أُضحّي بحياتي حتّى أستردَّها» (يوحنّا ١٠/١٧-٢).

٢. جوزيف باسيل: رُهبان مريميّون يدعون سيّدة اللويزة السّاهرة، وذلك إيمانًا منهم بأنّ مريم هي مثل زهر اللوز تسهر على طلوع الرّبيع. هكذا هي تطلّ على العالم لتُخبِر بوصول الرّبيع الإلهيّ يسوع المسيح.

جوزيف باسيل، أستطيع أن أُشبّهكَ بزهرة اللوز الذي رأيتها بُرعمًا ثمّ رافقتها حتّى أصبحت كبيرة. فيكَ أرى وجهًا مريميًّا.. وجهًا ساهِرًا، حاضرًا، قريبًا، مُتعاونًا...



وأعتقد أنّ كلمة الربّ لكَ هي: «فلمّا برّرنا الله بالإيمان، نعِمنا بسلام معهُ بربّنا يسوع المسيح» (رو ١/٥).

٣. ناتالي غرّة: هل رأيتِ وردةً مُخمليّةً حمراء؟ أنا رأيتُها أكثر من مرّة، وهذه الوردة هي أنتِ. فالإحمرار رمزٌ للخجل، وأنتِ في أماكن عديدة كنتِ تخجلين، والمُخمَل هو المقام الخاصّ الذي كرّستِهِ لذاتك. فصحيح أنّكِ قريبة، إلاّ أنّكِ على مسافة مع الكثيرين. فأنتِ كالوردة لكِ حضورك، ولكن في الوقت عينه الكلّ يحبّ الإقتراب منكِ.

أعتقد أنّ كلمة الربّ لكِ: «نذكرُ أمام إلهنا وأبينا ما أنتم عليه بربّنا يسوع المسيح من نشاط في الإيمان وجِهاد في المحبّة وثبات في الرّجاء» (١ تسا ٣/١).

٤. فانيسّا كفوري: هُناك زهرة فيها من الجمال ما يستطيع أن يجعلنا ننظر إليها وقتًا طويلاً. وما يُميّز هذه الزّهرة، دفئها، لونها، وسّرها.

هذه الزّهرة تُدعى توليب. وعندما كنتُ أفكّر بأيّة زهرة أُشبِّهُكِ، سُرعان ما رأيتُكِ في مصافّ التوليب، وذلك لأنّكِ بحضوركِ دافئة، مُلفِتة، غنيّة بمواهبكِ، ولا أشكّ أنّكِ بهدوئكِ منحتِنا لونًا خاصًّا وسرًّا للإكتشاف. لكِ من الربّ كلمة «هنيئًا لِمن يسمع كلام الله ويعمل به» (لوقا ١١/٢٨).

٥. ماريانا موسى: مثل زهر البنفسج الشتويّ الرّائع. عطرٌ وتواضع ميزتا هذه الزّهرة. عندما كُنّا صِغارًا، كان قرب بيتنا مشتلٌ لأزهار البنفسج، وكنتُ أنحني إليها فترفعني

إلى مَن أبدعها. هكذا هو حال ماريانا، كلّما اقتربنا من اتّضاعِها، كلّما رفعَتنا إلى مَن أبدَعَها.

كلمة الربّ لكِ يا ماريانا: «لنتقدّم بثقة إلى عرش واهب النّعمة لننال رحمةً ونجِد نعمةً تُعيننا عند الحاجة» (عب ٤/١٦).

٦. فِراس ناشف: إبن الجنوب، والجنوب مشهور بزهر الليمون. فِراس، كما الليمون ما أن يُزهِر حتّى ينعقد زهرُه، وما أن ينعقد زهرُه حتّى يُزهِر مرّة جديدة. هكذا أنتَ يا فراس ما أن تعقِد مشروعًا حتّى تُفكّر بآخر. وكما زهر الليمون يُنعِش مُتنشّقيه، كذلك هي ابتسامتُكِ التي تبوح لنا كُلّما التقيناكَ كم من الحبّ في قلبكَ نحونا.

لكَ كلمة من الربّ: «صعِدَت صلواتُكَ وأعمالُكَ الخيريّة من الله فتذكَّرك» (أع ١٠/٤).

٧. بطرس عساكِر: فكّرتُ طويلاً بالزّهرة التي يُمكن أن تُشبهك، فشعرتُ أنّ زهرة الوزّال هي الأقرب. فإنّكَ وإن لم يكُن لديك كُلّ حين أفكار وأعمال، إلاّ أنّك دائم الحركة، دائم الحياة، دائم الإستعداد والخدمة من جرود العاقورة حتّى سواحل كسروان. فأنتَ صخر وأنتَ زهر وزّال. وهذا إن عنى لنا شيئًا، فإنّما يعني أنّك طبيعيّ مئة بالمئة.

وكلمة الربّ لكَ: «من يشرب من الماء الذي أُعطيهِ أنا فلن يعطش أبدًا» (يو ٤/١٤).

٨. جاد ملاّح: هناك زهرة رائعة بتعميمِها وفاتِنة بألوانِها وطيّبة برائحتها تُدعى نرجس. هذه الزّهرة بتواضعِها قويّة، وببساطتِها رائعة. هكذا هي شخصيّتُكَ وأعمالُكَ، فأنتَ تقترب بدون ضجيج وتعمل بدون صخب، لذلك تظهر في شخصيّتك قوّتك في أعمالك وروعتك، وكلمة الربّ لكَ: «الإنسان الباطن يتجدّد يومًا بعد يوم فينا» (٢ كور ٤/١٦).

وبعد، شُكري ومحبّتي وصلاتي وتمنّياتي لكُم جميعًا ولكلّ أحبّائكم بكُلّ خيرات السّماء. وأسألُكم أن تُصلّوا دائمًا لأجلِنا نحنُ الكهنة، ولأجل رهبانيّتنا المريميّة الحبيبة، ولأجل الجامعة التي ننتمي إليها كُلّنا.

والآن هذه أسماء أعضاء اللجنة التي ستهتمّ بتنشيط الـ Pastoral NDU لمدّة سنة ٢٠١٢-٢٠١٣:

ليا عقيقي: مُنسّق - **فِراس ناشف:** نائب مُنسّق - **عبير حدّاد:** مسؤولة إعلام - **جاد الملاّح:** مسؤول نشاطات داخليّة - **ليا حرب:** مسؤولة ترفيه - **ناتالي غرّة:** أمينة صندوق - **جورجيو نجَيم:** مسؤول روحيّات - **سيلين خوري:** أمينة سرّ - **جوزيف باسيل:** مسؤول نشاطات عامّة.

سهرة المتخرّجين

في ٣ أيلول، سَهِر شبيبة العمل الرعويّ الجامعيّ بحضور الأب الرّئيس وليد موسى، والأب المرشد فادي بو شبل، في مطعم قلعة الرّوميّة- القليعات، لتكريم الأعضاء الذين تخرّجوا في العام الدّراسيّ ٢٠١١-٢٠١٢. تخلّل اللقاء فيلم عن حياة المتخرّجين من أعضاء الجماعة، وتقديم هديّة تذكاريّة لهم هي عبارة عن طفل براغ.



القدّاس الإفتتاحيّ للعام الدراسيّ ٢٠١٢-٢٠١٣





إحتفل به الأباتي بطرس طربيه، الرئيس العامّ للرّهبانيّة، يعاونه آباء الجامعة، يوم الجمعة ١٢ ت' ٢٠١٢، وشاركت فيه عائلة الجامعة كلّها، وخدمه شبيبة العمل...

قدّاس عيد الطوباويّ البابا يوحنّا بولس الثاني



إحتفالاً بعيد الطوباويّ البابا يوحنّا بولس الثاني، شفيع الشبيبة، أقامت الشبيبة الذّبيحة الإلهيّة، الإثنين ٢٢ ت'، تلته مسيرة إلى حديقة الطوباويّ حيث وضعت باقة ورود أمام تمثاله وصلّت الأبانا والسّلام.

رحلة إلى دير مار سركيس وباخوس- عشقوت



نظّم العمل الرعويّ الجامعيّ في ١ ت[٢]، عيد جميع القدّيسين، زيارةً إلى دير الابتداء التّابع للرّهبنة المارونيّة المريميّة في عشقوت، للتعرُّف إلى الحياة الرهبانيّة مع المبتدئين. بعد القدّاس الإلهيّ، عُرِض وثائقيّ عن تاريخ الرهبنة. وبعد الغداء، تناول اللقاء حياة الابتداء وخبرة حياة أحد المبتدئين.

يوم العمل الرعويّ الجامعيّ



إجتمع شبيبة العمل الرعويّ الجامعيّ من كلّ جامعات لبنان، في ٢٢ ت[٢]، بمناسبة عيد العمل الرعويّ الجامعيّ، في الجامعة اليسوعيّة بالمنصوريّة (USJ-CST)، تحت عنوان: «مَن هو حتّى نؤمن به» (يو٩/٣٦).

بدأ النّهار بالصّلاة والسّجود للقربان الأقدس، وتخلَّله موضوع قدّمه فادي بو شبل بعنوان: «باب الإيمان» إنطلاقًا من رسالة البابا بنديكتس السادس عشر. وكانت لجان الجامعات قد جهّزت stands عرّفت من خلالها بأنشطتها. ثمّ تلا ذلك التّعريف بالعمل الرعويّ الجامعيّ ككلّ بمسرحيّةٍ كوميديّة.

وقدّم زوجان انتميا إلى أسرة العمل الجامعيّ شهادة حياتهما. واختتم اللّقاء بالقدّاس الإلهيّ ترأسه المطران جورج بقعوني المُشرف على العمل الرعويّ الجامعيّ في لبنان وشارك فيه آباء مرشدون.

قدّاس لراحة نفس السيّدة جورجيت والدة الطّالبة تريزا سركيسيان

بعد الإنفجار الذي هزّ الأشرفيّة في ٢٠ ت[١] ٢٠١٢ تعاطفت عائلة الجامعة مع ابنتها الطّالبة تريزا (كليّة إدارة الأعمال)، محتفلةً بالقدّاس الإلهيّ نهار ١٦ ت[٢] لراحة نفس والدتها جورجيت سركيسيان، حيث جاء في عظة الأب بو شبل:

يقول الرّسول بولس في رسالته اليوم: «لقد فاضَت عليَّ نعمة ربِّنا مع الإيمان والمحبّة التي في المسيح يسوع» (١ تم ١/١٤). وما يقولهُ بولس عن نفسِه يصحُّ بِمَن نحتِفل بالصّلاة لأجلها، لأنّنا نعلم أنّ جورجيت كانت تؤمن، وكانت تُحبّ. ولذلك فإنّ رجاؤنا اليوم أن تكون في السّماء مُحاطة بالملائكة والقدّيسين.

إنّ الفُراق أصعب من أن نصِفه بكلمات، والسّيف المغروز في قلوب إبنها وإبنتها وزوجِها أكثر وجعًا ممّا نتصوّر، ولكن «نحن نعلم بمن آمنّا» (٢ تم ١/١٢)، ونعرف بأنّهُ، وهو الحياة، قد انتصر على الموت، ووعد بأنّ «كلّ مَن يؤمن به، لن يرى الموتَ أبدًا» (يو١١/٢٦).

ملفّات

إدوار حنين في مئويّة ولادته ١٩١٣-١٩٩٢

«ماذا ينفع اللبنانيّ لو ربح العالم كلّه وخسر لبنان؟»



مار نصرالله بطرس صفير
البطريرك المارونيّ سابقًا

هذه المقولة التي عبَّر إدوار حنين فيها، عن قناعته الراسخة، وإيمانه العميق بكيانيَّة لبنان، لم تكن مقولة عابرة، بل كانت بنغمتها الرؤيويّة صرخةً اختصرت الماضي من الأيّام، واستشرفت حاضرنا البائس! وإنّ إصدار كتابات ومذكّرات هذا الرجل الكبير، ليُحيي فينا صورة الكبار من رجالات لبنان، ويُنير أجيالَنا الطالعة.

نشط إدوار حنين في السياسة، منذ فتوَّته. ومع ممارسته القانون والصحافة، تمتَّع بخاصّيتين بارزتين، أوّلهما النُبل الإنسانيّ الذي كان جليًّا في حضوره، وكلامه، وتصرّفاته، وممارساته الاجتماعيّة والسياسيّة، وهي خاصيَّة استقاها من تربية مسيحيّة أصيلة، ومن معرفة وافية لماهيّة ولتاريخ لبنان الحضاريّ. والخاصيَّة الثانية هي أمانته لقضيَّة لبنان كوطن حرّ، سيّد، مستقلّ، متأصّل في الحضارة الإنسانيّة العالميّة، ومتجذِّر في محيطه الشرقيّ والعربيّ. وهذا الوطن، في رؤية إدوار حنين، هو ضرورة ذاتيَّة وعربيّة وعالميّة في تعدّديّته ورسالته الإنسانيّة. وكأنّه كان سبَّاقًا لما سيقوله، بعد عشرات السنين، قداسة البابا يوحنّا بولس الثاني عن لبنان بأنّه: «أكثر من بلد، إنّه رسالة حريّة ونموذج في التعدّديّة، للشرق كما للغرب».

لقد ألْبَسَ إدوار حنين شخصيّته الإنسانيّة والسياسيّة، جرأة المواقف، معبِّرًا عن فكره الوطنيّ ببلاغة ساحرة ووضوح جذَّاب، يسكب فيهما ثقافته المتنوّعة، التي جمع فيها سعة معرفته القانونيّة والتاريخيّة، واختباراته السياسيّة والاجتماعيّة، فأصبح، مع كونه شاهد عيان وقارئًا ثاقبًا للأوضاع، صانع الأحداث بقلمه وفكره، خاصّة من خلال تولّيه الأمانة العامّة للجبهة اللبنانيّة.

شرَّف إدوار حنين الحياة البرلمانيّة، بممارسة السياسة التي امتهنها كرسالة تحمل نُبل الالتزام الوطنيّ، إلى جانب كبار من لبنان، أمثال: شارل مالك، وفؤاد افرام البستاني، وجواد بولس، فأضحى معهم ومع كبار القادة السياسيّين، أمثال كميل شمعون، وبيار الجميّل، وريمون إدّه، وسليمان فرنجيّة، رموز الوطن واستمراريّته. وسيذكر التاريخ بأنّه ساهم مع هؤلاء جميعًا في المحافظة على هذا الوطن الذي قال عنه إدوار حنين «أنّه أرض الحريّة ومعقل الأحرار».

وإنّنا في موقع التذكير بهذا الإنسان الكبير، ونحن نتذاكر ذكراه، نفخر بالرجال أمثاله، ونرجو من شبابنا اليوم أن يقرأوا ويتأمّلوا في كبير من كبار الوطن، كانت وصيّته الأخيرة: «أتمنّى أن يُكتب على بلاطة قبري: هنا يرقد مؤمن بالله وبلبنان».

إدوار حنين:
المحامي والصحافيّ والكاتب والمفكّر والنائب والوزير، وقبل كلّ ذلك الإنسان

حسين الحسيني
رئيس مجلس النوّاب سابقًا



إدوار حنين
عرفته صديقًا لوالدي،
وعرفته كاتبًا وتابعت كتاباته ومقالاته،
وعرفته نائبًا وكان لي الحظّ في مزاملته،
وعرفته نائبًا مساهمًا في مسيرة الوفاق الوطنيّ،
كما كانت لي فرصة التعرّف على إدوار حنين الإنسان في السفر.
إدوار حنين بدأ حياته في ميدان الصحافة، كونها ميدان الحريّة، وكان المقال الأوّل الذي حرّره، تناول فيه القضاء بعنوان «ساعدوا القاضي على أن يتحرّر».
فقد أدرك إدوار حنين أنّ حريّة الصحافة، بما هي حريّة، متعلّقة بمعنى لبنان، متعلّقة بدور لبنان. بل إنّ عيش اللبنانيّين المشترك في هذه البلاد، عيشًا كريمًا، مرهون بالحريّة. حتّى أنّ إضاعة هذه الحريّة تكاد لا تعني إلاّ فقدان الوطن.
وأدرك إدوار حنين أنّ على الصحافة أن تدافع عن شروط عملها، وأن تكون حيث يجب أن تكون، إلى جانب الحريّة، إلى جانب العقل، ولو شاء هاتين الكلمتين في كلمة واحدة لقال إنّها القانون.
فالصحافة حرّة في دولة يسودها القانون،
في دولة يخضع فيها الحاكم، كما المحكوم، لسيادة القانون.
والصحافة، كما رآها إدوار حنين، أي دفاع عن نفسها، خيرٌ من أن تجعل استقلال القضاء وشموله، قضيّتها الخاصّة،
فكان مقاله الأوّل بعنوان «ساعدوا القاضي على أن يتحرّر».
وفي نظامنا الذي ثبّت، وثبّتنا مع إدوار حنين وأمثاله للدفاع عنه والتمسّك به،
في هذا النظام، السلطة التي تتولّى تأمين سيادة القانون، على الحاكم كما على المحكوم، السلطة المستقلّة، هي سلطة القضاء.
هذا القضاء، الذي بدون وجوده واستقلاله، يصبح الحديث في النظام الديمقراطيّ البرلمانيّ، حديثًا فارغًا،
هذا القضاء، الذي بدون عمله، يصبح الحديث في بناء الدولة، حديثًا كاذبًا؛
ومن هنا كانت مساهمات إدوار حنين الهامّة خلال مسيرته في الشأن العامّ وما أعطاه للحياة البرلمانيّة طيلة حياته النيابيّة، وموافقته الفاعلة على ما نصّت عنه وثيقة الوفاق الوطنيّ، التي أعلنت في مدينة الطائف، في مقدّمتها، والتي أصبحت مقدّمة للدّستور:
«النظام قائم على مبدأ الفصل بين السلطات وتوازنها وتعاونها»،
كما نصّت في متنها على ما يأتي:
أ. ضمانًا لخضوع المسؤولين والمواطنين جميعًا لسيادة القانون، وتأمينًا لتوافق عمل السلطتين التشريعيّة والتنفيذيّة مع مسلّمات العيش المشترك وحقوق اللبنانيّين الأساسيّة المنصوص عنها في الدستور:
١. يُشكّل المجلس الأعلى المنصوص عنه في الدستور، ومهمّته محاكمة الرؤساء والوزراء...
٢. يُنشأ مجلس دستوريّ... لمراقبة دستوريّة القوانين...
ب. «تدعيمًا لاستقلال القضاء: يُنتخب عدد معيّن من أعضاء مجلس القضاء الأعلى من قِبَل الجسم القضائيّ».
إذ كيف السبيل إلى إشاعة الاطمئنان وبناء الثقة اللازمين، ما دامت الحقوق والحريّات مفتقرة إلى من يحفظها؟
ومن يحفظ هذه الحقوق إذا لم يكن القضاء شاملاً الحاكم والمحكوم، منيعًا على مَن يريد العبث بأحواله واستتباع قراراته؟
هذا القضاء، الذي هو بالأمس والآن، يحتاج جهود الجميع لكي يكون العدل شاملاً، ولكي يكون الأمن عامًّا، ولكي تكون الحريّة محميّةً، ولكي يكون الأمل خصيبًا.
أمّا على الصعيد الشخصيّ، فلا بدّ من أن أذكر إدوار حنين وهو يعزّيني بوفاة صديقه، والدي، خريف عام ١٩٧٣، وكنتُ حينها أضع طوقًا طبيًّا في عنقي نتيجة بعض الآلام... وبعد استذكار صداقته التي ربطته بوالدي، استفسر عن الطوق ولزومه، فنقلت له ما يقوله الطبيب بهذا الشأن، فبادر إلى القول: نحن نذهب سويًّا مع رئيس الحكومة الأسبق ناظم عكّاري والمطران غفرائيل الصليبي، إلى مدينة «مارييسكي» في تشيكوسولفاكيا، وهناك مركز علاج فيزيائيّ، فلماذا لا ترافقنا هذه السنة وتجري المعالجة لآلام عنقك؟
وهكذا كان. وفي تلك الرحلة مع الزميل حسن الرفاعي، توطّدت الصداقة بين إدوار حنين وبيني، بل وكان لهذه الرحلة التأثير الهامّ في تعاوني معه في الندوة البرلمانيّة في العديد من الأعمال، والتي كان آخرها اتفاق الطائف.
وبمناسبة استذكار الصديق إدوار حنين اليوم، كلّ ما أستطيع قوله لك أيّها الصديق العزيز: إنّك لا تزال معنا، وقد كان لك العديد من الأعمال والمساهمات في الدفاع عن لبنان واللبنانيّين، ويقيني أنّ جهاد وصلاح يكملان الطريق.



إدمون رزق
نائب ووزير سابقًا

تعلّمنا منه وأخذنا عنه

لكلِّ مَن عَرَفَهُ، في مختلفِ أطوارِ حياتِه ومراحلِ نضاله، شكّلَ إدوار حنَيْن مثالاً للشخصيّة اللبنانيّة الأصيلة، على كثير من الخصوصيّة والتميُّز.

لقيتُه منتصفَ الأربعينات، إذ كان والدي، أمين رزق، يصطحبُني في حداثتي، إلى مكتبِه في جريدة «الحديث»، لصاحبها الياس حرفوش، ثمّ مطلع الخمسينات في مكتبه بجريدة «الروّاد»، لصاحبها بشارة مارون، حيث كان يزورُه أصدقاء أدباء وشعراء، زملاء صحافيّون وناشطون سياسيّون، بينهم إدوار حنين؛ فتأسّست في قلبي محبّته.

أحفظُ من تلك الأيّام إطلالاتٍ متألّقةً لإدوار حنين، في مقالاتٍ ودراسات، أو محاضرات على منبر الندوة اللبنانيّة. قبل ذلك، شارك في تأسيس «ندوة الاثني عشر»، مع ميشال أسمر رائد الاستنهاض الفكريّ- الثقافيّ والاستشراف السياسيّ، وكان بين الاثني عشر كبيرٌ من أبناء عمومتنا المتقدّمين، هو السفير يونس سعيد رزق، كما جمعته صداقةٌ شخصيّة بخاليَّ بهجت وحكمت ناصيف، فكانوا مجمعين على الإشادة بمزايا إدوار حنين: الأديب، المحامي، المواطن والانسان.

بعد وفاة صلاح لبكي، أوّل رئيس لجمعيّة أهل القلم، أجمع أعضاؤها على إدوار حنين، فكان خيرَ خَلَفٍ لذلك الشاعر المتعدِّد الموهبة، الذي مثّلَ ظاهرةً إبداعيّة.

في ١٩٦٠، سنحت لي مناسبة الاقتراب من جوّانيّة إدوار حنين، عندما عُهِدَتْ إليَّ إدارة الحملة الانتخابيّة للائحة الائتلافيّة في دائرة بعبدا- المتن الجنوبيّ، المؤلّفة منه، عن الكتلة الوطنيّة، عبده صعب عن الكتائب اللبنانيّة، محمود عمّار عن حزب الوطنيّين الأحرار، بشير الأعور وأرنست كرم (رفيق الدراسة وزميل المحاماة) عن المستقلّين.



مدى أسابيع، عشنا إلى جانب إدوار حنين ورفاقه، في الاجتماعات والمهرجانات اليوميّة المكثّفة، وكان معنا رفاق أعزّاء من الكتائبيّين في طليعتهم أنطوان غصن، رئيس مصلحة الأقاليم، رشاد سلامه وجوزف الهاشم، فتوثّقت المعرفة وتعمّقت المودّة، خصوصًا بعد الفوز المبين الذي حقّقته اللائحة.

في ٣١ آذار ١٩٦٨، انتُخِبْتُ نائبًا عن منطقة جزّين، فجئتُ في الغداة إلى الشيّاح مشاركًا في مهرجان لائحة «الحلف الثلاثيّ» المؤلّفة من إدوار حنين ورفاقه، وألقيتُ ما سمّاه هو «خطاب الانتصار في لقاء المنتصرين»!

ذلك العام، أيضًا، تعدّدت لقاءاتنا الدوريّة، في إطار «ندوة الجريدة»، لصاحبها ورئيس تحريرها جورج سكاف، ناسج الصداقات وناظم المبادرات، وكانت تضمّ إلى إدوار حنين الدكتور عبد الرحمن اللبّان والدكتور حسن صعب والدكتور بشير العريضي والدكتور جميل ألوف والشيخ وسيم تقيّ الدين وأمينتها العامّة دعد أبي نادر (سكاف)، وقد أقامت الندوة حوارات حول ملفّات وطنيّة واجتماعيّة اقتصاديّة شارك فيها مختصّون حتّى ليمكن اعتبارها «سابقة حواريّة»...

على امتداد حوالى ربع قرن من الرفقة في المجلس النيابيّ، وما تخلّلها من تولّي وزارات وحضور مؤتمرات برلمانيّة، واجتماعات للجبهة اللبنانيّة التي كان إدوار حنين صوتها الصارخ وأمينها العامّ الراجح الرأي، البليغ الحكمة؛ وعَبْرَ تجارب الصمود والمعاناة العامة والشخصيّة، من خطف وتهجير وتفجير، كانت العُرى بيننا تتوثّق والمحبّة تتعمّق، فمزاياه ومبادئه تنسج حولَه هالةً من السموّ



الفكريّ والإشعاعِ الروحي، لتجعلَ منه نجمَ الجلساتِ والمجالس، حتّى ليصحُّ فيه قول الشاعر: «تأتَمُّ الهُداةُ به» حضورًا نوعيًّا، «هاديًا ومَهْديًّا»!

أعودُ بالذاكرة إلى انطلاقة الحلف الثلاثيّ، حيث كان لي أن أحقِّقَ أوّل لقاءٍ بين الرئيس كميل شمعون والشيخ بيار الجميّل في منزلي (١٩٦٥)، بعد انقطاعٍ طويل. ثمّ عمل كاظم بك الخليل وإدوار حنين على جمعهما بالعميد ريمون إدّه، فاكتمل الحلف وفاز بثلث مقاعد مجلس نوّاب التسعة والتسعين، فتألّفت لجنة متابعة وتنسيق، ضمّت إدوار حنين والدكتور إميل سلهب عن الكتلة الوطنيّة، جوزف مغبغب والدكتور فيليب الخازن عن حزب الوطنيّين الأحرار، نصري المعلوف وبشير الأعور عن المستقلّين، جوزف شادر وأنا عن الكتائب، فكنّا نعقد اجتماعاتٍ أسبوعيّةً لتحضير مؤتمر الحلف في فندق برنتانيا- برمّانا، ووضع البرنامج الوطنيّ المشترك. يومذاك، عَهِدَ إليّ الزملاء صياغة البيان-البرنامج، ففعلتُ خلال انعقاد المؤتمر، ثمّ عرضته على اللجنة مجتمعةً فاقرّته، ودعونا قادةَ الأحزاب الثلاثة الرئيس شمعون والعميد إدّه والشيخ بيار فوقّعوه، وتلاه نصري المعلوف على الإعلاميّين في نهاية المؤتمر (آذار ١٩٦٩)، ما جعل إدوار حنين يؤرِّخ الحَدَث بقوله: «نحن الثمانية تداولنا الأمور وتبادلنا الرأي، واحدٌ كتبَ وثلاثةٌ وقّعوا...»!

... وأتذكّر أيضًا تلك المناسباتِ الاجتماعيّة، في ضيافةِ كاظم بك الخليل الذي تحوّلت دُورُه العامرة في بيروت (ثمّ مستديرة المطار فالحازميه) كما في صور وشَبريحا، الى ملتقيات وطنيّة جامعة، زانها حضور كبار القوم، في طليعتهم الرئيس صائب سلام وصحبُه، ولن أنسى حبيب بك مطران ولويس ابو شرف وعبده صعب وجورج عقل، سقى اللهّ تلك الأيّام، عشيّاتٍ وأصباحًا!

... من أيادي إدوار حنين ومكرُماته عليّ، عندما تولّيتُ «وزارة التربية الوطنيّة والفنون الجميلة» في ١٩٧٣ و١٩٧٤، وكان قد تولاّها قبلي، أنّه خصّني بمقالين افتتاحيّيَن في «الجريدة» و«البيرق»، وقرّا لي، مع افتتاحيّة لشاعر العصر المكوكب سعيد عقل، في «الجريدة» أيضًا، وبعناية جورج سكاف، دعمًا معنويًّا في إحدى أصعب المسؤوليّات، إبّان مرحلة ذاخرةٍ بالتحدّي المطلبيّ و«الثورة الطلاّبيّة».

أشياء كثيرة تعلّمناها من إدوار حنين وحفظناها عنه، فهو القائل: «أَظلمُ الناس امرُؤٌ يأخذُ من قلبِك ويعطيكَ من جيبِه»، في إشارةٍ إلى آفةِ شراءِ الأصوات في الانتخابات، فكان لهذه العبارة فعل السحر في إيقاظ الضمائر وقلبِ المعادلات!

أمّا قوله «كلما صغر لبنان اعتزّ، وكلما كَبُرَ اهتزّ»، فقد عنى به أنّ لبنان العشرة آلاف وأربعماية واثنين وخمسين كيلومترًا مربّعًا، الخِيار التاريخيّ للبطريركيّة المارونيّة، هو الحدودُ الكافية، الآمنة وضامنة الحريّة والكرامة، للطوائف المتآخية، المتساوية في المواطنيّة، وأنّ التّمدّد والاتّساع، في أطاريح الوحداتِ والاتحادات، الضمّ والدمج، تهدّدُ الكيان التعدّديّ الموحّد، الوحيد في شرقٍ مكبّلٍ برجعيّة التمييز العنصريّ والدينيّ، يقينًا أنّ ربّك، لو شاء، «لجعل الناسَ أمّةً واحدة».

لقد كان لبنان «الحريّة والسيادة والاستقلال»، رهانَ عمر إدوار حنين، وبقي وفيًّا به حتّى الرمق الأخير، فحملَ آلامَهُ إلى مؤتمر الطائف، متفانيًا في مسعى الإنقاذ، حيث أعياهُ الداء، وما لبث أن أغمض عينيه المشعّتين إيمانًا ورجاءً ومحبّة، وهو يستودعُ الأجيال الآتية حلمَ الدولةِ الديموقراطيّة في «الوطن الرسالة»!

فيا أيّها الأخ الأكبر، في المئويّة الأولى لولادتِك، سلامٌ عليك، حيثما أنت، ولصلاح، نجلِك السائرِ على خطاك، نعمةُ البُنُوّةِ وإرثُ «الفصول»!

جزّين، ١٤ أيلول ٢٠١٢

عيد ارتفاع الصليب

إدوار حنين، لبنان الكلمة



جورج سكاف
صاحب «الجريدة» ووزير سابقًا

عرفته على مدى نصف قرن ورافقته في بعض مساره على دروب لبنان، دروبًا يعرف وحده خطوطها وشعابها، بداياتها ومطبّاتها والنهايات، فعرفت منه لبنان بماضيه العريق اللمّاح، وحاضره المضني الوثّاب، لبنان الذي تعرّض في كلّ فصل من فصول التاريخ لعاصفة هوجاء، فصمد وعاد ليطلّ بإشراقة صافية على آفاق فجر جديد.

ولو لم أعرف إدوار حنين إنسانًا خلوقًا محبًّا وأديبًا مجلّيًا، وسياسيًّا وطنيًّا كبير الشأن، لخلته في كتاباته على دروب لبنان، جبلاً من لبنان مجلّلاً بكلمات من عنفوان أرز وصلابة سنديان، ومن شذى ورد وبهاء أزاهير.

إنّه قوّة كامنة في الكلمة.

ابن كلمة كانت منذ البدء فعل خلق، كلمة كُن فكان الكون، وصارت صفة المخلوق الخلاّق الذي أعطي وحده نعمة الكلمة، ومعجزة الكلام. وبفضل الكلمة قامت المجتمعات وتمّ التواصل بين البشر وتلاقت المجتمعات وتكاملت الحضارات وحقّقت الانسانيّة تقدّمها الثقافيّ والاجتماعيّ والعلميّ.

آمن إدوار حنين بقوّة الكلمة، وأنّ بقوّة الكلمة وحدها يستطيع البشر أن يغيّروا التاريخ، فتملّك الكلمة السواء ولا شيء سواها. كلمة يستقيها من الينابيع العالية، نقيّة صافية، ويقطفها من رؤوس القمم الجبليّة مكلّلة ببياض الثلج، أو يقتلعها من أعماق أودية نفوس مكتنزة ذخائر وتراث أجيال وأزمنة ضاربة في عمق التاريخ... بالكلمة حقّق ما لم يحقّقه سواه لا بقوّة المال والخدمات النفعيّة، ولا بقوّة سواعد أهل القبيلة والعشيرة، ولا بعصبيّة أتباع مذهب أو طائفة... ولا بقوّة سلاح ومسلّحين، ودعم قوى خارجيّة يستعان بها في كلّ الأزمات كما في عمليّات الغزو للسطو والسيطرة...

واجه إدوار حنين كلّ هذه القوى لوحده، وكان منها الأقوى بسيف القلم، وقوّة الكلمة.

لم أره مرّة، وفي أيّ وقت، عند الصباح الباكر أو في ساعات الليل المتأخّرة إلاّ وهو يكتب، حتّى عندما يكون في مهمّة رسميّة، أو في لقاء سياسيّ، ولا يزعجه أن يدخل عليه فجأة من يقطع له سيل قلمه وتواصل أفكاره، فيستقبل زائره بحرارة صادقة، ويدخل معه في حديث مسهب يتناول ما جاء من أجله وما يستدرجه إليه، وعند ذهابه يستأنف الكتابة من حيث توقّف، ويضيف إليها ما فعّل به فكره أثناء الحديث.

في كلّ ما كتب إدوار حنين، وما أكثر ما كتب، لم يخرج مرّة عن أسلوبه البليغ الرائع، الذي يجمع بين الحكمة ووميض الإشراق. تصدّر الصحافة اليوميّة والدوريّة بمقالات سياسيّة أو أدبيّة. وفي الندوات الفكريّة والثقافيّة كان المحاضر المفوّه. وعلى المنابر كان الخطيب المجلّي. أمّا في الجلسات الحميمة فهو محدّث لبق يأسر بحديثه الألباب.

رأيته في «الندوة اللبنانيّة»، أرقى منتدى ثقافيّ عرفه لبنان، «شاهد حال» (١٩٤٩) يقول «ما يعرف ولا يقول غير ما يعرف، ويشهد بالحقيقة كلّ الحقيقة، ولا يشهد بغيرها أبدًا».

إذا تناول الطائفيّة رآها «مزيجًا من قشور الدين دون لبّه، ومن شعائر الإيمان دون الإيمان، ومن غيرة القساوسة والمشايخ دون رأفتهم واستلهام ربّهم، ومن سذاجة اللبنانيّ دون فطنته وذكائه...»



ورأيته يستخلص «العبر من التاريخ» (١٩٦٠) فيجد «طمأنينته حيثما وجد الجدود طمأنينتهم، وقلقه حيثما كانوا يقلقون»:

- «إنّ لا طمأنينة أليفة في الروحيّة اللبنانيّة، إن هي، أمس، إلاّ يد دخيلة محرّكة، واليوم، إلاّ تجارة تجّار منافقين».
- «إنّ لبنان منذ ما يزيد على السبعماية سنة، ملجأ الأقلّيات الفازعة من بلادها إليه. فهو بلد الحريّة وملجأ الأحرار».
- «إنّ لبنان مفطور على الديمقراطيّة الشعبيّة، تنتقل فيه الإمارة من أسرة إلى أسرة، بفعل الإرادة الشعبيّة، مائة سنة قبل الثورة الفرنسيّة».
- «إنّ باب السلامة للبنان، الحياد عن المنازعات الإقليميّة. وإنّ انتصار القضيّة اللبنانيّة وتخاذل هذه القضيّة منوطان بقيمة شخص الحاكم. فاللبنانيّون شعب يحكم مع الحاكم ولا يمحى في وجه الحاكم.

عطاء إدوار حنين الأدبيّ والفكريّ لا يفوقه عطاء، فأحلّه «أهل القلم» رئيسًا لهم دون أن ينصرف كليًّا للأدب. سار أكثر في درب السياسة وصار هذا الأديب الشخصانيّ المتحرّر، حزبيًّا ملتزمًا، بل أمينًا عامًّا لحزب وناطقًا رسميًّا باسمه، كما أصبح، أمينًا عامًّا لجبهة تضمّ أحزابًا وشخصيّاتٍ سياسيّةً عديدة، واستطاع أن ينسّق بين العمل الجَماعيّ، دون أن يخسر شيئًا من استقلاليّته وفرادته تفكيرًا ونهجًا».

من أهمّ ميزاته السياسيّة عندما دعي خمس مرّات إلى تولّي الحكم، أنّه خرج مستقيلاً في ثلاث منها، لعدم توافقه مع عمل الحكومة، فلم يقبل أن يبقى شاهد زور.

***

في «شاهد حال» قال إنّه ينظر إلى التاريخ نظرة الانسان إلى أبيه. عن أبيه أخذ نظرة اللبنانيّ العتيق الواعي، التي لا تخطىء في تقييم الأشخاص ولا في تقدير الأشياء. كبير قوم لا تَزيده الأيّام إلاّ هيبة وخبرة وحكمة. بهذه الروحيّة كان يكتب مقاله اليوميّ في «الجريدة»، بعنوان «من يوم إلى يوم» وبتوقيع «بو براهيم». وأجمل كتاباته الثقافيّة توسم بأدب الرحلات، وتتناول أعمق الحضارات. عندما نالت الظروف الأمنيّة من مكاتب الجريدة ومطابعها فتوقّفت قسرًا، لم يُرهب قلم إدوار حنين القصف مهما عنف، بل أدرك أنّ عليه أن يخوض لذاته مغامرة وطنيّة كبرى، فأصدر في



خريف ١٩٧٩ مجلّة «الفصول اللبنانيّة» لتحمل رسالة لبنان، وجعل من هذه المجلّة الفصليّة، ذات المستوى العالي، مؤسّسة لبنانيّة تعالج كلّ قضايا لبنان بكلّ أبعادها التاريخيّة والسياسيّة والثقافيّة والفكريّة. وهي تُعتبر أهمّ مرجع في الفكر اللبنانيّ.

***

كلّ قصور الرئاسة، من قصر القنطاري إلى قصر سنّ الفيل فبعبدا انتهاءً بالكفور، كانت ترتاح إلى إدوار حنين، يأتيها بمهابة رأسه الأبيض، كأنّه عرّافة دلفى أو الكاهن الأكبر في بلاط الأقدمين، يحمل صورة واضحة عن واقع الحال فيقدّم النصح الصادق لمصلحة الوطن ومصلحة الرئيس معًا. وإذا أنطق قلمه بلسان الرئيس أعطى المناسبة رفعة مستوى وبُعد هدف وشموخ وقفة وطنيّة. وهو، في كلّ تقلّبات الظروف وتبدّل الأيّام، ظلّ محافظًا على أمانة ولا أعمق، وبقي على كِبره برصانة وأمانة.

إدوار حنين وجه مضيء في تاريخ لبنان، سياسيّ من طراز رفيع، صاحب رسالة، كرّس كلّ طاقاته للشأن الوطنيّ: برلمانيًّا جريئًا لا يخفت صوته الجيّاش، تحت قبّة المجلس؛ وأديبًّا محاضرًا في الندوة اللبنانيّة، يحدّد معالم الشخصيّة اللبنانيّة، وحضور يومي في مقالاته الصحافيّة، وفي خطاباته على مختلف المنابر، ياخذك ببلاغته، وبسحر بيانه.

إدوار حنين لم يحتكره أحد، ولا وقف نفسه على عطاء محدّد، إنّه سيّد الكلمة كتابةً وخطابة، وفي السياسة ما من عهد إلاّ وتباهى بما نال من جهده ومن سيل قلمه، وفي النيابة ظلّ الأكثر شعبيّة دون تملّق أو تزلّف، وفي الوزارت ما جلس على كرسيّ إلاّ ليحقّق حلمًا كبيرًا أو يقلبها ويمشي.

إدوار حنين خزانة لبنانيّة، غنيّة بما أثراها من فيض قلبه وقلمه.

إدوار حنين الخالدُ الهاني



عصام الخوري
نقيب المحامين ووزير سابقًا

فاتحني صديقي عادل حنين، بقوله: أعرفُ أنّكَ تُحبّهُ، فهل لنا بكلمةٍ منك في يوم ذكراه؟ وكادت بالطبع «نعم» منّي، أنْ تسبقَ سؤالَهُ. فتابع: بيدَ أنّ كُتَيّبًا سيحتضنُ المناسبة، والوقت مُداهم.
أجبتُ: تعرفُ أنني أحبّهُ، مُحجمًا، تهيُّبًا، عن وعدٍ قاطع... فشخصيّة إدوار حنين فريدة، وسيرةُ حياتهِ مادّةٌ غزيرة، إنّها سيرةُ ينبوع يتدفّقُ أبدًا، وأبدًا لا ينضُبُ. لا تنضُبُ الخدمة ولا العطاء، ولا ينضُبُ الفكرُ ولا يستكينُ نشاط. ثُمَّ من نَذَرَ حياتَهُ يُعطي وَطَنَهُ، يبقى أكبرَ من أنّ يَحِدَّهُ حرفٌ.
على الرّغمِ من ذلكَ لم يمضِ يومان إلاّ وكانت كُلَيمَتي بين يَدَي الصديق عادل.

لقد دعتني الذّكرى لأَرُدَّ الوفاءَ بالوفاءِ حيثُ المكانُ للنُّخبةِ، والنضالُ في ساحِ المحاماة بهرجٌ وبريقٌ وصدقٌ وحرفٌ في رحابِ القيم الأخلاقيَّة.
يوم كنَّا نخالُهُ يجبهُ الإعصارَ في الأوقات الصّعبة، بمحيَّاهُ، كان يقولُ، موجِّهًا كلامَهُ إلى والدي وقد تدرّج في مكتبه:

«...ويومَ تتلمذتُ عليه وكان نجمُهُ قد شعَّ في عالمِ المحاماةِ، والكتابةِ، والخطابةِ والأدب... معلّمي فؤاد الخوري في ما دبّجتْ يراعتُه في الزمنِ الأخير، كادَ يشفيني مِن غُصَّةٍ مزمنةٍ...».[١]

الرّياديُّ السّاطعُ، حاملُ الوزناتِ العشرَ، إدوار حنين، عرفناهُ بشَعْرِهِ المُثقَل بغبارِ الزَّمنِ، الذي كادَ يُعلِنُ صلابةَ المؤمنِ بالأرضِ والكيانِ، كَرِماحِ النَّسبِ التي تُشَكُّ في أعلى القِمَمِ، ومُطَّلاتِ الكلمةِ، ومنابرِ التراثِ، والعقولِ الحضاريّةِ، التي ملأَتْ «فُصولَه» غلالاً من عواصمِ الفكرِ، ونبوغًا لبنانيًّا، و«جبهةً» ما رافقها إلاّ السّموُّ البعيدُ عن كلّ رخيصِ عُمْرٍ ووساطةٍ ومساومةٍ.

ابتسامتُهُ العريضةُ، كلّفته الكثيرَ في زمانِهِ، فهي تخطُّ المسؤوليَّةَ على رِتاجِ العُلى، وتحملُ لباقةَ السياسيِّ القديرِ، وَوُسْعَ الأَديبِ القادرِ على حَمْلِ الرسالات.

وهُوَ النائبُ الذي عَرَفَ النيابةَ اشتراعًا، وقضيّة إنسانٍ ووطنٍ، وَنَزْعَ أَقنعةٍ يومَ لبنانُ في خَطَرٍ. ولكم يذكّرُني بشاعر لبنان سعيد عقل حين يقولُ:

«بَلى سَنبقى ويبقى فوقَ صخرتِهِ
لبنانُ قهّارَ مَن ما غيرُهم قُهِروا
وقالَ مِن خَطَرٍ نمضي إلى خَطَرٍ؟
ما هَمّ؟ نحن خُلِقنا بيتُنا الخطرُ»

وهو الوزيرُ الذي بَسَطَ جوهرَ الحُكم على حقيقتهِ، أَمَّا الخُلُقُ فمن بطائنِ الكراماتِ، والشّمولِ في الثقافةِ، وانفلاتٍ على طرفِ الريشةِ الولوع بالنبل وطيبِ المحتدِ.
وَلَن أُحدِّثَكُم عن عهدي به، وهُوَ مَنْ هُوَ بالنسبةِ لوالدي فؤاد الخوري، إنَّه مِن عهدِ العافيةِ والأَصالةِ، يومَ تؤمُّني الذكرياتُ، التي لها لفحُ اللّهيبِ في اليَبَس المعتَّق بالعطرِ...
وتعاوِدُني أيّامي الساحليّة، ساحل المتن، على أحسنِ أطايبها، تلك التي كان الصفاءُ يُخيّمُ عليها ويَموجُ فيها الهناءُ كالبهاء، وتحيا في خاطري روائعُ وبَدائعُ أعلامِ هذا الساحل يرويها، ويتغنّى بها، إدوار حنين وفؤاد الخوري، في مجالسهما ولقاءاتهما المتكرّرة الودودة، فتكِرُّ كما حكاياتُ الأساطير على لسانينِ ولا أطيب، ومن

---

(١) عن مقدّمة إدوار حنين لكتاب **تاريخ الحياة النيابيّة**، أحد مؤلّفات فؤاد الخوري، نائب ووزير ونقيب أسبق للمحامين.

وجدانين وقلبين وذاكرتين لا أزخر ولا أصفى... جادكِ الغيثُ أيّامَ الصبا، أيّامَ الصفاءِ والهناءِ والرخاءِ والوفاءِ!

وإذا شئتَ أن تعرف إدوار حنين المحاميَ والأديبَ والإنسانَ فدونك مجلسُه، حيث تَستغرقُ النفوسُ وهو في طوافِ الحديث، فالقولُ حلاواتٌ تقطِّرُ على غير مللٍ، وكلامُه يتجدّدُ على نَبضِ الأفئدة، فيخلعُ على السامعِ من خزائنِ المنطق الرّخيم والآداب المُتَخَيَّرة ما يُؤنِسُ ويُبهِجُ و يبعَثُ الأسارير.

إدوار حنين، المُحامي الذي ما برم الحجّةَ، وقد أبى المحاماةَ إلاّ بمستوى الرسالة، التي تستَشِفُّ البواطنَ، فالرّجلُ جوارحُه بصيرةٌ، وميزانُهُ عدلٌ...

قَلَمُ حملناهُ صنوًا للرسالاتِ الوطنيَّة.

حملناهُ مع النياسِمِ والوسميِّ البكور، ورحنا مع توالي السِّنين، على طلاَّتِهِ، ندركُ معنى الانفتاح والإيمانِ والتفاؤل، وإنْ ضامنا عهدٌ، يُعاجِلُنا بالقواريرِ، والطمأنينةِ، والغبطةِ.

إدوار حنين، يكفيه أَنَّه صاحبُ لفتةٍ صيداءَ تُبرزُ الوجهَ المُشرقَ لوطنِ الحَضارة والحرفِ والكلمةِ.

خليقٌ بهذا العظيم، أَنْ كانَ في دنياهُ تحرُّكًا للنهوضِ، وقيامًا إلى الجُلّى في هيكلِ اللبنانيَّةِ.

عَبْرَ رحلتِهِ السياسيَّةِ والتاريخيَّةِ والأَدبيَّةِ، يُخَيَّلُ إلينا، ونحن نقرأُ حياةَ إدوار حنين، أَنَّ ماردًا من مَرَدَةِ القرونِ الغابرةِ، انتفض واقفًا في عصرنا يدعو الأَقزامَ إلى التمطّي، كأَنَّه أبو هولٍ في الصّحارى الواسعة.

لذلك فالضّعفُ بغيضٌ إليه. من هنا، ما عَرَفَ إلاَّ التلفُّتَ إلى الرواسي العاليات وأمكنةِ النجوم، والكلامَ على الرِّفعةِ وَفَتْحِ الجباهِ العريضةِ لقلَمِ تاريخِ لبنانَ، وبُناتِهِ الذين شَدّوا الشواطئَ إلى الأَمداءِ، والشِعافَ إلىَ الرِّحابِ، فلا هُمُ انثنَوا، ولا لبنانُ مال.

تاريخُ هذا الرجل مُؤَثَّلٌ شامخٌ بالمجدِ مُتَّشِحٌ. عاش حياتَهُ فكان قابِضًا على دُنياه، وعاشَ مبادِئَهُ فكان وفيًّا لها، كثيرون غيرُهُ،



وبخاصة من رجال السياسة، لا يعيشون... وهم، إنّما يموتون لأَنّهُم لم يعيشوا.

فثمّةَ بين الناس من يُولد مرّتين و يَحيا العُمرَ عمرين: مرّة أولى منْ رَحِمِ أمّه، ومرّة ثانية من رَحِمِ طِيبِ أعماله. الحياة الأولى ينالُها الموت، أمّا الثانية فلا يقوى عليها، وهي إلى خلود.

إدوار حنين من أولئك المغبوطين الذين أُعطوا بطيب أعمالهم أن يَحيَوا العمرَ عمرين، فلم يَظفِرِ الموتُ منه بسوى الجسد، إذ احتضنته الحياةُ وحوّلته إلى زهرةٍ في تُراب لبنان.

فلا عجبَ ونحن نذكرُ هذه الشخصيَّةَ التي وُجِدتْ بامتيازٍ، أن نُعيدَ في أَذهانِنا رَجْعَ الصَّدى أو البريقَ أو اللَّونَ، حتّى تشيعَ الأنغامُ والأصباغُ في حياتِهِ السياسيَّةِ وأَدبهِ الأنيق. أَحرِ بنا في ذكرى هذا العبقريّ أنْ نفرشَ التِبرَ له والرياحين... ولو استطعنا فَرشنا المُهَجَ .

فيا أَبا الـ«جهادِ» والـ«صلاحِ»، معك طالما طابَ البوحُ ولَذَّ التباسُطُ بالشؤونِ والشجونِ... فمِنْ نَزْفِ آمالِ اللّبنانيين، من ليلِ محنَتِهم، مِن جَورِ أَيَّامِهم، مِنْ أعيُنِ الناسِ، مِن فيضٍ بأمواق، مِن قَلَقِ الأطفال، مِنْ غدِهِم، من دَورةِ القهرِ... نَسُرُّ إليكَ في يومِ ذكراك، نحن نشقى. نَمْ أَنتَ في دار الخلدِ، فأنت الخالدُ الهاني، وارثِ لنا، وصَلِّ.

«نحتاجـكَ اليـومَ، مثـلَ الأمسِ مدرسـةً
تحيـا على البـذلِ، في اسـتمرارِ إغداقِ»

إدوار حنين طريقي إلى الرئيس حلو في عزّ أزماته



سيمون عوّاد

توطّدت علاقتي بالراحل الكبير الرئيس شارل حلو (١٩١٢- ٢٠٠١) في فترة تركه الرئاسة وخلوده إلى كتابة ما يشبه المذكّرات في «Melanges» بجزئيها.

والذي فتح الطريق إلى هذه الصداقة هو من أعرق من أحببتهم وعايشتهم، إدوار حنين، أمين عامّ الكتلة الوطنيّة أيّتم ريمون إدّه. كان إدوار في بداية معرفتي به وصداقتي له بوّابة سياحيّة في برنامجي الإذاعيّ«أهلاً بكم في لبنان»، فكنت استهلّ بسياحاته الخارجيّة برنامجي لأقيم مقارنة ما بين انطباعاته المطعّمة بالنظرة الثاقبة والأدبيّة وما ينبغي أن تكون عليه آداب السياحة عندنا!

وقد تكون الصلة الفكريّة التي جمعته بالرئيس حلو هي النكهة الروحيّة التي عزّزت الأواصر بينهما، قبل أن تأخذ طريقها إلى التعاون الذي ما كان الرئيس ليخفيه في كتابة بعض خطبه بالعربيّة، كما في أكثرها أيضًا مع الصديق الراحل أنطون قازان. فاتحة علاقاتي بالرئيس حلو إذًا، كانت هَمزةَ الوصل هذه، هذا السياسيَّ المرموقَ الذي عرفه حلو قبل أن يتولّى رئاسة الجمهوريّة عام ١٩٦٤، ثمّ بعمقٍ أكثر لدى إشراكه في أولى حكومات عهده (١٨ تشرين الثاني ١٩٦٤).

اعترف لي الرئيس حلو، وسجّلتُ له أنّه «بادر إلى تعيينه وزيرًا في أوّل حكومة تألّفت أثناء رئاسته، على الرّغم من أنّ ثمّة من هم أقرب إليه منه، واعتراض أحزاب ممثّلة في المجلس النيابيّ بأكثر من نائبَي الكتلة الوطنيّة، وعدم مراعاة مشاعر من أسهم في إخفاق وصول رئيس الكتلة بالذات إلى المجلس!».

وقد ذهب الرئيس حلو في ما كتبتُه عن لسانه إلى أنّ عمل الأستاذ حنين في هذه الحكومة هو ما شجّعه على «تعيينه وزيرًا في وزارة تألّفت خصّيصًا للإشراف على الانتخابات النيابيّة في نيسان ١٩٦٨»، وكأنّه تعمّد بمجرّد تعيينه إلى جانب وزراء من مستوى سليمان فرنجية (الرئيس) وهنري فرعون (وزير الخارجيّة) وغيرهما، أن يمنحه دعمًا كبيرًا لدى الرأي العامّ والناخبين، بحيث جاءت، كما قال الرئيس حلو، «نتيجة الانتخابات، وبدون تدخّل من الحكومة، مذهلة من حيث الفارق بين أعضاء الحلف الذي كان ينتمي إليه حنين وبين منافسيهم الشهابيّين»؛ وهو ما باعد بين الرئيس حلو وجماعة النهج الشهابيّ، وحتّى مع الرئيس فؤاد شهاب. وقد أتّهمه الكثيرون بالتدخّل لمصلحة الحلف، مع أنّه لم يقصد إلاّ إبراز تمسّكه بحريّة الانتخابات، مع مراعاة رغبة الناس في التغيير، وهي سُنّة الطبيعة!.

لقد حاول الرئيس حلو أن يغلّب طبيعته ككاتب افتتاحيّات في «اللوجور»، أهّلته لعالم السياسة بعناوينها من ديمقراطيّة وحريّات، على الالتزام بخطّ الموالاة لرمزٍ ونهجٍ دعما ترشيحه للرئاسة، فكان أن غلب الطبعُ التطبّعَ. ولذلك كان هذا الرئيس القادم من السلطة الرابعة إلى السلطة الأولى، يتبرّم من التدخّلات، فوضع استقالته على الطاولة بدعوى التحرّر!

وكم من مرّة أسرّ لي، ونحن إلى الغداء في منزله، بالمرارة التي كان يعانيها من سلوك قائد الجيش في عهده، الصديق العماد إميل البستاني، الذي علم أنّني في صدد كتابة مذكّرات الرئيس بالعربيّة، والتي نشرتُ منها أجزاء اطّلع عليها في «السفير» والقبس الكويتيّة والاتحاد الإماراتيّة في وقت واحد!

فقد كان يسوؤه أن يذهب البستاني إلى دارة شهاب في عجلتون للوقوف على رأيه، متجاهلاً رئيسه، ما حملَ «حلو» على اعتماده استدعاء رئيس الأركان يوسف شمَيط للبحث في أيّ شأن أو أمر عسكريّ لعلّه يضع حدًّا لتلك الازدواجيّة!

وعندما فاتحت العماد بستاني بذلك، لم ينكر عازيًا الأمر إلى وفائه لرفيق السلاح ومؤسّس الجيش الاستقلاليّ، وإلى أنّه هو من



مؤسّسي «المكتب الثاني» وقيادة السلاح الجويّ في عهد رئاسته بعد أحداث ١٩٥٨!

إلاّ أنّ أصعب التحدّيات التي واجهها الرئيس حلو تمثّلت في المواجهات الفلسطينيّة اللبنانيّة العسكريّة عام ١٩٦٩، والتي كانت بمثابة المخاض للانفجار الكبير عام ١٩٧٥.

فلقد اجتهد «الحلو»، بكلّ ما أُوتي من حكمة ودهاء، لإبعاد هذا الانفجار عن الساحة اللبنانيّة. فنجح إلى حدّ بعيد، ولكن إلى حين؛ فإشعال الفتيل أُرجئَ ليس إلاّ.

وما معاناته من اعتكاف رئيس الحكومة الراحل رشيد كرامي طيلة ستّة شهور، إلاّ المثل الساطع على تجميد النار تحت الرماد، إلى أن كان «اتفاق القاهرة»، الذي تفادى الرئيس كرامي ترؤّسَ الوفد اللبنانيّ إلى «مطبخه» بذريعة مرض والدته، وانسحب منه أمين عامّ الخارجيّة نجيب صدقة بحجّة تعرّضه لالتهاب صدريّ، بحيث ظلَّ العماد بستاني في ساحته وحيدًا، يتواصل وينسّق ما بين الرئيس حلو والرئيس المصريّ عبد الناصر، إلى أن كان هذا الاتفاق وكأنّه اتفاق منع بل تأجيل «الانفجار»!

وبرغم الصورة التي طبعها بعض السياسيّين في أذهان الناس عن «ضعف» مواقف «حلو»، إلاّ أنّ مَنْ يعرف الرجل في صلابة شكيمته المرنة في الحكم، يُدرك حرصه على حفظ الأمانة التي تحمّلها حتّى آخر يوم من ولايته.

وإنّ الذين حمّلوه بعض الظلامات في عمليّة «التطهير الدبلوماسيّ» لا يعرفون بأنّ الملفّات التي يُفترض أن تكون موثّقة، والتي رُفعت إليه من «دوائر المكتب الثاني»، كانت تنطوي على بعض الثغرات غير المخفيّة. وقِسْ على ذلك انهيار بنك انترا أو إمبراطوريّة بيدس على يد المكتب الثاني.. تلك الإمبراطوريّة التي باتت لها اليد الطولى في التحكّم بالانتخابات النيابيّة والرئاسيّة وأصبحت تهدّد الحريّات السياسيّة!

وعلى صعيد علاقتي الشخصيّة الحميمة، لا أنسى المعروف الذي قدّمه إدوار حنين لي عندما أوصى قبل وفاته، وبعد نسف مقرّ الجبهة اللبنانيّة في عوكر وانتقاله إلى مكتب دار عوّاد في أنطلياس، بأن أُصدر «الفصول اللبنانيّة»، التي تأخّر الأمن العامّ يومها ثلاثة أسابيع لإعطاء الأذن بتوزيعها، إذ بادر الرئيس، لدى معرفته بالأمر، إلى طلب موعد عاجل مع رئيس الجمهوريّة آنذاك الياس الهراوي طالبًا منه التدخّل للإفراج عن المجلّة. ولم يكتف بذلك، بل أبلغ البطريرك الصديق العزيز الكاردينال صفير بما جرى، فتمّ تحرير أَسر أوّل عدد من «الفصول» في اليوم التالي وقد حمل عنوان افتتاحيّتي: «استنطَقوها قبل أن تنطق»، تعقيبًا على زيارة ضابطين بثياب مدنيّة، من عهد الوصاية السوريّة، مكتبي للسؤال عن أهدافها: «وهل تنوي إعلان جبهة لبنانيّة جديدة»؟!

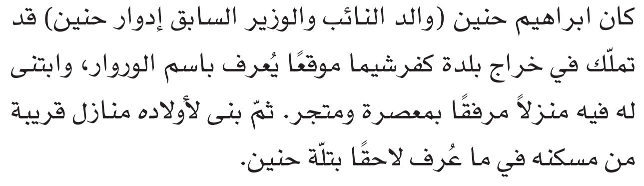
تلك بعض الوقائع التي تجسّد الرئيس القويّ بحكمته وحنكته، الذي استعان بأهمّ المفكّرين والسياسيّين والصحافيّين لبلورة تصوّره والتعبير عن أفكاره ومشاعره في العربيّة كالرئيس تقيّ الدين الصلح وبطرس ديب وأنطون قازان وإدوار حنين، وفي الفرنسيّة كجورج نقّاش وجوزف حرفوش رغم اقتداره وبلاغته في هذه اللغة؛ ولكنْ، لانشغاله بشؤون الحكم أحكام!



حكمت شكري حنين



نسيبي إدوار حنين



كان ابراهيم حنين (والد النائب والوزير السابق إدوار حنين) قد تملّك في خراج بلدة كفرشيما موقعًا يُعرف باسم الوروار، وابتنى له فيه منزلاً مرفقًا بمعصرة ومتجر. ثمّ بنى لأولاده منازل قريبة من مسكنه في ما عُرف لاحقًا بتلّة حنين.

كنت، وأنا ما أزال فتيًّا، أرافق أبي شكري، وهو ابن أنطون أخي ابراهيم، وبالتالي ابن عم إدوار وأشقّائه وديع وإميل وأنطوان وفكتور، وشقيقتيه فكتوريا ولور، في زيارات عائليّة ولاسيّما أيّام الأعياد.

كنّا نزور الوالد ابراهيم والابنتين أوّلاً، ثمّ نزور الأبناء الذكور، كلاًّ في منزله. وكانت هذه الزيارات تتكرّر دائمًا لما كان يكنّه أبي من احترام لعمّه ولأبناء عمّه، خصوصًا أنّ العمّ ابراهيم كان الوحيد الباقي حيًّا بين أشقّائه.

بعد أن ترشّح إدوار حنين لأوّل مرّة للانتخابات النيابيّة عن دائرة بعبدا، تكرّرت الزيارة لمنزله وازدادت حتّى باتت يوميّة في الفترة التي تسبق يوم الانتخاب. كان أبي يُعتبر مفتاحًا انتخابيًّا في بلدتنا، مسموع الكلمة، يُلجأ إليه للتوسّط في حلّ بعض المشكلات العائليّة التي تنشأ أحيانًا بين الأفراد والعائلات.

وكان إدوار يعتمد عليه، في فترة الانتخابات، ويكلّفه مع شقيقه إميل القيام بزيارات انتخابيّة لرجالات العائلات في منطقة برج البراجنة لكسب تأييدهم لإدوار وللمرشّحين في اللائحة التي تضمّه.

أنا ما كنت أرافق أبي في هذه الزيارات الانتخابيّة، إلاّ أنّني كنت أرافقه، دومًا، في زياراته لبيت إدوار حنين في كفرشيما.

خلال هذه الزيارات، كنت، وأنا فتى، أراقب وأشاهد وألاحظ ولا أتدخّل. وكنت أشعر، خلال هذه الزيارات، بالطمأنينة لما كنت ألقاه من ترحيب حارّ من إدوار وعقيلته السيّدة ڤرجيني الزغبي،

وبناءً على نسب القربى الذي يجمعنا، وعلى تكرار زيارتنا للعائلة، نشأت بيني وبين أولاد إدوار:

ميراي (فنّانة تشكيليّة تعيش في باريس)- ليليان (رئيسة هلب ليبانون)- جهاد (رجل أعمال)- صلاح (دكتور في القانون ونائب سابق)، علاقة متينة وحميمة، زادت وقويت وتعمّقت مع الأيّام.

ما لفتني في هذه الزيارات أنّها كانت مختلفة الأوقات، فمنها الصباحيّة الباكرة، لأنّ إدوار كمرشّح، ونائب ووزير فيما بعد، لا تمكن مقابلته بحرّيّة، وضمن الإطار العائليّ، إلاّ صباحًا قبل انصرافه إلى أعماله وشؤونه القانونيّة (كونه محاميًا)، ونشاطاته الانتخابيّة والسياسيّة.

في هذه الزيارات، كان واجبًا احترام الوقت. كان والدي حريصًا على ألاّ تُهدر دقيقة من وقت إدوار في ما لا طائل منه.

خلال النهارات، كان كلّ إنسان ينصرف إلى أعماله.

أمّا زيارات المساء، وكانت تمتدّ لساعات الليل المتأخّرة، فحدّثْ عنها ولا حَرج.

كان المنزل يُفتح للناخبين، ولاسيّما المؤيّدين، وتُمدّ الموائد ولا تطوى، إلاّ بعد رحيل آخر الحاضرين.

كان الحضور كبيرًا، وليليًّا. وكان البيت لا يتّسع للوافدين، فتعجّ بهم الساحات الخارجيّة، وحرج الصنوبر المحيط بالمنزل.

ما كان يلفتني في هذه الزيارات جميعها، دقّة التنظيم في المقابلات الصباحيّة. كان يحرص إدوار حنين على استقبال كلّ الزّائرين صباحًا؛ ولكلّ شأنه. ويتناول، في هذه الأثناء، قهوته الصّباحيّة، وطعام الفطور ويقرأ صحفه اليوميّة. أمّا في الزّيارات المسائيّة، فكان إدوار الغائب الدائم عنها، لأنّه يكون منهمكًا في متابعة جولاته الانتخابيّة. وكنّا نعود، في كثير من اللّيالي، إلى منازلنا متأخّرين، وما يكون قد عاد بعد من جولاته ومهرجاناته الانتخابيّة ولقاءاته السّياسيّة.

كنت أعجب كيف يستطيع إدوار حنين، وبالتالي من كان مثله أن يتحمّل كلّ هذه الأعباء: مصاريف الانتخابات والاستيقاظ باكرًا، والعمل طوال النهار وحتّى ساعة متأخّرة من اللّيل. وكان هذا مستمرًّا ومتعبًا جدًّا، وكان الإجهاد يزداد مع اقتراب يوم الانتخاب.
وكنت أراه، في كلّ مرّة، مشرق الوجه، باسمه، لا يتأفّف من زيارة مُطالب بخدمة، أو متتبّع لقضيّة، أو سائل لمساعدة، أو غيرهم ممّن يكثر تواجدهم في بيوت المرشّحين للإنتخابات، والنوّاب والوزراء لاحقًا، خصوصًا في الفترة التي تسبق يوم الانتخابات.
وحين يخرج إدوار من منزله صباحًا، كانت تتولّى زوجته السيّدة ڤرجيني متابعة شؤون الناس، فلا تردّ زائرًا، بل تستمع إلى مطالبهم وشكاواهم وقضاياهم، وتلبّي معظمها، وتترك لإدوار المستعصي منها، أو ما كان بحاجة إلى تدخّله المباشر.
هذه السيّدة الكريمة كانت تحيطني برعاية كبيرة، وتحتضنني بعطفها علّها تعوّض عليّ بعض الحنان الذي افتقدته بموت أمّي الباكر. وكانت تطلب إلى أبي أن يصحبني، كلّ صيف، إلى مصيف العائلة في عاليه، لأمضي بضعة أيّام مع الأولاد الذين يكونون في عطلتهم الصّيفيّة.
كان أبي يستجيب للطّلب، فأسعد بالعيش في منزل نائب ووزير، وأتعلّم أمورًا جديدة لا تجري في منزلنا في حياتنا العاديّة.
كان إدوار حنين يحرص على أن تتناول العائلة كلّها معه، وأنا معهم طبعًا، طعام الفطور، حيث يطمئنّ إلى أحوال كلّ فرد. ما كنت أشعر أنّني نسيب. كنت أشعر أنّني واحد من أولاده. آنذاك، كنت قد نجحت في الامتحانات الرسميّة لشهادة البكالوريا القسم الأوّل- فقدّم لي- هديّة مكافأة على نجاحي- قلم حبر من ماركة باركر قائلاً: «كتبت بهذا القلم مداخلتي في الدفاع عن لبنان في مؤتمر بنغازي في ليبيا»[1]. ورحت أفاخر بهذا القلم وأحرص على أن لا أفقده. ولكن، لسوء الحظّ، ضاع منّي. لست أدري أضعته أنا أم سُرق منّي.
أُعجبت به إذ كان يحسن توزيع اهتماماته، فما تشغله السّياسة عن أفراد عائلته. وممّا أذكره أنّه كان يخصّص، بعض الأيّام، ولاسيّما الآحاد والأعياد للخروج مع العائلة، وأنا معهم، لتناول طعام الغداء في أحد المطاعم في متنزّه ما.
وفيما أنا أجتاز سنوات دراستي، كان أبي يستشير ابن عمّه إدوار في مسألة مستقبلي الدّراسيّ. ماذا يمكن أن أختار للدّراسة الجامعيّة؟ وبالتّالي أيّة مهنة سأمارس؟

كثرت الطّروحات وتنوّعت، وكان بينها دخول المدرسة الحربيّة. رحّب الجميع بالفكرة، ووعدت نفسي بأن أكون ضابطًا في الجيش اللّبنانيّ، ورحت أبني الأحلام والآمال.
عندما فزت بشهادة البكالوريا اللّبنانيّة- القسم الثّاني- فرع الفلسفة، وكانت تخوّلني الترشّح لدخول المدرسة الحربيّة، قصدت، مع والدي، إدوار حنين، فكان الجواب مخيّبًا للآمال، إذ تبدّلت العهود وتغيّر المسؤولون، وما عاد لإدوار حنين، في تلك الفترة، ولن أسمّي الأشخاص المسؤولين، أيّة «مونة» عليهم، فتغيّر التوجّه.
دخلت كلّيّة التّربية في الجامعة اللّبنانيّة ونلت شهادة الكفاءة في اللّغة العربيّة وآدابها. خلال دراستي لنيل الإجازة قبل الكفاءة، حصلت، بفضل إدوار حنين، على عدد لا يستهان به من ساعات التعاقد لتدريس مادّة اللّغة العربيّة وآدابها في الثانويّات الرسميّة.
ما أتعس المواطنين في بلد لا تستطيع أن تحقّق حلمًا فيه، أو تعمل عملاً إلاّ إذا كان لك من يدعمك لدى المسؤولين (واسطة)!
أنهيت دروسي في كلّيّة التربية. بدأت عملي التدريسيّ. ألّفت كتابًا حول خليل روكز. قدّمت نسخة منه لإدوار حنين، طالعها وقال لي: «إذا كتبت لا تسخّر قلمك لأحد».
تقدّم الجميع في السّنّ، تبدّلت الأوضاع السّياسيّة والتحالفات. هُجّرنا جميعًا من منازلنا ومناطقنا. توزّعنا في بلدات وقرى مختلفة ومتباعدة.
قلّت الزّيارات من دون أن تضعف العلاقة العائليّة.
مرض إدوار حنين. زرناه للإطمئنان إلى صحّته.
علمت أنّ صحّته تتدهور، لكنّني لم أكن أتوقّع موته المفاجئ.
رحمة الله عليك أيّها النّسيب الحبيب. تغمّدك الله بوافر رحمته ورضوانه. ومنّ علينا بأمثالك، علّهم يخلّصون لبنان من محنه.

خبـــر

وافق مجلس بلديّة بيروت على تسمية الساحة عند تقاطع كورنيش بيار الجميّل الرقم ١ والشارع الرقم ٧٢ من منطقة العدليّة الرقم ٦٦ المقابلة لمبنى الـ TVA، باسم النائب والوزير الراحل إدوار حنين؛ وعلى وضع نصب تذكاريّ له في تلك الساحة هبةً غير مشروطة من الفنّانة ميراي إدوار حنين.

(١) أعتقد أن ذلك المؤتمر عقد عام ١٩٥٨.



رئيف خوري في مئويّة ولادته ١٩١٣-١٩٦٧

رئيف خوري في حياته وريادته



د. ربيعة أبي فاضل

١. تاريخ وجه:

الهدف من هذه الكلمة هو التّوقّف على المحطّات البارزة في حياة الأديب رئيف نجم خوري، من بلدة نابيه، المتن الشماليّ، وإلقاء بعض أَشعّة على نتاجه. لذلك، فالمنهج التاريخيّ، لا يطمح إلى الاستعانة بمناهج أُخَر إلّا في بعض الحالات، إذا لزم الأَمر. واسم نابيه يعني المكان المرتفع أو المنظر الجميل أو الموقع الّذي يرسل النّور (من نابو الأشوريّ البابليّ، ربّ الحكمة والعقل)، أو رمز المعرفة والارتقاء[١]. ولا بدّ من التّذكير بأنّه خلال العام ٢٠١٣، تنطوي مئة عام على ولادة رئيف خوري، الّذي أمضى عمره في خدمة الكلمة.

٢. نَجم يُضيء الطّريق:

نجم نجيب الخوري تعلّم في مدرسة برمّانا العالية، وعلّم في الشويفات، لدى «الموسكوب»، وكان تركيزه في الحساب، بعد أَن تدرّب على يد والده نجيب، في حقل التجارة بأنطلياس. وكانت زوجه ملكة تحمل شهادة المعارف اللبنانيّة الرسميّة، وتتميّز أَيضًا، بالقدرة على حَلّ مشكلات رياضيّة، وبالإنكليزيّة، وهي اللّغة الّتي اختارها معظم الأرثوذكس، في نابيه، إلى جانب العربيّة[٢]. وعندما انطلقت مدرسة «تحت البلّوطة»، في وقف كنيسة الروم، أواخر العشرينيّات، كان أَبو رئيف يحتضن الأَولاد ذوي النّباهة ويرسلهم إلى مدرسة برمّانا، في حين كانت فئات، في نابيه، تقصد معهد القدّيس يوسف- قرنة شهوان للتعلّم، أَو مدرسة صليما للكبّوشيّين، أَو الشّويفات (شارل سعد)، أَو معهد القدّيس يوحنّا- الخنشاره، أَو المدرسة الوطنيّة- بعبدات، أَو مار الياس- شويّا، أَو مدرسة الأستاذ توفيق في «القنّابة». وبعد وفاة نجم الخوري (١٩٥٥)، أُقفلت آخر المدارس السّت، في القرى المحيطة ببرمّانا، والتابعة لجمعيّة الأَصحاب (الفرندز). وجدير بالذّكر أَنّ رئيفًا وأَخويه ميخائيل وَسليمًا، وأولادهم، تعلّموا في برمّانا عينها. وبين ١٩٥٥ و١٩٦٥، خسرت نابيه بضعة معلّمين، في مدارسها الابتدائيّة، طليعتهم، إلى جانب «أبو رئيف»، خليل يوسف شاهين أبو فاضل، وله ديوان شعر بالفُصحى، وقد غَيّبه أَحمد علبي في أَبحاثه*، بطرس داود الخوري، والخوري يوسف سالم. ولا بُدَّ من القول هنا، إنّ الوالد مارس الزراعة، إلى جانب التّعليم، لأَنّ الأَرض كانت تحتضن بخيراتها العائلات، وتدعم مسيرتها نحو العلم والترقّي. وكثيرًا ما كان رئيف وميخائيل يرافقانه إلى «راميّا» وهي اسم آراميّ يعني المحلّ المختار، وفيها مجتمع للماء، وخصب وجمال، لكنّ آلات الباطون أَخذت تجتاح عذريّتها، منذ عام ٢٠١٠[٣].

(١) راجع كتابنا، نابيه تاريخها وتراثها الثقافيّ، دار الركن، بيروت ٢٠٠٦، ص ١٢-١٦.

(٢) توفّت مَلكة نقولا الحدّاد وهي في الخامسة والثلاثين من عمرها فتزوّج نجم راحيل أبو فاضل.

(*) راجع كتابنا: نابيه تاريخها وتراثها الثّقافيّ، دار الركن، بيروت، ٢٠٠٦، ص ١٣٩-١٤١ (أبو فريد وأبو رئيف).

(٣) نابيه تاريخها وتراثها الثقافيّ، ص ١٦-١٨.

٣. في ظلّ «الفِرندس»:

تحت المطر أَو وسط العواصف والقادوميَّات، كان رئيف ابن الحاديةَ عشْرةَ، ١٩٢٤، يُصعِّد في الطّرقات، نحو برمّانا، يُكافح لينال هاي سْكُولْ، وفق النّظام الإنكليزيّ، في معهد «الفِرندس». حقّق الحاءَ الأُولى من حلمه، عام ١٩٢٧، وهو في حوالى الخامسةَ عشْرةَ. وقيل إنّ والده اضطرَّ، عندما أَلحقه بصفّ «الفرشمن»، في الجامعة الأَميركيّة، إلى تعديل في عمره للاستمكان من دخول الجامعة[٤]. وما إنْ باشرَ حياته الجامعيّة حتّى خسرَ الوالدة عام ١٩٢٨، فرثاها مقلّدًا المتنبّي في رثاء جدّته[٥]، وتعثَّر في سنته الأولى، نظرًا إلى مناخ المدينة، وصعوبات الفضاء الجديد، فخيّره أبوه: إمّا المعول أو القلم! وتحوّل رئيف صيف ذاك العام، من نفس تعاني الانكسار والحيرة إلى روح عصاميّة تتذوّق الانتصار والتفوّق.

٤. السّياسة الّتي تُفسد!

أَفهم الآن، تمامًا، ما معنى أَن يهجر ابن نابيه قريته، ويعايش بيروت، بكلّ ما فيها من تنوّع وصخب وتطوّر وعادات وسياسات. هذا ما حصل لي عام ١٩٧٠ عندما انتميتُ إلى كليّة التربية، وكادت السّياسة تطيح بطموحاتي الثقافيّة، لولا يقظة، وعزلة، وحَذَر يغلب القدر. ورئيف الّذي عاش في بيئة قرويّة علّمته الإنكليزيّة والحساب، والتراث العربيّ، بحكاياته وأَشعاره وأَبطاله وحكمه وتخييلاته، اهتزّ في سنته الأُولى لكنّه لم يقع، فعاد متفوّقًا، كما قال عنه قسطنطين زريق، أستاذه، في ٢٤-٣-١٩٧١[٦]. وتخرّج في الجامعة بدرجة بكالوريوس علوم، في الأَدب العربيّ وتاريخ الآداب الشرقيّة، وحاول إعداد رسالة، عن الجاحظ، إشراف د. زريق نفسه، لكنّه لم يُتمّها، وبقيت مخطوطة[٧]. كان ذلك عام ١٩٣٢، عندما وقف رئيف متأمّلاً، تَتنازعه ثلاثة تيّارات: القوميّ العربيّ المتلقّح بالإسلام، والسُّوريّ القوميّ الاجتماعيّ المُجاهر بالعلمانيّة، والاشتراكيّ. ولئن كثرت التأويلات حول ترجّحات رئيف، في هذا المجال، وطبيعة التزامه، وتمايز رؤيته بإزاء رؤيات الآخرين، ومواقفهم، فالشَّائع، في معظم المراجع، أَنّ أستاذه الإنكليزيّ، في الجامعة، رُوْجر سُوْلطُو (Soltau)، وهو متضلّع من التّاريخ، هَداه إلى الأَفكار الاشتراكيّة، وسهَّلَ له قراءة الكثير من الماركسيّة، والماركسيين[٨]. على أَنّ الرّجل بقي طوال حياته حرًّا في التزامه، لَيِّنًا في فكره، لا يَتبع الجماعة عندما تَتعارض مع يقينيّاته، ويقف إلى جانبها عندما يراها تراعي الحَقّ، وتعمل على إصلاح الواقع وبنائه. إنّ خوري، كما تقول الرواية، من جذور مسلمة، أُرثوذكسيّ[٩]، سَمَّى أَحد أبنائه مُعينًا والآخر فاديًا (إلى جانب نجم وملكة ودعد ودنيا)، في إشارة إلى نظرته الموحِّدة للأَديان، وهو صاحب قلب كبير يعبق بالإنسانيّة المتفتّحة[١٠]. ولم ينخرط في حزب محدَّد، بشكل تقليديّ، بل «زاوج بين الالتزام والتمرّد، بين العقيدة والثّورة»[١١]. وكان يعلم في أعماق ذاته، أَنّ السِّياسة تحتاج، دائمًا، إلى مَن يرتقي بها من وحول الفساد إلى بهاء القيم الإنسانيّة. ومن المفيد أَن نذكر، في هذا المقام، أَنّ رئيف خوري، لو شاءَ، لكان وزيرًا للتربية، في عهد الرئيس كميل شمعون، لكنّه لم يتجاوب مع رغبة الرئيس، في آخر عهده، وكان متعاطفًا مع الرئيس شهاب، ومتفهِّمًا لسياسته.

---

(٤) راجع بحث د. أَحمد علبي، رئيف خوري (١٩١٣-١٩٦٧) مسيرة أَدب مكافح، مجلّة المشرق، السنة ٧٩، الجزء ٢، تمّوز- كانون ١، ٢٠٠٥، ص ٣٦٧.

(*) وكان مطانيوس يوسف طوق أَشار في رسالته: رئيف خوري سيرته أَدبه، كليّة التربية، ١٩٧١، ص ١، إلى أنّ رئيفًا ولد، وفق عبارة على غلاف الكتاب المقدّس، بخطّ والده، في ٨ك١ شرقي ١٩١٢.

(٥) مطانيوس يوسف طوق، ص ٣ حاشية.

(٦) ن. ص٤ هامش ٥.

(٧) ن. ص٥.

(٨) أحمد علبي، المشرق، م.س. ص ٣٦٩، نقلاً عن طوق ص ٥.

(٩) قبل أَن يتزوّج زياد طانيوس فرح، من تولا، حاوره المطران عبد، بحضور ابن نابيه بديع يوسف سلامه، وقدّم إليه سلّة من الإغراءات لينجز صلاة العرس عند الموارنة، فكان ردّه حادًّا، ولا يخلو من التعالي (مقابلة مع بديع سلامة، ١٧-٥-٢٠١٢) حين نصح المطران عبد بأن يترك موقعه المارونيّ ويتحوّل أسقفًا على أرثوذكس المتن.

(١٠) راجع مقالة شكري فيصل، رئيف خوري في مسيرته الفكريّة، الآداب السنة ١٦، العدد ٧، تمّوز ١٩٦٨، ص ٩.

(١١) ن.

(*) روى لي في ٢٠-٦-٢٠١٢، الجار العزيز بديع سلامه، أَنّه رافق الأديب رئيف خوري إلى كورنيش المزرعة، عام ١٩٥٨، وسمعه يخطب داعمًا عبد النّاصر، وتوجّهات العروبة المعقلنة ضدّ حلف بغداد، وسياسات التفرقة. وعندما قصد السّيارة، بعد إنهاء مهمّته، وجدنا قربها ضابط الأَمن العام مع مرافقين ، عرضوا عليه الوزارة، باسم الرّئيس، فقال: «تأخّر الرئيس كثيرًا!»، ومَثَّل ذلك ستراتيجيّة لطيفة في الخطاب السّياسيّ.

٥. النّضجُ وبواكيره:

عام ١٩٣٠، كان خوري، كما رأينا، طالبًا في الجامعة الأميركيّة، ومنذ ذاك، شرع ينشر قصائده وحكايات ومقالات وأقاصيص في «الرّياض» و«البرق» و«المعرض»، وغيرها[١٢]، وانتقل خلال ١٩٣٤–١٩٣٥، إلى «النهار»، ثمّ تحوّل إلى مجلّة «المكشوف» لفؤاد حبيش، مع أقلام لآخرين، شأن عمر فاخوري، مارون عبّود، الياس أبو شبكة، توفيق عوّاد... كما كتب في «الجنديّ اللبنانيّ»، ومجلّات متعدّدة[١٣]. وكان الباحث أحمد علبي توقّف على قصيدة «لست أنسى» (البرق س٢٢، ع٣٣٦٣، حزيران ١٩٣٠، ص٨)[١٤]، للدّلالة على طلاوة الديباجة وتفرّد الشاعريّة، لكنّي آثرت قراءة نصّ شعريّ آخر من المعرض الأُسبوعيّ (السّنة ١، العدد ٩٠٥، أيار ١٩٣٠، ص١١) تحت عنوان: «وحياة سحرك»، وهي على طريقة مجزوء الكامل، وفيها ملامح الغناء، ومزيج من الرمزيّة والرومنطيقيّة، شأن ما كان رائجًا، في تلك المرحلة، مع الأخطل الصغير، وأديب مظهر، وصلاح لبكي وسعيد عقل:

قَصِّرْ، فَدَتْكَ الرُّوحُ، هجرَكْ	فلقدْ أطلتَ عليَّ كبرَكْ
أتدلُّلاً أم عفّةً	أسدلتَ دون العين خدرَكْ
فارفقْ بنفسي يا لطيفَ	القدِّ وارفعْ عنكَ سترَكْ
واسمحْ لعيني أن تراكَ	فإنّ عيني لن تضرَّكْ
أَغَسَلْتَ جسمكَ بالنّدى	وعَنِ الصّباح أَخذتَ بِشرَكْ
وكسوتَ خدّكَ بالشّقيقِ	وزنتَ بالرمّانِ صدرَكْ
وسرقتَ من أعنابِ زحلة	خمرَها وملأتَ ثغرَكْ
فبدَوت لي ملكًا كريمًا	طاهرًا فعبدتُ طهرَكْ
لا تعرضنَّ فأنتَ أنتَ	أمرتَني فأطعتُ أمرَكْ
ماذا يَضرُّكَ لو ضَمَمْتُكَ	ضمّةً ونشقتُ عطرَكْ
وسكنتَ بين يَدَيْ جريحِكَ	برهةً فامتصَّ خمرَكْ
وحَنَا عليكَ لرقّةٍ	فيه يداعبُ منكَ شعرَكْ
وحياةِ سحرِكَ أنتَ جئتَ	لكي تُبيحَ النّاسَ سحرَكْ
ما جئتُ كي تُصبي الورى	وتظلَّ تحت السّترِ عمرَكْ[١٥]

وبين ١٩٣٠ و١٩٦٧، تاريخ وفاته، كتب خوري في خمس وخمسين مجلّة وجريدة، ذُكرت في «الطّريق» عدد شباط ١٩٨٩، ص ١٤٦–١٤٧، من دون مجلّة «الجديد» لتوفيق عوّاد. وتبيّن لنا أنّه كان في السّابعةَ عشْرةَ عندما نشرَ قصائده المنظومة، ومنها:

«أنا مَن يُحبّ الأنجما	مِلءَ السّماءِ تبسُّما
نفذتْ إلى سرِّ الدُّجى	وجَلتْ حجابًا مُظْلما
لكنّها في مقلتيكِ	أحبُّ منها في السَّما
ولو أنّها لَمْ تَجْلُ لي	سرًّا أُحاورُ مُبْهَما»[١٦]

وذكر كتاب «المفيد» المدرسيّ (ص ٥٥) قصائدَ، أَخواتٍ لهذه، ومنها: «الرّبيع في الشّتاء»، «نشوة الأرواح»، «ذكراك»، «نحن من لبنان»، «في مظاهر الاستقلال»، وغيرها. ولا ننسَ أنّ خوري كان كَتَبَ في النّقد: «امرؤ القيس»، مطبعة صادر، بيروت ١٩٣٤، وهو في الحادية والعشرين، كذلك مجموعته القصصيّة التراثيّة: «حبّة الرمّان» (١٩٣٥)، وبرهن بذلك أنَّه قلمٌ شاعر وناقد ومميّز، ومثقّف موسوعيّ، نفتقر إلى أمثاله، في هذا الزّمان.

٦. الكتب... وتراثه الصّحافيّ الّذي ينتظر!

وإلى الكتابين المذكورين أعلاه، نشر خلال حياته القصيرة (٥٤ سنة): **ثورة بيدبا** (مسرحيّة شعريّة ١٩٣٦)، **وهل يخفى القمر** (نقد ١٩٣٩)، **الدراسة الأَدبيّة** (نقد ١٩٣٩)، **الفكر العربيّ الحديث** (الثورة الفرنسيّة وأثرها ١٩٤٣)، **ديك الجنّ- الحبّ المفترس** (رواية ١٩٤٨)، **الطّغاة** (نقد ومختارات شعريّة ١٩٤٩)، **التعريف في الأدب العربيّ** (نقد وتحليل ونصوص ١٩٥١)، **نصوص التعريف في الأدب العربيّ** (مختارات ١٩٥٧)، وظهر كتاب «الأدب المسؤول» بعد وفاته، ١٩٦٨، وهو في النّقد الأدبيّ.

وعُني خوري بالرواية، والقصّة، والحالة السياسيّة والاجتماعيّة، والإصلاحيّة، فصدر له أيضًا: «**جهاد فلسطين**» (١٩٣٦)، **حقوق الإنسان** (١٩٣٨)، **مجوسيّ في الجنّة** (١٩٣٨)، **معالم الوعي القوميّ** (١٩٤١)، **مع العرب في التاريخ والأُسطورة** (١٩٤٢)،

(١٢) الأولى عن انطلياس لصاحبها فريد شاهين أبو فاضل، ١٩٣٠–١٩٣٤، وهي توقّفت عام ١٩٣٤ وليس ١٩٤٣، والثانية للشاعر بشارة عبد الله الخوري، تحوّلت عام ١٩٢٧ إلى جريدة يوميّة، والمعرض لميشال زكور وميشال أبو شهلا، صدرت عام ١٩٢٩.

(١٣) أحمد علبي، م.س. ص ٣٧٣–٣٤٧.

(١٤) ن. ص ٣٧٢.

(١٥) المعرض الأُسبوعيّ، السنة ١، العدد ٩٠٥، أيار ١٩٣٠، ص ١١.

(١٦) راجع كتاب المفيد في القراءة والأدب، جوزف الهاشم ومروان شمعون، ص ٥٣–٥٧.

صحون ملوّنة (١٩٤٧)، **الثورة الروسيّة قصّة مولد حضارة جديدة** (١٩٤٨)*، **أمين الرّيحاني في حقيقة الديمقراطيّة الأَميركية** (١٩٤٨)، **الحبّ أَقوى** (رواية ١٩٥٠). وله خمسة كتب مترجمة×، وجُمعت له نصوص في كتاب «ثورة الفتى العربيّ». ويدأب بعض المُحبّين على جمع ما تيسَّر لهم من تراثه الصّحافيّ، بالتّعاون مع ابنته الأديبة ملكة رئيف خوري، والكاتبة سارة ضاهر.

أمّا «الخطأ البيِّن» الّذي اكتشفه أحمد علبي في بحثي عن رئيف (المشرق، ج١، ٢٠٠٤، س ٧٨، ص ١٩١) فهو يتعلّق بمجموع نصوص رئيف في «المكشوف»، فزعم أنّها كناية عن ٩٤ نصًّا، لكنّي أَعودُ فَأُرَجِّح أَنّ خوري نشر ما بين ١٩٣٦ و١٩٤٩، مئَتين وخمسة وخمسين نصًّا، وعندي العناوين مع التّواريخ، ولا أَدري كيف جزم الرَّجل وحسمَ، وإِلى أَيّ حَدّ علميّ يَستند؟[١٧]

٧. رئيف المعلّم:

وعلّم بداءَةً، في طرطوس، عام ١٩٣٣، ثمّ انتقل إلى فلسطين، بعد عامين، حيث درّس الترجمة والتعريب، الأَدب والتاريخ، واللّغة، في مدرسة المطران غوبات (Bishop Gobat School) بالقدس، وعايش نخبة من التقدّميّين، بينهم رجا حوراني، سليم خياطه، خليل البديري، ابراهيم حدّاد. وكان حوراني أصدر مجلّة «الطليعة»، وانضمّ إليه رئيف خوري وخليل البديري، عام ١٩٣٩، لصوغ المطالب العربيّة، ومنها وقف الهجرة اليهوديَّة، وتشكيل حكومة وطنيّة ديمقراطيّة[١٨]، ودعم الإضراب الّذي استمرّ بضعة أشهر. ولم يكتفِ رئيف بالكتابة، بل انتقل إلى الخطابة،



وسط الفلاّحين والطلّاب والمثقّفين، ناصحًا أهل الأَرض بعدم بيع أَراضيهم، وبالتشبّث بحقوقهم، والنّضال في سبيل الحرّيّة والاستقلال والسّيادة، الأُمور الّتي نحتاج إليها اليوم في لبنان، كي لا يتحوّل فلسطين ثانية.

(*) ذكر د. الياس رزق في أطروحته الالتزام في أدب رئيف خوري، جامعة القدّيس يوسف، بيروت ١٩٨٤، ص ٨٣ (هامش٢) وص ١٠٩، أَنّه عُثر في مكتبة الخوري، بُعيد وفاته، على مخطوطة «مئة حلاقة ذقن» كناية عن مقالات وأقاصيص تدور حول بعض الأمثال العاميّة اللبنانية، ومخطوطة «أوراق زنبق» وهي قصائد نظمها في مناسبات مختلفة وتتراوح موضوعاتها بين الشعر الوطنيّ والغزليّ. أمّا مطانيوس طوق فذكر من مخطوطاته:

- رسالة مخطوطة حول الجاحظ (١٩٣٢)
- التعريف في الأدب العربي، الجزء الثالث
- على أَعتاب الفلاسفة (محاضرات)
- الحرّيّة (ترجمة كتاب لجون ستيوارت مل)
- شاعر العروبة المتنبّي (مقالات في النّهار - ١٩٣٥)
- حديث عن حياته (٢٥ صفحة)
- ديوان أوراق الزنبق (غزل)
- مئة حلاقة ذقن (نوادر وطرائف وحكايات) (طوق، م.س. ص ٣٢-٣٨)

(١٧) أحمد علبي، المشرق، م.س. ص ٣٧٤، هامش (٢٨). * وانفتحت له آفاق الكتابة أواسط الثلاثينيّات، في «الطّريق»، و«الأديب»، و«المكشوف»، وغيرها.

(*) راجع كتابنا: «في أدب النهضة والمهجر»، دار الركن، ٢٠٠٥، ص ٢٨٩، وما بعد.

(١٨) مطانيوس يوسف طوق، م.س. ص ٦-٨.

وهناك، في القدس، ونابلُس والخليل واللدّ والجليل، قال كلمته، واطّلع على برودون وأَنجلز ولينين وماركس[١٩]، واستوحى أَفْكاره، وقد مزجها بحسّه المسيحيّ الراقي العميق، وأَصدر، عام ١٩٣٦، «جهاد فلسطين»، باسم مستعار هو «الفتى العربيّ»، كما كتب ونشر مسرحيّته الشعريّة «ثَورة بيدبا»، في العام عينه[٢٠]. وذكرَ مطانيوس يوسف طوق أنّه درّس من دون مقابل ماديّ، إلى جانب رجا حوراني، في مقرّ الشبيبة المسيحيّة، في القدس، الحمّالين والفقراء وأولاد الشوارع الّذين لا يستطيعون دخول المدارس بداعي الفقر[٢١]. وفي المقام عينه، سافر إلى ضواحي نيويورك، بين ١٨ آب ١٩٣٨، والـ ٢٥ منه، لحضور مؤتمر الشبيبة العالميّ الثاني، ممثّلاً الشباب العربيّ في المؤتمر، مدافعًا عن حقّ الشعب الفلسطينيّ في تقرير المصير. وبعد هجومه العنيف على سياسة الإنكليز والصّهاينة، مُنع من العودة إلى فلسطين، فاتّجه نحو وطنه لبنان[٢٢]. والغريب في حياة الرَّجل هو عدم تزحزحه عن مواقفه الإنسانيّة، ولو كانت الكلفة الشخصيّة باهظة. فقد علّم عام ١٩٤٠ في الانترناشونال كولدج التابع للجامعة الأَميركيّة، وفُصل بإيعاز بريطانيّ، ثمّ علَّم في كليّة الشرق- البعثة العلمانيّة الفرنسيّة، بطرطوس، وسرعان ما فُصل أَيضًا. ثمّ عاد والتحق عام ١٩٥١، بالكليّة العلمانيّة الفرنسيّة ببيروت، وفُصل بسبب تغيّبه أحيانًا كثيرَة[٢٣]، وعلّم في مدرسة الإخوة المريميّين، في جونيه، ودرّس الأدب والفلسفة في الكليّة الطريركيّة ببيروت، وفي غيرها من المدارس، وذلك منذ مطلع الخمسينيّات. فلم يكن الرَّجل يعيش حياة عاديّة، لأَنّ أعماله تواصلت ليلاً ونهارًا، على حساب عافيته، وحياته، وحياة مَن حوله. وكانت ترافقه في كفاحه، صديقته المشتعلة أبدًا، السِّيجارة؛ وبعد أَن أحياها سنوات عادت فقتلته خريف عام ١٩٦٧، وهو يعلّم في المدرسة البطريركيّة، إثر ورم في الرّأس، وإخفاق العمليّة الجراحيّة، صيف ١٩٦٧، في لندن.

٨. حضور ثقافيّ استثنائيّ:

هذه الشخصيَّة بقيت موضوع جدال، فكرًا وسياسة ومواقف، وقد شهدت حياته نشاطات متنوّعة، متواصلة، لم تهدأ إلّا بالموت:

- عمل في قسم الأَخبار والإعلام، وفي قلم المطبوعات، التّابع للفرنسيّين عام ١٩٤٣، إلى جانب الياس أبو شبكة، مارون عبّود، عمر فاخوري، نسيب المتني... لكنّه دعم الثورة الجزائريّة ضدّ فرنسا.
- كان الناطق الرّسمي الأدبيّ والسّياسيّ، للحزب الشيوعيّ اللّبنانيّ والسّوريّ.
- زار موسكو ضمن وفد التعاون بين لبنان والاتّحاد السوفياتيّ.
- اشترى امتياز جريدة «الدفاع»، من أحد أَبناء فيتولي، في دمشق، عام ١٩٤٠.
- أَسّس دار القارئ العربيّ للنشر في بيروت، عام ١٩٤٨.
- عارض عام ١٩٤٩، التهجّم على يوغوسلافيا، ودافع عن حقّها في تقرير المصير، فاتُّهم بالتيتويَّة، وانقطع عن مجلّة «الطّريق»، وأَنشأ ندوة «إخوان عمر فاخوري»، في ١٨ ك' ١٩٤٨، وضمّت

(١٩) ن. ص ٨.

(٢٠) أحمد علبي، المشرق، السنة ٨٠، ج١، ك٢-حزيران ٢٠٠٦، ص ٧٨.

(٢١) رئيف خوري سيرته أَدبه، م.س. ص ٩.

(٢٢) ن. ص ١٠-١١.

(*) كانت عادة السفر إلى فلسطين، من لبنان، تتكرّر، قبل الحرب الكبرى، وبعدها، فقد سافر جرجي شاهين عطيه عام ١٩٠٤، قاصدًا المدرسة الداخليّة الروسيّة للمعلّمين، في النّاصرة، حيث تتلمذ عليه ميخائيل نعيمه الّذي ترك لبنان عام ١٩٠٢، وبقي في الناصرة أربع سنوات.
(مخطوط، للد. الياس الخوري، حول آل عطيّة، ص ١٦)
أيضًا: (حنّا الفاخوري، الجامع في تاريخ الأدب العربيّ الحديث، دار الجيل، ط١، ١٩٨٦، ص ٣٦٨-٣٦٩).
* ترجمَ:
- باغانيني ساحر النّساء، لبوريس فارتانوف، دار المكشوف، ١٩٤٧.
- رحلة في لبنان في الثلث الأوّل من القرن التاسع عشر، لجون كارن، المكشوف، ١٩٤٨.
- في زيارة أَنصار ماركوس، لأُوسكار دافاتشو، دار القارئ العربيّ، بيروت، ١٩٤٨.
- إنّ الأدب كان مسؤولاً، أندريه جدانوف، دار القارئ العربيّ، ١٩٤٨.
- النجمة، عمانوئيل كازاكيتش، دار القارئ العربي، ١٩٤٩.

(٢٣) مطانيوس طوق، م.س. ص ١٢-١٣.

إميلي فارس ابراهيم، قدري قلعجي، هاشم الأَمين، موريس كامل، ورئيف نفسه.

- أَلقى محاضرات في بيروت ودمشق والقاهرة والكويت، في مؤتمرات الأدباء العرب، وفي غيرها من البلدان. وكان عضوًا دائمًا للهيئة التأسيسيّة لاتّحاد الكتّاب العرب.
- تناظر مع د. طه حسين، بدعوة من هيئة المحاضرات، في كليَّة المقاصد الإِسلاميّة، في بيروت، ولا يزال مقرّ الأونسكو شاهدًا على سعة ثقافته، وقوّة شخصيّته، وحلاوة حضوره، وكان الموضوع «لمن يكتب الأديب أَللكافّة أم للخاصّة؟»[٢٤]
- غوّص في «الأغاني» و«العقد الفريد» و«تَزيين الأَسواق»، وغيرها، بحثًا عن مكامن الجوهر التقدّميّ في النهضة العربيّة القديمة[٢٥]، والتزم الثقافة العربيّة من منطلق قوميّ حضاريّ إنسانيّ، بعيدًا من الدين، لأنّ هذا الأَخير لا يصنع وحده، قوميّة عقلانيّة علمانيّة[٢٦]. وكأنّ رئيفًا، في تعاطيه مع التّراث العربيّ، استعان بـ «العقد الفريد» القائل: «تطلّبت نظائر الكلام وأَشكال المعاني وجواهر الحكم وضروب الأدب ونوادر الأمثال... وقصدت من جملة الأَخبار وفنون الآثار أَشرفها جوهرًا، وأَظهرها رَونقًا، وأَلطفها معنى، وأَجزلها لفظًا، وأَحسنها ديباجة، وأَكثرها طلاوة وحلاوة»[٢٧]. هذا الماضي الّذي تلفّت نحوه رئيف خوري لم يحُل دون استمراره، طوال حياته، مقاتلاً وراءَ متاريس الحقّ، في الحرب بين الحقّ والظّلمات[٢٨]، مديرًا وجهه إلى النُّور.
- كان أحد مؤسّسي «عصبة مكافحة النازيّة والفاشستيّة»، عام ١٩٤٠، إلى جانب عمر فاخوري، يوسف ابراهيم يزبك، قدري قلعجي، أَنطون ثابت. وتحوّلت بعد ستّ سنوات إلى جمعيّة الصّداقة اللّبنانيّة السوفياتيّة. وبقي هاجس رئيف خوري البحث عن ديمقراطيّة أكثر إنسانيّة من النازيّة[٢٩].
- عمل إلى جانب الشيخ عبد الله العلايلي، في دار المعجم العربيّ، فأَعطى من ذاته بسخاء، وأَغدق على «المرجع» - المعجم العلميّ، اللّغويّ، الفنّيّ، إغداقًا تعجز عنه الكلمة مهما بلغت أَناقتها[٣٠].
- كان الدكتور ميشال عاصي، رئيس الجامعة اللبنانيّة، معجبًا بعصاميّة رئيف خوري، وبنتاجه الغزير، ويعدّه أُنموذجًا للرَّجل الَّذي لا ينام، وللفكر الباحث عن الحرّيّة، في نظام يتّصف بالرّقيّ والإنسانيّة. وعندما أَتذكّر ما يخبر عنه النّاس، في نابيه، أقف احترامًا أمام حيّ بين قارئيه وبين قادريه، لثباته في طريق الحقّ، لمحبّته الفقراء، لتواضعه وهو في قمّته، لتعاطيه مع سائق سيّارته، والعامل في بيته، وفي أَرضه، ومع أبناء قريته، وزملائه في الصّحافة، والمعاهد... بمنتهى اللّطف، والظّرف، والكياسة، بمنتهى الجدّ والحكمة والسِّياسة... والسّخرية، إذا لزمَ الأَمر.

رئيف خوري هو صاحب القول المأثور: «إنّ النّظر إلى وراء جزءٌ من النّظر إلى أَمام»، ولذلك لا بُدَّ من أن يكون النَّظر إلى حياته وأَدبه وقيمه ونضاله وطموحه جزءًا من حاضرنا والمستقبل*.

٩. رائد من روّاد النّهضة الفكريّة والإنسانيّة:

عاش رئيف خوري في عصر عبد الله العلايلي، وسهيل إدريس، وميشال سليمان، وأمين نخلة، وعمر فاخوري، وآخرين. لكنّ خوري، كما قال صديقه عمر فاخوري، «سيبقى وحده بوصفه عبارة وطنيّة عبقريَّة... فكرة إنسانيَّة تقدّميّة حرَّة، منتصرة. وإذا

(٢٤) ن. ص ١٤-١٦.

(٢٥) سماح إدريس، رئيف خوري والتراث العربيّ، دار الآداب، بيروت، ط١، ١٩٨٦، ص ٢٩.

(٢٦) ن. ص ٣٠.

(٢٧) ابن عبد ربّه الأندلسيّ، العقد الفريد، دار الكتاب العربيّ، ١٩٨٣، ج١، ص٢-٣.

(٢٨) رئيف خوري: «التراث القوميّ العربيّ نحن حماته ومكمّلوه»، منشورات مجلّة الطّريق، بيروت، ١٩٤٢، ص ٥.

(٢٩) من نداء له، في دمشق، ١٠ تموز ١٩٤١: «أَين نحن أَبناء الفكر العربيّ» (أَحمد عُلبي م.س. ص ٨٤-٨٥)

(٣٩) عبدالله العلايلي، المرجع، م١، ص.ط، دار المعجم العربيّ، بيروت، ١٩٦٣.

(*) قال مطانيوس طوق، م.س. ص ٢٧، هامش ١ «ساهم في تأسيس مجلس المتن الشماليّ للثقافة، وفي تأسيس جمعيّة الصّداقة اللّبنانيّة السوفياتيّة، وجمعيّة التعاون الثقافيّ، بين لبنان والاتحاد السوفياتيّ، وجمعيّة التضامن الآسيويّ الأَفريقيّ. وكان عضوًا في حركة أَنصار السّلم، في لبنان، وفي لجنة الدفاع عن حقوق شعب الكونغو، وحركة التعبئة الوطنيّة الّتي تأَسّست عقب حرب حزيران، ١٩٦٧.

تحدّث أَحد عن صداقة عمر فاخوري للشعوب الحرَّة أَو «الدول الحرَّة» أَو «الأَحزاب الحرَّة»، فلا يحاولنَّ أَن يهرّب تحت ستار لفظ الصّداقة، معنى التبعيّة والمأموريّة منَّا لأيّ إرادة خارجيّة»[٣١]. وما أَراده خوري لنفسه ولصديقه، أَراده للبنان وطنه، قال: «لبنان شأنه شأن غيره من الأوطان، لا يتمّ خلاصه بأن يظلّ شاخص الأَبصار إلى خارج حدوده، مُشرِّقًا ومُغرِّبًا. ويعني كذلك أَنّ خلاص لبنان إنّما يتحقّق بالاعتماد على الرّوح اللّبناني الجديد الّذي يؤلّف أبناء لبنان ويجمعهم، وَيُحيي قوى لبنان ويصبّها في سبيل واحد، فيكون ذلك أَساسًا متينًا لاستقلالٍ لبنانيّ وحرّيّةٍ لبنانيّة، أَساسًا يصمد على عوادي الزمن، لأنّه أَساس داخليّ وطنيّ لا يتعلّق بأَهواء خارجيّة»[٣٢].

وأَسمح لنفسي بأَن أَرثي رئيف خوري كما رثى هو عمر فاخوري (ت.٢٤ نيسان سنة ١٩٤٦)، في ذكراه السّابعة، قال: «هنا، تحت هذا التراب الكريم يَثوي رجل. لقد تحدّثنا، وسنتحدّث كثيرًا، عن قيم مثّلها في أدبه وحياته. كان لواءً مرفوعًا، من ألوية اللّغة العربيّة والعروبة، وكان علمًا خفّاقًا من أَعلام الشّعور الوطنيّ الصّحيح، وبالتّالي كان عدوًّا لدودًا للطّائفيّة، عدوًّا لدودًا للنازيّة والفاشستيّة والاستعمار والحروب الاستعماريّة. وكان صديقًا، جنديّ فكر، للاستقلال الوطنيّ والدّيمقراطيّة والاشتراكيّة. وهما عداوة وصداقة أدّتا به- منطقيًّا- إلى مصادقة جميع الشعوب الحرَّة، والمُحبَّة للحرِّيَّة»[٣٣]. ورئيف، من خلال ندوة عمر فاخوري، مثّل عنصرًا حيًّا للثّقافة والتثقيف، وحمل رسالة مستوحاة من فلسفة أرسطو وأفلاطون، أو المعرّي والفارابي، أو من شعر هوميروس وبوشكين (كرّمته الهيئة في ١٤ حزيران ١٩٤٩)، وبيرون وهيجو، أو من أَدب فولتير وتولستوي، وغيرهم[٣٤]. ويكاد يصحّ في رئيف نفسه ما قاله عمر فاخوري، حول نهجه ونهج أَصدقائه: «نحن نفكّر أيضًا، دوليًّا أَو عالميًّا أَو إنسانيًّا، لم يخطر لنا، ذات يوم، ببال، أَنَّنا من قوم منكمشين على أَنفسهم، في وطن منعزل في ذاته. نحن في عصبة مكافحة النازيّة، والفاشستيّة، ونحن في جمعيّة أَصدقاء الاتّحاد السّوفياتي، ونحن في صَفّ الأُمم الحرَّة المتّحدة، أقربُ إلى لبنان، وإلى العروبة، وإلى الشرق»[٣٥]. وصدق فاخوري أيضًا، حين قال: «لم أَعرف فتى هو أَعظم من رئيف خوري إنفاقًا ممّا رزقه الله.. لغة الحقيقة يُجيدُها قراءةً وكتابةً، فكرًا وعملاً»[٣٦].

هذا الرّائد النّهضويّ العقلانيّ العلمانيّ لم يشأ أَن يصل إلى حدّ الإلحاد، ولم يكن طقوسيًّا في مقاربته الدّين، فحياته انصهار خلّاق مع كلّ الحيوات، وفكره طليعيّ لا يُنزل الحرّيّة عن عرشها باسم الالتزام، ولا يستخدم الالتزام سلاحًا لتضييق أُفق الحوار والحرّيّة والديمقراطيّة. أَراد أَن يضمن كرامة الإنسان، وسلام الأُمم، وحقوق المجتمعات، خارج مسوّغات الاستعباد، والضّغط على العقول، والتطرّف. في ظلّ هذه المعاني كلّها، وفي مناخ القوميّة العربيّة، والانتماء إلى الشعوب المظلومة، تعاطف رئيف خوري مع تيّارات وهيئات وأحزاب وحركات، وأَنشأ أَدبه، وحبّر مقالاته وخطبه، والمحاضرات، وسهرَ معظم ليله، وسافر، وعلَّم، وغامر بحياته، وباستكانته الشخصيّة، من أَجل الإصلاح والارتقاء، والنّهوض بهذا الشرق من وحول التخلّف إلى فضاء نورانيّ، وَلَفْت نظر العالم إلى خطر سياسات التّفرقة والعنصريَّة والاحتلال وقهر الشعوب. «لم يكن (خوري) واحدًا من آحاد النّاس، قدر ما كان إنسانًا متميّزًا من صفوة النّاس... إنسانيّته هي الّتي تصوغه، وإنسانيّته هي الّتي توجّهه، وإنسانيّته هي الّتي تكشف له آفاق الرّؤية البعيدة، إنّه، في ذلك، على مثل ما يكون الملهمون»[٣٧].

---

(٣١) الآداب السنة ١، العدد ٤، نيسان ١٩٥٣، ص ١٥-١٦.

(٣٢) الآداب، م.س. ص ١٦.

(٣٣) ن. ص ١٥.

(٣٤) شاعر روسيا بوشكين مئة وخمسون سنة على مولده، دار القارئ العربيّ، بيروت ١٩٤٩، ص ٣٧، ٣٨.

(٣٥) عمر فاخوري، أديب في السّوق، دار المكشوف، ط١، ١٩٤٤، ص ١١٧.

(٣٦) الفكر العربيّ الحديث، المقدّمة، دار المكشوف، بيروت، ١٩٤٣، ص ٩.

(٣٧) رئيف خوري في مسيرته الفكريّة، د. شكري فيصل، الآداب، السّنة ١٦، العدد ٧ تموز- يوليو ١٩٦٨، ص ٩.

ذكريات مع الأديب رئيف خوري



جان كميد

عرفته في منتصف الخمسينات من القرن الماضي، عندما صدرت مجلّة «الرسالة» الأدبيّة معهودًا برئاسة تحريرها إليّ. وكان إلى جانبي في تحريرها الأديب الشاعر نقولا قربان صديق رئيف، إذ كان نقولا قد خاض الوسط الأدبيّ وأصبح له فيه معارف وأصدقاء، بينما كنت أنا بكرًا من هذه الناحية أي حديث الإطلالة على عالم الأدب، فجنّد نقولا للمجلّة معظم الأدباء المعروفين في تلك الأثناء.

غدا رئيف من كتّاب «الرسالة» المداومين، وطبعًا أصبحت لي به علاقة وثيقة. ومنذ البدء لمست فيه «عنتريّة» في النبرة والتصرّف لم أعهدها من بعد إلاّ لدى صنوه سعيد تقيّ الدين. ولكنَّ عنتريّة سعيد كانت ضاحكة، بينما هي عند رئيف جادّة رغم النكتة الجارحة التي تتخلّلها. ومن مظاهر عنتريّته أنّه كان شديد الاعتداد بنفسه، فكان لا يدع فرصة إلاّ ويروي فيها كيف سطا على فلان أو فلان بموقفٍ علا فيه صوته وأرعد. من ذلك أنّه كان له مرّةً معاملة في وزارة الأنباء (وزارة الإعلام اليوم)، وهو كان يتحدّث في البرامج الأدبيّة لـ«إذاعة لبنان»)، وهذه المعاملة كان ينبغي مراجعة رئيس ديوان الوزارة نجيب اليان بشأنها. فأبدى هذا الأخير لامبالاةً بالقادم إليه على عادة بعض الموظّفين مع مراجعيهم، ولم ينهض ويسلّم عليه، وهنا عصف به صوت رئيف كالرعد: «قِفْ»، فإذا بقوّة كأنّها مغناطيسيّة تهبّ على نجيب اليان وتدفعه صاغرًا إلى الوقوف؛ هذه الحادثة سمعت رئيف خوري يسردها أكثر من مرّة.

أجل، كان رئيف، كما قال سعيد تقيّ الدين في تقديمه لمجموعة «ليته لم يعد» القاصد الياس مقدسي الياس: «صاحب هذه المجموعة عِتليت جسدٍ وجبّار روح»، وهو ما ينطبق عليه أيضًا، على سعيد تقيّ الدين شخصيًّا.

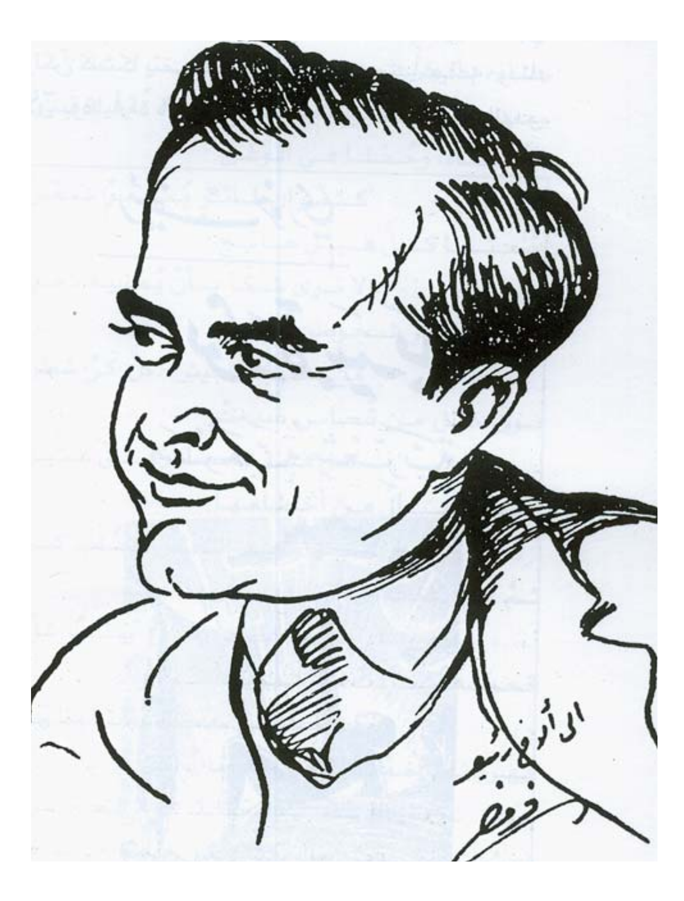
قلت إنّ رئيف كان صاحب نكتة جارحة، ومن بوادرها أنّني جئته يومًا أطلب إليه المشاركة في ندوة ستقيمها مجلّة «الرحمة» (التي كانت في عهدتي بعد «الرسالة») حول كتاب صدر لأحد المفكّرين المعروفين. فسألني رئيف عن المشاركين في هذه الندوة،ولمّا عددتهم له، وكلّهم من ذوي الأقلام الكبيرة، علّق على ذلك بقوله: «الجنازة حامية والميّت...». ولكنْ بالنتيجة قَبِل أن يشارك في الندوة، رافضًا أن يؤتى له بنسخة من الكتاب الذي يشكّل موضوعها للاطّلاع عليه ومشترطًا أن يقول ما يريد. وعند انعقاد الندوة توجَّه إليه مديرها الدكتور ميشال عاصي بالسؤال: «ألم تسمع يا أستاذ رئيف بالكتاب الذي أصدره الدكتور... وأحدث ضجّة في الأوساط الأدبيّة والثقافيّة؟»، فأجابه رئيف هازلاً: «لا، أنا صاير سَمْعي تْقيل هالمدّة»، فكأنّ القضيّة قضيّة سماع بالأذنين!

ومن طرائف ما كان يبدر من رئيف خوري عندما يُدعى إلى المشاركة في احتفالٍ أدبيّ أنّه دُعي للتكلّم في حفلة تكريميّة للأديب سمير شيخاني تقام في بلدته شيخان. وكانت الطرقات الجبليّة في ذلك الحين، خصوصًا في المناطق غير الاصطيافيّة، ضيّقة متعرّجة وملأى بالحُفَر والأخاديد والحجارة، فضلاً عن بُعد المركز المقصودة عن العاصمة. فاستهلَّ رئيف كلمته راويًا أنّ الأديب الفلسطينيّ محمّد إسعاف النشاشيبي طُلب إليه مرّةً أن يكون بين خطباء احتفالٍ يقام في بيروت لأمين الريحاني (على حياته)، فتجشَّم مشاقّ السفر من يافا إلى بيروت، ولمّا جاء دوره في الكلام وقف قائلاً: «واللهِ والله، لولا أنّه لبنان، ولولا أنّه الريحانيُّ أمين، ما جيت، ما جيت، ما جيت»، فدُعي من ثمّ بالأديب الماجيتي. واستطرد رئيف قائلاً: واللهِ والله، لولا أنّها شيخان، ولولا أنّه الشيخانيُّ سمير، ما جيت، ما جيت، ما جيت». ولم يكن رئيف يحشم أحدًا ولو كان زميلاً له أو صديقًا؛ فالشاعر يوسف غصوب، الذي كانت تجمعه برئيف الزمالة في «مجلس المتن الثقافيّ»، نعته رئيف بأنّه «ميّت لا يُقبر»، بمعنى أنّه، بالنسبة لسنّه، انتهى شعريًّا وأدبيًّا.

لكنّني رأيت رئيفًا في موقفٍ واحدٍ وقد تخلّى عن عنتريّته وتجبّره وأصبح أكثر من متواضع، متهيّبًا للموقف ومُحْرَجًا، وذلك عندما جُعل طرفًا في مناظرة مع مَن كان يُلقَّب بعميد الأدب العربيّ الدكتور طه حسين، خصوصًا لمّا استهلَّ هذا الأخير كلامه بأنّه عندما دُعي إلى هذه المناظرة اكتفى بأنّها تتيح له السياحة إلى لبنان وزيارته من جديد، وما همَّه بعد ذلك مَن يقابله فيها، موحيًا بكلامه هذا أن ليس قَدْرُ مناظره هو ما حداه على القبول. فإذا برئيف يبدأ كلامه قائلاً أنّه استفاد من مؤلّفات طه حسين في أدبه، مكرّرًا عبارته هذه ومضيفًا أنّه إذا كان الآن يناقشه في بعض مضامينها فلا ينال ذلك من تقديره العالي لمناظره الكبير. والحقّ أنّ كثيرًا من النقاط التي كانت موضع النقاش وُفّق فيها رئيف وكان سديدًا في آرائه، كما قال مارون عبّود في ما بعد في تعليقه على هذه الندوة في مجلّة «الصيّاد» وقد كان حاضرًا إيّاها، إذ ذكر أنّ رئيف خوري كان يصيب الهدف ولكنْ بيدٍ راجفة. وهذا كان شعور جميع الحاضرين أيضًا، لأنّ رئيفًا كان في موقف مَن لا يقارع ندًّا له، بل يقف في حضرة أميرٍ من أمراء الأدب، تحيطه هالة من الشهرة الطائلة والصيت العريض.

الأديب الذي كان رئيف خوري يقدّره ويحترمه جدًّا هو عمر فاخوري، الذي يمكن تسميته أبا رئيف الروحيّ. كان يقول عن عمر إنّه أرستقراطيّ في الفنّ والفكر، الأرستقراطيّة الوحيدة المقبولة. ذلك أنّ رئيفًا كان ماركسيَّ النزعة، آخذًا ذلك عن عمر، ونعرف موقف الماركسيّة من الطبقة الأرستقراطيّة والرأسماليّة وانحيازها إلى الطبقات الشعبيّة؛ فرأى في رفعة أسلوب عمر وأناقته ما يصحّ وصفه بالترف الفكريّ والفنيّ، ممّا يشكّل أرستقراطيّة لا اعتراض عليها إزاء الأرستقراطيّة الطبقيّة البغيضة عند الماركسيّين والمرذولة.

وكان أيضًا معجبًا أشدّ الإعجاب بالشاعر الياس أبي شبكة، وله في شعره رأي مخالف لما يبدو منه عبر ديوانه «أفاعي الفردوس»، وهو أنّ الشهوة الجامحة التي نراها عند الشاعر في هذا الديوان هي في الحقيقة نابعة من تشوُّقه إلى الجنس وتمنّيه إيّاه.. حين لم تكن طبيعته الجسديّة الواهية تسعفه في ذلك، فعوَّض عن هذا الحرمان بتصوّرٍ ووصفٍ بعيدَين عن الواقع، هذا بينما نرى، يتابع رئيف، الشاعر المصريّ علي محمود طه شديد الصفاء في شعره، وهادئًا وادعًا في غزله الأفلاطونيّ العفيف، حين أنّه كان



في الحقيقة منغمسًا في الجنس إلى أعلى أذنيه، وغائصًا على تعاطيه وفاحشًا فيه، فجاء شعره «البريء الطاهر» تعويضًا عن واقعه العاصف اللاهب، واقعه الفاجر المتهتّك.

أمّا آراؤه العقائديّة فلم يكن رئيف يبخل بها على أحد، وحتّى على طلاّبه في معهدَي الليسّيه الفرنسيّ والإخوة المريميّين، ممّا أدى إلى صرفه منهما لما هو معروف عن العداء الإكليريكيّ للشيوعيّة، والعداء السياسيّ لها يومئذٍ في دولة غربيّة ليبيراليّة كفرنسا.

وقد كنت مرّةً، بعد وفاته، في حديث عنه مع الشيخ فؤاد حبيش، صاحب «دار المكشوف» التي كانت تنشر لرئيف مؤلّفاته، فقال لي: «إنّ رئيفًا جنى على نفسه وخسر منابر تعليم كانت تدرُّ عليه ما يكفيه للعيش، بسبب إعلانه الصريح عمّا يؤمن به ويعتقد بصوابه. فأنا، أضاف فؤاد حبيش، لي كرئيف آراء في ما هو على الأرض، وفوق الأرض وتحت الأرض، ولكنّني لست مضطرًّا لأن أفضي بها لغيري وأجلب جميع الناس إلى موقفي». وموقف رئيف ممّا هو «فوق الأرض» عبَّر عنه مرّةً أمامي بقوله: «هل قليل أن نكون خاضعين لقوّة عاتية لا تقبل نقاشًا ولا مساومةً ولا يستطيع أحد أن يتحدّاها؟!».

وهناك حادثة جرت لرئيف إذ كنت في صحبته أرويها في سياق هذه الذكريات، وهي أنّ الطبيب الدكتور جدعون محاسب جاءني، في العام ١٩٦٦، طالبًا منّي الاشتراك في حفلة تذكاريّة سوف تقام للشاعرة ماري عجمي صاحبة مجلّة «العروس» الدمشقيّة، وذلك في مدرَّج الجامعة السوريّة بدمشق، وأرفق طلبه هذا بثانٍ هو أن أختار له أديبًا لبنانيًّا يشارك أيضًا في هذه الحفلة. فوقع اختياري على رئيف خوري. وذهبت مع الدكتور محاسب إلى منـزله في نابيه لمفاتحته في هذا الأمر. فكان في البدء متحفّظًا على الذهاب، ولكنّه في النتيجة قَبِل الدعوة. والسبب الذي حدا بالدكتور جدعون إلى الاهتمام بهذه الحفلة هو أنّ ماري عجمي تربطها صلة قرابة بزوجته السوريّة الأصل، الشاعرة بالفرنسيّة ليلى الخوري محاسب.

وضع صديقي الطبيب سيّارةً بتصرّفنا مع سائقها لإيصالنا إلى دمشق وإعادتنا منها، وعلى نقطة الحدود السوريّة نزل السائق مع هويّاتنا لإجراء المعاملات اللازمة، وعاد بعد تأخُّر طويل يقول إنّه أُبلغَ بأنّ الأستاذ جان كميد يستطيع أن يمرَّ بسلام، أمّا الأستاذ رئيف خوري فهناك إشكال يتعلّق به يتعيَّن عليه تسويته مع المخابرات العسكريّة، وإلاّ لا يستطيع العودة إلى لبنان بدون حلّ هذا الإشكال.

أكملنا طريقنا، حيث كان في استقبالنا لدى وصولنا وزير سابق من مدينة حماه يُدعى جورج خوري، وهو لم يكن بعثيًّا كما الحزب الحاكم، ولكنّه ذو نفوذٍ في الدولة. فبعد انتهاء الحفلة دعانا إلى منـزله في إحدى ضواحي دمشق وذهب هو إلى دائرة المخابرات لتسوية القضيّة، وقد عاد بنتيجة إيجابيّة مع ترحيب مسبق بالأستاذ رئيف في سوريا ساعة يشاء أن يزورها. وتبيَّن أنّ الإشكال يعود إلى زمنٍ كان فيه الحزب الشيوعيّ السوريّ، وسائر الأحزاب الشيوعيّة العربيّة، على غير ما يرام مع الحكم السوريّ، فوُضعت علامة حمراء أمام اسم كلِّ منتمٍ إلى أحد هذه الأحزاب أو متعاطفٍ معه، وفي الوقت الذي ذهبنا فيه إلى دمشق كان ذلك لم يعد واردًا، ولكنَّ العلامة أمام اسم رئيف بقيت موجودة لأنّه لم يحدث قبل زيارتنا هذه ما يحرّك موضوعها.

وقبل أن نذهب، بعد انتهاء الاحتفال، إلى منـزل الوزير المذكور، اختلى بي بعض الأدباء السوريّين من قرّاء مجلّة «الرسالة»، و«الرحمة» التي رأستُ تحريرها بعد تلك، طالبين منّي البقاء بضيافتهم ممضيًا ليلتي في أحد فنادق دمشق الفخمة.. وفي اليوم التالي يطوفون بي معالم دمشق الأثريّة والسياحيّة والطبيعيّة والعلميّة لتعريفي بها وإطلاعي عليها، وهي دعوة لم توجَّه لغيري من الأدباء اللبنانيّين المشاركين في الاحتفال، والذين كان بينهم، إلى رئيف خوري، الشاعر أمين نخلة والأديبة نجلاء صعب.

وقد راقت لي الفكرة، لكنّني وجدت من الصعوبة أن أتخلّى عن سيّارة مخصّصة لنا لإيصالنا كلاً إلى بلدته ومنـزله.. من أجل البقاء في دمشق ليلةً ونهارًا، أُضطَرّ بعدها لركوب سيّارة أجرة توصلني إلى ساحة الشهداء في بيروت، حيث عليّ أن أستقلَّ سيّارة ثانية إلى جونيه إذا بقي هناك سيّارات في موقف جونيه بتلك الساحة، إذ يكون قد هبط الليل. فشكرت أصحاب الدعوة على بادرتهم واعتذرت منهم، عائدًا إلى لبنان مع رئيف الذي أبرز السائقُ أوراقَ حلّ قضيّته لنقطة الحدود.

هذه بعض الذكريات ممّا تخلّل علاقتي بالأستاذ رئيف خوري. ولكنّ الموجع في نهاية هذه العلاقة هو ما آلت إليه حالة رئيف الصحيّة وهو بعد في مطلع سنّ الكهولة. فقد كان مدخّنًا مدمنًا، وفي فترة من الفترات لاحظت بدء هزالٍ في جسمه وصفرةٍ في وجهه، ووجدته عارفًا ذلك وشاكًّا في الأمر. ثمّ صدف أن انقضت مدّة غير قصيرة لم أشاهد فيها رئيفًا، ولمّا التقيته من بعد وجدت النضرة قد عادت إليه وعاد جسمه كما كان. فأوضح لي أنّ العلّة كانت في التدخين، ولمّا هجره عادت إليه الصحّة والعافية.

لكنَّ رئيفًا، للأسف، لم يصبر كثيرًا على انقطاعه عن التدخين، فاستأنف تعاطيه ليعود من جديد إلى صفرته وهزاله. فقد نبتت العلّة في صدره من جرّاء ذلك، ثمّ سرت إلى دماغه بحيث لم يعد ينفع فيه علاج. فختم حياته في أحد مستشفيات لندن وهو في الرابعة والخمسين من عمره، ولم أتمالك نفسي حين قيل لي إنّه كان يستقبل عائديه في المستشفى بالبكاء. فهذا الصنديد القويّ جسدًا وروحًا، انتهى نائحًا على حالته، لأنّ هناك في الحياة «ما ليس عليه كبير».

حضرتُ مأتمه في نابيه مع جميع أدباء لبنان، وكان مأتمًا حافلاً دخل فيه رئيف خوري الكنيسة ربّما لأوّل مرّة، ولكنّه دخلها جثّةً هامدة بعد حياة ملأى بالحيويّة والعطاء. وأصدرتُ بعد ذلك عددًا خاصًّا عنه في مجلّة «الرحمة»، كتب فيه الأوفياء لذكرى رئيف خوري وقادرو أدبه وشخصه.



د. عصام الحوراني

تجربة ممتعة ومفيدة في جامعة دايتون

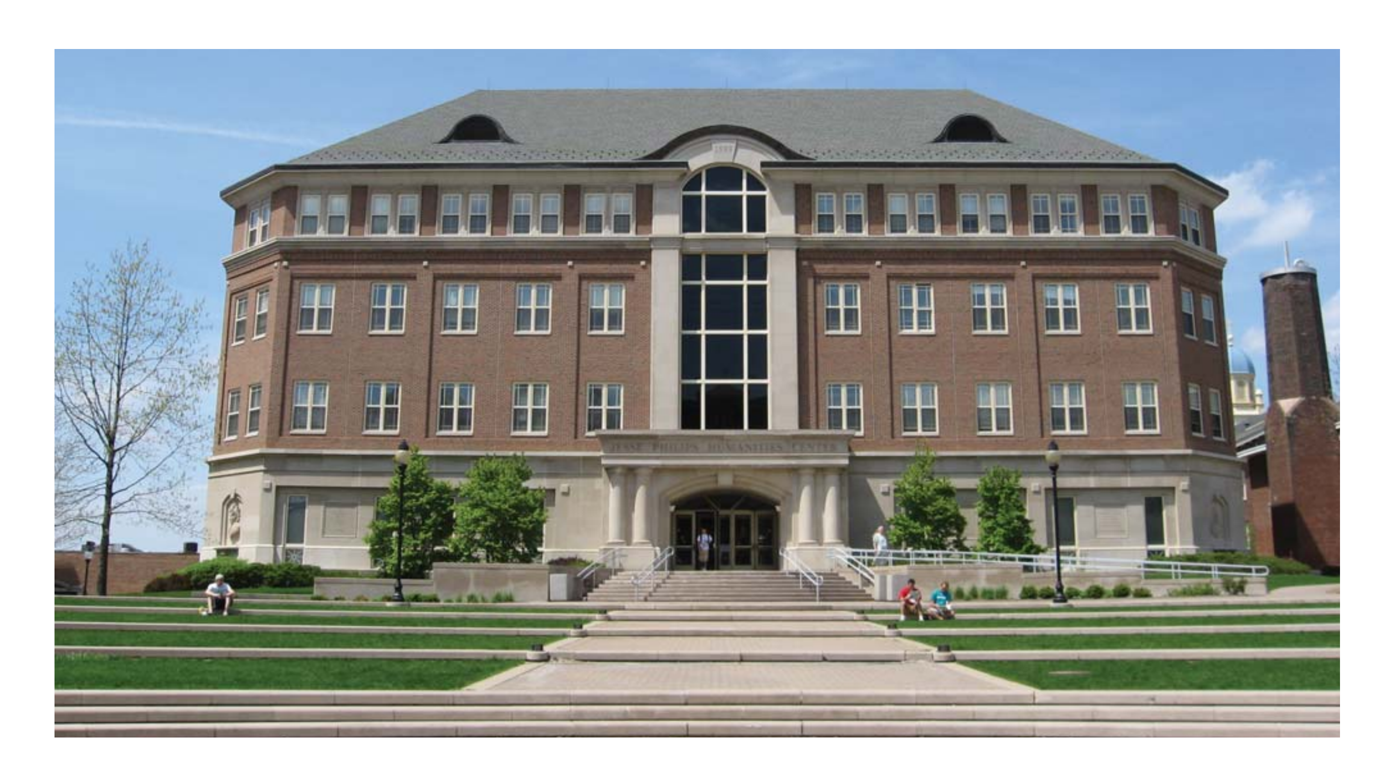
«كانت فرصة سانحة، أن أزور جامعة دايتون لتدريس اللّغة العربيّة والثقافة التي تخصّ العرب في أعصرهم المتعدِّدة، وذلك في أثناء الفصل الدراسيّ الصيفيّ الثاني سنة ٢٠١٢. كان ذلك بناء على ما يُشبه التبادل الأكاديميّ بين جامعة سيّدة اللُّويزة وجامعة دايتون في ولاية أوهايو. وقد تمّت تلك الزيارة بفضل الجهود التي بُذِلت مِن قِبَل عميدة كليّة الانسانيّات الدكتورة كارول كفوري، ومدير قسم العلوم السّلوكيّة والاجتماعيّة في الكليّة الدكتور منصور عيد. لقد انتهزتُ فرصة وجودي في حرم جامعة دايتون المريميّة لستّة أسابيع، لأكتب هذه الدراسة المتواضعة التالية، مشيرًا في مقدِّمتها إلى مدينة دايتون، ثمّ باحثًا بإيجاز في الجامعة ومؤسِّسيها مِن الأخوة المريميّين الفرنسيّين في أواسط القرن التاسع عشر. أرجو أن تكون دراستي هذه مثمرة بالنسبة إلى التربويّين والأساتذة والطلاّب، وذلك مِن الناحيتين الأكاديميّة والانسانيّة، وأرجو أيضًا أن تفعَّل العلاقات الأكاديميّة بين الجامعتين المريميّتين في سبيل مستقبل البحث العلميّ، وتحديث البرامج، وتطوير الدراسات الشرقيّة العربيّة، والدراسات الدينيّة والإنسانيّة وغيرها. وبخاصّة أنّ جامعتنا وجامعة دايتون ينتميان كلاهما إلى مؤسَّسة مريميّة إنسانيّة واحدة، ولو بَعُد المكان والزمان».

أ- جامعة دايتون - الأميركيّة المريميّة





يا قدّيسة مريم... ما أعظم اسمكِ يسمو على شفاهِ الملايين، يلهجون به في أقاصي المعمورة، وتُشيَّد بشفاعتك المدارس الكثيرة، والمعاهد العلميّة المختلفة، والجامعات التي تُخرِّج آلاف الطلاّب في كلّ عام ومن كلّ الأجناس، هذا عدا المؤسَّسات المتنوِّعة الكثيرة جدًّا ذات الأهداف الإنسانيّة. ويا نورًا يُضيء عتمات الدياجير في أصعب الأوقات وأحلكها. ها أنذا اليوم، أجد نفسي في جامعة دايتون العريقة، التي ترقى بتأسيسها إلى عام ١٨٥٠، عام رحيل مؤسِّس مجتمع القدّيسة مريم الطّوباوي(شاميناد) Chaminade. هذه الجامعة بأبنيتها وقبابها ذات الطابع القديم الرّاقي والحديث أيضًا، وكليّاتها المختلفة، وكنيستها الشعار التي تتصاعد قبّتها شامخة في سماء دايتون، هذه المؤسَّسة التربويّة تُحدِّث عن نِعَم كثيرة وخير فائض ومحبّة لا تخمِد نارَها أحقادُ العالم ولا صراعاتهم، فمن هم هؤلاء المريميّون الذين مشوا على دربكِ يا سيِّدة العالم؟ كانوا فقراء فشادوا باسمكِ كلّ مجد غير دنيويّ لا يُثمَّن، فيه روح الله ومحبّته التي لا تفنى ولا تزول: «**وها أنا معكم كلَّ الأيّام إلى انقضاء الدَّهر**».



مع الطّوباوي وليم جوزيف شاميناد

المريميّون الذين أسّسوا هذه الجامعة، قد تشكّلت نواتهم الأولى سنة ١٨١٧ على يدي المقدّس الطّوباوي وليم جوزف شاميناد William Joseph Chaminade (١٧٦١– ١٨٥٠). وُلِد هذا الرجل الرّائد في الثامن من نيسان سنة ١٧٦١ في مدينة Perigueux (بيريغيه) الفرنسيّة، وهو الثاني ما قبل الأخير من أسرة كبيرة جاوزت الاثني عشر ولدًا، اختار أربعة منهم الحياة الرّوحيّة الدينيّة، إذ انتمى الأخ الأكبر يوحنّا المعمدان إلى اليسوعيّين. والده كان يملك حانوتًا لبيع المنتوجات المجفّفة في (بيريغيه)، واسم هذه المدينة يرقى في أصوله إلى سكّانها الأصليّين من الجوت Celts وذلك قبل مجيء الرّومان، والاسم يعني بالجوتيّة: القبائل الأربع، وإلى هذه المدينة لجأ في أثناء الحرب العالميّة الثانية عدد كبير من اليهود المضطهدين في منطقة الألزاس عام ١٩٤٠. تأثّر وليم منذ طفولته بوالدته كاترين، فقال مرّة: «لقد أخذتُ عنها اللُّطفَ والدماثة، وعذوبةَ العِشرة، والهدوءَ واللّينَ، والحكمة، وفوق كلّ هذا وذاك استقيتُ منها الثقافة الدينيّة». وكذلك فقد هدته إلى قانون الإيمان المسيحيّ، وغرست هذه الأمّ الفاضلة في أعماق ولدها الحبَّ الشديد لمريم العذراء: «الرّوح المُلهِمة والمحرِّكة لقداسته». (Education and Transforma-tion, Christopher J. Kauffman, p 6)

العصر الذي وُلِد فيه شاميناد وعاش، شهد أحداثًا مهمّة جدًّا وخطيرة غيّرت مجرى التاريخ، نذكر أهمّها على الإطلاق: عصر التنوير، الثورة الفرنسيّة عام ١٧٨٩، عصر نابليون، الحركة الرومنطيقيّة، إعادة إحياء الملكيّة، الثورات السياسيّة ما بين عامَي ١٨٣٠ و١٨٤٨، الثورة الصناعيّة المتمثّلة بالمحرِّك البخاريّ وغيره. أصبح أخوه الأكبر يوحنّا معلّمًا في كليّة سان شارل في مدينة مُوسيدان الفرنسيّة Mussidan والتي تبعد حوالى عشرة أميالٍ أو أكثر بقليل إلى الجنوب من بلدته. وفي تشرين الأوّل من سنة ١٧٧١ استدعى يوحنّا أخاه وليم لكي يُتابع تعلُّمَه في هذا المعهد، ويتلقّى الدروس الكلاسيكيّة آنذاك، وكان أخوه لويس قد سبقه إلى هذا المعهد بسنتين.

في هذه الأيّام، جُرِح وليم في كاحله جرحًا بليغًا، وقد توجّع كثيرًا، وسأل العذراء مريم أن تُساعدَه، وعندما شُفِيَ مِن جُرحه وآلامه أراد شكرها بالحجّ مشيًا على الأقدام إلى مقامها السامي في مدينة فيرديليه Verdelais وقد رافقه أخوه يوحنّا في هذه الرحلة. لقد خطر في باله، في ذلك الوقت، أن يُضيف اسم جوزف إلى اسمه، وهكذا كان له ما أراد وصار يُعرَف منذ ذلك الوقت باسم

وليم جوزف. (-Walking with william Joseph Chaminade Roger Bichelberger, p11) صمَّم الأخوان وليم ولويس أن يُرسَما كاهنين، فبعد أن أنهيا دروسهما في اللاتينيّة، عُيِّنا معلِّمَين في المعهد، بعد أن أظهرا تفوّقهما في العلوم والفلسفة، نذكر أنّ وليم جوزيف كان في الخامسة عشرة من عمره عندما بدأ يُعلِّم في معهد سان شارل، كما كان يُساعد أخاه يوحنّا بصفة مدير أعمال. بعد أن رُسِم الأخوان كاهنين، أصبحا أيضًا عضوين في مجمع أبرشيّة سان شارل. وصار وليم جوزيف مسؤولاً عن التعليم والتوجيه الرّوحي في معهد سان شارل، فضلاً عن كونه أمين صندوق المعهد. في هذه الأثناء اتّخذ وليم قرارًا مهمًّا في حياته، بعد طلب الإذن من أخيه الأكبر، والقرار هو النذر الشخصيّ الذي سوف يلتزم به مدى الحياة: الفقر، والعِفـّة، والطاعة، وكان ذلك بعد تناوله القربان المقدَّس في يوم احتفاله الأوّل. خدم وليم، بشكل خاصّ، في كنيسة (سيّدة روك). لقد تخلّى عن كلّ الدّنيا ومُغرياتها في سبيل أن ينال السعادة الأبديّة بوجوده الدائم مع الله، مع المسيح، مع العذراء مريم، رغِب في أن يتوحَّد بالمسيح، بالتأمّل والحوار العميق، والتخلّي كلّيًّا عن الذات مع أقصى درجات الإيمان، فيُصبح، وعلى مِثال أهل الصّوفيّة في ثقافتنا المشرقيّة، مسيحًا آخرَ، كما كان يُردِّد في إحدى صلواته:

إِسمَحْ لي أيُّها الإله...
أن أَتخلّى عن نفسي لِروحِكَ،
لعلّ هذه الرّوحَ تُـساعِدُني لكي أُشارِكَ
في التأمُّل العميق بالإيمان...
فمِنَ الأفضلِ أن أَقتربَ مِنكَ،
لأنّ حِوارَ الحُبِّ هذا...
والذي أنتَ تدعوني إليه...
هو مِن أجلِ أن تجعلَ مِنـّي مسيحًا آخرَ...
آمـين

(Walking with William Joseph Chaminade- p23)

سافر في أواخر عام ١٧٨٢ إلى باريس لكي يتحضّر لاستلام رتبته الكنسيّة وثوبه الخاصّ(Subdiaconate) وقد اتصل هناك بعدد من الكهنة الكاثوليك في كنيسة سان سولبيس Saint Sulpice، وهي ثاني أكبر كنائس باريس بعد كنيسة نوتردام. لم يمكث طويلاً في باريس، فعاد لتوِّه إلى مدينة موسيدان. (Chaminadde,s Message Today- Eduardo Benlloch- p 4)

زمن التغيير والاضطرابات والحزن والفوضى

في زمن وليم جوزف شاميناد وقبيل ذلك، كان ثمّة توجُّه فكريّ وأدبيّ يُسيطر على فرنسا من خلال كتّاب كبار، مثّلوا حركة التنوير التي سبقت الثورة الفرنسيّة وأسهموا بكتاباتهم في قيام هذه الثورة، نذكر من أشهر هؤلاء: **مونتسكيو** Montesquieu (١٦٨٩-١٧٥٥)، **ديدارو** Diderot (١٦٩٤- ١٧١٣)، **فولتير** Voltaire (١٦٩٤- ١٧٧٨)، **روسُّو** Rousseau (١٧١٢- ١٧٨٩) وغيرهم. كانت كتابات هؤلاء المفكِّرين الفرنسيّين قد جذبت الناس، وأثارت مشاعرهم إلى حدٍّ بعيد، وقد هاجموا أحيانًا المعتقدات التي ترتبط بالخُرافات، والعصبيّات، وكانوا أيضًا يُهاجمون المعتقدات الكاثوليكيّة. مع هذه المفارقات في الرأي والتوجّه، وهذا الشرخ الذي بدأ يتبدّى بأشكاله المختلفة بين الشعب من عامّة الناس وبين الحكّام والمتنفـّذين من النبلاء ورجال الإكليريوس، في خضمّ هذه الفوضى الفكريّة التي انتابت فرنسا وجوارها قبيل الثورة وبعدها، كان وليم جوزف شاميناد شاهد عيان أصابته شظاياها، فعانى الكثير، وصبر، متخذًا من آلام يسوع المسيح ما يُشدِّد عزائمه، ويُقوّي إيمانه، ومن السيّدة العذراء ما يُعينه ويُبلسم جراحه. ونسمعه يُردِّد في إحدى صلواته:

أيّها الإله... يا إلهنا...
ساعِدْنا في كلِّ يومٍ مِن حياتِنا
أن نسيرَ في طُرُقِ الإيمان،
وأن نتقوّى بالإيمان...
ونعملَ فقط من خلاله،
ونحيا أبدًا مِنه وبه...
آمـين

(Walking with William Joseph Chaminade- p 17)

في إبّان هذه الأجواء الملبَّدة بغيوم الحريّة والعدالة والمساواة، صدرت في مدينة موسيدان وثيقة بخصوص المُلكيّة والحقوق، فيها روح الإصلاح، وبخاصّة بالنسبة إلى مسألة ثروات الكنيسة مقابل حاجات الفقراء، وإساءة استعمال قانون الرهبنة، والعمل على إنهاء الضريبة التي تُـفرَض من أجل دعم البابويّة. لقد شارك شاميناد في المناقشات التي دارت حول هذه الوثيقة، وكان شفوقًا بالنسبة إلى حاجة الناس أكثر مِمّا كان ميّالاً نحو امتيازات أصحاب الأملاك من أهل الطبقات العليا.

بيد أنّ اضطهادًا قاسيًا مارسه الثوّار الفرنسيّون بحقّ رجال الدين، فقتلوا المئات منهم، ونفوا كثيرين، وشرّدوا الألوف في البلاد المجاورة. لقد شهد شاميناد بنفسه نموّ الحركات المعادية للمسيحيّة في فرنسا، منها ما ابتدعه جماعة من العلمانيّين الجُدد لروزنامة جديدة تُلغى فيها الآحاد والأعياد الدينيّة، وجعلوا الكنائس مقرًا لاجتماعاتهم، ولبثّ ثقافاتهم السياسيّة الخاصّة، وغيرها من الدعايات والممارسات المناهضة لتعاليم الكنيسة، بل للتعاليم المسيحيّة. أمّا شاميناد فقد قبض عليه جماعة من الثوّار وأودعوه ما بين ١٧٩٣ و١٧٩٧ في مكان تحت الأرض في مدينة بوردو. ولكنّه لم يكن وحيدًا في هذا المكان، بل كان الله حاضرًا معه، يُنير أمامه دروب الحياة، مهما كانت قاسية، فهو الذي صار يُردِّد في صلاته:

أيّها الإله، يا إلهنا...
أَنتَ الذي دثَّرتنا بحُضورِكَ،
واخترقتَ وجودَنا العميق بمُثولِكَ،
ساعِدْنا لكي نُصبحَ مُدرِكينَ لهذا الحُضور،
وأن نحيا فيه دائِمًا...
واجعلْهُ يسطعُ أمامَنا، مِنَ الآنِ فصاعِدًا،
وفي كلِّ لحظةٍ مِنْ حياتِنا.
آمـين

(Walking with William Joseph Chaminade- p5)

وفي سنة ١٧٩٧ كان اسمه على لائحة الذين سيتمّ نفيهم إلى مدينة سراقسطة Saragossa في إسبانيا، حيث التقى هناك أخاه لويس الذي كان قد سبقه منفيًّا إلى هذه المدينة.

أبصر وليم شاميناد في هذه المدينة نصُبًا مشهورًا للسيّدة العذراء Our lady of the Pillar، أُقيم إلى جانب بازيليكا كبيرة شُيِّدت تكريمًا لظهور السيّدة العذراء في هذا المكان على ضفاف نهر إبْرُو Ebro. وسنويًّا يُحتفل في الثاني عشر من شهر تشرين الأوّل بعيد السيّدة العذراء في هذه البازيليكّا، وتدوم الاحتفالات تسعة أيّام ويُسمّونها: Fiestas del Pilar. لقد أثار هذا النصب في قلب شاميناد إحساسًا شديدًا يدعوه لتأسيس جماعة دينيّة إكرامًا للسيّدة العذراء، وقد يكون هذا التفكير راوده يوم كان في موسيدان.



أصبح نابليون، القائد العسكريّ، قائدًا سياسيًّا أيضًا، فنال الشهرة والأهميّة في سنوات الثورة الفرنسيّة، وذلك قبل أن يتسلّم الحكم ويُصبح أمبراطور فرنسا باسم نابليون الأوّل بين سنتَي ١٨٠٤ و ١٨١٥. لقد نجح نابليون في وضع نهاية للصراع الدينيّ الشعبيّ الثوريّ، إذ اعتبره سببًا للانقسام والعنف، ورأى مع بداية تصاعده السياسيّ أنّ الكنيسة الموحَّدة برجال مزوَّدين بالدين والأخلاق، هي ضروريّة في مجتمع يرتكز على ظلامات متنوِّعة، من ناحية الغنى والقوّة والتأثير، وأدرك نابليون بوضوح مدى أهميّة دور الدين كقوّة رائدة قياديّة في المجتمع، وقال: «إذا كان اللهُ يُريدها هكذا، أن يكون في العالم، كلاهما الفقير والغنيّ معًا، ولكن بعدئذ، وفي الأبديّة، فإنّ الأشياء سوف تكون مختلفة». (المصدر نفسه، ص ١٦) وهكذا صدر في الثاني من تشرين الأوّل سنة ١٨٠٠ قرار بإشراف نابليون، يقضي بالسماح لوليم جوزف شاميناد بالعودة إلى مدينة بوردو الفرنسيّة.

عُيِّن شاميناد في هذه المدينة مسؤولاً عن «التبشير الرسوليّ». كانت مهمّته صعبة للغاية، ذلك أنّه نتيجة للثورة الفرنسيّة، فقد نشأ جيل يجهل التربية الدينيّة الكاثوليكيّة، فكان عليه أن يبنيَ قاعدة جديدة للعمل التبشيريّ، وأسسًا معيّنة مختلفة عمّا كانت عليه سابقًا، وذلك من أجل اختراق مدارك التلاميذ والطلاّب بسهولة وبليونة ومرونة. كان التجديد لديه بالنسبة إلى العمل التبشيريّ يجب أن يكون في حدود المفاهيم التي كانت سائدة بين التلاميذ والرسل في أوروشليم في سنوات المسيحيّة الأولى، معتمدًا بذلك على ما جاء في «أعمال الرسل». الديانة، في ذلك الزمن بالذات، تتطلّب أكثر من قضيّة تماسكها ووحدتها، تتطلّب

وجوب عمل الجميع معًا، قلبًا واحدًا وروحًا واحدة، وأسرةً واحدةً متماسكة، ليس كأبناء الله فقط، وكأخوة ليسوع المسيح، وأعضاء في جسده المقدّس الكليّ الطهارة والنقاوة، بل ويكونون أيضًا مثل إخوة وأخوات للسيّدة العذراء مريم، وذلك من خلال تكريس خاصّ من أجل خدمتها، والمجاهرة بالإيمان في المعتقد الخاصّ المتعلّق بحملِها الطاهر والذي كان بلا دنس. يُحفِّزهم في ذلك كهنتهم، الذين يُرشدونهم ويُوجِّهونهم بمحبّة وسلام. وفي كلّ أخويّة، يجب أن يقوم كلُّ عُضوٍ بالتبشير ضمن جماعة تتَّخِذ شعارًا لعملها الاستمراريّة الدائمة أبدًا.

لقد عرّف شاميناد طبيعة الجماعة المسيحيّة، أو الأخويّة، أو المجتمع المسيحيّ، (sodality) أنّهم مجموعة من المسيحيّين الكاثوليك الأحرار (genus proximus) من كلّ عمر، ومن الجنسين، ومن كلّ وضع أو حالة في الحياة، والأهمّ (The dif-ferentia prima) أن تكونَ لديهم الرِّياضة الرّوحيّة الثابتة وتنشأ بالفطرة، والصلاة، والتقوى تجاه العذراء القدّيسة، وذلك بغية الوصول بالمجتمع المسيحيّ إلى نهاية سعيدة جيّدة. إنّ الغاية القصوى المرتجاة، تتمثّل بهذه الرِّياضة الثابتة في كلّ صلاة، وتكون صلبة وثيقة للعذراء القدّيسة مريم، وهي تقودنا إلى يسوع المسيح، ويسوع يقودنا إلى الله حيث السعادة المستقلّة الرئيسة، التي هي غاية كلّ جماعة مسيحيّة. (Sodality) وكان المبارك شاميناد يُؤسِّس جمعيّات للشبّان، كما للشّابّات، وللمتزوِّجين، كما للمتزوِّجات...

نسمع هذه الصلاة التي كان يُردِّدها مبتهلاً إلى العذراء مريم سائلاً:

أيّتها القدّيسة، يا أمَّ الله...
ها أنذا أقِفُ أمامَكِ لكي أُجَدِّدَ...
أُجدِّدَ العهْدَ مَعَكِ..
وأكشفَ سِرّي إليكِ:
فقدِّميني إلى الله بيديكِ...
إلى أبي ربِّنا يسوع المسيح،
الإله الموحي والابنِ الحيّ
لعلّه يُكرِّسُني لله،
وأُصبح منتميًا بكُلّيتي إلى الله،
وأكون مشاركًا في رسالتِكِ،
بوحيٍ مِنَ الرّوح القدس،
فلعلّي أساعدُ في نشرِ كلمةِ الله ومحبّتِهِ،
أمامَ الناسِ في وقتِنا هذا...
آمين

(Walking with William Joseph Chaminade- p 53)

الصراع الذي نشأ بين نابليون والبابا بيّوس السابع، انعكس سلبًا على الجماعات الكاثوليكيّة في فرنسا، وخصوصًا في مدينة بوردُو. ففي ١١ حزيران سنة ١٨٠٩ أصدر نابليون قرارًا يقضي بمُصادرة أملاك البابويّة، وأمر أن يُجعَلَ للبابا راتب يُدفع له سنويًّا. وقد ردّ البابا في اليوم نفسه بإصدار «حُرم كنسيّ» يطال كلّ مَن ارتكب أعمال عنف بحقّ الجماعات الإكليريكيّة ومن تعدّى على حقوق الكنيسة. وردّ نابليون على البابا بقرار صدر عن حكومته منعَ فيه نشر هذا (الحرم) على الأراضي الفرنسيّة، ومحاكمة كلّ مَن يُخالِف هذا القرار. بيد أن أحد أعضاء الأخويّة التابعة لشاميناد قام بطبع نُسَخ من هذا المنشور جرى توزيعها بشكل واسع في أيلول من عام ١٨٠٩. ومع هذه المخالفة، أمر نابليون البوليس في مدينة بُوردُو أن يُحقِّق في هذا الأمر، ويُعاقِب الفاعلين. وقد اتهمت حكومة نابليون الجماعة الشّاميناديّة بالأصوليّة والتحجّر. (المصدر نفسه، ص ٢٠)

نذكر أنه بعد نفي نابليون سنة ١٨١٥، أخذت هذه الجماعة بالازدهار، وصار لهم فروع عديدة، وكان كلهم تحت مظلّة المبارك وليم شاميناد، وتوجيهاته وإشرافه. لقد أطلقوا على تجمّعاتهم أسماء، منها: مؤسَّسة مريم، مجتمع مريم، وصاروا يُعرفون منذ عام ١٩٤٦ باسم المريميّين (Marianistes).

منذ خريف ١٨٠٨ بدأت مراسلات بينه وبين الأمّ أديل دي باتز Adele de Batz (١٧٨٩- ١٨٢٨) وهي امرأة شابّة كانت تدعو الشابّات للانضمام إلى جمعيّة نسائيّة في منطقة إجين Agen في جنوب غربيّ فرنسا، وهذه المنطقة تبعد ٨٤ كيلومترًا عن بُوردُو. وفي نيسان من العام ١٨١٣ جرى اتحاد بين جمعيّة الأمّ دي باتز وجمعيّة شاميناد. وفي ٢٥ أيّار من سنة ١٨١٦ أسّس المبارك شاميناد والأمّ أديل جمعيّة أخويّة رسميّة أطلقوا عليها اسم «بنات مريم» أو «الأخوات المريميّات». وكان ذلك حَدثًا كنسيًّا مهمًّا، وبعد ذلك بسنة تقريبًا، أي في الثاني من تشرين الأوّل من سنة ١٨١٧ تمّ تأسيس ما عُرِف باسم «مجتمع مريم» أو بـ«المريميّين». وهكذا صار على المُبارَك شاميناد أن يتولّى بالعناية والإرشاد

والتوجيه والدفع نحو الأمام بحيويّة بالغة هذه الجمعيّات المريميّة الثلاث: «الأخويّة» Sodality، و«بنات مريم»، و«مجتمع مريم».
وبدأت هذه المؤسّسات منذ سنة ١٨٢٣ تنتشر في مدن أخرى في فرنسا، من الجنوب الغربيّ إلى الشمال الشرقيّ فإلى الألزاس وغيرها. وفي ١٢ نيسان من سنة ١٨٣٩ أصدر البابا غريغوري السادس عشر «رسالة إشادة» **Brief of Praise** بالمجموعتين: «بنات مريم» و«مجتمع مريم». (**Chaminade's Message To-day- Eduardo Benlloch-p. 5**)

هذا الرجل الذي وهب حياته لهدف سامٍ وإنسانيّ إلى أبعد الحدود، استمرّ في عطاءاته الجليلة لا يمِلّ أبدًا ولا يكِلّ، بل كان الحركة الدائبة الفاعلة بكلّ نشاط وعزم، يُلاقي الصعوبات الجمّة، كما أشرنا، ولكنّه كان دائمًا يتغلّب عليها بوساطة إيمان راسخ، مستمدًّا قوّته وإرادته من يسوع ومن درب الجلجلة والصليب، ومِن العذراء مريم التي رافقت ابنها يسوع على درب الجلجلة وأمام الصليب، «فلمّا رأى يسوعُ أمَّهُ والتلميذَ الذي كانَ يُحبُّه واقفًا قال لأمّه: «يا امرأةُ هُوَذا ابنـُكِ. ثمّ قال للتلميذِ هُوَذا أُمُّكَ. ومِن تلك الساعةِ أخذها التلميذ إلى خاصَّتِهِ».(يوحنّا ١٩/ ٢٦-٢٧) ونسمع المبارَك في صلاة له مشهورة يُردِّد فيها:

يا ربّنا يسوع...
نجتمع بالرّوح عند أقدام الصليب،
مع أُمِّكَ،
ومع التلميذِ الذي أحببتَ،
نسألكَ العفوَ عن خطايانا،
التي كانتِ السببَ لموتِك...
نشكرُكَ لأنَّكَ كُنتَ تتذكّرنا
في ساعة الخلاص تلك...
ولأنّكَ أعطيتنا مريمَ، لِتصيرَ أُمَّنا،
فيا أيّتها العذراءُ المقدَّسَة، اجعلينا تحتَ حِمايَتِكِ،
وافتحي قلوبَنا على أعمالِ الرّوح القدس...
ويا أيُّها القدّيسُ يوحنّا! حقـِّقْ لنا النعمة،
بأخذِكَ مريمَ إلى حياتِنا، كما أنتَ فعلت...
وبمساعدتِكَ لها في رسالتِها...
آمـين

«وقد أضاف المريميّون إلى هذه الصلاة ما يأتي، تكريمًا لروح المؤسِّس المبارَك:
لعلّ الآبَ والابنَ والرّوحَ القدس
يُمَجَّدون في كلّ مكانٍ
مِن خلال الطاهرة العذراء مريم...»
(Walking with William Joseph Chaminade- p 11)

ومنذ أواخر عام ١٨٤٠ بدأت المصاعب الكثيرة تـُواجه المبارك وليم جوزف شاميناد، كما بدأ يُعاني مِن التجارب المرّة، والآلام والعذابات، وكان يُواجهها كلّها بكلّ إيمان شديد، وصبر لا ينفد. وفي ٢٢ كانون الثاني من عام ١٨٥٠ نطق شاميناد كلمته الأخيرة: ماراناثـا... آمـين
تلك اللفظة الآراميّة المقدّسة، التي تعني: تعالَ... يا ربّنا يسوع... رحل المبارك، ليحيا مع يسوع ومريم إلى الأبد، واستمرّت رسالته تنطق أبدًا بأعماله الجليلة: مدارس، وجامعات، ومؤسَّسات إنسانيّة تلفّ الأرض. وبعد نصف قرن بالتمام، وفي الثالث مِن أيلول سنة ٢٠٠٠ أعلن البابا يوحنّا بولس الثاني تطويب وليم جوزيف شاميناد.

المريميّون في قلب التربية والتعليم

لقد أدرك المبارك شاميناد أنّ إعادة بناء الكنيسة في فرنسا، في الحقبة التي تلت الثورة الفرنسيّة، يُستحسن أن تُنجز بوساطة جماعات صغيرة من المؤمنين الذين يعملون في سبيل الصلاة والتعليم والإرشاد والخدمة للمجموعات الأكبر. وبعد عقدين من العمل المتواصل، كما رأينا، ومع هذه المجموعات الصغيرة المتشكّلة من المؤمنين ومن الجمعيّات الدينيّة، ومع قيام مجموعة «بنات مريم» سنة ١٨١٦، فإنّ رؤيته بالنسبة إلى العائلة المريميّة قد تجسّدت بتأسيسه «مجتمع مريم» سنة ١٨١٧. وكان ذلك بناء لاقتراحٍ تقدّم به إلى المبارك خمسة من الشبّان الذين كانوا يعملون معه. وهكذا تأسّست، هذه الجماعة الدينيّة من مجموعة من الرجال الذين نذروا أنفسهم للفقر، والعفـّة، والطاعة، وذلك من أجل خدمة الآخرين. (من فصل من وثيقة بعنوان: «ميزات التربية والثقافة المريميّة» وهو مستلّ من أعمال مؤتمر «مجتمع مريم» الذي عُقِد في روما صيف ١٩٩٦. ص ٣-٤)
إنّ توجّه المريميّين نحو حقل التعليم مستلهم من خلال الأبعاد الروحيّة المميَّزة الآتية:

- الرّوحيّة المتعلّقة بالإيمان بمريم العذراء.
- تشكيل جماعة مختارة من المؤمنين.
- إدراك عميق لمعنى الرسالة المشترَكة.

وبالعودة إلى أفكار شاميناد، فهو يرى أنّ الروح المريميّة تكون في الأعماق، وهي ترتكز على الإيمان، وتتطلّب حركة وحيويّة من خلال القلب، كما تطلبُ موافقة من قِبَل العقل، هذه الرّوحيّة تدفع بالإنسان لأن يعمل بشغف ومحبّة، متمثّلاً بالعذراء مريم التي دفعها إيمانها القويّ لكي تتقبّل بفرح فكرة مجيء يسوع بالولادة منها، وبلا دنس. هذا الإيمان تجسّد في المبارك شاميناد الذي انفتح قلبه على عمل الرّوح القدس، وهو يُمثّل بالذات كيف يُمكن أن يحيا كلّ مسيحيّ. (من الوثيقة عينها، ص ٥). ونسمعه يُردِّد في صلاة له:

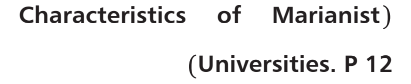
أعطِني أيُّها الإله...
إيمانًا متوقِّدًا ومُفعمًا بالحياة...
أعطِني الإيمان الذي هو...
إيمان المحبّة...
آمين

(Walking with William Joseph Chaminade- p 35)

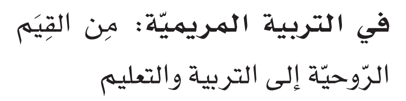
وأدرك شاميناد أنّ تحويل النظام الاجتماعيّ يتطلّب أيضًا العمل، ليس من قِبَل الأفراد فحسب، بل من قِبَل عدد كبير من الناس يعملون معًا، من خلال رسالة مشتركة، وإنّ الجماعات التي لديها الإيمان والحبّ يُمكِنها وحدها التحويل الاجتماعيّ، متمثّلاً بالمسيحيّين الأوائل في أورشليم.

مِن خلال هذه الأفكار والمفاهيم الرّئيسة، مشى المريميّون على دروب العمل التربويّ: من المدارس، إلى المعاهد، فإلى الجامعات. فما هي ميزات الجامعات المريميّة يا ترى؟ إنّها، بلا شكّ، تتلخّص بما يأتي:

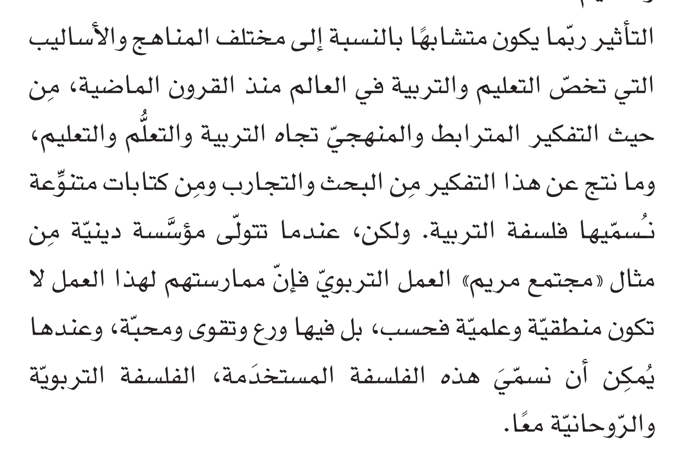
- الجامعات المريميّة، تعلّم وتُدرِّس مِن أجل بناء الإيمان وتشكيله.
- الجامعات المريميّة، تُزوِّد طلاّبَها تدريسًا وتربية وثقافة ممتازة.
- الجامعات المريميّة، تُربّي وتعلّم مِن ضمن روحيّة عائليّة.
- الجامعات المريميّة، تعلّم مِن أجل الخدمة العامّة ومن أجل العدالة.
- الجامعات المريميّة، تدرِّس مِن أجل التكيّف في المجتمعات ومِن أجل التغيير.



(Characteristics of Marianist Universities. P 12)



في التربية المريميّة: مِن القِيَم الرّوحيّة إلى التربية والتعليم



كيف استطاعت هذه الرّوحانيّة الديناميّة أن تؤثِر في النهج الذي سلكه المريميّون بالنسبة إلى التربية والتعليم؟

التأثير ربّما يكون متشابهًا بالنسبة إلى مختلف المناهج والأساليب التي تخصّ التعليم والتربية في العالم منذ القرون الماضية، مِن حيث التفكير المترابط والمنهجيّ تجاه التربية والتعلُّم والتعليم، وما نتج عن هذا التفكير مِن البحث والتجارب ومِن كتابات متنوِّعة نُسمّيها فلسفة التربية. ولكن، عندما تتولّى مؤسَّسة دينيّة مِن مثال «مجتمع مريم» العمل التربويّ فإنّ ممارستهم لهذا العمل لا تكون منطقيّة وعلميّة فحسب، بل فيها ورع وتقوى ومحبّة، وعندها يُمكِن أن نسمّيَ هذه الفلسفة المستخدَمة، الفلسفة التربويّة والرّوحانيّة معًا.

لقد زوّدت الرّوحانيّة المريميّة التعلّم والتعليم وأساليبهما أمورًا مهمّة للغاية، أكسبتها حيويّة، وشغفًا، وابتكارًا، وتقدّمًا ملموسًا على جميع الصُّعُد في مجال التعليم. ومن الأمثلة: التعليم يتركّز على مسألة حضور المعلِّم أو الأستاذ بين التلاميذ، فهو لا يُعلِّمهم فقط، بل يُحبّهم، ويحترمهم، ويُقدرهم. والمعلِّمون، ماذا عساهم يتوقّعون مِن تلاميذهم وطلاّبهم؟ إنّهم يتوقّعون، ولا شكّ، الكفاءة، والجدارة، والعطف معًا، وكلّهم (المعلِّم والطلاّب) يُمسِكون بالموضوع وبالتشديد على الأخلاق وعلى الأبعاد الرّوحيّة التي تخصّ الدرس كما تخصّ الحياة.

بحسب تعاليم شاميناد، فإنّ المريميّين يُحاولون دائمًا أن يجعلوا مؤسَّساتهم التربويّة أصيلة، عن طريق جعل هذه المجموعات المرتبطة بهم تتكاتف معًا، بحسب دعوته لمجانبة الرّوح العائليّة بالنسبة إلى المتديّنين والعلمانيّين على السواء. فالأساتذة والإداريّون والطلاّب يعملون معًا مِن أجل إنجاز علائق متينة من الصداقة والثقة، وهذه العلائق تدعم عمليّة تطوير مواهبهم المتبادلة. إنّ المسؤولين في هذه المؤسّسات، رجال دين كانوا أو عِلمانيين، عليهم أن يتطلّعو إلى أعمالهم، ليس كوظيفة يُنجزونها

فحسب، بل كرسالة من الحبّ والخدمة معًا، فيعملون بحماسة وشغف كبيرين.

إنّ التربية لدى الجماعات المريميّة لا تكون من أجل صالح أفراد وأعضاء في مجتمعهم المريميّ فحسب، بل مِن أجل تمكينهم مِن المشاركة في هذه العطاءات مع العالم. ذلك أنّ الرّوحيّة المريميّة الشاميناديّة تسعى دائمًا إلى دمج المعرفة بالفضيلة، وجعل الطلاّب يرون قدراتهم وكفاءاتهم وسيلة لخدمة الآخرين.

يُركِّز المريميّون على التربية الحرّة الليبيراليّة منذ عدّة قرون، فهم يرون أنّ التربية ليست فقط وسيلة لنقل رؤية دينيّة في الحياة، بل هي أيضًا تشكيل فكريّ له قيمة ذاتيّة، ففي التربية المريميّة يجتمع الإيمان والعقل معًا ويتكاتفان في سبيل الإنسان. ففي المؤسَّسات التربويّة للتعليم العالي يُؤكِّدون على الالتزام بالعمليّة المشتركة في البحث عن الحقيقة، وبالعمل للمحافظة على كرامة الإنسان، وبالسرّ المقدَّس لعمليّة الخلق. (وثيقة مؤتمر روما، ص ١١)

ومن القِيَم الأخرى التي يسعى المريميّون للمحافظة على الالتزام بها أيضًا، التنوّع، فهو بالنسبة إليهم ضروريّ في الجامعات المريميّة الكاثوليكيّة، فتراهم يستعينون بأساتذة وموظّفين وعمّال من جماعتهم الدّينيّة الكاثوليكيّة، كما من أصحاب الديانات الأخرى، وحتّى مِن الذين ليس لديهم أيّ إيمان أو تديّن، فكلّهم يُشارِكون في عطاءاتهم بالالتزام الأساسيّ بأنظمة الجامعة وقوانينها.

ب- الجامعات المريميّة في أميركا

وصلت رسالة شاميناد إلى الولايات المتحدة الأميركيّة، في تمّوز من عام ١٨٤٩، قبيل رحيل المؤسِّس المبارَك بسنة ونصف تقريبًا. هذه الرسالة التي ترجمتها عمليًّا مؤسّسات إنسانيّة على رأسها ثلاث جامعات: جامعة شاميناد- هُونُولولو/ هاوايChaminade University - Honolulu، جامعة القدّيسة مريم، سان أَنطوني- تكساس St. Mary,s University- San Antonio, Texas، جامعة دايتون- University of Dayton- Dayton, Ohio التي أزورها في صيف ٢٠١٢ أستاذًا زائرًا، وأنا بصدد الحديث عنها مطوّلاً.

جامعة شاميناد- هونولولو/ هاواي

تأسَّست هذه الجامعة المريميّة الكاثوليكيّة سنة ١٩٥٥، مجموع عدد طلاّبها اليوم حوالى ٢٩٠٠ طالب، أكثرهم من جزيرة أُواهوOahu إحدى الجزر الرئيسة في هاواي، حيث العاصمة هُونُولولو، ويأتيها كذلك طلاّب من الجزر الأخرى في هاواي والمحيط الباسيفيكيّ. تُقدِّم ٢٣ اختصاصًا للمرحلة الجامعيّة الأولى، وستّة اختصاصات في الدراسات العليا.

تعمل الجامعة على جعل الطلاّب يختارون الاختصاصات التي تؤهِّلهم للحصول على مهن ناجحة وحياة منتِجة، وذلك من خلال التركيز على التعلّم التعاونيّ، والاكتشافات الذاتيّة، والاحترام المتبادل. إنّ جامعة شاميناد هذه تُشجِّع طلاّبَها لأن يُصبحوا قوّادًا، يخدمون بعد تخرّجهم مجتمعاتهم، ويتقدّمون بمسائل تخصّ العدالة الاجتماعيّة والأخلاق.

جامعة القدّيسة مريم— سان أنطونيو، تكساس

تأسَّست هذه الجامعة مِن قِبَل الأخوة المريميّين عام ١٨٥٢، فيها ما يُقارب الأربعة آلاف طالب، هي أقدم جامعة كاثوليكيّة في غرب- جنوب الولايات المتحدة الأميركيّة. هذه الجامعة هي مقرّ لمعهد القانون الكاثوليكيّ في تكساس، كما أنّ فيها (The Bill Gree-hey School of Business) الذي يُعتبَر المعهد الكاثوليكيّ الوحيد لإدارة الأعمال في الولاية، والجامعة من الطراز الأوّل بحسب الترتيب الجامعيّ في غربيّ أميركا. فيها اختصاصات كثيرة تتعلّق بالقانون، والطبّ، والتمريض، وطبّ الأسنان، والصيدلة، وغيرها من العلوم الصحيّة.

جامعة دايتون — دايتون، أوهايُو

دايتون في سطور

تأسّست هذه المدينة سنة ١٧٩٦، قبل أن تدخل ولاية أوهايو في الاتحاد الأميركيّ بسبع سنوات. وقد دُعِيَت باسم صاحب هذه الأرض جوناتان دايتون، الكابتن الأميركيّ في حرب التحرير الأميركيّة، وهو مِن الذين وقّعوا على الدستور الأميركيّ. دايتون اليوم هي السادسة في مرتبة كبريات المدن في ولاية أوهايو. عدد سكّانها حوالى ١٤٢،٠٠٠ نسمة، أمّا دايتون الكبرى بضواحيها الواسعة فعدد سكّانها يتجاوز ٨٤١،٥٠٠ نسمة. تقع دايتون في وادي ميامي من ولاية أوهايو، ويمرّ فيها نهر ميامي العظيم. ترتبط دايتون تاريخيًّا بالأخوين رايت: أورفيل رايْتْ Orville wright (١٨٧١- ١٩٤٨) وولِبور رايْتْ Wilpur wright (١٨٦٧- ١٩١٢)، وهما اللذان صنعا أوّل طائرة في العالم في ١٧ كانون الأوّل من عام ١٩٠٣. الأخوان مِن أسرة بلغت سبعة أولاد، والدهما الأسقف

ميلتون رايت Milton Write (١٨٢٨– ١٩١٧)، ووالدتهما سوزان كاثرين كورنير Suzan Catherine Koerner (١٨٣١–١٨٨٩). أهداهما والدهما سنة ١٨٧٨ لعبة صغيرة تُمثِّل (هليكوبتر)، مصنوعة مِن الورق والخيزران والفلّين مع رباط مِن المطّاط يجعلها تدور دورتها، وعندما تكسّرت، صنعا أخرى مثلها. نظرًا لظروف خاصّة لم يُنهيا دراستهما العالية، ولم ينالا شهادة. عملا في الطباعة وفي النشر، ثمّ في بيع الدرّاجات الهوائيّة كما في صناعتها، وكانا لديهما معمل خاص لصنع الدرّاجات وبيعها. ومِن خلال التحكّم بقيادة الدرّاجة عملا في سبيل صنع طائرة، وهكذا، وعبر مئات التجارب، استطاع الأخوان أن يخترعا عمليّة التحكّم بالطائرة، مِن خلال جهاز التحكّم ذي المحاور الثلاثة، والذي يسمح للطيّار بأن يقود الطائرة بفعاليّة ويُحافظ على توازنها.

هذه الحكاية ذكّرتني برواية إحداهنّ مِن المعمِّرين في قريتي، يوم حدّثتني عندما كنتُ فتى، أنّه ومع بداية القرن العشرين عاد جدّي لوالدي مع أخوته مِن أميركا، وجلبوا معهم ما كانوا يُطلِقون عليه في بلدتي اسم «الحصان الطيّار» أي الطائر. قالت محدِّثتي، رحمها الله، كنّا صغارًا، يوم كنا نهرع صعدًا إلى بيادر البلدة في أعلى الضيعة لكي نتفرّجَ على «الحصان الطيّار» يقوده جدّك وإخوته. والجدير بالذكر أنّ جدّي وأمّه وعددًا مِن إخوته سافروا إلى مدينة لنسِنغ في ولاية ميشيغان منذ أواخر القرن التاسع عشر. وهذه الولاية، التي زرتها وقت وجودي في دايتون، تقع على حدود أوهايو، ولا تبعد كثيرًا عن دايتون. فكيف يا تُرى نستطيع أن نربط بين الأخوين رايتْ صاحِبَي معمل الدرّاجات في دايتون القريبة مِن ميشيغان، ودرّاجة جدّي وأخوته، والحصان الطائر؟... نعم، فحصان جدّي الطائر الذي انطلق مِن دايتون إلى لنسنغ ميشيغان في أوائل القرن الماضي، أبحر إلى «بيادر المحافير» في ضيعتي الغافية على التلال الجنوبيّة القصيّة، لينطلق مِن هناك ماردًا جبّارًا يجوب فضاءات الكرة الأرضيّة معاندًا، يُحلِّق أبدًا فوق البحار والمحيطات، ويصل إلى القمر في أقلّ مِن سبعة عقود، وها هوذا حصان جدّي الطائر ما زال يُحلِّق ويتيه بعيدًا ليصل إلى المريخ، وإلى عوالم أخرى غريبة، والله أعلم...!

دايتون الآن، مدينة مشهورة بالبحث والتنمية في حقول الهندسة الصناعيّة وفي الطيران وعلوم الفلك، وفيها قاعدة رايت-بَتيرسون الجويّة العسكريّة المعروفة، التي تضمّ أكبر متحف عالميّ للطيران في العالم. وفي هذه المدينة جامعة دايتون التي نحن بصدد التعرّف إليها.

جامعة دايتون

إنّ شعار الجامعة، هو صورة لقبّة الكنيسة المتوَّجة بالصليب، وهي كنيسة الحَبَل الطاهر «Chapel of the Immaculate Conception» وتحت الصورة هذه العبارة: «Pro Deo et Patria» أي: «مِن أجل الله والوطن»، ويُضاف إليها: تعلّمْ. أَرْشِدْ. أُخدُمْ. (Learn. Lead. Serve)

إشترى الأب المريميّ لِيُو مايـر Leo Meyer سنة ١٨٤٩ أرضًا مِن صاحبها جان ستيوارت، مِن أجل بناء جامعة. كانت هذه الأرض تـُعرَف بمزرعة ديوبيري Dewberry farm، مساحتها ١٢٥ فدّانًا أي ما يُعادِل نصف كيلومترٍ مرَبَّع. وكانت تلك الأرض مغروسة بكروم العنب، وفيها البساتين بأشجارها المتنوِّعة المثمرة.

وفي سنة ١٨٥٠ تأسّست على هذه الأرض نواة الجامعة المريميّة، وقد بدأت كمدرسة للصبيان فقط، سمّوها «مدرسة القدّيسة مريم للصبيان»، وبعد مدّة تحوّلت إلى «مؤسَّسة القدّيسة مريم التعليميّة».

فاض نهر ميامي سنة ١٩١٣، وقد ألحق هذا الفيضان الضخم أضرارًا جسيمة بالمدينة، فهبّت الجامعة لمساعدة الأهالي المنكوبين، إذ نزل الأساتذة والموظفون والطلاّب إلى أماكن الفيضان، وقد استعانوا بمراكب لها مجاديف انتقلوا بوساطتها إلى الشوارع والبيوت التي غمرتها المياه، وعملوا على تخليص السكّان ونقلهم إلى أماكن أكثر أمانًا.

في سنة ١٩٢٠ اتخذت الجامعة اسمها الحاليّ: «جامعة دايتون». وكانت ما زالت لا تستقبل من الطلاّب إلاّ الذكور، حتى سنة ١٩٣٥ عندما قرّروا أن يجعلوها جامعة مختلطة، وهكذا أصبحت المؤسَّسة الكاثوليكيّة الأولى في الولايات المتحدة التي بدأت تستقبل الذكور والإناث، يختلطون معًا في مؤسّسة تعليميّة واحدة. رئيسها منذ حوالى عشر سنوات هو الدكتور دانيال كوران Daniel Curran وهو رئيس الجامعة الثامن عشر.

حرم الجامعة The Campus

على مساحة حوالى كيلومتر ونصف مربّع، تتوزّع أبنية الجامعة، وهي قريبة بعضها من بعض، ويسهل الانتقال من مبنًى إلى

آخر، حتى أنّه يُمكنك الانتقال من طرف في الجامعة إلى الطرف الآخر المقابل في وقت قصير قد لا يتعدّى الخمس عشرة دقيقة. وأبنيتها تتراوح بين القديم التاريخيّ والحديث، منها ما يرقى إلى سنوات الجامعة الأولى في القرن التاسع عشر، مع بعض الترميم والتعديل، ومنها الحديث بالفن المعماريّ المبتكر، وهناك أبنية كثيرة ومجمّعات قيد الإنشاء، فترى ورَش العمل المستمرّة على قدم وساق، منذ الصباح الباكر وحتى المساء، ذلك أنّ الجامعة تتوسّع في أبنيتها بحسب المتطلّبات والحاجة وازدياد عدد المقرّرات والطلاّب، واللّون الغالِب على أبنية الجامعة هو اللّون البُنّيّ.

كذلك فالجامعة تتوسّع بمساحتها، بحوالى نصف كيلومتر مربّع، نحو نهر ميامي، بغية تشييد عدد أكبر من المختبرات في سبيل قيام الطلاب والأساتذة بالبحوث المختلفة من أجل التنمية والتطوير في جميع المجالات التي توليها الجامعة أعظم الاهتمام. كذلك فإنّ عمليّة تشييد أبنية جديدة هو أيضًا من ضمن خطّة لإفساح أماكن أكثر وأرحب لصفوف الدراسات العليا، ولنادي المتخرّجين وإسهاماتهم في تطوير العمل الأكاديميّ، كما لإقامة المؤتمرات الكثيرة الخاصّة بالبحوث والدراسات المتعلّقة بالمواضيع العلميّة والإنسانيّة والدينيّة المتنوّعة.

في الجامعة ملاعب كثيرة لأنواع الرياضات المختلفة، والأشهر هو «ملعب بلاك بوم» Blackbum court لكرة السلّة، ويتّسع لأكثر من ثلاثة عشر ألف متفرِّج، وفريق «دايتون فلايرز لكرة السلّة» Day-ton Flyers basket-ball team هو الفريق الذي يُمثِّل الجامعة في المباريات المحلّيّة والعالميّة، وقد تأسَّس سنة ١٩٦٩. والجامعة تولي الرياضة أهمّيّة كبرى، ولديها أنواع مختلفة مِن الرياضات، وفيها مبنى كبير للرياضة مع ملحقاته وهو Athletic Team of UD. نذكر في هذا السياق (أغنية المبارزة) UD Fight Song التي نُظِمَت سنة ١٩٢٢، ولُحِّنت سنة ١٩٢٤، وكلماتها تقول:

Come and let your voices ring clear,
Come to sing your praises and cheer,
While our team,s beating
And we,re repeating
And «We,re for U. of D.»

CHORUS:

We're gonna win this game, you bet.
Our banner's proudly waving yet
You have a great big name,
But to us you're the same
As all the other teams that we play
Oh! when we do,
(Oh! when we do),
Oh! when we do,
(Oh! when we do),
We're gonna make your team feel blue.
For every victory brings its fame, you see,

وهي بالعربيّة:

تعالوا ودَعوا أَصواتَكُم تهتِفُ بوُضوح،
تعالوا لِتُنشِدوا تسابيحَكُم وتُهَلِّلوا،
بينما فريقُنا يتصدّى...
ونحنُ نُردِّد:
«نحنُ في سبيلِ جامعة دايتون»

الكورس

سوف نربحُ هذهِ المُباراةَ، فَلْتُراهِنوا.
راياتُنا ما زالت تخفقُ بفخرٍ.
إنّ لديكم اسمًا عظيمًا كبيرا
لكِنْ، بالنسبة إلينا، فأنتم ما زلتم كما أَنتم أنفسكم،
مثلَ كلِّ الفرقاء، الذين نلعبُ معهم،
آه، عندما نعمَل،
(آه، عندما نعمَل)،
آه، عندما نعمَل،
(آه، عندما نعمَل)،
نحن سوف نجعل فريقَكم يشعرُ بالاعتزاز
لأنّ كلَّ نصرٍ يجلبُ مجدَهُ، ألا ترون؟

ويضمّ حرم الجامعة أيضًا مواقف رحبة للسيّارات الخاصّة بالأساتذة والموظفين والطلاب، وفي الجامعة إذاعة خاصّة وتلفزيون، يبثّان البرامج المتنوّعة الخاصّة بالطلاّب وفي جميع الشؤون، كما لديهم أكثر من مجلّة يكتب فيها الطلاّب والأساتذدة مقالات متنوِّعة. أمّا بالنسبة إلى الأمن، فإنّ بوليس الجامعة هو عين ساهرة على مدى ٢٤ ساعة، فأينما تذهب تُشاهد سيّارات البوليس الخاصّة **police UD** تتجوّل في حرم الجامعة وفي محيطها.

مِن أجل إقامة الطلاّب القادمين من مناطق مختلفة ومِن مدن مجاورة أو بعيدة في ولاية أوهايو، فإنّ الجامعة، ومنذ زمن بعيد، اهتمّت بهذا الأمر، فشيّدوا المساكن والمجمّعات السكنيّة



المختلفة، ونذكر منها: Founders Hall, Marianist Hall, Mary Crest Complex, Stuart Complex, Upperclassmen Housing, The Ghetto and Darkside.

إنّ تسعين بالمِئة مِنَ الطلاّب ينالون المساعدات الماليّة المختلفة، مِن قروض أو عبر العمل في الجامعة، فالجامعة تؤمِّن العمل لِمن يُريد ضمن حرمها، كما أنّ المتخرِّجين فيها يجدون العمل بسرعة.

لقد أقامت جامعة دايتون علاقات تبادل بينها وبين الجامعتين المريميّتين في الولايات المتّحِدة، ففتحت أمام الطلاّب فرصًا لأن يُتابِعوا تعلّمهم في كلا الجامعتين المريميّتين في هونولولو أو في سان أنطونيو/ تكساس. وذلك من أجل تبادل الثقافات، فيُصبح بمقدور طلاب إحدى الجامعات الثلاث أن يتزوّدوا مثلاً، بثقافة في أغلبيّتها آسيويّة/ أميركيّة كما في هونولولو، أو يتزوَّدون بثقافة لاتينيّة/ أميركيّة كما في سان أنطونيو — تكساس. وأقامت الجامعة عدّة اتفاقات للتبادل Exchange agreement بينها وبين مؤسَّسات تعليميّة عالية في العالم لمدّة فصل دراسيّ بكامله، أو لمدّة سنة دراسيّة كاملة. ومن المدن التي أقامت معها هذه الاتفاقات نذكر: شانغهاي في الصّين، وهلسنكي في فنلندة، وبورجيه، وليل، ونيس، وباريس في فرنسا، وأوكسبورغ في ألمانيا، وروما في إيطاليا، وسيول في كوريا، وإفران في مراكش، ومدريد في إسبانيا، وغيرها... كذلك تعمل الجامعة على إرسال عدد من أساتذتها إلى مدن مختلفة في الأكوادور ولندن وونشستر وباريس وليبزغ ودلهي ودبلن وفلورنس وروما وغيرها من المدن في العالم.، وذلك بهدف تدريس موادّ معيَّنة لمدّة شهر واحد في خلال الصيف.

مؤسّسة الدراسات والبحوث في جامعة دايتون

تأسّس هذا الفرع سنة ١٩٥٦، وهو يضمّ حوالى أربعمئة باحثٍ متفرِّغ، وقد بلغ رقم التمويل من قِبَل مموِّلين مختلفين في نهاية سنة ٢٠٠٣ بليون مارك ألمانيّ، وبلغ رقم التمويل في سنة ٢٠٠٥ سبعين مليون دولار... وهذه المؤسَّسة مهمّتها البحث العلميّ من أجل التطوير في كلّ المجالات، ولا تبغي الربح أبدًا.

كلّيّات الجامعة

- College of Arts and Sciences
- School of Business Administration
- School of Education and Allied Professions
- School of Engeneering
- Graduate School
- Law school
- Professional and Contiuing Education
- Libraries

كليّة الفنون والعلوم College of Arts and Sciences

وهذه الكليّة تتوزّع بأقسامها الثمانية عشر المتنوِّعة:

Biology – Chemistry – Comunication – Computer Science – English – Geology – History – Languages – Mathematics – Military Science(ROTC) –Music – Philosophy – Physics –Political Science – Psychology – Religious Studies – Sociology, Anthropology, and Social Work – Visioul Arts

أمّا البرامج العليا الخاصّة المعمَّقة في الفنون والإنسانيّات والعلوم كما في العلوم الاجتماعيّة التي توليها الكليّة أيضًا بالغ اهتماماتها فهي تتمحور حول المواضيع والبرامج الآتية:

- الدراسات الأميركيّة American Studies Program
- دراسات حول الجريمة والعدالة Criminal Justice Studies Program.
- دراسات حول حقوق الإنسان Human Rights Studies Program
- الدراسات الدوليّة International Studies Program
- التحضير للدراسات حول القوانين Prelaw Program
- التحضير للدراسات في الطبّ وطبّ الأسنان Premedical and Predental Studies Program
- المسرح Theatre Program
- دراسات حول المرأة والاختلاف في الجنس Woman and Gender Studies Program

كليّة الإنسانيّات

كليّة جيسي فيليبس Jesse Philips للإنسانيّات

جيسي فيليبس، كان مِن كبار رجال الأعمال الإميركيّين، وكان مميّزًا بكريزما خاصّة جعلته يتقرّب بسرعة مِن كبار رجال السياسة والاقتصاد والعلم، كما كان يهتمّ إلى حدٍّ بعيد بالثقافة والآداب والفنون. تولّى رئاسة مجلس أمناء جامعة دايتون مِن سنة ١٩٨٤ ولغاية ١٩٨٩. إنّي أختار ههنا كليّة الإنسانيّات لأتحدّث عنها قليلاً، ذلك أنّها تخصّني مِن ناحية الاختصاص والميول الأدبيّة والإنسانيّة، ولقد شدّني إليها أكثر وجود مكتبي في الطابق الثالث من مبناها المُميَّز. هذا المبنى الذي يلفت النظر من الخارج، يتحدّث عن نفسه، وعمّا تحتوي غرفه وقاعاته وصفوفه ومكاتبه مِن موضوعات، وبرامج، ودراسات معمّقة في ما يخصّ الإنسانيّات. وأنتَ إذ تتنقّل مِن الناحية الغربيّة إلى الجنوبيّة، وإلى الشّرقيّة فالشماليّة، ترى التاريخ والحضارات بصورها المتنوِّعة التي تتوالى أمامَك، بعباقرتها في الفكر والأدب والفنّ والفلسفة والشعر والتاريخ... فلقد حفروا على الحيطان من الجهات الأربع، صورًا نافرة لعباقرة التاريخ، أو أنّك ترى كتابات منقوشة لكلام مأثور قاله هذا أو ذاك من أولئك العباقرة.

دعنا نبدأ في تجوالنا مِن الجهة الغربيّة الجنوبيّة: نرى مِن بعيد صورة نافرة محفورة بدقّة وفنّ جميل أخّاذ؛ إنّها صورة رجل ملتح تعلو العمامة رأسَه... قلتُ في نفسي لعلّه واحد مِن علماء الدّين المسلمين، أو لعلّه عمر الخيّام أو أبو العلاء المعرّي... فمَن عساه يكون هذا العربيّ، ونقترب بسرعة لِنقرأ بالإنكليزيّة اسم Moses Maimonides موسى مَيمُونيدُس: إنّه **موسى بن ميمون القرطبيّ**، الفيلسوف والفيزيائيّ والطبيب الأندلسيّ العربيّ اليهوديّ. كان عالِمًا كبيرًا في الديانة اليهوديّة، واسمه بالعبريّة «راباي موشي بن ميمون»، ومع اختصار الكلمات الأربع، صار يُعرَفُ لديهم بـاسم «رامْ بامْ». وُلِد في مدينة قرطبة سنة ١١٣٥م وتوفّي في مصر سنة ١٢٠٤ م. انتقل إلى مدينة فاس في مراكش، مع بداية زمن اضطهاد حكّام الأندلس الجُدد مِن الموحِّدين لليهود. درس في جامعة القيروان، قرأ الفلسفة والعلوم اليونانيّة المترجمة إلى العربيّة، وتعمّق في الفلسفة الإسلاميّة. وبعد أن أقام مع أسرته في فاس عشر سنوات رحلوا إلى مصر سنة ١١٦٨ م . كتب في المشنه/ التوراة، ويعتبره اليهود، حتّى اليوم، مرجعًا دينيًّا مهمًّا كبيرًا، وكتب في الفلسفة، والنبوّة، وعلم الفلك، وفي الطبّ، والمنطق... وبقي في مصر حتى وفاته سنة ١٢٠٤، وقد دُفِن فيها، لكنّهم، وبناء لوصيّته، عادوا ونقلوا رفاته إلى بلدة طبريّا، وله فيها مقام على الشاطئ الغربيّ لبحيرة طبريّا.

وننتقل يمينًا نحو الجنوب، فنرى لوحة عليها كلام محفور لِـ غوتيه **Goethe**:

**WER FREMDE
SPRACHEN
NICHT KENNT
WEISS NICHTS
VON
SEINER EIGENEN**

وترجمته: «الذي لا يعرف لغة أجنبيّة، لا يعرف شيئًا عن لغته الخاصّة».

هو يوهان والف غانغ فون غوتيه، Johann Wolfgang von Goethe الكاتب والشاعر والروائيّ والفنّان والسياسيّ الألمانيّ المشهور. وُلِد سنة ١٧٤٩ وتوفي سنة ١٨٣٢. درس القانون في جامعة ليبزغ. نظم الشعر الملحميّ والشعر الغنائيّ، كتب في الدراما شعرًا ونثرًا، وكتب في السيرة الذاتيّة وفي النقد الأدبيّ، والنقد الجماليّ، كما كتب في علم النبات وفي علم التشريح. وله أربع روايات، كانت أوّلها: «آلام الفتى فارتر» ولديه حوالى ثلاثة آلاف لوحة. لحّن أشعاره، في خلال القرن التاسع عشر كبار عباقرة الموسيقى منهم: بيتهوفن، شوبرت، شومان، وغيرهم.

ننتقل إلى لوحة أخرى في الجهة الجنوبيّة أيضًا، وفيها كلام للكاتب الإنكليزيّ **تشِستيرتُون G.K. Chesterton** وفيها:

**EDUCATION IS SIMPLY
THE SOUL OF SOCIETY
AS IT PASSES FROM
ONE GENERATION TO ANOTHER.**

وترجمتها: «الثقافة هي ببساطة، روح المجتمع، ذلك أنّها تنتقل مِن جيل إلى آخر».

جيلبرت كيث تشِستِرتُون Gilbert Keith Chesterton (١٨٧٤–١٩٣٦): كاتب إنكليزيّ، كتب في الفلسفة، والشعر، والنقد الأدبيّ، والسيرة، كما كتب في المسيحيّة مدافعًا، ومناصرًا. بدأ عمله باكرًا في صحيفة لندنيّة.

ونسير جنوبًا، فنُشاهِد على الحائط الذي يُواجه مبنى الموسيقى والمسرح صورة نافرة للموسيقار العالميّ **موزار Wolfgang Amadeu Mozart**(١٧٥٦ – ١٧٩١) الذي ألّف أكثر من ٦٠٠ عمل موسيقيّ، نشأ في مدينة سالزبورغ في النمسا، والده كان موسيقيًّا

بسيطًا، وكان الطفل موزار في الثالثة مِن عمره عندما بدأ يسمع ما يُعلِّمه أبوه لأخته الأكبر مِن موسيقى، وفي الرّابعة بدأ يعزف من دون أخطاء.

ونُتابع سيرنا نحو الجهة الجنوبيّة الشرقيّة، وإذ بنا أمام لوحة نافرة للفيلسوف والكاتب والشاعر الإيطاليّ «**دانتي**». هو **ديورانت ديغلي أليغيري Durante degli Alighieri** (١٢٦٥ – ١٣٢١) وُلِد في فلورنسا، كان شاعرًا، وكاتبًا، ومنظِّرًا أدبيًّا، وفيلسوفًا اهتمّ بالأخلاقيّات، كما كان مفكِّرًا سياسيًّا. من مؤلّفاته المشهورة: الكوميديا الإلهيّة، التي تُعتبَر أهمّ عمل أدبيّ إيطاليّ كلاسيكيّ، كما تُعتبَر تحفة أدبيّة عالميّة. يُلقَّب دانتي بـ«أبي اللغة الإيطاليّة».

وإلى الناحية الشرقيّة نجد بضع كلمات باليونانيّة للفيلسوف أفلاطون تقول: «الحياة غير المدروسة والمُمتحنة ليست هي حياة إنسان». The unexamined life is not a human life

ونُتابع سيرنا نحو الشرق، لنرى إلى يمين البوّابة الشرقيّة لوحة عليها كتابات بالعبريّة لموسى بن ميمون القرطبيّ، يقول فيها: «إصغِ إلى الحقيقة ولو مِن أيّ إنسان يقولها».

وإلى يسار البوّابة لوحة عليها كتابات باللاتينيّة **لتوما الأكوينيّ**:

EA, QUAE DE DEO
ET REBUS ALIIS
DICUNTUR,
NEQUE AEQUIVOCE
NEQUE UNIVOCE
PRAEDICANTUR
SED ANALOGICE

THOMAS AQUINAS

كلّ ما قيل عن الله، وعن أشياء أخرى، لم يُذكَر لا بالتباس أو إبهام، ولا بالمحافظة على المعنى، بل جاء قياسيًّا.

توما الأكوينيّ (١٢٢٥– ١٢٧٤) كان كاهنًا دُومينيكيًّا إيطاليًّا، كما كان مفكِّرًا وفيلسوفًا ولاهوتيًّا كبيرًا. وُلِد في روكّاسيكّا في منطقة «أكوينـُو» Aquino بحسب التسمية القديمة، وموقعها الحاليّ في منطقة لازيُو Lazio في إيطاليا. لقد أثـّر بأفكاره في الفكر الغربيّ بعامّة. كتب في الفلسفة، وفي نقد أفكارأرسطو، كما كتب في الأخلاقيّات، وعلم النفس، واللاهوت، والخلق، وفي طبيعة الله، وفي طبيعة الثالوث، وفي طبيعة يسوع المسيح، وكتب في الهدف مِن حياة الإنسان، إلى غير ذلك مِن الموضوعات التي تشغل بال المفكِّرين عبر الأعصر. لقد أطلق عليه اسم القدّيس توما الأكويني.

ننتقل إلى اليمين فنرى لوحة عليها كتابة للكاتبة الأميركيّة فلانيري أوكـُونـُور **Flannery O'connor** تقول:

MYSTERY ISN,T
SOMETHING THAT IS
GRADUALLY
EVAPORATING
IT GROWS ALONG

WITH KNOWLEGE

«السرّ» ليس في أنّه هو الشيء الذي يتبخـّر تدريجيًّا، إنّه ينمو إلى الأمام مع المعرفة.

ماري فلانري أوكنور Mary Flannery O'cnnor (١٩٢٥– ١٩٦٤) كاتبة أميركيّة كاثوليكيّة مشهورة، كتبت روايتين و٣٢ قصّة قصيرة، وغيرها من الكتابات الأدبيّة. أدبها له صلة بالأخلاق.

وعلى الحائط في الزاوية الشرقيّة الشماليّة نرى **وليم شكسبير William Shakespeare** يُحدِّق بنا عبر الأعصر، مخترقًا جدار الزمن الصامت البعيد الذي يفصلنا عنه.

وليم شكسبير (1564-1616) William Shakespeare، مِن كبار شعراء الإنكليز وأدبائهم، بل ربّما حسبه بعضهم أعظم مَن كتب المسرحيّة والدراما في الأدب العالميّ، وقالوا: «بعد الله، لقد خلق الأكثر» After God he created the most. كتب في حدود ٣٨ مسرحيّة، كما كتب ابتداءً من عام ١٦٠٩ قصائد يُسمّونها بالإنكليزيّة: Sonnets، و«السُّونت» قصيدة تتألّف مِن أربعة عشر بيتًا، فنظم وليم شكسبير ١٥٤ قصيدة مِن هذا النوع. مِن مسرحيّاته المشهورة نذكر: تاجر البندقيّة The Merchant of Venice، روميُو وجولييت Romeo and Juliet، يوليوس قيصر Julius Caesar، هامليت Hamlet، الملك لير King Lear، أوتيلّو Othello، مكبِث Macbeth، وغيرها...

ونتجه نحو الشمال الغربيّ، فنرى صورة نافرة لجين أوستِن Jane Austin (1775-1817). روائيّة إنكليزيّة مشهورة جدًّا. عالجت في رواياتها مواضيع اجتماعيّة مِن واقع الحياة، فجذبت إلى أدبها قرّاء اللغة الإنكليزيّة على اختلاف مشاربهم وجنسيّاتهم. نذكر مِن رواياتها: Pride and Prejudice, Sence and Sensibility, Emma, Mansfield Park ...

ونتّجه أيضًا نحو الناحية الشماليّة، فهُناك لوحة عليها كتابات نقرأها:

NO MAN CAN PUT A

CHAIN ABOUT THE
ANKLE OF HIS FELLOW
MAN WITHOUT AT LAST
FINDING THE OTHER
END FASTENED ABOUT
HIS OWN NECK

FREDERICK DOUGLASS

«لا أحدَ يستطيعُ أنْ يضَعَ سلسلةً حولَ رسْغ (كاحِلِ) أخيهِ الإنسان مِن دون أنْ يجدَ أخيرًا أنّ طرفَ السلسلةِ الآخرَ يُمسِكُ بإحكامٍ ويشِدّ حول رقبَتِهِ هُوَ بالذّات».

فردريك دوغلاس (١٨١٨- ١٨٩٥)، كان مُصلِحًا اجتماعِيًّا، وخطيبًا، وكاتِبًا، ورجلَ دولةٍ. بعد هروبه مِن عبوديّة الرقّ، قاد حركة التحرُّر مِن قيود العنصريّة. وصف دوغلاس تجربته في العبودِيّة في كتاباته عام ١٨٤٥، والتي حوت مواضيع كتابه المشهور: **Narrative of the Life of Frederick Douglas, an American Slave** «سردٌ لحياة فردريك دوغلاس، وهو عبدٌ أميركيّ». إنّ أدبه الرفيع، وبلاغته في إلقاء الخطب الرنّانة، جعلت الكثيرين يتساءلون: هل مِن المُمكِن أن يكون هذا الأديب الأسود الفذّ والخطيب المصقع، قد مرّ فِعلاً بتجربة العبوديّة!

ونتابع طريقنا نحو يمين المدخل الشمالي مِن المبنى فنقرأ ما يأتي لِبلِز باسكال Blaise Pascal:

LE COEUR
A SES RAISONS
QUE LA RAISONS
NE CONNAIT
POINT.

BLAISE PASCAL

«إنّ القلبَ لديهِ أسبابُهُ، التي لا يُدركُها العقلُ».

بليز باسكال Blaise Pascal (1623- 1662) باحثٌ فرنسيّ كبير في علوم الرياضيّات، وفيزيائيّ، ومخترعٌ، وكاتبٌ، وفيلسوفٌ كاثوليكيٌّ مشهور. عمل منذ أوّل عهده في علوم الطبيعة والعلوم التطبيقيّة، وله اكتشافات في هذه المجالات، كما له إسهامات كثيرة في عالم الرياضيّات، وفي العلوم الطبيعيّة، وفي المقارنة بين الرياضيّات والفلسفة. له كتابات متنوِّعة في الأدب والفلسفة والماورائيّات.

وننتقل أخيرًا نحو الزاوية الشماليّة الغربيّة مِن المبنى، فنرى لوحة نافرة لتوما الأكويني الذي كنّا تحدّثنا عنه عند وصولنا شرقًا إلى لوحة عليها كتابات له باللغة اللاتينيّة.

أمّا طبقات كليّة الإنسانيّات الخمس فهي تضمّ:

- في الطابق الأرضيّ الأسفل: صفوف
- في الطابق الأوّل: Program for Christian leadership
- في الطابق الثاني: English Department
- في الطابق الثالث: Religion Studies Department- Language learning Center – Language Department-Gudorf chair-Spearin chair
- في الطابق الرّابع: History Department - Philosophy Department- Alumni chair- Graul chair

هذه هي صور متنوِّعة مِن جامعة دايتون العريقة، التي أمضيتُ في رحابها مدّة شهر ونصف في صيف ٢٠١٢، كنتُ أستاذًا زائرًا، درّستُ اللغة العربيّة والثقافة العربيّة والإسلاميّة. إنّها تجربة ممتعة ومفيدة للغاية، وأنا أشكر جامعتي العزيزة، جامعة سيّدة اللويزة التي أتاحت لي هذه الفرصة المهمّة، وأتمنّى للجامعتين المريميّتين دوام التقدّم والازدهار والعطاء.

References

- Benlloch, Edward– Chaminade,s Message Today – (Translated from Spanish by Robert D. Wood, SM) - North American Center for Marianist Studies, Dayton, Ohio, Monograph Series- Documents No. 45- 2001
- Characteristics of Marianist Universities- A resource paper published in 1999, republished 2006
- Bichelberger, Roger- Walking With William Joseph Chaminade- (Translated by Arthur Cherrier, SM)- North American Center for Marianist Studies, Dayton, Ohio, 2003
- Kauffman, Christopher– Education and Transformation (Marianist Ministries in America Since 1849)– A Herder & Herder Book, The Crossroad publishing Company, New York, 1999

أبحاث

مريم العذراء في المجمع الفاتيكانيّ الثاني



† المطران جوزف معوّض
النائب البطريركيّ

مقدّمة

ركّز اللاهوت المريميّ (Mariologie) بعد المجمع التريدنتينيّ، وبنوع خاصّ مع اللاهوتيّ F. Suàrez (١٥٤٨ — ١٦١٧) الذي يُعتبر مؤسّس التعليم المريميّ المنهجيّ (Mariologie systématique)، على الإمتيازات الشخصيّة التي تميّز مريم العذراء عن الحالة المسيحيّة العاديّة، وعن بقيّة الخلق. فهي والدة الإله، والبتول النقيّة التي حُبِل بها بلا دنس، والتي انتقلت إلى السماء بالنفس والجسد. هذه هي الناحية الخاصّة بها (Aspect individuel).

يجب على هذه الناحية أن تكتمل مع الناحية الشاملة (Aspect universel)، التي تجمع العذراء مريم مع بقيّة المؤمنين، وتُظهر القيَم المشتركة في ما بينهم كالفضائل الإلهيّة الإيمان والرّجاء والمحبّة، والتي عاشتها مريم العذراء بطريقة سامية وفريدة، وقدّمت فيها للمسيحيّين مثالاً يصبون إلى الإقتداء به. (راجع Galot, Nuovo Dizionario di Teologia, 1994, p. 828؛ راجع De Fiorès, Nuovo Dizionario di Teologia, 1994, p. 842-843)

برزت هذه القيَم في الفاتيكانيّ الثاني الذي تناول التعليم عن مريم العذراء إنطلاقًا من مشاركتها في سرّ الفداء ومن علاقتها بالكنيسة ، وذلك في الدّستور العقائديّ في الكنيسة «نور الأمم»، الفصل الثامن، الذي يحمل العنوان: «الطّوباويّة مريم العذراء، والدة الإله في سرّ المسيح والكنيسة» (٥٢-٦٩).

نستطيع أن نميّز في نصّ الفاتيكانيّ الثاني بين البُعد التدبيريّ الخلاصيّ، والبُعد الكنسيّ، والبُعد المسكونيّ. ستكون هذه الأبعاد الثلاثة موضوع بحثنا، بعد أن نعرض خلاصة للفصل الثامن السابق ذكره.

١. خلاصة الفصل الثامن

يتوزّع الفصل الثامن على خمسة أقسام تحمل العناوين التالية:

أ. «ألمقدّمة». وهي تُظهر نيّة المجمع بعرض التعليم عن مريم العذراء مرتكزًا على دورها في الفداء، وعلى علاقتها في الكنيسة التي هي فيها عضوٌ ومثال ومكرّمة كأمّ لها. وتُظهر المقدّمة نيّة المجمع بالتوقّف عند واجب الإكرام للعذراء مريم (نور الأمم ٥٢-٥٤).

ب. «دور العذراء مريم في التدبير الخلاصيّ». إنّ أمومة العذراء مريم التي تقبّلتها في البشارة، جعلتها متّحدة بابنها وبعمله الخلاصيّ منذ الولادة حتّى الصليب (نور الأمم ٥٥-٥٩).

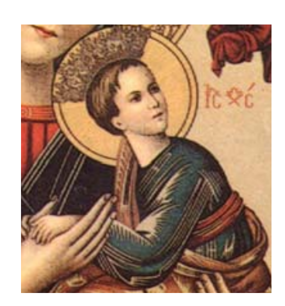
ج. «العذراء والكنيسة». إنّ المسيح يسوع هو الوسيط الوحيد للبشر. والقدّيسة مريم تستمدّ كلّ تأثيرها الخلاصيّ من المسيح. وبهذا المعنى هي أمّ على الصعيد النعمة بالنسبة للمؤمنين. فهي تساهم بأن يصل المؤمنون إلى الحياة الأبديّة بفضل مشاركتها بالفداء وشفاعتها في السماء. والقدّيسة مريم هي مثال للكنيسة في الأمومة والبتوليّة والقداسة (نور الأمم ٦٠-٦٥).

د. «مريم العذراء في الكنيسة». تكرّم الكنيسة القدّيسة مريم إكرامًا خاصًّا لدورها الفريد في سرّ الفداء. هذا الإكرام يختلف عن السّجود الذي يؤدّى لله (نور الأمم ٦٦-٦٧).

هـ. «مريم علامة رجاء وتعزية في مسيرة شعب الله». تمثّل مريم الممجّدةُ الكنيسةَ في اكتمالها في الدهر الآتي. ويعبّر المجمع عن فرح الكنيسة بمشاركتها إخوة منفصلين في إكرام العذراء مريم، ويدعو لطلب شفاعتها من أجل وحدة الشّعوب (نور الأمم ٦٨-٦٩).

٢. البُعد التدبيريّ الخلاصيّ

يعرض الفصل الثامن من وثيقة «نور الأمم» التعليم عن مريم انطلاقًا من دورها في التدبير الخلاصيّ، بالإستناد على الكتاب المقدّس وعلى التقليد المقدّس. فالتدبير الخلاصيّ الذي مصدره الله، تحقّق في ملء الأزمنة، في التاريخ، بتجسّد ابنه يسوع المسيح، فادي الإنسان. هذا الخلاص يُكشَف ويتواصل في



الكنيسة التي تجمع المؤمنين بالمسيح الرأس وفي ما بينهم (نور الأمم ٥٢).

يبيّن الفاتيكاني الثاني (الفصل الثامن من نور الأمم) دور مريم ورسالتها في هذا التدبير، بصورة خاصّة، في البشارة حيث تلقّت دعوة الله بأن تكون أم الإبن المتجسّد. ويشدّد المجمع على أنّ مريم في هذه الدعوة، لم تكن أداة سلبيّة بيديّ الله، بل بقولها للملاك: «ها أنا أمة للربّ»، عبّرت عن قبولها لهذه الأمومة وعن إيمانها وطاعتها لله، مكرّسة ذاتها لابنها ولعمله الخلاصيّ. فأضحت بحسب قول القدّيس إيريناوس سبب خلاص لها وللجنس البشريّ. وبفضل هذه الأمومة، اتّحدت القدّيسة مريم بابنها يسوع المسيح وبعمله الخلاصيّ منذ الحبل به حتى الموت على الصليب (نور الأمم ٥٦-٥٧).

إنّ هذا القسم المتعلّق بالتدبير الخلاصيّ له طابع كتابيّ بارز. ففي العهد القديم مريم هي المعلنة نبويًّا في الوعد بالإنتصار على الحيّة (راجع تك ٣/١٥)، وهي البتول التي تلد العمّانوئيل (راجع أشعيا ٧/١٤ وميخا ٥/٢-٣ ومتّى ١/٢٢-٢٣)، وهي من فقراء الربّ، وابنة صهيون التي تجسّد انتظار شعب العهد القديم لخلاص الله. هذه النصوص قرأتها الكنيسة، وأعطتها معنى مريميًّا على نور الوحي في العهد الجديد (نور الأمم ٥٥).

ويعود المجمع الفاتيكانيّ الثّاني (الفصل الثامن من نور الأمم) إلى النّصوص الإنجيليّة ليرسم صورة العذراء، مبيّنًا دورها ورسالتها. هذه النصوص متمحورة حول يسوع المسيح، والعذراء تبدو فيها متّحدة بابنها من خلال أمومتها (كالبشارة) وإيمانها (زيارتها لأليصابات التي أشادت بإيمان مريم)، وشفاعتها (عرس قانا الجليل)، ومحبّتها وآلامها (بوقوفها على الصليب)، وأمومتها الموصى بها من المسيح للتلميذ يوحنّا (نور الأمم ٥٦-٥٨).

ويذكر الفاتيكانيّ الثاني أيضًا النصوص الإنجيليّة المسمّاة ضيّقة أو مقيّدة (textes réstrictifs؛ راجع مر ٣/٣٥؛ لو ١١/٢٧-٢٨)، والتي تقلّل من أهميّة الأمومة البيولوجيّة أمام الأمومة الروحيّة القائمة على سماع أقوال الله والعمل بها، وتُظهر مريمَ أنّها تلميذة المسيح، علمًا أنّ هذه النصوص لم تُذكر سابقًا في الرسالات البابويّة (نور الأمم ٥٧-٥٨؛ راجع: De Fiorès, Nuovo Dizionario di Teologi, 1994, 846-847; B. Sesboüé, Histoire des dogmes, Les Signes du salut, Tome III, 1995, 615-616)

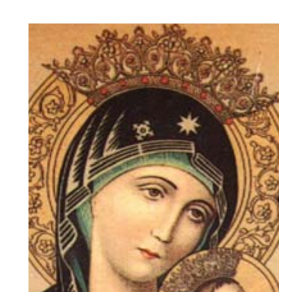
إنّ هذا الطابع الكتابيّ يُسقط نظريّة المريمات الثّلاث التي انتقد من خلالها بعض الإصلاحيّين (Réformateurs) الكنيسة الكاثوليكيّة. فالمريمات الثلاث هنّ بحسب قولهم، مريم الكتاب المقدّس التي ابتعد عنها التفكير الكاثوليكيّ ليخلق مريم الطوباويّة، وهي مريم اللاهوتيّين والعقيدة، ومريم السيّدة، وهي مريم التقوى الشّعبيّة المبالغ أحيانًا في إكرامها. نستطيع القول أمام هذه النظريّة أنّ الفاتيكاني الثاني، بتأسيس تفكيره عن مريم العذراء على الكتاب المقدّس، بيّن أنّ مريم الكتاب المقدّس ليست بعيدة عن مريم اللاهوتيّين، ومريم التقوى الشعبيّة بل هي واحدة معهما (راجع De, Fiorès, Nuovo Dizionario di Teologi, 1994, 848).

ولنصّ المجمع طابع آبائيّ أيضًا، خصوصًا في المقارنة بين حوّاء ومريم، في تفسيره لنصّ البشارة حيث تمّ الإستشهاد بإيريناوس، وبعدد من الآباء وكتاباتهم كأبيفانوس، وكيرلّس الأورشليميّ، ويوحنا الدمشقيّ، والعظات البيزنطيّة، وهيرونيموس وأمبروسيوس وأغوسطينوس (نور الأمم ٥٦؛ راجع B. Sesboüé, Histoire des dogmes, Les Signes du salut, Tome III, 1995, 616).

والجدير ذكره أنّ المجمع يعرض المعطيات البيبليّة والتقليديّة عن قداسة مريم وبتوليّتها، وعقيدتي الحبل بلا دنس والإنتقال، مؤسّسًا إيّاها على دعوة مريم الأموميّة ليسوع، واتّحادها به، ومشاركتها في التدبير الخلاصيّ. فمريم زهت بقداسة وهّاجة، بعطيّة من الله، منذ الحبل بها، لتكون على مستوى دعوة الأمومة الإلهيّة، التي بها ساهمت بخلاصها وخلاص العالم. والبتوليّة الدائمة التي عاشتها، هي تكرُّس لهذه الأمومة. وهذا الإتّحاد بابنها ومشاركتها في الخلاص، قادها إلى الإنتقال بالنفس والجسد إلى السّماء، فأصبحت صورة لما ترجو الكنيسة أن تصل إليه في نهاية الأزمنة.

٣. البُعد الكنسيّ

تشكّل علاقة مريم العذراء بالكنيسة محورًا أساسيًّا في الفاتيكانيّ الثاني. وقد ظهر ذلك لا في المضمون وحسب، بل أيضًا عبر التحضير للنصّ. فقد رفض آباء المجمع في بادئ الأمر مسوّدة مستقلّة تحمل عنوان: «الطوباويّة مريم العذراء أمّ الله وأمّ البشر». نشأ بعدها جدل بين الآباء، سنة ١٩٦٣، بين من يريد معالجة التعليم عن مريم في وثيقة على حدة، ومن يريد إدراج هذا التعليم في دستور الكنيسة. سعى التيّار الأوّل إلى إبراز الإمتيازات الشخصيّة للعذراء مريم والدة الإله وإلى التشديد على فرادتها. أمّا التيّار الثاني فهدف إلى إظهار دور مريم في التدبير الخلاصيّ، وعضويّتها في الكنيسة. أتت نتيجة التصويت مرجّحة



الفريق الثاني بأربعين صوتًا فقط. فقد نال الفريق الأوّل ١٠٧٤ والفريق الثاني ١١١٤. يبدو من خلال هذا التصويت أنّ الآباء انقسموا إلى فريقين. فالفرق بينهم ضئيل. ولكنّ الصياغة النهائيّة والحاليّة نالت الموافقة بالإجماع تقريبًا. فكانت النتيجة إدراج التعليم عن مريم ضمن إطار سرّ المسيح والكنيسة في الدستور العقائديّ حول الكنيسة الذي كان قد تمّ الإنتهاء من وضعه، بزيادة الفصل الثامن، الذي هو الفصل الأخير. هذا الفصل يشكّل زيادة على الدستور، ولكنّها زيادة لها معناها الكبير، وهو الدلالة على أنّ مريم ليست خارج الكنيسة، ولا فوق الكنيسة، بل تنتمي إليها كعضوٍ فيها (راجع B. Sesboüé, Histoire des dogmes, Les Signes du salut, Tome III, 1995, 612).

أمّا من حيث المضمون وبحسب الفاتيكانيّ الثاني، أنّ اتّحاد مريم بابنها يسوع وبعمله الخلاصيّ، مع كلّ النِعَم التي أعطاها إيّاها الله، كلّ ذلك يوحّدها بالكنيسة (نور الأمم ٦٣). فمريم بالنسبة للكنيسة في الفاتيكانيّ الثانيّ هي العضو، والمثال، والأمّ (٥٣).

هي العضو: هي عضو «سامٍ وفريد في الكنيسة بصورة مطلقة» (نور الأمم ٥٣). وقد ظهر انتماؤها إلى الكنيسة بصورة خاصّة في حدث العنصرة، حيث كانت حاضرة مع الجماعة الأولى تشاركها الصّلاة في انتظار عطيّة الرّوح القدس (راجع رسل ١/١٤)، التي نالتها معها (نور الأمم ٥٣). وعلى الأرجح أنّ مريم العذراء كانت تواصل حياتها في الجماعة ملتزمة معها في الإحتفالات الليتورجيّة، خصوصًا في كسر الخبز (راجع رسل ٤٢/٢ و Galot, Nuovo Dizionario di Teologia, 1994, p. 836-839).

والقول أنّها عضو في الكنيسة، يعني أنّها تنتمي إلى جماعة المخلّصين. فالفاتيكانيّ الثاني يؤكّد أنّ مريم هي من سلالة آدم وتنضمّ إلى البشريّة المحتاجة إلى الخلاص (نور الأمم ٥٣). صحيح أنّ مريم خلُصت بالمسيح، ولكنّها خلُصت بطريقة خاصّة، فهي حسب الفاتيكانيّ الثاني مفتداة بصورة سامية نظرًا لاستحقاقات ابنها (نور الأمم ٥٣)، وذلك بأنّها حُفِظَت من كلّ وصمة للخطيئة الأصليّة منذ لحظة تكوينها (نور الأمم ٥٩).

مريم مثال الكنيسة وصورتها: هي مثال الكنيسة وصورتها في البتوليّة والأمومة والقداسة. فالعذراء مريم ولدت، في البتوليّة، ابن الآب، بفعل الرّوح القدس وتجاوبها الكلّي بايمان مع دعوة الله لها. وبذلك أضحت المثال للكنيسة البتول والأم. فالكنيسة بتول عندما تحافظ على إيمانٍ نقيّ ونزيه وعلى رجاء متين ومحبّة صادقة تجاه عريسها السّماويّ بفعل الرّوح القدس، مقتدية بذلك بأمّ المخلّص (نور الأمم ٦٤).

والكنيسة أمّ لأنّها تلد، بالكرازة والمعموديّة، وبفعل الرّوح القدس، المؤمنين لحياة جديدة وغير مائتة، على مثال العذراء الأمّ، التي تساهم بحبّها الأموميّ، في ولادة المسيحيّين وتربيتهم (نور الأمم ٦٤). ويدعو المجمع الذين يقومون بالعمل الرسوليّ الهادف إلى ولادة مؤمنين جدد في الكنيسة، إلى أن يحيوا رسالتهم بعاطفة مريم الأموميّة (نور الأمم ٦٥).

يقول Galot بشأن أمومة العذراء وأمومة الكنيسة، أنّ كلّ واحدة تحتوي الأخرى، ويضيف بأنّ في «المعموديّة، تلد الكنيسةُ المسيحيَّ، ولكنّ مريم هي الأولى في قلب الكنيسة التي تلده. هنا بالإمكان أيضًا القول بأنّ أمومة مريم تقدّم لأمومة الكنيسة وجهًا شخصيًّا مع إمكانيّة الحوار... حوار الحبّ البنويّ أمام الحبّ الأموميّ» (راجع Galot, Nuovo Dizionario di Teologia, 1994, p. 840).

العذراء هي مثال في القداسة: إنّ العذراء هي مثال الكنيسة في الإيمان والمحبّة والإتّحاد بالمسيح والرجاء. لذلك أنّ المؤمنين الذين لا يزالون يتابعون جهادهم على هذه الأرض، لينتصروا على الخطيئة وينموا في القداسة، يوجّهون نظرهم إليها، إذ فيها تجتمع متطلّبات الإيمان العظمى.

إنّ التأمّل بمريم يجعلنا نلج في سرّ التجسّد. فمريم توجّه المؤمنين إلى ابنها وذبيحته، وتساعدهم على عيش الطواعية لإرادة الله في كلّ شيء (نور الأمم ٦٥). وقد أبدت هي هذه الطواعية عندما قالت للملاك «ها أنا أمة الربّ». يظهر هنا كيف أنّ الشركة مع مريم لا تحلّ محلّ الشركة مع المسيح، بل تقود إليها وتقوّيها. هذا ما توسّع فيه الطوباويّ يوحنا بولس الثاني في رسالته الرسوليّة عن «ورديّة العذراء مريم» الصادرة في ١٦ تشرين الأوّل ٢٠٠٢.

العذراء هي الأمّ: لم يستعمل المجمع عبارة «أمّ الكنيسة» بالنسبة إلى مريم، ولكنّه أشار إلى معنى هذه العبارة عندما سمّى مريم أمّ أعضاء المسيح، وأمّ البشر وخاصّة المؤمنين، وعندما تحدّث عن الكنيسة التي تتوجّه إليها كأمّ (نور الأمم ٥٣-٥٤).

إنّ عبارة «أمّ الكنيسة»، استعملها البابا بولس السادس دالاًّ على أنّ مريم أمّ كلّ شعب الله، المؤمنين والرعاة، وذلك في خطابه في ٢١ تشرين الثاني ١٩٦٤، في ختام الجلسة الثالثة من المجمع الفاتيكانيّ الثاني، والتي قد تمّ خلالها إقرار الفصل الثامن عن العذراء، في الدستور العقائديّ حول الكنيسة.

رُفضت هذه العبارة في النصّ المجمعيّ بسبب اعتراض البعض على أنّها توحي بأنّ مريم هي أعلى من الكنيسة، أو أنّ مريم هي السبب الأساسيّ في نشأة الكنيسة. ولكنّ قابلي هذه العبارة

دعموا رأيهم بمقارنتها مع لقب أمّ الإله المقبول من الجميع، والذي لا يعني لا الإستعلاء على الله، ولا أنّ مريم هي في أساس التجسّد المقرّر في تصميم الله. ولكنّ عبارة «أمّ الكنيسة» تعني أنّ لمريم دورًا فريدًا في نشأة الكنيسة، بدون انتزاع الدور الأساسيّ للمسيح، ولا صفته كرأس للجسد السرّي. وبالإمكان القول أنّ لمريم تأثيرًا أموميًّا ليس فقط على نشأة الكنيسة، بل أيضًا على تطوّرها ومسيرتها حتى نهاية الأزمنة.

إنّ أمومة مريم للبشر تعني مشاركتها في خلاصهم. فمريم العذراء التي ظلّت متّحدة بابنها منذ الحبل به حتى الموت على الصليب، شاركت معه في فداء البشر. كيف نفهم هذه المشاركة؟ لقد أكّد الفاتيكانيّ الثاني أنّ لا وجود إلاّ إلى وسيط واحد هو يسوع المسيح (راجع ١تيمو٢/٥-٦). وأكّد أنّ دور مريم الأموميّ في خلاص البشر، أو كلّ تأثير خلاصيّ لها على البشر،لا يقلّل من وساطة المسيح الوحيدة بل يظهر قوّتها. ودورها هذا هو تدبير مجّانيّ من الله، ولا يشكّل ضرورة موضوعيّة، بل يأتي من فيض استحقاقات المسيح، وهو متعلّق بها ومنها يأخذ قوّته. (أنّ ما حقّقه المسيح من أجلنا بالإمكان الوصول إليه بشفاعة مريم). غاية هذا الدور الأموميّ أن يحصل البشر على الحياة الفائقة الطبيعة.

سمّى المجمع هذا الدور الأموميّ، أمومة على صعيد النعمة. وهو يتواصل بعد انتقال مريم إلى السّماء بالنفس والجسد، من خلال شفاعتها لنا، لكي نحصل على العطايا التي تقودنا إلى الخلاص الأبديّ. ولذلك تسمّى بالمحامية والمعينة والوسيطة (نور الأمم ٦٠-٦٢).

إنّ عناية مريم الأموميّة تمتدّ إلى كلّ البشر، فهي شاركت ابنها في خلاص الجميع (شموليّة الخلاص)، ودُعِيت في المجمع «بأمّ البشر» (نور الأمم ٦٩).

٤. البُعد المسكونيّ في الفاتيكانيّ الثاني

إنّ الحوار الذي كان قائمًا بين المسيحيّين من مختلف الطوائف، قبل عقد المجمع الفاتيكانيّ الثاني، قوّى الحسّ المسكوني في إعداد الفصل الثامن حول مريم العذراء. وهذا ما حمل آباء المجمع إلى حذف بعض العبارات في المسودّة الأولى للنصّ، والتي شكّلت صعوبة في الفهم لدى بعض المسيحيّين المنفصلين، كعبارة شريكة الفداء للجنس البشريّ «Corédemptrice du genre humain». وبذلك فضّل الآباء البقاء في حالة حوار مع باقي المسيحيّين.

وفي النصّ النهائي، وجّهت الدعوة الصريحة إلى اللاهوتيّين، ليتجنّبوا في الأقوال والأفعال، كلّ ما قد يقود الإخوة المنفصلين، أو أيّ شخص آخر، إلى فهم خاطئ لتعليم الكنيسة حول مريم العذراء (نور الأمم ٦٧). والمجمع نفسه أعطى المثل بذلك عندما انطلق من المسيح كوسيط وحيد، ومن ثمّ تحدّث عن مريم. فالمسيح هو النقطة المركزيّة التي يتّجه كلّ شيء إليها. في هذا المعنى تحدّث المجمع عن مريم المتّحدة بالمسيح في عمله الخلاصيّ، مبيّنًا أنّ دورها الخلاصيّ هو تابع Subordonné له، وليس موازيًا له Comparable ولا بديلاً عنه، فهي توجّه المؤمنين للدخول في شركة مباشرة مع السيد المسيح.

يجدر التذكير في هذا السياق أنّ الإخوة المنفصلين، خصوصًا الإصلاحيّين، يهمّهم المحافظة على أولويّة المسيح في الخلاص كما جاء في الكتاب المقدّس. والمجمع من جهته أكّد على وساطة يسوع المسيح الوحيدة، وأنّ يسوع هو الذي أشرك فيها العذراء مريم، وهذه المشاركة تُفهم بمعنى الشّفاعة. والعبارة «وسيطة» استعملت مرّة واحدة فقط في المجمع الفاتيكانيّ الثاني للدلالة على العذراء مريم، وقد وردت في آخر سلسلة الألقاب التي أطلقت عليها (نور الأمم ٦٢). وتمّ تفسيرها بمعنى الحبّ الأموميّ (راجع نور الأمم ٦٠-٦٢) مع المحافظة على وحدة وساطة المسيح. تجدر الإشارة إلى أنّ الطوباويّ يوحنا بولس الثاني توسّع في دور العذراء كوسيطة، مستعملاً معها أيضًا عبارة «وساطة مريم»، وذلك في رسالته العامّة «أمّ الفادي» الصادرة في ٢٥ آذار ١٩٨٧، عدد ٣٨. وهذه الوساطة لمريم تُفهم دائمًا بمعنى الشفاعة.

وينتهي الفصل الثامن في دستور «نور الأمم» بحثّ المؤمنين على طلب شفاعة مريم العذراء من أجل وحدة الكنيسة وكلّ الشعوب (نور الأمم ٦٩).

خاتمة

إنّ المجمع الفاتيكانيّ الثاني يساعدنا على فهم أعمق لشخص مريم العذراء ودورها في التدبير الخلاصيّ وفي الكنيسة، وبذلك يوجّه شركتنا الروحيّة معها، التي هي شركة بنويّة تجاه أمّ على صعيد النعمة. ويوجّه أيضًا البحث اللاهوتيّ الذي لا يستطيع أن يكتفي بتعداد امتيازات مريم الشخصيّة، بل عليه أن يربطها برسالتها في عمل ابنها الخلاصيّ وبالكنيسة.

محاضرة ألقيت في جامعة سيّدة اللويزة في ٢٠١٢/١٢/١٣،
خلال مؤتمر بعنوان: التثقيف المريميّ،
نظّمه مركز الدراسات المريميّة.





الأب مارون الشدياق ر.م.م.



البابا و«الكنيسة في الشرق الأوسط»

إنّ زيارة الحبر الأعظم، البابا بندكتوس السادس عشر إلى لبنان (من ١٤ إلى ١٦ أيلول ٢٠١٢)، في إطار توقيع الإرشاد الرسوليّ «الكنيسة في الشرق الأوسط. شركة وشهادة» ، أتَتْ كحدثٍ تاريخيّ مميّز، في وقت كانت الأنظار تتّجه إلى ما يحصل في سوريا من حوادث دامية، وفي العالم من احتجاجات على فيلم يسيء إلى المسلمين ونبيّهم؛ وفي المنطقة من هشاشة سياسيّة قد اعتاد سكّان الشرق الأوسط «التعايش» معها. وعلى الرّغم من قلق المسؤولين على الوضع الأمنيّ في لبنان، وما سبق هذه الفترة من حوادث متعدّدة، أصرّ الأبُ الأقدس على أن يزور هذا البلد الصغير، لكي يتكلّم من خلاله إلى بلدان الشرق الأوسط، معبّرًا، بنضارة وصراحة ووضوح، عمّا يخالج خَلَدَه وعقله، تاركًا لنا مجموعةً من الكلمات الّتي تشكّلُ كنزًا تاريخيًّا قيِّما.

١. البابا الصديق، رسول السلام

رأى البابا نفسه، في كلمته الأولى في مطار بيروت (الجمعة ١٤ أيلول ٢٠١٢)، «**صديقَ الله وصديق جميع سكّان دول المنطقة، على اختلاف انتماءاتهم ومعتقداتهم**». فرغم نظرة الكثيرين إليه كرئيس دولة، دولة الفاتيكان، أو كأعلى سلطة للكاثوليك في العالم، يضع بندكتوس السادس عشر نفسه في مصافّ أصدقاء الله الّذين يصادقون كلّ إنسان، حاملاً في قلبه هَمّ الجماعات المتعدّدة الّتي تقطن بلدان الشرق الأوسط، فأفصح عن حضور الجميع في صلاته، معتبرًا ذاته «**حاجّ سلام**». وهذا ما ظهر جَلِيًّا في زيارته الّتي دامت يومَين، أعلن فيها سلامَ المسيح يسوع مرّات عدّة بقوله: «**أُعطيكم سلامي**» (يو ١٤/٢٧)، سلام المسيح الّذي يتميّز عن سلام العالم بثباته وبجوهره (راجع يو ١٤/٢٧). إنّ هذا الإعلان لا يثبّت المسيحيّين في إيمانهم وأرضهم فحسب، لأجل حصولهم على ضمانة رَبِّهم والحبر الأعظم خليفة بطرس، بل هو مصدر أمانٍ لكلّ صاحب نيّة حسنة، مهما كان دِينه وانتماؤه السياسيّ، لأنّ الأب الأقدس حدّث وجدان كلِّ إنسان وُلد في هذه المنطقة ويرغب في أن يثبت في أرضه ووطنه.

البابا الصديق، يعرف ما تحمّلته بلدان الشرق الأوسط من صعوبات جمّة، وهو الّذي واكب «الجمعيّة الخاصّة لسينودس الأساقفة من أجل الشرق الأوسط» (من ١٠ إلى ٢٤ تشرين الأوّل ٢٠١٠)، وقد أصغى، مع آباء السينودس، إلى المشاكل الّتي تعترض المنطقة، وحاولوا أن يفكّروا في كيفيّة البلوغ إلى ديمومة كريمة لحضور كلّ إنسان في هذه المنطقة، رغم ما ينتابُ الدُوَل من تغييرات دُعِيَت «بالربيع العربيّ»، لكنّها ما زالت تحصد أنفسًا في أمكنة، وفوضى في أخرى، وظُلمًا وتعسُّفًا في غير مكان.

لقد انطلق بندكتوس السادس عشر من نصوص الإرشاد الرسوليّ «**الكنيسة في الشرق الأوسط. شركة وشهادة**» ليوجّه رسالته الغنيّة بأبعادها، من خلال الكلمات الّتي ألقاها في لبنان، وقت زيارته.

٢. البابا وأبناء الكنيسة

توجّه البابا مباشرة إلى أبناء قطيع الكنيسة الكاثوليكيّة في لبنان في غير مناسبة، وقد كانت كلماته كثيفة، تُلخّص، تقريبًا، كلَّ أسس الإرشاد الرسوليّ، وتُظهر مدى معرفته للواقع الّذي يحيونه، وترشدهم إلى ما يجب أن يكونوا، مستشرفةً سلامًا يصنعونه مع ذوي الإرادة الصالحة.

- **شركة وشهادة**

خلال حفل توقيع الإرشاد الرسوليّ، في بازيليك مار بولس حريصا (الجمعة ١٤ أيلول ٢٠١٢)، أشاد الأب الأقدس بالمؤمنين المسيحيّين الّذين يعيشون ضغوطًا عديدة، مصحوبة بالخوف والقلق، ويُمنعون من عيش إيمانهم بحرّيّة وسلام، وهم لا ينفكّون يثبتون في إيمانهم. على الأثر توجّه إليهم بكلمات التشجيع قائلاً: «**كيف لا نشكر الله دائمًا من أجلكم جميعًا، أعزّائي مسيحيّي الشرق الأوسط؟ كيف لا نحمده من أجل شجاعتكم في الإيمان؟ وكيف لا نشكره من أجل شعلة محبَّتِه اللامتناهية، والّتي تستمرّون في الحفاظ عليها حيَّةً ومشتعلةً في هذه الأماكن الّتي كانت الأولى في استقبال ابنه المتجسِّد؟ كيف لا نُسبِّحُ بامتنان من أجل مبادرات الشركة الكنسيّة والأخويّة، لتوثيق التضامن البشريّ بلا كَلَل تجاه جميع أبناء الله؟**»

شدّد البابا على أنّ الإرشاد الرسوليّ يتضمّن توجّهات كِتابيّة وراعويّة، تَخصّ كلّ كاثوليكيّ شرق أوسطيّ، مِمّا يتطلّب، قبل كلّ



شيء، التجديدَ الروحيّ، من خلال وعي الإيمان، وعيش حياةٍ تنمو من خلال عيش أسرار الكنيسة. كما طلب من كلّ مؤمن أن يكون رجل حوار، يبحث عن الأساسيّ، ويتّبع المسيح، شاهدًا له، رغم الألم، محتفلاً «**بانتصار المحبّة على الكراهية، والمغفرة على الانتقام، والخدمة على التسلّط، والتواضع على التكبُّر، والوحدة على الانقسام**». كما دعا بندكتوس السادس عشر المؤمنين إلى مبادرات تنمّ عن روح المغفرة والحوار مع الجميع، وثَمّن ما في الإرشاد الرسوليّ من رؤى إيجابيّة للقيام بحوار بين الأديان، وبحث حثيث، مع غير الكاثوليك، عن الوحدة الكنسيّة المنشودة.

لكنّ الأساس في كلّ هذا يعود إلى وحدة الكنائس الكاثوليكيّة الشرقيّة بين بعضها البعض، وتجديد الإيمان فيها، لتكون في قلب «**الشركة**» الّتي تصير بفعل الوحدة «**شهادة**»، إذ تُظهر وجه يسوع المائت والقائم من بين الأموات.

- لا تخافوا

إنّ جواب قداسة البابا على قلق أبناء الكنيسة في المنطقة يمكن استخلاصه من الكلمات التالية: «**لا تخف، أيّها القطيع الصغير**» (لو ١٢/٣٢)[...] «**يا كنائس الشرق الأوسط، لا تخفنَ، لأنّ الربّ معكنّ حتّى انتهاء العالم! لا تخفنَ لأنّ الكنيسة الجامعة ترافقكُنَّ بقربها منكنّ إنسانيًّا وروحيًّا!**»

إنّ النداء نفسه يوجّهه البابا إلى الشبيبة المسيحيّة المجتمعة في البطريركيّة المارونيّة- بكركي (السبت ١٥ أيلول ٢٠١٢) مردِّدًا ما قاله قبله البابا الطوباويّ يوحنّا بولس الثاني: «**لا تخافوا! افتحوا أبواب أرواحكم وقلوبكم للمسيح!**»، ومردفًا: «**اللقاء معه يُعطي الحياة أفقًا جديدًا واتّجاهًا حاسمًا! فيه ستجدون القوّة والشجاعة للتقدُّم في طريق حياتكم، والتغلّب على الصعاب وعلى الألم. فيه ستجدون ينبوع الفرح**».

كانت للأب الأقدس رسائل عديدة وجّهها إلى الشبيبة. فإلى جانب التركيز على ضرورة الشهادة للربّ يسوع في حياتهم، دعاهم إلى البقاء في بلادهم وعدم تجرّع «**العسل المرّ**» أي الهجرة، وحثّهم على صنع مستقبل بلدهم. لكنّه لم يحصر إرشاده إيّاهم بالمسائل الاجتماعيّة، فتطرّق إلى مواضيع خُلُقِيّة لها أهميّتها العُظمى في عالم اليوم، لأجل ما تعاني المجتمعات من نسبيّة تلغي الله وتجعل الإنسان سَيِّدًا مطلَقًا في قوقعته الأنانيّة وتحدّ من مقدرته على التواصل السليم مع الآخر. لقد ركّز قداسة البابا على كرامة الجسد، وحثّ الشبيبة على العيش في طهارة الجسد والقلب، كما شجّعهم على رفض عالم المخدّرات ووسائل التعويض النفسيّ القاتلة وعلى النأي بالنفس عن الإباحيّة الحزينة. ثمّ شدّد على ضرورة عيش الواقع بجماله، من خلال علاقات غنيّة بالصداقة الحقّ، وعدم الانزواء في العالم الوهميّ الّذي يمكن أن تولّده شبكات التواصل الاجتماعيّ. كما حدّثهم عن تجربة المال، هذا الصنم الّذي يعمي البصائر، ويسبّب الزيف والوهم.

ولأجل الوصول إلى هذه الأهداف، حضّ صاحب القداسة الشبيبةَ على البحث عن معلّمين روحيّين، يرشدون إلى طريق النضج، ودعا إلى إعادة اكتشاف كنوز الإيمان، في سنة الإيمان، من خلال التعمّق بدراسة «التعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة»، حتّى يصير إيمانهم معاشًا، ويبلغوا النصر في ثورة المحبّة الحقيقيّة، والضروريّة لكلّ مسيحيّ. وبما أنّ المحبّة تَواصلٌ وحوار واتّحاد، ناشد قداستُه الشبيبة في عيش المغفرة والمسامحة، ليكون مستقبلهم مستقبل سلام، فيعرفوا كيف يقبلون بالتمايز، ويعيشون مع شركائهم في الوطن بكلّ انفتاح وتفهّم واحترام.

إنّ اللافت للانتباه هو توجّه البابا إلى أبعاد الشبيبة الروحيّة الوجوديّة، إذ طلب منهم أن يبحثوا عمّا يريده الربُّ منهم، وعن معنى حياتهم ودعوتهم، في الحياة المكرّسة والكهنوت أو في الزواج، مقدّمين ذواتهم للإله الّذي يحبّهم فيدعوهم. هذا ما يبلغ بالقلب البشريّ إلى الفرح العميم، إذ في المسيح يجد الإنسان سلامه الحقّ.

- **خدمة الإنسان: كلّ إنسان، كلّ الإنسان**

كلام الحبر الأعظم إلى الشبيبة، إذ طلب منهم أن يتأمّلوا بنصوص الإرشاد الرسوليّ «**الكنيسة في الشرق الأوسط. شركة وشهادة**»، يُقدِّم ما قاله، فيما بعد، عند تسليم الإرشاد الرسوليّ في وسط مدينة بيروت (الأحد ١٦ أيلول ٢٠١٢). كان همّ البابا أن يجد كلّ كاثوليكيّ رسالته في قلب الجماعة-الكنيسة، وأن يبقى متّحدًا بها، في الرجاء، وأن يتمّم شهادته للمسيح بكلّ سخاء.

أفصح البابا عن مفتاح الالتزام بالشركة والشهادة قائلاً: «**يجب أن تكون الخدمة في قلب حياة الجماعة المسيحيّة نفسها. كلّ خدمة، كلّ مهمّة في الكنيسة، هي قبل كلّ شيء خدمة الله والإخوة! إنّ هذه الروح يجب أن تحرّك كلّ المعمَّدين، الواحد تجاه الآخر، خصوصًا بواسطة التزام فعليّ يطال الفقراء والمهمّشين والمتألّمين، حتّى تُحفظ كرامة كلّ شخص ولا تُمتَهَن**». وقد أخذ يسوعَ الخادم مثالاً ليحثّ المؤمنين على محبّة الآخرين وخدمة جميع البشر، مُظْهِرًا الكنيسةَ، جماعَةَ خِدمة الإنسان، تُبلّغه الخلاص بالمسيح. وفي الإطار عينه قال قداستُه: «**مَن يرغب في أن يبني السلام يجب أن يكفّ عن أن يرى في الآخَر شرًّا يجب القضاء عليه**». إنّها خدمة السلام الّذي يُسكت السلاح ويوقف العنف، ويكون نتيجة حتميّة للأُخُوَّةِ الإنسانيّة، ما دام الجميع أبناء الآب الواحد، في الابن، المخلِّص الواحد.

٣. البابا والمسؤولون السياسيّون والمدنيّون

كلّ ما سبق يمكنه أن يأخذ الطابع الاعتياديّ لمواقف الحبر الأعظم، إذ يكلّم أبناء الكنيسة الكاثوليكيّة، أو يتحدّث بمنطق اعتاد العالم أن يقرأه في المواقف الكنسيّة، منطق الحوار والتآخي والسلام... ولكنّ لقاء صاحب القداسة مع «أعضاء الحكومة ومؤسّسات الدولة والسلك الدبلوماسيّ والمسؤولين الدينيّين ومُمثّلي عالم الثقافة» في القصر الجمهوريّ — بعبدا (السبت ١٥ أيلول ٢٠١٢) تميّز بأنّه راح أبعد من الإرشاد الرسوليّ ليوجز قداستُه، بطريقة حيويّة، كلّ تعليم الكنيسة الْخُلُقيّ والاجتماعيّ، مُظهرًا إيّاه كجواب على كلّ حاجات لبنان وبلدان الشرق الأوسط.

انطلاقًا من وضع المنطقة المتأجّج بالقلق والاضطرابات والحروب، يتساءل البابا: لماذا؟ ويُجيب أنّ الله اختار هذه الأرض لتكون نموذجيّة في الشهادة، فيعيش الإنسان السلام والمصالحة، رغم مشاعر العنف والكراهية والحرب في العالم.

- **قلبُ الإنسان مطبوع بالسلام**

إنّ نقطة انطلاق البابا لم تكن روحيّة صرف، رغم التشديد على الإيمان بالله كمنطلق يوصل الإنسانَ إلى دعوته فيحيا كامل إنسانيّته. استند قداسته إلى الرؤية الكيانيّة للإنسان، والّتي تُسمّى، بحسب الفلسفة المدرسيّة (الكاثوليكيّة)، «اللاهوت الطبيعيّ». إنّ الإنسان مفطورٌ على الحقّ «بطبيعته»، وذلك لأجل هبات الخلق له، مِمّا يجعله باحثًا عن الحقيقة دون هوادة، وهو قادرٌ أن يصل إلى معرفة الله، كوجودٍ وقيمة، ويستنتج من ذلك كيفيّة العيش في الحقّ، من خلال ما يُسمّى «التشريع الطبيعيّ». من هنا يقول البابا إنّ التوق إلى السلام والمصالحة «**مدوّن منذ الأزل في مخطّط الله، الّذي طَبَعَه في قلب الإنسان**».

إنّ الحبر الأعظم يطرح أوّلاً مسألة السلام الّتي يجب أن تكون همّ كلّ أبناء الوطن الواحد، في «**مجتمع مُوَحَّد**»، رغم ما فيه من تمايز بين الأشخاص. «**فتماسك المجتمع يؤمّن عبر الاحترام المستقرّ لكرامة كلّ شخص والمشاركة المسؤولة لكلِّ إنسان**».

وإذ يستفيض بالكلام على كرامة الشخص البشريّ، وهي من أسس تعليم الكنيسة الاجتماعيّ والْخُلُقيّ، يشدّد على قدسيّة الإنسان المخلوق من قبل الله، وعلى فرادته، فيحدّد العائلة كمكانه الأوّل للأَنسنَة ولعيش قيمة السلام. من هنا وجب الاهتمام بالعائلة ودعمها وترويج ثقافة الحياة فيها.

وبالكلام على الحياة، يرغب الأب الأقدس أن يُنَدِّدَ بأشكال القتل الموجودة، والّتي تمتهن كرامة الشخص وقدسيّته، أي الحرب والإرهاب، ويذكّر، بشكل مبطّن، بكلّ أشكال القتل اللاخُلُقيّة، كالإجهاض والقتل الرحيم... هذه كلّها تُجَرِّد الكائن البشريّ من كرامته، وتعلن همجيّة المعتدي على الحياة.

كما يصف بندكتوس السادس عشر، بشكل وجيز وعميق، أوضاع البلدان اجتماعيًّا، فيقول: «**إنّ البطالة والفقر والفساد والإدمان بمختلف أشكاله، والاستغلال والإتجار بكلّ أصنافه، والإرهاب، تسبّب، مع ألم الضحايا غير المقبول، إضعافًا للمقدرة البشريّة. يريد المنطقُ الاقتصاديّ والماليّ بلا هوادة أن يفرض نيره وأن يُقدِّمَ الامتلاك على الكينونة!**» ولمجابهة هذه الآفات الّتي تضعف البلدان وتقلّل من قيمة الإنسان الشخص، يوجّه البابا إلى التضامن، من أجل احترام الحياة البشريّة «**ولمساندة السياسات والمبادرات بطريقة مخلصة وعادلة تهدف إلى توحيد الشعوب**». ولأجل ذلك وجب أن تقوم أفعال التعاون والحوار الحقيقيّ للعيش الأمين معًا، وذلك بتقاسم الخيرات والمسؤوليّات، واحترام هويّة كلّ فرد، والثقة المتبادلة. أمام كلّ ذلك يطرح الحبر الأعظم مبدأَ الأُخُوَّة الشاملة، انطلاقًا من النظرة «الطبيعيّة» للإنسان، بحسب نظام

الخلق فيقول: «**اليوم، الاختلافات الثقافيّة والاجتماعيّة والدينيّة يجب أن تؤدّي إلى عيش نوع جديد من الأُخوّة، حيث ما يوحّد بالتأكيد هو المعنى المشترك لعظمة كلّ شخص، ولكونه عطيّة لنفسه وللآخرين وللبشريّة. في هذا يوجد طريق السلام!**»

- التربية والحرّيّة والمصالحة

لبلوغ هذه الحقائق المستقرّة في القِيَم، والممكنة التحقيق بما أنّها تعبّر عمّا في عمق الإنسان من رغبةٍ في التواصل الحسن، يلحّ البابا على «**التربية على السلام لبناء ثقافة السلام**». والتربية تبدأ في العائلة، ويجب أن تتميّز بإنسانيّتها المستندة إلى التذوّق الفطريّ للجمال والخير والحقّ والحريّة، بعيدًا عن ضروب عبوديّة الغريزة والضغوطات الخارجيّة. كما يدعو إلى رفض التيّارات السياسيّة والأيدولوجيّات الّتي تستعبد الخِيارات الحرّة. فالتربية الصميم تقوم على مرافقة سليمة نحو النضوج الفعليّ، ونبذ كلّ أشكال العنف الشفويّ والجسديّ، فتولّد إنسانًا حرًّا يعمل لأجل حرّيّة الآخر، ويهتمّ بالأشخاص الضعفاء، ويسعى إلى السلام في احترام وشهامة، ويعرف كيف يقرّ بأخطائه كسبيل للوصول إلى المصالحة، بحسب الحقيقة.

تناول البابا موضوع المصالحة بكلمة جريئة، معتبرًا سبَبَ الشرور البشريّة التَحالُفَ مع الشيطان إراديًّا، لإهانة محبّة الله ومحبّة الإنسان الآخر، مِمَّا يوصل إلى مدارك الظلمة، في عبوديّة الأنانيّة. لكنّ توبة القلب، بمنظارها الإنسانيّ، تُحَقِّقُ تحوّلاً جوهريًّا في النفس والقلب، ليحصل الإنسانُ على بصيرة تعمل من أجل العدالة والخير العامّ. هذا ما يُسهم في تنمية الرغبة إلى السلام والعيش من خلالها. فالتوبة متطلّبة، لأنّها تقتضي «**أن نقول لا للثأر، أن نعترف بأخطائنا، ونقبل الأعذار بدون التماسِها، وأخيرًا أن نغفر**». ففي إطار إنسانيّ بحت، أظهر قداسته كلّ القيم المسيحيّة المتعلّقة بالعمل للوصول إلى تتميم الذات بحسب إرادة الله، في سلام مع الخالق، مع الآخر ومع الخلق.

تشكّلُ المصالحة أساسًا لانفتاحٍ نحو الثقافات والأديان الأخرى. هذا ما يحتاج إليه الشرق الأوسط ليعيش أبناؤه في سلام واحترام متبادل وتفهُّم لِما هو مختلف. «**إنّ المجتمع المتعدّد لا يوجد إلاّ عبر الاحترام المتبادل، والرغبة في معرفة الآخر والحوار المتواصل. إنّ الحوار غيرُ ممكن إلاّ في الوعي أنّ هناك قيمًا مشتركة بين جميع الثقافات الكبرى، لأنّها متأصّلة داخل طبيعة الشخص البشريّ**». هذا ما يشكّل صمّام الأمان للحفاظ على الحرّيّة الدينيّة، الّتي تتعدّى التسامح المتعالي الّذي كثيرًا ما يفرز تعصّبًا قاتلاً. إنّ الحرّيّة الدينيّة لها أبعادها الاجتماعيّة والسياسيّة، وهي تنمّي السلام، لأنّها تروّج للتعايش وللحياة المتناغمة، إذ يسعى الجميع إلى التفتيش عن الحقيقة، ويعملون معًا لأجل القضايا النبيلة الّتي تفيد الإنسان والمجتمع.

يؤكّد البابا دورَ المؤمنين وغير المؤمنين في إعلان الشهادة للسلام فيقول: «**صانع السلام هو متواضع بارّ. إذًا للمؤمنين اليوم دورٌ جوهريّ، وهو الشهادة للسلام الّذي يأتي من الله وهو عطيّة تُمنح للجميع في الحياة الشخصيّة والعائليّة والاجتماعيّة والسياسيّة والاقتصاديّة. تقاعس الأُناس عليه ألاّ يسمح للشرّ بأن ينتصر. الأسوأ هو عدم فعل أي شيء**». بكلّ ما سبق حدّد بندكتوس السادس عشر مشروع حياة للبنان والشرق الأوسط، يحقّق كلّ المثل العليا إذا تُرجم في أفعالٍ عمليّة تعبّر عن إرادات صالحة، تحترم الإنسان وكرامته، وتسعى إلى الحقِّ والحياة معًا.

«**سلامي أعطيكم**». كلمةٌ مدوّية باسم المسيح يسوع في أجواء لبنان والشرق الأوسط، حملها لنا الحبر الأعظم، خليفة بطرس الرسول، قداسة البابا بندكتوس السادس عشر، المالك سعيدًا. رأينا فيه وجهًا مشرِقًا وابتسامة فيها من الخجل ما ينمّ عن شخصيّة متواضعة، تحترم الجميع. أصغينا إلى كلمات جوهريّة تناولت السلام ودعت إلى احترام كرامة الإنسان والإيمان بالله لبلوغ النصر على الكراهيّة في ثورة المحبّة، وبكّتت ضمائرنا على ما فينا من ظلمة تلغي الآخر... والسلسلة لا تنتهي!

هل سيجرؤ سكّان الشرق الأوسط على الإيمان بالحقّ، فيستقبلوا رسالةَ البابا هذه ويستجيبوا عمليًّا إلى إرشاداتٍ ضروريّة لقيام حياتهم وأوطانهم؟

إنّها دعوة إلى الحياة في الرجاء الآتي من الله. إنّه نداء لكي نعي الأُخوّة الشاملة، في بنوّة للخالق الّذي أعطانا الحياة، وأرادنا أن نتشارك فيها.

تعليم صاحب القداسة يوجِّهنا إلى حقيقة، نرغب أن نصدّقها ونحيا على أساسها: رغم ما يحيط بنا من مخاطر ومخاوف، يبقى المستقبل زاهرًا لإنسان الشركة والشهادة، لفاعل السلام، للّذي يخدم إخوته في الإنسانيّة، لحارس الحياة، ، لِمَن يتعاون ويتضامن مع القريب رغم اختلافه، ويحترم الحرّيّة المؤسَّسة على الحقّ، للداعي إلى المصالَحَة في قلب المحبّة!

نرجو أن يأتي الواقع، واقع أفعالنا وتصرّفاتنا وعلاقاتنا، مطابقًا لإرشادات البابا.

«**لا تخافوا**»!

أجل، يا أبانا! لن نخاف.

المجمع الفاتيكانيّ الثاني

مسيرة نصف قرن



الأب بيار نجم

في الحادي عشر من تشرين الأوّل ١٩٦٢ أعلن البابا الطوباويّ يوحنّا الثالث والعشرون افتتاح أعمال المجمع الفاتيكانيّ الثاني، حدث عنصرة متجدّدة في حياة كنيسة اليوم، كنيسة تفتّش عن طريقها في زمن الحداثة، تسعى إلى إعلان إنجيل لا يتبدّل محتواه الخلاصيّ، في مجتمع صار يرى في كلّ ما هو قديم أمرًا لا فائدة منه، حتّى ولو كان هذا القديم يسوع المسيح «القديم الأيّام».

في خطاب الافتتاح لخّص يوحنّا الثالث والعشرون هدف المجمع: «في الزمن الحاضر، لا بدّ للعقيدة التي لا تتغيّر أن يتمّ البحث فيها بطريقة أشمل وأعمق وأن تقبلها النفوس وتعرفها... لا بدّ لهذه العقيدة الحقّة وغير المتبدّلة والتي لا بدّ من قبولها بأمانة، أن يتمّ تعميقها وشرحها بحسب مقتضيات زمننا.

فمن جهة، عندنا «وديعة الايمان» أي الحقائق التي تحتويها عقيدتنا الموقّرة. ومن جهة أخرى، عندنا الوسيلة التي من خلالها نعلن هذه الحقائق من دون أن نغيّر في معناها وفي قبولنا لها. لا بدّ أن نولي أهميّة قصوى للوسيلة هذه، وأن نتحلّى بالصبر في تطبيقها إذا لزم الأمر. علينا أن نتبنّى أسلوب الإعلان الذي يتلاءم مع العقيدة بالشكل الأقرب، والتي هي راعوية من حيث النوع».

منذ اللحظة الأولى إذًا كان واضحًا للكنيسة أنّ هذا المجمع الذي يبتدئ هو مجمع ذو منحى راعويّ. فهو لم يُعقَد لبحث عقيدة لاهوتيّة تسبّبت بانشقاقات في الكنيسة على غرار مجامع أفسس ونيقيا والقسطنطينيّة من ناحية ألوهة السيّد المسيح وهويّة الروح القدس؛ أو كالمجمع التريدينيّ الذي جاء نتيجة الانقسام الغربيّ الكبير، والإصلاح البروتستنتيّ مع ما تبعه من نزاع حول لاهوت الكنيسة والأسرار والسلطة الهرميّة الكنسيّة؛ أو كالمجمع الفاتيكانيّ الأوّل ذي الهدف العقائديّ، حيث إلى جانب ضرورة البحث في المشاكل المعاصرة التي أثارتها التيّارات الفكريّة الملحدة ومبادئ الماديّة والتحرّر، كان هناك القضيّة الأساس: العصمة البابويّة.

لم يلتئم المجمع الفاتيكانيّ الثاني ليبحث في تحديد عقيدة جديدة، وإن كان سوف يُصدِر مجموعة من الوثائق العقائديّة التي أعادت صياغة حقائق قديمة وقوتها بالشكل الراعويّ ليجيب على تساؤلات أبناء كنيسة اليوم. هو مجمع لم يَصدر في مقرّراته الحرومات ضدّ منشقّين أو مخالفين.

ورغم أنّ الفاتيكانيّ الثاني لم يُعقد بسبب خلافات عقائديّة، فقد بقي صخرة شكّ وخصام للكثيرين ، إذ بعد نصف قرن من انعقاده، لا زالت الكنيسة تبحث في كيفيّة تطبيقه عمليًّا. ولتطبيقه لا بدّ من الاتفاق على طريقة قراءته.

قراءات وفَسارات مختلفة:

لقد كان الفاتيكانيّ الثاني على مرّ نصف القرن الأخير مثار جدل بين لاهوتيّي الكنيسة الكاثوليكيّة بسبب اختلافهم حول طبيعة هذا المجمع وغايته.

القراءة الأولى فسّرت هذا الحدث الكنسيّ كنقطة انفصال بين الماضي والحاضر، فرأت في المجمع الفاتيكانيّ الثاني انقطاعًا وبترًا بين كنيسة اليوم وكنيسة الأمس.

أمّا القراءة الثانية، وهي القراءة المطلوبة، فهي قراءة تلتزم رغبة يوحنّا الثالث والعشرين في أن يكون هذا المجمع أداة لإيجاد وسائل حديثة لشرح الايمان وإعلان محتواه القديم الذي لا يتبدّل. هذه القراءة يدعوها البابا بينيدكتوس السادس عشر:



القراءة الإصلاحيّة. والإصلاح بطبيعته لا يعني خلق واقع جديد، بل تحسين ما هو موجود.

الأحداث المجتمعيّة:

هذا الاختلاف في المفاهيم حول طبيعة هذا المجمع وغايته قد تفاقم بسبب حدثين اجتماعيّين طبعا المجتمع الغربيّ في مرحلة أولى، والعالم بأسره في العقود التالية:

ثورة ١٩٦٨ الثقافيّة:

الحدث الأوّل تمثّل بالثورة الثقافيّة والاجتماعيّة لسنة ١٩٦٨، مع ما نتج عنه من أزمة ثقافة ونزعة إلى رفض كلّ ما هو تقليديّ أو ملزم أو عقائديّ، وشعار الثورة «المنع ممنوع» C'est interdit d'interdire مع كلّ ما يرافق هذه العبارة من رفض لكلّ ما هو ماورائيّ وعقائديّ ومؤسّساتيّ، ولاسيّما الكنسيّ منها.

وهذا المنطق الرفضيّ لم يبق خارج حدود الكنيسة، فالمعمّدون هم أيضًا أبناء عصرهم. وبالتالي، تبنّت جماعات المعمّدين منطق العصر القائم وطبّقوه على كنيستهم، وباسم الحريّة الشخصيّة والتقدميّة همّشوا جوهر الايمان: أن أطيع الله وتعليم كنيسته.

لقد أدخلت هذه الثورة الثقافيّة منطق النسبيّة إلى المجتمع، ومنه إلى الكنيسة. كلّ الحقائق مقبولة، والحقيقة هي دومًا نسبيّة. لكلّ واحد حقيقته، وكلّ واحد هو على حقّ. وحيث تحكم النسبيّة لا يعود للحقيقة المطلقة مكان، ولا يعود من الممكن التكلّم على المسيح كحقيقة مطلقة وكمخلّص أوحد.

إنهيار الاتّحاد السوفياتيّ:

الحدث الثاني الذي طبع المجتمع الغربيّ، ولاسيّما المجتمع الكنسيّ، هو انهيار الاتحاد السوفياتيّ وتهاوي الأنظمة الشيوعيّة ابتداء من العام ١٩٨٩، عام انهيار جدار برلين وبدلاً من أن يؤدّي سقوط الأنظمة الملحدة إلى ازدهار. كنسيّ في أوروبا الشرقيّة، فإنّه أدّى إلى تنامي منطق النسبيّة المشكّك بالحقائق المطلقة. فبعد ما ينيف على السبعة عقود من قمع للكنيسة وحرمان للشعوب من أدنى مقوّمات التعليم الدينيّ، أنتج انهيار الشيوعيّة في شرق أوروبا وفي روسيا العالم ملايين من أشخاص لا يعرفون ماذا يفكّرون أو بماذا يؤمنون. ولأن لا أحد قادر على إعلان الحقيقة المطلقة، كانت النسبيّة الحلّ الأفضل: «لكلّ واحد حقيقته، فدعونا لا نتكلّم على حقيقة مطلقة».

وإلى جانب هذين الحدثين اللذان تليا المجمع الفاتيكانيّ الثاني، كان هناك الواقع الغربيّ الذي بدأ منذ ما بعد الثورة الفرنسيّة وعصر الأنوار يبشّر بالعقل كجواب لتساؤلات الانسان. منطق العقلانيّة الملحدة في أوروبا الغربيّة بلغ غاية ازدهاره عبر تزاوجه مع نزعة ١٩٦٨ التحرّريّة الرافضة لكلّ سلطة، ومع نسبيّة المجتمع الحديث.

ماديّة قاتلة، نسبيّة خبيثة، ورفض لكلّ سلطة في المجتمع المدنيّ. وفي الكنيسة انقسام عاموديّ حادّ بين تيّارين جذريّين متناقضين هما التيّار التحرّريّ التحريريّ الذي حصر الكنيسة بالبعد الاجتماعيّ وقلّص، إن لم نقل ألغى، البعد الاسخاتولوجيّ والماورائيّ الأسمى من جهة، وتيّار تقليديّ جذريّ يريد أن يعود بالكنيسة إلى ما قبل الفاتيكانيّ الثاني، يخاف الانخراط بالمجتمع، لا يؤمن بدور العلمانيّين، ولا بضرورة التجديد ومحاكاة العصر في سبيل تبشيره، وإعلان الانجيل بطريقة تصل إلى إنسان اليوم من جهة أخرى.

هذا كان إرث بينيديكتوس السادس عشر حين ارتقى إلى سدّة البابويّة. فيوحنّا الثالث والعشرون هو الذي عقد المجمع، وبولس السادس هو الذي قاده واختتم أعماله. يوحنّا بولس الأوّل لم يعش ما يكفي ليبدأ مسيرة تطبيقه، لذلك كانت حبريّة يوحنّا بولس الثاني الطويلة هي حبريّة هادفة إلى تطبيق المجمع الفاتيكانيّ الثاني. ولكنّ حدث انهيار الاتحاد السوفياتيّ مع ما رتّب من تبعات سلبيّة (إلحاديّة ما بعد الاتحّاد السوفياتيّ ومنطق النسبيّة والجهل الدينيّ)، وإيجابيّة على الغرب، جعل تطبيق المجمع يتأخّر في عصر يشهد على تغيير أساسيّ في المنطق وفي عيش القيم.

لذلك، يمكننا التكلّم عن حبريّة بينيديكتوس السادس عشر كحبريّة حصاد ثمار المجمع، ولكن أيضًا حبريّة تنقية الزؤان الذي بذره الانقسام حول قراءة المجمع وتفسيره.

ومن أكثر الأحداث تعبيرًا عن أهميّة حبريّة «حارس العقيدة» بينيديكتوس السادس عشر وصعوبة العوائق التي تعترض تطبيق الفاتيكانيّ الثاني بشكل أمين لإرادة الآباء الذين عقدوه، هو الشعار الذي أراده هذا البابا لحبريّته.



اختار بينيديكتوس السادس عشر في شعاره البابويّ، أن يضع صورة دبّ يحمل على ظهره صهوة جواد. هذه الصورة المعبّرة تعود إلى تقليد شعبيّ يخبر أنّ

القدّيس كوربينيانوس، أسقف ميونيخ (التي كان البابا راعيها وهو أسقف)، كان يهمّ بالسفر إلى روما من أجل التبشير، فاعترض طريقه دبّ مفترس التهم حصانه، فما كان من الأسقف إلاّ أن أمر الدبّ بالطاعة، فروّضه ووضع على ظهره صهوة جواده وانتقل عليه للتبشير.

هذه الصورة التي انتقاها بينيديكتوس للتعبير عن بابويّته هي في غاية الأهميّة: فهذا «الدبّ المفترس» هو «دبّ» ثقافة العالم المعاصر، دبّ المجتمع الملحد ذي النزعة إلى الماديّة والاستهلاك والمبشّر بنسبيّة الحقائق، هذا المجتمع الذي سوف يروّضه الربّ كما روّض كوربينيانوس الدبّ المفترس واستعمله لنشر البشارة.

إشارة أخرى أعطاها بينيديكتوس السادس عشر حول رؤيته للفاتيكانيّ الثاني ودوره في حياة الكنيسة: في خطاب وجّهه البابا للعاملين في الدوائر الرومانيّة قبيل عيد الميلاد عام ٢٠٠٥، بمناسبة الذكرى الأربعين لاختتام أعمال المجمع، سأل: «ما هي نتائج المجمع؟ هل قبل الجميع المجمع بالطريقة المناسبة؟ وفي قبولنا للفاتيكانيّ الثاني ما كانت العناصر الإيجابيّة، العناصر غير الكافية والعناصر المغلوطة؟ وماذا يبقى أن يُتمّ؟» (خطاب البابا للكوريا الرومانيّة، الخميس ٢٢ كانون الأوّل ٢٠٠٥).

هي دعوة واضحة إذًا للبحث في نوعيّة قبولنا وفهمنا لهذا الحدث الكنسيّ الكبير، والتفتيش في كيفيّة الوصول بهذا المجمع إلى تحقيق أهدافه.

لا ينكر البابا أنّ المجمع أُسيء فهمه وتفسيره في نواحٍ عدّة. كما لا ينكر الانقسامَ الذي نتج عنه، هذا الانقسام الذي أعاد إلى ذاكرة البابا الأحداث التي تلت المجمع النيقاويّ، فأعاد هو نقل ما رواه القدّيس باسيليوس إثر مجمع نيقيا: «الصراخ الأبحّ يطلقه أولئك الذين قام الواحد في وجه الآخر بسبب الخلاف، ثرثرات غير مفهومة، ضجيج مبهم وصراخ لا ينقطع قد ملأ الآن كلّ الكنيسة تقريبًا وحجب، عن مبالغة أو عن إنقاص، عقيدة الايمان الحقيقيّة».

هذه الصورة التي أعطاها القدّيس باسيليوس واصفًا حال انقسامات الكنيسة إثر مجمع نيقيا، تعكس بحسب بيندكتس السادس عشر بعضًا ممّا حدث بعد المجمع الفاتيكانيّ الثاني. لقد صار المجمع صخرة شكّ وسبب انقسام. والسبب في هذا الانقسام لا يعود لتعاليم المجمع بشكلها الموضوعيّ، بل بطريقة قراءتها: لقد ميّز البابا نوعين من الفَسارة في قراءة نصّ المجمع الفاتيكانيّ الثاني، إذ يقول: «لماذا كان لا يزال قبول المجمع الفاتيكانيّ الثاني يتمّ بغاية الصعوبة في أجزاء كبيرة من الكنيسة؟ كلّ شيء يتعلّق بحسن تفسير المجمع وبجودة فَسارته، أي بمفتاح القراءة المناسب ومفتاح التطبيق... هناك فَسارة أرغب في تسميتها «فَسارة عدم الاستمرار والانفصال»، وهي القراءة التي حظيت دومًا بدعم الإعلام وبدعم قسم في اللاهوت المعاصر. وفي ناحية أخرى نجد «فَسارة الإصلاح»، أي التجديد ضمن الاستمراريّة» (خطاب البابا للكوريا الرومانيّة، الخميس ٢٢ كانون الأوّل ٢٠٠٥).

لقد أنتجت القراءة الأولى نتائج سلبيّة بغاية الخطورة على فعاليّة إيصال كلمة الانجيل وبشرى الخلاص؛ فهذه القراءة التي فصلت ما بين المجمع وما قبله أنتجت تيّارًا تقدّميًّا مبالغًا فيه، يرى في المجمع ولادة لكنيسة جديدة لا علاقة لها بالتقليد وبالاختبار الكنسيّ الألفيّ.

تيّار التحرّريّة والتقدّميّة نتج عنه تقليص لدور الكنيسة اللاّهوتيّ، فتحوّلت من وسيلة خلاص أبديّ نهيويّ تتخطّى مفاعيله حدود عالمنا هذا إلى مجرّد وسيلة خلاص اجتماعيّ سياسيّ وثقافيّ ينحصر في عالمنا هذا.

ولم يقتصر تهميش البعد الأخرويّ والخلاصيّ للكنيسة على المحتوى اللاهوتيّ الخلاصيّ، وهو جوهر وجود الكنيسة وغايته، بل تخطّاه إلى الشكل الخارجيّ أيضًا، فرفض هذا التيّار الأشكال الليتورجيّة القديمة، وطريقة التعبير التقليديّة عن الايمان القديم. ولم يقتصر هذا الرفض على شكل الاحتفال بالقدّاس (أي القدّاس التريدنتينيّ أو رتبة بيّوس الخامس)، بل طال أيضًا شكل اللبس ورفض التعابير التقويّة القديمة، واللبس الكهنوتيّ.

وكان من نتائج هذه النزعة التقدميّة إدخال أشكال جديدة إلى الليتورجيّة والأسرار، من دون التقيّد بالقوانين وبالتقليد الكنسيّ، ولا حتّى بالمعنى اللاّهوتيّ للذبيحة الإفخارستيّة.

هذان التوجّهان المتناقضان جعلا من المجمع الفاتيكانيّ الثاني سبب خصام وشقاق بين تيّارين كبيرين في المجتمع الكاثوليكيّ:

- تيّار رأى في المجمع نقطة انفصال مع الماضي، فرفض التقليد الكنسيّ، وأشكال العبادة الليتورجيّة والتعليم الاجتماعيّ الكنسيّ التقليديّ، وانطلق دعاتُه في ما دعوه التيّار التقدّميّ، فهمّشوا البعد العقائديّ في الكنيسة والناحية القانونيّة التعليميّة، وشدّدوا على البعد الأدبيّ والأخلاقيّ حتّى كادوا يحوّلون الكنيسة من معلّمة

للحقائق الأبديّة إلى جمعيّة خيريّة تبشّر بضرورة العمل الخيريّ والتعاضد الاجتماعيّ.

ونتيجة لهذه القراءة الرافضة لكلّ ما هو تقليد كنسيّ قديم من جهة، وبتأثير من ثورة الـ ٦٨ من ناحية أخرى، بدأ الدخول التدريجيّ لمنطق «التعلمن للإقتراب من العلمانيّين» و«إلغاء الفوارق بين المعمدّين عبر إلغاء كلّ رمز خارجيّ للتكرّس»، فكان تهميش علامات الحياة المكرّسة، ولاسيّما اللّباس، ونشأ تيّار «الكهنة العمّال» الّذي كان من نتائجه تهميش البعد الأسراريّ وكلّ ما هو مقدّس وما ورائيّ من حياة الكنيسة اليوميّة، فصار الكهنوت مجرّد وظيفة. لقد كان هذا التيّار السبب في حجب البعد النبويّ عن الحياة المكرّسة، وصار الكهنة والمكرّسون مجرّد عمّال خير ودعاة إلى التعاضد الاجتماعيّ في هذا الزمن، ونسيت الجماعة المسيحيّة التقدّميّة هذه أنّ هدف الحياة المكرّسة وهدف وجودها هي أن تكون صرخة نبويّة، أي أن تعلن في هذا العالم الحقائق «التي لم ترها عين، ولا سمعت بها أذن ولا خطرت على بال بشر» (١ قور ٢، ٩).

– نتيجة لهذه القراءة المغلوطة للمجمع الفاتيكانيّ الثاني، نشأت ردّة فعل عكسيّة نزعت نحو النقيض الأخير: العودة إلى الشكل القديم ورفض الحداثة. ردّة الفعل هذه رفضت الفاتيكانيّ الثاني كنقطة انفصال بين الماضي والحاضر. وخيرًا فعلت. إلاّ أنّها رفضت قبوله كوسيلة نهضة وتجدّد بحسب رغبة يوحنّا الثالث والعشرين. هنا نشأت جماعات عديدة رفضت كلّ أشكال التجديد الليتورجيّ مصرّةً على الطقس التريدنتينيّ القديم، ورفضت القراءة المتجدّدة التي قدّمها الفاتيكانيّ الثاني لعالم اليوم حول الكنيسة ودور العلمانيّين فيها، حول الليتورجيّا وضرورة تحديثها لتقدر على رفع ابن عصرنا إلى الله خالقه.

وإلى أقصى هذا اليمين الكنسيّ، نتج تيّار جذريّ رفض كلّ أشكال التحديث، لا الأشكال الخاطئة التي غالى فيها مدّعو التقدّميّة فقط، بل وأيضًا الأشكال السليمة التي كانت ثمرة المجمع وإرادة السلطة، فرفض أهلُ هذا التيّار عناصر اللاهوت الحديث من الرؤية المجتمعيّة المتجدّدة للكنيسة كأداة عصريّة لإعلان البشارة، والإصلاح الليتورجيّ الحديث، واستبدال اللاّتينيّة باللّغات المحليّة المحكاة، وصولاً إلى رفض الحوار بين الجماعات المسيحيّة انطلاقًا من منطق أن «لا خلاص خارج الكنيسة الكاثوليكيّة ولا حقيقة إلاّ حقيقتها». ولم يكن الحوار بين الأديان الذي شجّع عليه الفاتيكانيّ الثاني أكثر حظوة في أعينهم من الحوار المسكونيّ. ووصلت مجموعة من هذا التيّار إلى رفض سلطة كلّ الباباوات الّذين توالوا على كرسيّ بطرس بعد بيّوس الثاني عشر، فأعلنوهم باباوات غير شرعيّين من يوحنّا الثالث والعشرين إلى البابا الحاليّ.

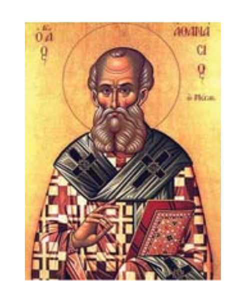
هذان الاتجاهان المتناقضان: واحد إلى أقصى يمين الكنيسة صار يدعى التقليديّ، ومن روّاده الأسقف الفرنسيّ مارسيل لوفيفر (١٩٠٥–١٩٩١)، مؤسّس «أخويّة القدّيس بيّوس العاشر»، والذي حُرم عام ١٩٨٨ إثر سيامته أساقفة من دون موافقة الفاتيكان؛ وآخر إلى أقصى اليسار، يسمّى تقدّميًّا، ومن ثماره تيّار لاهوت التحرير في أميركا اللاتينيّة، وحركة «PRAXIS» السياسيّة – الاجتماعيّة التي نتجت عنها حركة استقت رؤياها من الفكر الماركسيّ، وإن كان لاهوتيّو التحرير ينأون بذواتهم عن الماركسيّة، وأبرزهم غوستافو غوتيرّز، هيلدر كامارا، أوسكار روميرو وليوناردو بوف.

لا يمكننا أن ننكر أنّ هذا التيّار نشأ كجواب على حالة ماديّة بائسة، وقلّة عدالة اجتماعيّة، وفساد سياسيّ أثقل كاهل الشعب. وفي سعي هذا التيّار إلى تخفيف أثقال شعوبهم، أهملوا الناحية الأساس: إعلان خلاص سوف يتمّ في الزمان الآخر. لقد ألغى هذا التيّار كلّ بعد إسخاتولوجيّ، فحصر مفهوم الخلاص في هذا العالم العابر.

وبين هذين النقيضين نشأت حركات عدّة أقلّ جذريّة، وليست أقلّ خطورة على المستوى الراعويّ، تجلّت في ولادات جماعات تنغلق على نفسها، فنشأت في الغرب رعايا ذات اتجاه تقليديّ وأخرى ذات منحى تقدّميّ، وانقسمت جمعيّات ورهبانيّات بين من هم «رجعيّون» ومن هم «عصريّون».

كلّ هذه الشوائب والأخطاء ليست ثمرة المجمع الفاتيكانيّ الثاني، بل هي ثمرة القراءة الخاطئة وعدم فهم شريحة من المعمّدين أنّ هذا المجمع ليس حدث ولادة كنيسة جديدة ومعتقدات جديدة، ليست الغاية منه الفصل بين الماضي والمستقبل، بل الغاية، كلّ الغاية، بحسب رغبة يوحنّا الثالث والعشرين وبتعبيره هو يوم افتتاح المجمع، «إيجاد وسيلة جديدة لتقديم الحقيقة التي لا تتغيّر، أمس واليوم وإلى الأبد».

وهكذا، فإلى جانب مشاكل المجتمع المعاصر، ابن ثورة الـ٦٨ مع ما أنتجته من تحرّر رفضيّ وعدائيّة لكلّ حكوميّ ولكلّ ما



هو مؤسّساتيّ، ولا أدريّة وإلحاد أوروبا ما بعد سقوط الجدار الحديديّ، جاءت هذه «الأصوات الصاخبة» داخل الكنيسة، بحسب تعبير البابا بينيديكتوس السادس عشر مستذكرًا القدّيس باسيليوس الكبير، لتضع المجمع الفاتيكانيّ الثاني والكنيسة ذاتها أمام تحدّيين كبيرين: ماديّة المجتمع المدنيّ الرافض لكلّ ما هو مطلق وما ورائيّ من جهة، ونسبيّة التيّارات داخل الكنيسة نفسها. هذه الإشكاليّات هي التحدّي الأكبر الذي على بينيديكتوس السادس عشر مواجهته. هذا المجتمع العدائيّ خارج الكنيسة وداخلها هو «دبّ القدّيس كوربينيانوس»، هو هذا المنطق المفترس الذي على كنيسة المسيح ترويضه واستعماله لأنجلة العالم من جديد.

من هذا المنطلق نفهم المبادرات التي قام بها البابا منذ بداية حبريّته، مبادرات لم توفّرها سهام الناقدين من جميع الجهات والميول والتيّارات.

- المبادرة الأولى كانت الانطلاق نحو جمعيّة القدّيس بيّوس العاشر، أو ما يسمّى بجماعة لوفيفر، لاستمالتهم من جديد إلى حضن الكنيسة. هذه المحاولات لقيت اعتراضات عدّة وانتقادات من كلّ حدب وصوب. ولكنّ روح المصالحة هذه، التي بدأ البابا باعتمادها، هي الروح التي دعا إليها المجمع الفاتيكانيّ الثاني. لقد أتت هذا المبادرة لتعلن أنّ كنيسة المسيح لم ترمِ إرثها الإيمانيّ عبر المجمع، بل فتّشت عن كيفيّة عيش هذا الإرث القديم في شكل يتماشى وحاجات إنسان اليوم الرّوحيّة. عبر الإلتفات إلى هذه الجماعة الصغيرة نسبيًّا، كان البابا يتكلّم إلى تيّار كبير داخل الكنيسة الكاثوليكيّة، هو التيّار المحافظ الّذي لم يستطع أن يتأقلم مع إصلاحات الفاتيكانيّ الثاني، ولاسيّما تلك المبالغ فيها. هذا الأمر شرحه البابا في رسالة وجّهها في العاشر من آذار عام ٢٠٠٩ إلى أساقفة الكنيسة الكاثوليكيّة شارحًا حيثيّات ومعاني رفع الحرم عن أربعة أساقفة ينتمون إلى جمعيّة بيّوس العاشر التقليديّة المنشقّة منذ ما بعد المجمع، فيقول إنّ رفع الحرم عنهم صار ممكنًا بمجرّد إعتراف المعنيّين بمبدأ سلطة البابا كراع... لا يمكن تجميد سلطة التعليم الكنسيّة في العام ١٩٦٢، وهذا الأمر يجب أن يكون واضحًا بالنسبة لجمعيّة بيّوس العاشر. ولكن، لا بدّ لأولئك الّذين يعلنون ذاتهم كمدافعين كبار عن المجمع، أن يتذكّروا إنّ المجمع الفاتيكانيّ الثاني يحتوي في ذاته على تاريخ العقيدة الكنسيّة بأسره. إنّ الّذي يريد الخضوع للمجمع، لا بدّ أن يقبل الإيمان المُعلن على مرّ العصور، وأن يعي أن لا يمكنه أن يقطع الجذور التى تعيش الشجرة بفضلها».

لقد كانت خطوة مزدوجة إذًا، وجّهها البابا إلى المحافظين وإلى التقدّميّين في آن معًا، ليعوا أن لا يمكن للكنيسة أن تتحجّر في الماضي، ولكنّها لا ترمي في حداثتها الكنوز الإيمانيّة التي تناقلتها عبر الأجيال، ومن خلال تقدّس من سبقنا.

- والخطوة الثانية التي قام بها البابا الحاليّ في هذا الإطار هي إعادة استعمال ليتورجيّة بيّوس الخامس القديمة كشكل استثنائيّ في الليتورجيا اللاتينيّة. خطوة أراد البابا من خلالها التأكيد أنّ الكلّ يجد مكانه في كنيسة المسيح الواحدة. «إنّ ما كان مقدّسًا في الأجيال التي سبقتنا، يبقى كبيرًا ومقدّسًا بالنسبة لنا» يقول البابا في مقدّمة رسالته التي سمح فيها باستعمال الرتبة القديمة. في هذا الإطار كان كلام البابا واضحًا في ما يتعلّق بالنزعة التقدّميّة التي نمت في أطر لاهوت التحرير، إذ توجّه لأساقفة البرازيل قائلاً: «في السنوات التي أعقبت المجمع الفاتيكانيّ الثاني، فسّر البعض الإنفتاح على العالم لا كإحدى مستلزمات الإندفاع الرسوليّ، وإنّما كعبور نحو التعلمن، إذ وجدوا في هذا الإتّجاه العديد من القيم ذات العمق المسيحيّ الكبير، كالمساواة والحريّة وروح التعاضد... وقد شهدنا على مداخلات بعض المسؤولين الكنسيّين في النقاشات الخلقيّة، كاستجابة لانتظارات الرأي العامّ، ولكنّهم كفّوا عن الكلام عن حقائق معيّنة أساسيّة في الإيمان، كالخطيئة والنعمة والحياة اللاهوتيّة ونهايات الإنسان. لقد سقط العديد من الجماعات الكنسيّة، وبطريقة غير واعية، في التعلمن الذاتيّ. هذه الجماعات كانت تأمل في اجتذاب البعيدين، فشاهدت أبناءها يرحلون عراة وخائبي الأمل. إنّ معاصرينا، حين يلتقون بنا، يرغبون في رؤية ما لا يستطيعون رؤيته في مكان آخر، أي الفرح والرجاء النابعين من كوننا مع المسيح القائم» (خطاب البابا لأساقفة غرب البرازيل في زيارتهم الأعتاب الرسوليّة، الإثنين ٧ أيلول ٢٠٠٩).

«يفهم البعض هذا المجمع كجمعيّة تأسيسيّة أو كمجلس مؤسِّس بإمكانه إلغاء دستور جديد ووضع دستور آخر بديل. هذه القدرة لم تعط يومًا للأساقفة، حتّى وهم مجتمعون في مجمع أساقفة. إنّ دورهم يكمن فقط في خدمة الشريعة التي أعطاها الله للكنيسة» (خطاب البابا للكوريا الرومانيّة، الخميس ٢٢ كانون الأوّل ٢٠٠٥).

من هذا المنطلق لا يمكن اعتبار المجمع الفاتيكانيّ الثاني ثورة

داخل الكنيسة، لأنّه لم يأتِ ليلغي حقائق موجودة ويستبدلها بحقائق جديدة، ولكنّه ثورة من ناحية أنّه فحص كنسيّ للذات وقراءة لعلامات الأزمنة. لقد كان المجمع عودة إلى الجذور، إلى الأساس، ونفض ما علق على الكنيسة من غبار على مرّ السنين.

ماذا قدّم المجمع إذًا من جديد؟

لقد كان المجمع الفاتيكانيّ الثاني جوابًا جريئًا على ثلاث إشكاليّات معاصرة تجد جذورها في القرون الماضية، ولاسيّما في حدث غيّر وجه أوروبا وكان بداية لسلسة تغييرات سياسيّة، اجتماعيّة، ثقافيّة وفكريّة، بسلبيّاتها وإيجابيّاتها: الثورة الفرنسيّة.

الإشكاليّة الأولى التي أراد الفاتيكانيّ الثانيّ الإجابة عنها كانت العلاقة بين الإيمان والعقل، وبالتالي بين الإيمان والعلوم الحديثة.

والإشكاليّة الثانية كانت العلاقة بين الكنيسة والعالم المعاصر، مع ما يقدّمه هذا العالم من تعدّديّة الرؤى والإيديولوجيّات والمعتقدات الدينيّة.

هذه الإشكاليّة الثانية مهّدت للثالثة: العلاقة بيت الكنيسة والأديان الأخرى.

هذه الإشكاليّة الثلاثيّة أجابت عنها الكنيسة عبر ثلاث وثائق مجمعيّة لا تزال تنتظر تطبيقها الفعليّ:

١. فرح ورجاء (Gaudium et Spes): دستور رعائيّ حول الكنيسة في عالم اليوم.

٢. كرامة الإنسان (Dignitatis Humanæ): وثيقة حول الحريّة الدينيّة.

٣. في عصرنا (Nostra ætate): بيان حول «علاقة الكنيسة بالديانات غير المسيحيّة».

لقد أتت هذه الوثائق الثلاث كثورة داخليّة هادئة وغير عنيفة على موقف الكنيسة السابق، وعلى نظرتها إلى ما يتعلّق بعلاقة الكنيسة بالعالم المعاصر. «لقد جاءت هذه الوثائق كمحاولة مصالحة رسميّة مع الحقبة الجديدة التي بدأتها ثورة ١٧٨٩» (Ratzinger J., Principles of Catholic Theology, pp. 381- 382).

إذا كانت الكنيسة الكاثوليكيّة، عبر الفاتيكانيّ الثاني، قد بدّلت نظرتها وموقفها في ما يتعلّق بمفهومها للعالم وللمجتمع، فإنّ هذا التبديل لا يعني أنّ المجمع قد فصل بين ما هو قديم وما هو جديد أو أهمل التقليد المقدّس. فهذه القراءة هي قراءة متجدّدة لا جديدة، وهي عودة إلى التقليد الكنسيّ الأكثر عمقًا: يسوع المسيح وتعليم الإنجيل.

من هنا نعي أهميّة الوثيقة المجمعيّة كرامة الإنسان (Dignitatis Humanæ) حول الحريّة الدينيّة، فالكنيسة بنيت على ذخائر شهداء فضّلوا الموت على إنكار إيمانهم، وعلى الإنصياع لدين الإمبراطوريّة وعبادة أصنامها. واقع الشهادة هذا كان أساس حقيقة «حرّية المعتقد والضمير»، التي يشدّد عليها المجمع الفاتيكانيّ الثاني. بإعلانها حقّ الإنسان في اختيار دينه، وفي اختيار عدم الإيمان، بقيت الكنيسة وفيّة لهويّتها كجسد مسيح لم يجبرنا على الإقتداء به، بل دعانا إلى الدخول في صداقته بحريّتنا، لا خوفًا من عقاب.

إنّ كلمة السرّ التي أعطاها يوحنّا الثالث والعشرون في تحديده لأهداف هذا المجمع كانت «aggiornamento» أي التحديث والتأوين. هو فعل شجاعة كنسيّة، ومصالحة مع العالم والمجتمع. فالوثائق المجمعيّة، إذا ما قُرأت وفسّرت بطريقة تتماشى والتقليد الكنسيّ، تقدر أن تعطي جوابًا على حاجات مجتمع ما بعد ثورة ١٩٦٨.

لقد حرّر المجمع الفاتيكانيّ الثاني عالم اليوم من عقد الذنب والخوف، وفتح له مجال الحرّية الدينيّة داعيًا إيّاه إلى الدخول في علاقة حرّة مع الله، علاقة تعبّر عن كرامة الشخص البشريّ وعن فرادته، كإنسان حرّ حتّى في رفضه لله. لقد سبق الفاتيكانيّ الثاني ثورة الـ ٦٨ الداعية إلى تحرير الإنسان وإعتاقه من كلّ قيد. ولكنّ الفرق بين المنطقين هو أنّ المجمع الفاتيكانيّ الثاني انطلق من نظرة حسنة للشخص البشريّ، كإنسان قادر على الوصول إلى الله وعلى الدخول في علاقة حرّة معه، أمّا منطق الـ ٦٨ فهو منطق رفضيّ، محطّم لكلّ ما هو مؤسّساتيّ وهرميّ، منطق أودى بأبنائه إلى الفراغ، والمجتمع الغربيّ إلى التفتّت، لأنّ أوّل مؤسّسة ضربها منطق الرفضيّة هذا كانت العائلة، ضمانة الوحدة المجتمعيّة.

وفي هذا الإطار، أعاد المجمع للعلمانيّين دورهم الأساس كخدّام للكلمة، مبشّرين بها بفعل معموديّتهم. وهذا ما أعاد البابا التذكيرَ به والتشديدَ عليه في مناسبات عدّة، «لا بدّ من تغيير في العقليّة في ما يتعلّق خصوصًا بالعلمانيّين، فلا يعودوا يُعتبرون مجرّد معاونين للإكليروس، إنّما يُعترف بهم حقًّا كمشاركين في مسؤوليّة حياة الكنيسة وعملها، من خلال العمل على تثبيت علمانيّين ناضجين وملتزمين. (خطاب البابا بندكتس السادس عشر، في افتتاح مؤتمر أبرشيّة روما الكنسيّ، في بازيليك القدّيس يوحنّا- لاتران، ٢٦ أيّار ٢٠٠٩).

هذه النظرة تأتي بدورها سابقة لتيّار التعلمن الدينيّ والنزعة إلى إلغاء الفوارق بين الكهنة والعلمانيّين. فإعطاء العلمانيّين المجال المطلوب ليعيشوا خدمتهم، يعطيهم الهويّة الحقّة كمعمّدين يحملون مسؤوليّة جسد المسيح السرّيّ إلى جانب الكهنة، «لا كمجرّد معاونين، بل كمشاركين في المسؤوليّة». وهكذا، بأمانة لتعليم المجمع الفاتيكانيّ، وبالقراءة الصائبة لنصّه، والتطبيق الأمين لإرادة الآباء، استطاع البابا أن يعطي كلّ فئة من شعب الله حقّها، فلم يلقِ كهنوت الخدمة تحت أقدام كهنوت المعمّدين العلمانيّين العامّ كما فعلت التيّارات التقدّميّة اليساريّة، ولا جعل من العلمانيّين مجرّد «شعب يحضر القدّاس» لا دور له في الحياة الأسراريّة وفي الخدمة الكنسيّة كما هو توجّه التقليديّين.

إنّ المجمع الفاتيكانيّ الثاني إذا ما طُبّق، يقدر أن يفسح مجالاً للجميع، كهنةً وعلمانيّين، ليعيشوا دورهم في خدمة البشارة.

وفي عصر تنامي الأصوليّات ومنطق الإرهاب والخوف من الاختلاف، يبدو المجمع الفاتيكانيّ الثاني صرخة نبويّة في أنّه شدّد على الحوار والدخول في علاقة مع المختلف، علاقة تنطلق من «الإنسانيّة المشتركة والمصير الواحد». لقد أعلن شعوب الأرض، بمختلف انتماءاتها، «جماعةً واحدة». فيقول النصّ: «في عصرنا الذي يتّحد فيه الجنس البشريّ اتحادًا أوثق يومًا بعد يوم، وتنمو فيه العلاقات بين الشعوب المختلفة، تتفحّص الكنيسة بانتباه بالغ ما هي علاقتها بالديانات غير المسيحيّة. إنّها في نطاق مهمّتها التي تقوم بتعزيز الوحدة والمحبّة بين الناس، لا بل بين الأمم، تتفحّص، وبادئ ذي بدء، ما هو مشترك بين الناس ويقودهم إلى مصير واحد. فكلّ الشعوب جماعة واحدة ولها أصل واحد، لأنّ الله هو الذي أسكن الجنس البشريّ بأسره على وجه الأرض كلّها» (المجمع الفاتيكانيّ الثاني، في عصرنا-Nostra aetate- بيان حول «علاقة الكنيسة بالديانات غير المسيحيّة»، مقدّمة). ولذلك، لا يمكن أن ندخل في علاقة مع الله، إذا كانت علاقتنا مع الآخر المختلف عنّا يشوبها خلل، «لا نستطيع أن ندعو الله أبا الجميع إذا رفضنا أن نسلك أخويًّا تجاه الناس المخلوقين على صورة الله. فعلاقة الانسان بالله الآب وعلاقته بإخوته البشر مرتبطتان إلى حدّ أنّ الكتاب يقول: «إنّ من لا يحبّ لا يعرف الله» (١ يوحنّا ٤ / ٨). إذًا يقوّض أساس كلّ نظريّة أو تصرّف يفرّق بين إنسان وإنسان، وبين أمّة وأمّة، في ما يتعلّق بالكرامة الانسانيّة وبالحقوق النابعة منها. فالكنيسة تشجب إذًا كلّ منافٍ لروح المسيح، كلّ تفرقة أو جور يلحق بالبشر بسبب عرقهم أو لونهم، وبسبب وضعهم أو ديانتهم».

واليوم، بعد نصف قرن على افتتاح أعماله، يبدو الفاتيكانيّ الثاني أكبر من قدرة مسيحيّي اليوم على فهمه وتطبيقه. فبعد عقود من القراءات المختلفة لنصوصه، وصراعات ومناكفات وصلت إلى حدود الإنفلات التقدّميّ والشقاق التقليديّ، تأتي سنة الأيمان هذه دعوة جديدة لكلّ كاثوليكيّ، ليعي أهميّة هذا الحدث الفريد، فيقرأه بموضوعيّة كنسيّة، في إطار التقليد الكنسيّ الألفيّ.

لقد آن الأوان أن يعي المعمّدون أنّ الرّوح الّذي نفخ في المجمع وعضد الكنيسة في وضع نصوصه، هو عينه قادر على قيادة مسيحيّي اليوم على السير نحو وضعه حيّز التنفيذ، لا عبر استعمال القوّة وسلطة القانون، ولا بطريقة نسبيّة تختلف بين شخص وشخص وبين مجموعة ومجموعة، بل بالمنطق الكنسيّ الجامع، كجماعة واحدة وكشعب مخلَّص. لقد آن الآون أن نتّضع ونرمي نظريّاتنا جانبًا، وننقاد إلى عمل الرّوح. لقد آن لنا أن نفهم أن لا تقدّميّ ولا تقليديّ في الكنيسة. فالكنيسة جسد المسيح الحيّ، تحيا في عصرها وتعلن حقيقة عابرة للعصور. المسيح هو هو، أمس واليوم وإلى الأبد (عب ١٣، ٨). وما المجمع سوى أداة شاءتها عناية الربّ لنجد الوسيلة المعاصرة التي نعلن من خلالها ما وصلنا عبر التاريخ الكنسيّ المقدّس.

حدثان جللان سوف يطبعان هذه الذكرى الخمسين: إعلان سنة الأيمان، وعقد سينودس الأساقفة من أجل الأنجلة الجديدة. رسالة مباشرة وعمليّة يوجّهها البابا معلنًا من خلالها المعنى الحقيقيّ للفاتيكانيّ الثاني، أي البحث في وديعة الإيمان، والهدف الأساس منه، أي اكتشاف وسائل حديثة لإعلان هذا الإيمان تتماشى وعالم اليوم. بهذا يعود البابا عمليًّا إلى ما أعلنه نظريًّا البابا يوحنّا الثالث والعشرون في خطاب افتتاح المجمع.

هي مسؤوليّة إذًا تلقى على عاتق كلّ معمّد: أن يعي هدفه، أن يفقه محتوى إيمان الكنيسة، وأن يعلم أنّه يشارك الكنيسة الجامعة في مسؤوليّة إعلان الإنجيل من جديد.



بعد خمسين عامًا على افتتاح أعمال المجمع الفاتيكانيّ الثاني، بدأت ثمار هذا المجمع تظهر في حياة الكنيسة، عبر تنشئة شعب الله على محتوى الإيمان وعلى تحميله مسؤوليّة نشر الإنجيل في مجتمعه من خلال شهادة الحياة، ومن خلال إعلان الكلمة.

الإيمان في عالم اليوم



الأب فرنسوا عقل
رئيس دير مارعبدا- دير القمر
ومدير فرع الشوّف- جامعة سيّدة اللويزة

تمهيد

انطلقت السّنة الإيمانيّة التي أعلنها قداسة البابا بنديكتوس السّادس عشر في البراءة الرّسوليّة «باب الإيمان» في الحادي عشر من تشرين الأوّل ٢٠١٢، بمناسبة الذّكرى الخمسين لافتتاح المجمع الفاتيكانيّ الثّاني، وأطلقت معها دعوةَ-عودةٍ متجدّدة إلى جذور الإيمان بالرّبّ يسوع المسيح مخلّص العالم الأوحد، في زمن تختبر فيه البشريّة مرحلة جديدة من تاريخِها الحافل، مفعمةً بتغييرات كبيرة وسريعة، تمتدُّ شيئًا فشيئًا إلى كلّ الأقطار، يسبّبها الإنسان بفضلِ ذكائه الثّاقب وعمله المبدع من دون الانتباه إلى إمكانيّة ارتدادها عليه، وعلى أحكامِهِ ورغائبهِ الشّخصيّة والجماعيّة، وذهنيّته وأفعاله، ممّا قد يُحدث تبديلاً عالميًّا جذريًّا من النّاحيتين الثّقافيّة والاجتماعيّة يكون له الأثر الواضح -بطبيعة الحال- على الحياة الدّينيّة[١]. إنّ موضوع الإيمان في الواقع، ليس بجديد؛ وفي حديثنا عنه الذي نتداوله مرارًا وتكرارًا، على حدّ قول اللاهوتيّ الألمانيّ الشّهير كارل رهنر (Karl RAHNER) ربّما نقع ببعض الملل الفكريّ جرّاء سماع العبارات عينها، والأفكار ذاتها، والنّصوص نفسها، فنشكو ممّا أسماه في أحد كتبه، رتابة الصّيغ اللاهوتيّة التي لا تحصى «-La routine des innombrables for mules théologiques»، والوصفات الخلقيّة التّي طالما تلقنّاها وتلقّيناها من دون أن نفهمها في أغلب الأحيان.[٢]

لأجل ذلك، لم يعد من الجائز لنا أبدًا في عصر العلم والتّكنولوجيا العملاقة، عدم الشّروع في إتقان لغة عالم اليوم و«مسحنتها» بغية استخدامها كوسيلة تواصل إيمانيّ عصريّ مع أبناء هذا الجيل، في سبيل «أنجلة» جديدة تحمل المسيح المخلّص إلى كلّ إنسان نلتيقه.

I. تعريف الإيمان بالمطلق

الإيمان في معناه الواسع، طاقة فطريّة هائلة، تولد مع الإنسان وتميل به إلى أبعد من المنظور والمحسوس؛ لكنّها قد تحتاج واقعيًّا إلى بسط شراعها في الإتّجاه الصّحيح. أمّا في معناه الضّيق، فهو هبة من الله، بل فضيلة فائقة الطّبيعة يزرعها الخالق في قلب الإنسان، ثمّ محاولة التصاق هذا الأخير به التصاقًا شخصيًّا، عبر حياة روحيّة عميقة، والقبول الحرّ لكلّ الحقيقة التي أوحى الباري بها. فهو بإيجاز، عطيّة من الله وفعل إنسانيّ أصيل[٣]، على قاعدة الكاتب التشيكيّ فرانز كافكا (Franz KAFKA): «يهب الله الجوز، لكنّه لا يقشّره».

II- الإيمان المسيحيّ

إنطلاقًا من المفهوم الواسع للإيمان، تؤكّد الكنيسة الكاثوليكيّة أنّه عطيّة من الله على ما جاء في العهد الجديد بفم رسول الأمم «بنعمة الله نلتم الخلاص بالإيمان. فما هذا منكم بل هو هبة من الله» (أفسس ٢: ٨). و«هو الوثوق بما نرجوه وتصديق ما لا نراه...» (عب ١١: ١). كلمة حياة هو، تُتناقل وتنتشر وتنمو بالنّعمة والحكمة، لأنّ «الإيمان من السّماع» (رومية ١٠: ١٧)... ربّما لم نذهب إلى الصّين قطّ، ولكنّنا نعلم أنّها موجودة؛ ونحن لم نذهب إلى السّماء بعد، فيما نعرف أنّها موجودة! و«طوبى لمن آمن ولم يرَ» (يو ٢٠: ٢٩) قالها يسوع...

أمّا ما يميّز الإيمان المسيحيّ عن الإيمان عمومًا، فهو أنّه إيمان بالآب وبمن أرسل؛ أي بيسوع المسيح الذي قال: «أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بي أيضا» (يو ١٤: ١)... «الله لم يره أحد قط. الإبن الوحيد الذي في حضن الآب هو أخبر» (يو ١: ١٨)... «آمنوا بالنّور

---

(١) راجع، دستور راعويّ في الكنيسة وعالم اليوم (ك ع)، ٤.

(٢) Cf. Karl RAHNER, *Vivre et croire aujourd'hui*, (Traduit de l'allemand par Jean EVRARD et Henri ROCHAIS), Desclée De Brouwer, Paris, 1967, p. 54.

(٣) راجع، التّعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة (ت م م ك) ، ١٥٠، ١٥٣، ١٥٤.

ما دام لكم النّور، فتكونوا أبناء النّور» (يو ١٢:٣٦)... «آمن بالرّبّ يسوع المسيح فتخلص أنت وأهل بيتك» (أعمال ١٦: ٣١). ثمّة ضرورة قصوى للإيمان بيسوع المخلّص لأجل الحصول على الخلاص.[٤] والإيمان بالسّيّد المسيح من دون الإيمان بروحه وروح الآب أي الرّوح القدس، أمر غير ممكن من النّاحية الإيمانيّة المسيحيّة. إذ «لا يعلم أحد ما في الله إلاّ روح الله» (١ كور ٢: ١٠-١١)؛ و«لا يستطيع أحد أن يقول يسوع ربّ إلاّ بالرّوح القدس» (١ كور١٢: ٣). فهو إذاً، إيمان بالله الواحد والثّالوث، يجب التّعبير عنه بالأعمال الحسنة، إذ «كما أنّ الجسد بلا روح ميت، كذلك الإيمان بلا أعمال ميت» (يعقوب ٢: ٢٦). وقد استوقفت هذه المسألة الأديب والشّاعر الفرنسيّ فيكتور هيغو (Victor HUGO) إذ كتب: «أفعالنا تصنعنا أو تفسدنا، فنحن أبناء أعمالنا».

III. الإيمان فعل شخصيّ وجماعيّ

الإيمان باديٴ ذي بدء هو فعل شخصيّ، إذ يجب أن «أؤمن» شخصيًّا أوّلاً، كجواب حرّ على مبادرة الله الذي يكشف ذاته، لكنّه ليس فعلاً منعزلاً. بل هو إيمان الكنيسة الذي يعترف به كلّ مؤمن على حدة. تلك الكنيسة المنسكبة من قلب الفادي المطعون بالحربة... إنّها الأمّ والمربّية لإيماننا. أعطتنا الإنجيل ومنحتنا المعموديّة وسائر الأسرار... وسوف تبقى لنا ضمانة عيش الشّركة في الإيمان[٥] والشّاهدة لحقيقة ما تلقيّناه من مبادئ وقيم وتعاليم. فهي التي قد أكّدت لنا منذ ألف وستمائة سنة ونيّف، أنّ الأناجيل الأربعة التي في متناول أيدينا صحيحة، بينما سائر الأناجيل منحولة وكاذبة، نظير إنجيل برنابا ويعقوب وغيره. فهل يعقل أن نؤمن بالأناجيل الحقيقيّة التي قرّرت الكنيسة نفسها صحّتها، ثمّ نرفض تعاليمها الأخرى؟ فإمّا أن نقبل منها كلّ شيء أو نرفض كلّ شيء. فالمسألة ليست انتقائيّة أو استنسابيّة! إن كانت الكنيسة حقًّا جسد المسيح السّرّيّ وهو رأسها كما أكّد بولس، فمن واجب الوجوب إذاً أن يكون الرّأس المشار إليه هو من يدبّر شؤونها ومصيرها. وعليه، إنّ تعاليمها الإيمانيّة والأدبيّة منبثقة من رأسها القدّوس والمقدِّس، وهي تعاليم سماويّة مقدّسة.

وفي هذا السّياق تحدّث اللاهوتيّ الألمانيّ كارل رهنير عمّا أسماه بِالإيمان الأخويّ، أي الشّهادة الجماعيّة لما نحياه بالإيمان والصّلاة[٦]. كما لم تزل عبارة القدّيس قبريانوس المعروفة تدوّي في أذهان ذوي بعض الثّقافة المسيحيّة «من ليست الكنيسة أمّه لا يستطيع أن يكون الله أباه». فالإيمان إذًا هو أيضًا فعل جماعيّ.

IV. إشكاليّة العقل والإيمان

العقل والإيمان هبتا الله للإنسان. تصارعا في العصور المظلمة، وتصالحا في العصر الحديث. بيد أنّ ثمّة من يتشدّد بالأوّل ويلغي الثّاني، ومن يتسلّح بالثّاني ويخنق الأوّل. أقرّ معظم الفلاسفة الذين تناولوا هذه الإشكاليّة بمحدوديّة العقل الذي يستطيع فقط تقبّل الأشياء المنطقيّة كحدّ أقصى، وعدم قدرته على فهم ما يتخطّى حدود العالم المحسوس والمنظور فهمًا كاملاً ومطلقًا. وقد أصاب أرسطو جوهر هذه الأفكار حين قال: «علامة العقل المتعلّم هو قدرته على تداول الفكرة من دون أن يتقبّلها». وهنا تبدأ مسيرة الإيمان بتقبّل ما لا يستطيع العقل قبوله أحيانا.

من أشهر الذين خاضوا غمار هذه المسألة في الكنيسة منذ البدايات هو القدّيس أغوسطينوس الفيلسوف واللاهوتيّ الكبير الذي استخلص مقولة «أؤمن لكي أفهم، وأفهم لكي أؤمن إيمانًا أفضل»[٧]، حتّى بزغ نجم القدّيس توما الأكوينيّ الشّهير بعد ردح من الزّمن ليؤكّد بدوره أنّ «الإيمان فعل عقل يعتنق الحقيقة الإلهيّة بأمر الإرادة التي يحرّكها الله بالنّعمة». و«اليقين الصّادر عن النّور الإلهيّ أعظم من اليقين الصّادر عن نور العقل الطّبيعيّ». ثمّ ركّز على أهميّة التّأمل في الحقائق الإيمانيّة: «إن أردنا أن نرى الأشياء كما هي، فيجب أن نصبح تأمّليّين، فالتّأمّل الحسّيّ هو



(٤) (ت م م ك)، ١٦١.
(٥) المرجع نفسه، ١٦٦-١٦٩.
(٦) Cf. Karl RAHNER, *Vivre et croire*..., p. 54.
(٧) (ت م م ك) ، ١٥٥، ١٥٨.

انفتاح العقل الهادئ على ما يقابله»[٨]. ممّا يلتقي مع ما أكّده بولس الرّسول: «إنّ نعمة الإيمان تفتح عيني القلب» (أف ١: ٨).

أمّا في العصر الحديث- كي نختصر المسافات-، فقد تناول الطّوباويّ البابا يوحنّا بولس الثّاني هذه الإشكاليّة بعمق، في رسالته الحبريّة «الإيمان والعقل» «Fides et Ratio» عام ١٩٩٨، مؤكّدًا أنّ الإيمان والعقل هما بمثابة الجناحين اللذين يمكّنان العقل البشريّ من الارتقاء إلى تأمّل الحقيقة.

وعليه، تقدّر الكنيسة العلم كوسيلة للاكتشافات والتّطوّر، وتعتبر أنّ الفلسفة «مهمّة» من أنبل مهامّ البشريّة، ومزيّة فطريّة من مزايا العقل. إلاّ أنّ هذه «المهمّة» قد تنحرف أحيانًا إذا ما وقعت في فخّ «غطرسةٍ فلسفيّة» تدّعي وضع نظرتها الخاصّة موضع النّظرة الشّاملة للمسائل المطروحة، بالرّغم من محدوديّتها الفكريّة في موضوع المعرفة المطلقة. لكنّها تتوسّم في الفلسفة وسيلة لا بدّ منها للتّعمّق في فهم الإيمان، وتبليغ حقيقة الإنجيل للّذين لم تصل إليهم بعد.

V. طاعة الإيمان

الإيمان قبل كلّ شيء، هو فعل حرّ، إذ لا يمكن إكراه أحد على اعتناقه، لأنّه ذو طابع إراديّ[٩]. وما الطّاعة في الإيمان إلاّ الخضوع الحرّ للكلمة المسموعة. من نماذج هذه الطّاعة إبراهيم ومريم البتول. ويمكننا القول من دون مبالغة إنّ حياة مريم العذراء بالتّحديد، كانت تحقيقًا أشدّ كمالاً لهذه الطّاعة الإيمانيّة.[١٠]

فطاعةُ الإيمان إذاً، أمر واجب لله الموحي (رو ١٦: ٢٦؛ رو ١: ٥؛ ٢ كو ١٠: ٥-٦)، عبرها يفوّض الإنسان أمره بكامل حرّيته إلى تدبيرِ الله، مخضعًا له كلّيًا عقله وإرادته، راضيًا بقبول كلّ الحقائق التي يكشفها له؛ ولكيما يؤمن على هذا المنوال، تراه بحاجة إلى نعمة الله السّابقة والدّاعمة، وإلى معرفة الرّوح القدس الدّاخليّة؛ فهذا الرّوح بالذّات لا يفتأ يكمّل الإيمان بمواهبه، من أجل تعميق فهم الوحي شيئًا فشيئًا.[١١]

VI. تحدّيات الإيمان في عالم اليوم

ثمّة تحدّيات كثيرة تعتري مسيرة الإيمان في عصرنا الحديث، أوّلها مشكلة الإلحاد المتعدّد الوجوه. إنّه نكران الله أوّ إعلان موته كما فعل الفيلسوف الألمانيّ نيتشه (Nietzsche) حين قال: «المؤمنون مرضى ومحتضرون احتقروا الجسد واخترعوا السّماويّات وقطرات الدّم الفادية. العبيد اخترعوا الله والسّادة قتلوه. لقد قتلنا الله، أنا وأنتم. فجميعنا قتلة الله»[١٢]. إلاّ أنّ آخرين اعتقدوا أنّ الإنسان لا يقدر أصلاً أن يؤكّد شيئاً عن الله ومن هنا انبثق مذهب «اللاأدريّة». أي لسنا ندري إن كان الله موجودًا أم لا. ويتطرّق آخرون أيضًا- بحسب المجمع الفاتيكانيّ الثّاني- إلى التّعمّق في إشكاليّة وجود الله بمنهجيّة تظهر كأنّ لا معنى لها ولا جدوى منها. ويؤمن الكثيرون بإمكانيّات العلم حتّى حدود الصّنميّة العلميّة، متجاوزين بذلك حدود العلوم الإيجابيّة من دون أي مبرّر، مؤلّهين العلم، زاعمين أنّ العقل العلميّ وحده يشرح كلَّ شيء، أو بالعكس لا يقرّون مطلقاً بأيّة حقيقة ثابتة بصورةٍ نهائيّة. كما قد يبالغ بعضهم في تعظيم الإنسان إلى حدٍّ زعزعة الإيمان بالله منشغلين بتأكيد وجود الإنسان أكثر ممّا هم منشغلون بإنكار الله. ويتصوّر بعضهم الله بشكل يجعلهم يرفضون إلهًا لم يتكلّم عليه الإنجيل أبدًا. وثمّة أناس لا يتطرّقون حتّى إلى إشكاليّة وجود الله، بل لا يهتمّون بهذا الأمر البتّة ولا يريدون ذلك، فهم أقرب إن جاز التّعبير إلى تيّار «اللامبالاتيّة»[١٣]. وما قد يزعج العقل أيضًا في هذا الصّدد، هو أنّ ثمّة أناسًا ينكرون وجود الله جهارًا وتراهم يؤمنون أحيانًا بأيّ شيء آخر[١٤]، كالتّبصير والتّنجيم وعالم الغيب والسّحر والشّعوذة. أو يؤمنون بالله نظريًّا ويكفرون به في أعمالهم، وهذا- في اعتقادنا- لون من ألوان الإلحاد، لأنّهم يحيون وكأنّ الله غير موجود. وهنا يمكنني أن أفهم نيتشه حين

(٨) راجع، تيموثي رادكليف، (تعريب فراس ياقو يوحنّا) ما الغاية من أن يكون المرء مسيحيًّا، دار المشرق، بيروت، ٢٠١٠، ص ١٨٤.

(٩) (ت م م ك) ، ١٦٠.

(١٠) المرجع نفسه، ١٤٤.

(١١) راجع، دستور عقائديّ في الوحي الإلهيّ (و ل) ٥.

(١٢) راجع، يوحنّا قمير، نيتشه نبيّ متفوّق، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦، ص. ٣٠-٣١.

(١٣) راجع، ك ع، ١٩.

(١٤) راجع، تيموثي رادكليف، (تعريب فراس ياقو يوحنّا) ما الغاية من...، ص. ١٧٥.

قال: «المسيحيّون بعد لا يعملون بتعاليم المسيح، ولا يعلمونها. واحد كان مسيحيًّا وقد مات على الصّليب»(١٥). إلاّ أنّ هذا لا يبرّر المواقف الإلحاديّة الضّالّة والمضلّة من أيّة جهة أتت.

زد على ذلك، مسألة الاكتشافات العلميّة المذهلة، والتّطوّرات التّكنولوجيّة السّريعة التي تفاجئ العالم كلّ يوم وتضع المؤمن على مفترق طرق جديد، أمام ثنائيّة استعمالها وكيفيّة الإفادة منها بطريقة تتآلف والمبادئ الإيمانيّة والضّميريّة والأدبيّة التي نشأ عليها. إنّها تحدّ لا يستهان به، إذ أصبحت وسائل الإتّصال الاجتماعيّ سهلة المنال والاستعمال، لا تستخدم لدى أكثر النّاس إلاّ في بُعدها الأفقيّ، من دون أن يبقى للبعد العاموديّ- الإلهيّ، إلاّ القسط الضّئيل منها.

كما أنّ العولمة التي تجرف البشريّة بتيّاراتها الجديدة بالرّغم من بعض حسناتها، تكاد مخاطرها تزجّ بالعالم أجمع في بوتقة ثقافة عالميّة مادّيّة، بعيدة في أكثر الأحايين، عن الإيمان بيسوع المسيح والحقائق الإيمانيّة الكاثوليكيّة الثّابتة، ممّا يخلّف تداعيات كثيرة، منها: تراجع القيم العائليّة والمسيحيّة والإنسانيّة، ونشر الإباحيّة الوقحة، والمتاجرة بالمرأة، ومضاعفة تفشّي إدمان المخدّرات والقمار والكحول، ووحشيّة التّزاحم الاقتصاديّ الجشع، والاستهلاكيّة المادّيّة المذلّة، حيث ترى الإنسان سلعة وأداة استهلاك.

وماذا نقول أخيرًا عن البدع العديدة التي تنتشر في عالمنا كسرعة البرق، وتعيث فسادًا إيدولوجيًّا وإيمانيًّا وفكريًّا وانحرافيًّا وسلطويًّا؛ كالماسونيّة، والعصر الجديد، وشهود يهوى، وعبدة الشّيطان... ناهيك عن التّحوّلات الجيو-ديموغرافيّة التي تسبّبها الحروب والنّزاعات التي لا تنتهي، والاضطهادات الدّينيّة والعرقيّة، والتّعصّب الدّينيّ والسّياسيّ والتّحزّبيّ، ومعضلة رفض الآخر المختلف، وأثرها السّلبيّ على الإيمان في عالم اليوم.(١٦)

خلاصة

إنّ عصرنا اليوم هو بأمسّ الحاجّة إلى إعادة معرفة عظمة الله والإقرار بحبّه، ومبادلته الحبّ عبر احترامنا لصورته ومثاله، أي الإنسان. وكم جدير بنا أن نحيا بالشّكران لله ولفضل نعمه علينا. والإقرار نظريًّا وتطبيقيًّا بوحدة العائلة البشريّة، والمساواة بين جميع البشر من حيث الكرامة الإنسانيّة، وحسن استخدام الكائنات الحيّة والأشياء المخلوقة، ووضع الثّقة المطلقة بالله، والإلتزام بوصاياه وتعاليمه.

وما الإيمان في الختام، بحسب الطّوباويّة الأم تريزيا دي كلكوتا، إلاّ ثمرة الصّلاة؛ وما الحبّ إلاّ ثمرة الإيمان.(١٧)



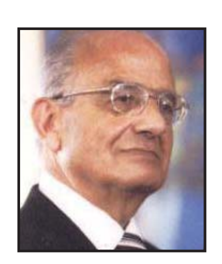
المراجع

- التّعليم المسيحيّ للكنيسة الكاثوليكيّة، التّرجمة العربيّة: المكتبة البولسيّة — جونيه، لبنان، ١٩٩٩.
- المجمع البطريركيّ المارونيّ، النّصوص والتّوصيات، بكركي، ٢٠٠٦،
- المجمع الفاتيكانيّ الثّاني، الوثائق المجمعيّة، نقلها إلى العربيّة يوسف بشارة، عبده خليفة، فرنسيس البيسري، طبعة ثالثة منقّحة، [د.م.]، ١٩٨٩.
- رادكليف، تيموثي: ما الغاية من أن يكون المرء مسيحيًّا، (تعريب فراس ياقو يوحنّا)، دار المشرق، بيروت، ٢٠١٠.
- قمير، يوحنّا: نيتشه نبيّ متفوّق، دار المشرق، بيروت، ١٩٨٦؛
- Mère Teresa: *Un chemin tout simple*, (traduit de l'anglais par Frances Georges-CATROUX et Claude NESLE), Plon/Mame, Londres, 1995.
- RAHNER, Karl: *Vivre et croire aujourd'hui*, (traduit de l'allemand par Jean EVRARD et Henri ROCHAIS), Desclée De Brouwer, Paris, 1967.

(١٥) راجع، يوحنّا قمير، نيتشه...، ص. ٣٠-٣١.

(١٦) راجع، المجمع البطريركيّ المارونيّ، النّصوص والتّوصيات، بكركي، ٢٠٠٦، ص. ٥٣٢-٥٤٣.

(١٧) Cf. Mère Teresa, *Un chemin tout simple*, (traduit de l'anglais par Frances Georges-CATROUX et Claude NESLE), Plon/Mame, Londres, 1995, pp. 63-79.



د . أنطوان يوسف صفير

في ظلال السّيوف وعلى أسنّة الرّماح
الطّريق الى الإسلام .. خوارق أم معجزات؟!

المحطّة الأولى

بوحي والهامات من أشدّ التّيّارات الدّينيّة التوحيديّة تصلّبًا، خرجت جيوش المسلمين تفتح المدائن والبلدان وسط ذهول ودهشة عوالم ذلك الزّمان. وتتساقط الأمصار تتلى كأوراق الشجر أوان عصف ريح عاتية. وينكشف غبار الفتوحات عن واحدة من أعظم الأمبراطوريّات وأوسعها رقعةً تمتدّ من نهر الغانج المقدّس في سهوب الهند- يرتاح على أقدام جبال حملايا في قارّة آسيا، وصولاً الى جنّات إسبانيا العريقة في أوروبا. خمسة قرون تمضي مثقلةً بالأمجاد.. وفي أواخر أزمنة المجد تنقضّ جحافل التّتر والمغول، وينقشع غبار المعارك والحروب عن مليون جثّة تؤرّخ ذاكرة القدر والمصير.

خطبة الوداع (١٠ هجريّة)

ألقاها الرّسول (صلعم) في حجّة الوداع يوم عَرفة من جبل الرّحمة وقد نزل فيه الوحي مبشّرًا أنّه «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا.

الحمد للهّ نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيّئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضلّ له ومن يضلّل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله الاّ الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمّدًا عبده ورسوله.

أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثّكم على طاعته وأستفتح بالّذي هو خير. أمّا بعد أيّها النّاس إسمعوا منّي

أبيّن لكم فإنّي لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا في موقفي هذا.

أيّها النّاس إنّ دماءكم وأعراضكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربّكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا- ألا هل بلّغت أللّهمّ فاشهد، فمن كانت عنده أمانة فليؤدّها إلى من إئتمنه عليها.

وإنّ رِبا الجاهليّة موضوع ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون وقضى الله أنّه لا ربا. وإن أوّل ربًا أبدأ به عمّي العبّاس بن عبد المطلب. وإنّ دماء الجاهليّة موضوعة، وإنّ أوّل دم نبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وإنّ مآثر الجاهليّة موضوعة غير السّدانة والسّقاية والعمد قود وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير، فمن زاد فهو من أهل الجاهليّة- ألا هل بلّغت اللّهمّ فاشهد.

أمّا بعد أيّها النّاس إنّ الشّيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، ولكنّه قد رضي أن يطاع فيما سوى ذلك ممّا تحرقون من أعمالكم فاحذروه على دينكم، أيّها النّاس إنّما النّسىء زيادة في الكفر يضلّ به الّذين كفروا يحلّونه عامًا ويحرمونه عامًا ليوطّئوا عدّة ما حرم الله فيحلّوا ما حرّم الله ويحرّموا ما أحلّ الله. وإنّ الزّمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السّماوات والأرض، وإنّ عدّة الشّهور عند الله إثنا عشر شهرًا في كتاب الله يوم خلق الله السّماوات والأرض، منها أربعة حرم ثلاثة متواليات وواحد فرد: ذو القعدة وذو الحجّة والمحرّم ورجب مضر الّذي بين جمادى وشعبان- ألا هل بلّغت اللّهم فاشهد.

أمّا بعد أيّها النّاس أن لنسائكم عليكم حقًّا ولكم عليهن حقّ. لكم أن لا يواطئن فرشهم غيركم، ولا يدخلن أحدًا تكرهونه بيوتكم إلاّ بإذنكم ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإنّ الله قد أذن لكم أن تعضلوهنّ وتهجروهنّ في المضاجع وتضربوهنّ ضربًا غير مبرّح، فإن إنتهين وأطعنكم فعليكم رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف، واستوصوا بالنّساء خيرًا، فإنّهنّ عندكم عوان لا يملكن لأنفسهنّ شيئًا، وإنّكم إنّما أخذتموهنّ بأمانة الله واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله فاتّقوا الله في النّساء واستوصوا بهنّ خيرًا- ألا هل بلّغت... اللّهمّ فاشهد.

أيّها النّاس إنّما المؤمنون إخوة ولا يحلّ لأمرىء مال لأخيه إلاّ عن طيب نفس منه- ألا هل بلّغت اللّهمّ فاشهد.

فلا ترجعن بعدي كافرًا يضرب بعضكم رقاب بعض، فإنّي قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلّوا بعده: كتاب الله وسنّة نبيّه، ألا هل بلّغت... اللّهمّ فاشهد.

أيّها النّاس إنّ ربّكم واحد. وإنّ أباكم واحد كلّكم لآدم وآدم من تراب. أكرمكم عند الله اتقاكم، وليس لعربيّ على عجميّ فضل إلاّ بالتّقوى- ألا هل بلّغت... اللّهمّ فاشهد. قالوا نعم- قال فليبلّغ الشّاهد الغائب.

أيّها النّاس إنّ الله قد قسم لكلّ وارث نصيبه من الميراث ولا يجوز لوارث وصيّة، ولا يجوز وصيّة في أكثر من ثلث، والولد للفراش وللعاهر الحجر. من ادّعى إلى غير أبيه أو تولّى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والنّاس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل. والسّلام عليكم». *

لقد حفظ لنا التّقليد كلام الرّسول هذا في خطبة الوداع هذه الّتي ألقاها في أعقاب رحلة الحجّ الأخيرة له إلى مكّة. تسمّى هذا الحج بإسم حجّة التّبليغ تيمّنًا بكلام الرّسول: أللّهمّ أشهد أنّي قد بلّغت. وعلى العموم فلقد عرف هذا الحجّ بحجّة الوداع حيث جاء موت الرّسول مباشرةً بعد عودته من رحلة الحجّ هذه. لقد عاد الرّسول في الواقع من هذا الحجّ منتصرًا ومصابًا بمرض عضال ألمّ به ، وأيّامه على الأرض محصيّة معدودة . مع ذلك رأيناه منكبًّا ومنهكًا في إعداد جيش كبير يزحف به المسلمون يدقّون أبواب بيزنطيّة ويدكّون أسوارها العاتية. أبو بكر وعثمان يتقدّمان طلائع جيوش المسلمين. الموت يعجّل خطاه ويودي المرض العضال بالنّبي الرّسول فيفارق الحياة في غرّة حزيران ٦٣٢ م. وفي غياب أيّة ترتيبات أو توصية أو تنظيم مسبق بشأن الخلافة.

مات الرّسول بين يدَي أعزّ زوجاته. هنا إنتهت مسيرة حياته وأطلّت طلائع حياة الخلفاء القادمين بعده، ولكن على قرقعة السّلاح وسنان الرّماح والسّيوف والإغتيالات.

الفوضى العارمة تجتاح «**المدينة**». أبو بكر يؤازره عثمان يحظى بتأييد أهل «**المدينة**» فيصبح أوّل الخلفاء والى يمينه عثمان. وكان من أمر حنكة هذين الرّجلين أن تمكّن المسلمون من تخطّي حدث غياب الرّسول المؤسّس.

بدايات ربيع السّؤدد والمجد

أبو بكر لم تسكره السلطة ولم يغرّه المجد. ظلّ يبيع الأقمشة في سوق العطّارين. في مثل هذه الأجواء وبمباركة منه إنطلق القادة بجيوش المسلمين إلى ساحات «**الجهاد**» ضدّ سوريا، وكانت هذه واحدة من المقاطعات ضمن الأمبراطوريّة البيزنطيّة. وفي فورة حماس منقطع النظير يندرج في باب الخوارق أو الغرائب أو المعجزات، إندفعت جيوش المسلمين تخترق البلدان من الطّرف إلى الطّرف مكتسحةً أراضي الأمبراطوريتين المتهاويتين: الأمبراطوريّة الفارسيّة والأمبراطوريّة البيزنطيّة. وتوالت الإنهيارات الصّاعقة في موجات تسونامي ذلك العصر: سوريا تسقط عام ٦٣٥. فلسطين وبلاد ما بين النّهرين عام ٦٤٠ بلاد فارس الشّاسعة عام ٦٤٣.تريبوليتان أو ليبيا اليوم عام ٦٤٧، ثمّ جزيرة قبرص عام ٦٤٩. تتمّ كلّ تلك الفتوحات وتنجز فقط في أربعة عشر عامًا.

ويموت أبو بكر ميتة ربّه بعد عامين من الحكم ، وتهبّ رياح طلائع تسونامي جديد من نوع جديد: من تسونامي الفتوحات المذهلة إلى تسونامي قرع طبول حرب الأخوة في الدّين في مشهديّة فيلم الإغتيالات. ولكأنّ قايين بُعث هنا من جديد. هذه الدّولة الإسلاميّة الطّريّة العود، يستولي على مقاليد الحكم فيها أحد ألدّ القادة وأشدّهم مراسًا وصلابة: عثمان يبدأ حكمه سنة ٦٣٤. في سنة ٦٣٨، تفتح أورشليم أبوابها ويدخل عمر إليها، ويتمّ توقيع صكّ الاستلام «ضامنًا» للمسيحيّين حياتهم وممتلاكاتهم لقاء خضوعهم ودفعهم الجزية. في أثناء خلافة عمر حصلت أولى بدايات ترسيم دستور لدولة عربيّة ترسو على قواعد تنظيم عسكريّ: يتولّى حكم المقاطعة القائد العسكريّ الّذي إفتتحها وهو الّذي يرئس الصّلاة ويقضي بالعدل بإسم الخليفة. في هذه الإجراءات إستعادة بل استمرار لتقاليد قديمة في معظم الأديان عند المصريّين والهندوس والعيرانيّين. وهنا التّقليد الإسلاميّ جعل من عمر مثالاً متقدّمًا لما يجب أن يتّصف به الخليفة من قيم فيكون مرهوبًا أكثر منه محبوبًا.

خريف الغدر والإغتيالات

ومات عمر إغتيالاً على يد أحد عبيده في أواخر سنة ٦٤٤ ودفن كما قبله أبو بكر إلى جانب النّبيّ. مع عمر بدأ التّاريخ بحسب التّقويم الإسلاميّ وهجرة الرّسول.

(*) بسيوني، محمود شريف، الوثائق الدّوليّة المعنيّة بحقوق الإنسان، المجلّد الثّاني، دار الشّروق، القاهرة، ٢٠٠٣. وقد نشرت هذه الوثيقة بتصريح من المعهد الدّوليّ لحقوق الإنسان بجامعة دي بول شيكاغو.

يتعيّن عثمان- الرّجل الضّعيف وصهر الرّسول، خليفةً على المسلمين على يد لجنة تحكيم مــن ستّة أعضاء، ويدوم حكمه من ٦٤٤ إلى ٦٤٦ ليقضي نحبه مغتالاً كما قبله عمر. وهكذا في دوّامة الإغتيالات تستمرّ نشأة الإسلام في ظلال السّيوف وعلى أسنّة الرّماح والإغتيالات. في عهد الخليفة عثمان هذا تعمّمت نصوص القرآن.

وتعطى القوس باريها وينصّب عليّ إبن أبو بكر وصهر النّبي خليفة في «**المدينة**» سنة ٦٥٦ على غير رغبة منه، وهاجس الإغتيالات يؤرّقه وشبح الموت والدّم يقضّ مضجعه وخيال عثمان المغدور يلاحقه كظلّه.. كيف لا وقميص عثمان المضرّجة منشورة تعصر دمًا تلوّح بها الرّيح في أعلى عتبة من جامع دمشق، وهي تذكّر أفواج المؤمنين الدّاخلين حرم الجامع بالجريمة الوحشيّة النّكراء وتخضّ أعماق اللاّوعي عندهم بطلاسم واحجيات هذا القدر الأسود المحتّم. وما زاد في معميّات هذا القدر أنّ عليًّا رغم مساعيه الشّريفة لإبعاد كأس الإغتيال عن عثمان وتوجّسه من شبح الموت الحائم حول دار الخلافة، لقد قبل بالخلافة كحكم قدر، خاصّةً وأنّ من ناصروه ودعموه هم أنفسهم بالذّات من إغتالوا عثمان.. وفي هذا ما ألقى الشّبهة عليه متورّطًا، وإذا بجموع من المسلمين يتألّبون عليه فيحملون السّلاح بوجهه، وبين هؤلاء- يا لهول القدر!- عائشة ذات الشّأن والإقتدار وصاحبة المنزلة المتقدّمة في تقرير شؤون المسلمين: أليست هي أرملة النّبي و«**أمّ المؤمنين**» دعيت؟!

نحن ما زلنا في سنة ٦٥٦. معركة طاحنة تتفجّر بين جيش عليّ وجيش عائشة. إنّه «**يوم الجَمل**» في الوادي المعروف بهذا الإسم. وينقشع غبار الحرب عن ثلاثة عشر ألف جثّة تغطّي أرض المعركة. وهذا عليّ العليّ بروحه، السّموح بطبعه.. يخلي سبيل عائشة ويأمر بعودتها إلى «**المدينة**» في شبه إقامة جبريّة مراقبة، فانكفأ بذلك بين المسلمين نفوذها وتأثيرها.

إلى جانب عائشة أعداء آخرون لعليّ يتربّصون به، فيقضي السّنوات الأخيرة من حكمه في خضمّ النّزاعات والمعارك، وأشباحُ الإغتيالات تلاحقه إلى سنة ٦٦١، ويسقط عليّ صريعًا بسيف أحد المسلمين داخل جامع الكوفة. وكانت الفاجعة الكبرى وما تساقط من رذاذها عبر الأجيال وإلى الدّهر. وإن كان من مآثر لبعض البشر في بعض الفاجعات العظمى، فالإمام عليّ في قمّة مجد هؤلاء: قبل أن يفارق الحياة مغدورًا، ظلّ عليّ وفيًا لمآثر طبعه وفضائله، وفيما هو يلفظ أنفاسه الأخيرة في ولاية حكم قصير المدّة مأساويّ القدر، رفض هذا الرّجل المشعّ سماحًا وصفحًا أن يأمر بالثّأر من قاتليه. ولقد تجلّى ميتًا أقوى هيبةً منه حيًّا، وأشدّ تأثيرًا والهامًا منه غازيًا فاتحًا.

ولقد رأى فيه الفارسيّون في ما بعد منقذًا وفاديًا مخلّصًا وبطلاً ملهمًا قائدًا في حروبهم ضدّ أبناء دينهم من العرب.

في سنة ٦٧٩ حصلت الفرقة والإنفصال: الفرق الشّيعيّة الموالية لعليّ، خاصّةً الفارسيّة منها، تنفصل عن الأكثريّة السنّيّة من تابعي السنّة والمدافعين عن الأرثودكسيّة القرآنيّة. وكان السّقوط العظيم، في التّجربة. مات عليّ في السّتّين من عمره، وبموته تفاقمت الصّراعات الحادّة، وإذا بالحكم والسّلطة ينتقلان إلى عائلة «**بنواميّة**» أو الأمويّين.. «**معاوية**». العدوّ الألدّ لعليّ، عمل سابقًا كاتبًا في جماعة النبيّ، وها هو يصبح الخليفة الخامس له ويتخذ من مدينة الشّام في سوريا المزدهرة عاصمةً له. من مناخ الصّحراء المجدب القاحل إلى مناخات الرّفاه والبحبوحة والإخضرار في نعيم غوطة دمشق الضّاحكة المترعة بحضارة البيزنطيّين وثقافتهم، بيزنطية، «**عين المشرق قاطبة**». كلّ هذه الأنعام شحذت وليّنت قساوة طابع الإسلام وطبيعته، على ما يكتنز من قيم وشيم المنشأ والأصل. هنا، في هذا المشرق وفي كنف غوطة دمشق الثّريّة وقبل أحد عشر قرنًا ولدت وبرعمت أولى قطوف حوار الثّقافات وتلاقي الحضارات على ما اعتورها من آلام المخاض وتعثّر الولادات. ليس أقلّ الشّواهد في ذلك زواج معاوية المتفلّت طباعًا من امرأة مسيحيّة وإسناد مراكز عليا في مسؤوليّات إدارته إلى موظّفين غير مسلمين، كما أنّه غمر الشّعراء والكتّاب بفيض كرمه وعطاياه وهم طبقة المغمورين المنسيّين سابقًا في زمن الرّسول. ومن غريب إنجازات معاوية أنْ صنع من سكّان الصّحراء بحّارة يلاعبون أقدار طموحاتهم فوق أمواج اليمّ. معاوية هذا بنى المراكب والسّفن الحربيّة وخرج بجيش المسلمين في معارك بحريّة ضدّ بيزنطيه بالذّات. دام حكم الأمويّين تقريبًا سحابة قرن بكامله. أقاموا المساجد. شيّدوا الجوامع الرّائعة بهندسة قببها أمثال قبّة الصّخرة في أورشليم القدس، واستغرق

بناؤها من عام ٦٦٩ إلى ٦٩١ م. كما الجامع الكبير في دمشق الشّام في أعوام ٧٠٦ - ٧١٤ - ٧١٥ م.

تمثّل الأمويّون بالأباطرة البيزنطيّين، فعاشوا حياة البذخ والرّخاء، ويذكر المؤرّخون أنّ الخمر والمسكّرات وألعاب الميسر والشّطرنج أنهار جارية في أروقة بلاط الخليفة، تغذّيها روافد الرّاقصين والرّاقصات والموسيقيّين والفنّانين أصحاب الحظوة والمكانة. الحلفاء الأمويّون توسّعوا في فتوحاتهم إلى ما بعد بعد تركستان ووادي الأندوس في سفح جبال حملايا وامتدّت غزاواتهم حتّى تخوم الصّين، وأحكموا قبضتهم على شمال أفريقيا، ومن هناك توسّعوا فاحتلّوا إسبانيا في غرّة ٧١١ م. وبدأوا الزّحف باتّجاه فرنسا عبر مضائق جبال البرينّه.

المحطّة الثّانية

من جامع الكوفة.. رذاذ لعنة الدّم وبدايات الإنهيار؟!

.. وذات يوم، وفي غفلة من عمر السّنين ونشوة الإنتصارات، تتنزّل اللّعنة: لعنة الدّم المغدور آتيةً من صحن جامع الكوفة عبر سحب السّنين، ويبدأ يتهاوى المجد ويسقط العرب منهزمين أمام بيزنطيه. كان ذلك سنة ٧١٧. هنا يومذاك تسجّلت أول ضربة جزاء في شباك العرب الفاتحين، فكانت باكورة، كرّت بعدها سلسلة الضّربات. الضّربة - الهزيمة الثّانية لم تتأخّر أكثر من خمس عشرة سنة. في ٧٣٢ وفي مرور المئويّة الأولى لوفاة الرّسول، جاءت الضّربة الكارثة الثّانية تحت مطرقة Charles Martel، قائد جيش الفرنجة، في الأراضي الواقعة بين مدينتي Poitiers وTours الفرنسيّتين. ومن مرويّات تاريخ ذلك الزّمان أنّ لفظة Martel وتعني في الفرنسيّة القديمة «المطرقة»، قد أعطيت لقبًا لقائد جيش الفرنجة المنتصر شارل.

بعد نعيم السّؤدد والأمجاد، ها هي جيوش المسلمين تنهزم مرّةً ثانيةً وتنسحب من أرض فرنسا في صقيع شتاء برد قارس لم يحتاطوا له في اللّباس ولا في العتاد، الى جانب توجّسهم من تفوّق العدوّ عليهم عدّةً وعديدًا. وما زاد في بلواهم نزاعات في ما بينهم، وخصومات ومعارك في تقاسم مغانم الغزوات والحروب. وتوالى الإنسحاب من الأراضي الفرنسيّة مدينةً بعد مدينة، ومع الإنسحاب بدايات تداعي السّلالة الأمويّة في شبه هزّة أرضيّة تمادت زلزلتها من حدود أفريقيا إلى بلاد الفرس حتّى آسيا الوسطى.

ويموت الخليفة الأمويّ هشام عاشق التّرف والطّرب وسباق الخيل، ويستلم الخلافة بعده وليد الثّاني: خليع هاتك ماجن فاسق. في عهده تتسارع الإنهيارات والدّمار. ويقتل الوليد في سنة ٧٤٤، وبقتله تدخل الأمبراطوريّة الأمويّة من جديد ولستّ سنوات متتالية، متاهات الفوضى والأنارشية، فيرتسم خطّان للمقاومة في وجه الإسلام:

الخطّ الأوّل في آسيا الصّغرى حيث بيزنطيه في صراع الموت للمحافظة على مواقعها،

والخطّ الثّاني في شمال إسبانيا حيث ما زالت متواجدةً بعض الممالك المسيحيّة الصّغيرة.

في خلفيّة مشهديّة هذه الفواجع والإنكسارات، يطلّ من خلف حجاب السّنين خيال شبح الفاجعة البكر: مقتل عليّ في سنة ٦٦١، ويلقي بظلّه الغاضب النّاقم على مساحة أمبراطوريّة الأمويّين بكاملها.

وهنا لا بدّ من القول أنّه وبنتيجة التّفكير والتّفكّر والتّحليل، فإنّ مقتل عليّ ودمه المسفوك يشكّلان المقدّمة البعيدة في الزّمن لأسباب الإنحلال في دولة الأمويّين ونهاية حكمهم المذرية. ذاك أنّه في غرّة سنة ٧٤٧ يترجّل إلى السّاح أبو مسلم، وهو في الأصل عبد فارسيّ كان قد اشتراه في أسواق مكّة رئيس قبيلة بني قريش. أبو مسلم هذا قاد ثورة بلاد الفرس للإطاحة بالأمويّين وإحلال العبّاسيّين مكانهم وهؤلاء متحدّرون من سلالة العبّاس عمّ الرّسول.

الغضب السّاطع والثّأر المبين

في سنة ٧٥٠ يلتحم الجيشان في معركة فناء وإفناء على ضفاف الفرات في شمال العراق: جيش الأمويّين وجيش العبّاسيّين. **من غرائب المفارقات في هذه الحرب أنّ العبّاسيّين، وهم من غير الشّيعة، قاموا بنشر الألوية السّوداء وارتدوا قمصانهم السّود ووشّحوا بالأسود الخيل والمطايا حدادًا على استشهاد عليّ وصحبه على يد الأمويّين.**

ولنا اليوم أن نتوقّف في برهة تأمّل واتّعاظ لنقول:



محمّد وأنصاره في معركة بدر.



النّبي يسلّم سيف الإسلام إلى صهره علي، الذي انضمّ باكرًا إلى الدعوة، واغتيل سنة ٦٦١.

أوليس في كلّ هذه الظّواهر البدئيّة علامة فارقة من علامات سيكولوجيّة العرب وقد توارثوها كمثل غيرها خلفًا عن سلف في أقبية اللّا وعي من شخصيّتهم وفي ذاكرة موروثهم الجينيّ. أليس هنا يكمن سرّ رواسب انحطاطهم وتقهقرهم وانقساماتهم وعدم توحّدهم؟!

وتمضي ثمانية أيّام وحربٌ ضروس تدور رحاها بين العسكرين. وفي اليوم التّاسع يتجلّى غبار المعركة عن هزيمة الأمويّين وسحقهم، وقد لاذوا بالفرار هاربين عبر الفيافي. ويمضي وقت قصير وتسقط دمشق الأمويّة بالذّات، ويعلن أبو العبّاس نفسه خليفةً على المسلمين. وينقلب المشهد. راح العبّاسيّون يثأرون لدم عليّ بأبشع الأساليب وبطرق قلّ نظيرها.

قبور الخلفاء الأمويّين تنبش. بقايا جثامينهم المطمورة المهترئة تجرف. تقطّع إربًا إربًا. يُمثَّل بها في الشّوارع ويرمون ببقاياها في لهيب النّار.. أهكذا توارث العرب فنون الثّأر من ذواتهم حتّى جنون الإنتحار؟

العبّاسيّون في سدّة الخلافة

من سنة ٧٥٠ إلى ١٢٥٨ إنتقل مركز السّلطة في الإسلام إلى السّلالة العبّاسيّة.

وها هي بغداد العاصمة الأولى للمسلمين تزهو بأبهى حلل الحضارة والفنّ والثّقافة، **يغلب عليها طابع الألوان الإيرانيّة.** وحدها إسبانيا تُركت لحالها في يد الأمويّين، فركّزوا فيها سنة ٧٥٦ إمارة مستقلّة مع مدينة قرطبة عاصمة لها وحاملة لواء عزّة مجدها وغنى حضارتها. وجاءت قمّة المجد هذا في عهد عبد الرّحمن الثّالث (٩١٢ — ٩٦١) .

وتعود بنا كاميرا التّاريخ وعظاته إلى مدينة بغداد، وقد تحوّلت إلى حاضرة إشعاع فنّيّ ثقافيّ لا يشقّ لها غبار بفضل كوكبة من الخلفاء المتنوّرين، المأخوذين بأشياء الفنّ وجماليّات العمارة

في الحجر والفنّ والأدب والعلم. بنوا القصور العلالي والبرك والجنائن المعلّقة والفناءات الزّجاجيّة، وهذه قبل فناءات قصر فرساي في فرنسا بقرون عديدة.

وتنقل لنا إحدى المرويّات أن كان في أحد قصور الخلفاء بهو كبير شاسع تتوسّطه بركة كبيرة لعلّها بركة المتوكّل الّتي وصفها البحتري بقوله:

«تنصبّ فيها وفود الماء معجّلةً
كالخيل خارجةً من حبل مجريها.»

في وسط البركة تسمو شجرة باسقة، أغصانها من ذهب وفضّة. أوراقها من أحجار كريمة مشغولة بإتقان ترتجف في الهواء وحفيفها حفيف أوراق الشجر في نسيمات العشيّة، حطّت عليها عصافير من ذهب تشدو وتزقزق على مدى ساعات الليل والنّهار.

العصر الذّهبيّ في بغداد إمتدّ من ٧٦٢ الى ١٠٥٥، إختصر مجده الخليفة هارون الرّشيد وقد حكم من ٧٨٦ إلى ٨٠٩. وجسّد هذا القصر واقع حلم أسطورة ألف ليلة وليلة. أقام هارون الرّشيد علاقات مع شارلمان حليفه ضدّ بيزنطيه. ولاية حكم هارون الرّشيد شكّلت قمّة نفوذ العبّاسيّين وسطوتهم: عزّ وبحبوحة، سلم وأمان، إزدهار في الأدب والفنون. ولكنّ في عهد العبّاسيّين أيضًا، بدأ يتقلّص إنتشار الإسلام ولم يستطع الخلفاء العبّاسيّون الحؤول دون تسرّب الوهن والتّفسّخ في جسم العالم الإسلاميّ: فالخلافة خلافات متناحرة وضاعت في غبار الأنانيّات مضامين خطبة الوداع في الحجّة الأخيرة: «كلّ مسلم أخ للمسلم وأنّ المسلمين إخوة».

بعد كسوف شمس عهد هارون الرّشيد، أخذ خلفاء بغداد يشعرون بتداعي سلطانهم لحساب الولاة المحلّيّين ممّن راحوا يركّزون إستقلاليّة سلطتهم خارج السّلطة المركزيّة ، ووصل بهم الأمر إلى ضرب العملة وصكّها باسمهم الشّخصيّ. هذا وأبعد، أبعد من بغداد هناك إسبانيا الأمويّة باقية أمويّة. وهذا هو عبد الرّحمن وقد نجا من مجزرة طالت أفراد أسرته ينتقل في ٧٥٨ إلى قرطبة ويستقلّ بحكمها. أمّا مراكش المغرب فتكون من حصّة إدريس بن عبد الله، أحد أحفاد عليّ، فيؤسّس فيها السّلالة الإدريسيّة (٧٨٨- ٩٧٤). أمّا مصر فتبادر إلى إعلان الإنفصال لتصبح خلافةً مستقلّةً مع القاهرة عاصمة لها، وتحت حكم الفاطميّين، وهم سلالة تدّعي تحدّرها مباشرةً من فاطمة بنت الرّسول المفضّلة لديه.

وأبعد من مصر تبقى مقاطعة خرسان وقلبها النّابض أفغانستان اليوم، وكان يحكمها في العام ١٠٠٠ م. محمود غزنا (٩٦٩-١٠٣٠)، فقد أصبحت دولة قويّة ذات سيادة. محمود هذا كان مولعًا بفنون العمارة والبناء وحقّق المعجزات، ولكنّ غياب مشاريع التّنقيب والحفريّات أفقد التّاريخ ذكر روائع الفنّ الغزناويّ. إنّما تنقل لنا بعض النّصوص أنّ المسجد الكبير الّذي أمر محمود ببنائه والمسمّى «عروسة السّماء» كان يضمّ روائع الفنّ والزّخرف والحجارة الضّخمة وصخور الرّخام والمرمر حملها معه من الهند إثر غزاوته المتكرّرة. وكانت مملكة محمود تمتدّ إلى الشّرق حتّى حدود الأمبراطوريّة العبّاسيّة في زمن بدايات الهجرة الكبيرة صوب الغرب لمجموعات من الشّعوب التّرترو مغوليّة. أحد فروع هذه الشعوب: التّرك إستوطنوا خرسان وشاركوا في الحروب الغزناويّة وأصبحوا حكّامًا لبعض المقاطعات الخاصّة في تلك البقاع الواسعة.

وأمّا محمود فقد سيطرت جيوشه على كامل الأمبراطوريّة العبّاسيّة وقامت لاحقًا بصدّ هجمات التّرك الزّاحفة من الشّرق فيما الخلافة العبّاسيّة المتهالكة إقتصرت سيطرتها على رقعة ممتدّة على طول نهريّ دجلة والفرات إلى الشّمال من بغداد وصولاً إلى الخليج الفارسيّ في الجنوب من شيراز. وهكذا بسط محمود سيطرته على كامل البلاد الشّاسعة الممتدّة من بحر Gaspienne حتّى ضفاف نهر الغانج Gange بين الهند وباكستان.

ينتهي العهد المحموديّ. وفي ١٠٥٥ تجتاح خرسان مجدّدًا آتيةً من آسيا الصّغرى، موجة أخرى من قبائل البدو عرفوا بالأتراك السلجوقيّين بقيادة طغرل بك، ما لبثوا أن استولوا على بغداد. وسمح طغرل بك للخليفة العبّاسيّ الضّعيف بالبقاء في بغداد وتتوّج هو سلطانًا مطلق الصّلاحيّات. ثمّ إنّ هؤلاء الأتراك السّلجوقيّين دخلوا في الإسلام وجهّزوا حملاتهم وزحفوا صوب القدس حيث اصطدموا بالصّليبيّين.

لكنّ... هبوب رياح السّهوب في آسيا استمرّ في اكتساح الأراضي الإسلاميّة الشّرقيّة. وها هي الموجة الثّانية من الغزاة الأتراك تصل بإتّجاه الغرب: إنّهم العثمانيّون.. في الجيل الرّابع عشر، يحتلّون أناطوليا وهو الإسم الآخر لآسيا الصّغرى، تركيا اليوم ويقيمون السّلالة العثمانيّة وقد است مرّت هذه السّلالة حتّى سقوط الأمبراطوريّة العثمانيّة ١٩٢٢.

وموجات الإجتياحات التّرترو- مغوليّة لم تتوقّف مع الزّمن. ففي سنة ١٢٥٨ تطلّ جحافل عسكر هولاكو الّذي خلف جينكزخان (١١٦٢- ١٢٢٧) تتقدّمها قاذفات النّيران فتجتاح حاضرة بغداد بسكّانها المليونين. وينجلي غبار المعارك وهمجيّة الإجتياح عن أبوكاليبتيّة مشهد مليون جثّة تفترش الأرض مقطّعةً مشوّهةً تفوح منها روائح النّتن والعفن تزكم أنوف الغزاة فيولّون هاربين... إنّها كانت ليلة الحشر ونهاية العالم.

وفي نهاية هذا البحث نقول:

هل كانت تلك بالنّسبة للعرب المسلمين يومذاك ليلة الحشر ونهاية العالم؟.. إن نعم- وهنا، للتّاريخ أن يتكلّم-، يبقى أنّ الإسلام كدين أو معتقد، لم تكن حقًّا تلك، بالنّسبة له، ليلة الحشر ولا نهاية العالم.. وهنا، للتّاريخ بعد أيضًا أن يتكلّم.

قُرطُبَة عاصمة الأَمويّين في إسبانيا، وإحدى أهمّ مرجعيّات الإسلام. بدأ البناء في مسجدها سنة ٧٨٥.

انتشار الإسلام: هذه الأمبراطوريّة الواسعة وصلت بين الهند والأطلنطي. تفتّتْ سريعًا وبقي الإسلام إلى انتشار من الهند، إلى تركستان إلى القارّةالسوداء.

الشعر الحديث والعولمة - أدونيس نموذجًا



د. ديزيره سقّال

١. مدخل:

لا يمكننا، في عصر العولمة أو عصر «النظام العالميّ الجديد» كما يحلو لبعضهم أن يسمّي المرحلة الراهنة، إلاّ أن نقول إنّ الشعر العربيّ بمفهومه التقليديّ قد سقط وانتهى، على الرّغم من تمسّك بعضهم به. وأسباب هذا السقوط كثيرة، أوّلها أنّ المفهوم الأساسيّ الذي بني هذا الشعر التقليديّ عليه- أي النمط المُسْبَق، والنموذج النهائيّ الماقَبليّ، والمنظور الحضاريّ الذي أنتجه- قد انتهى وأفلس ولم يعد قادرًا على احتواء التغييرات والتعقيدات الحضاريّة الجديدة. لهذا لا بدّ لنا، إذا أردنا أن نتناول العولمة وتأثيرَها في الشعر، من التوقّف عند الشعر الحديث دون سواه، لأنّه النموذج الوحيد المنطقيّ والطبيعيّ لهذه المرحلة.

ولكنْ حتّى هذا النموذج التعبيريّ قد دخل عليه تطوير نوعيّ، فعرف تحوّلاتٍ عميقةً سنتوقّف عندها تباعًا في هذه الدراسة، مُرَكِّزين على تأثيرات العولمة في النصّ الشعريّ المذكور.

٢. إشكاليّة العولمة وعالميّة الأدب:

لفظة العولمة هي تعريب لكلمة mondialisation الفرنسيّة التي يُقصَد بها جَعلُ الشيءِ عالميًّا، أو على مستوًى عالميّ، وبالتالي نَقله «من المحدود المُراقَب إلى اللامحدود الذي ينأى عن كلّ مراقبة. والمحدود هنا هو، أساسًا، الدولة القوميّة التي تتميّز بحدود جغرافيّة، وبمراقبة صارمة على مستوى الجمارك... أمّا اللامحدود فالمقصود به «العالم»...»[١] من هنا، فإنّ هذه الدعوة، إذا صدرت من طرف معيّن، كانت تعني فرضَ نمطه على الكلّ.

وقد ظهر مفهوم العولمة أوّلاً في مجال الاقتصاد، «للتعبير عن ظاهرة آخذة في التفشّي في العقود الأخيرة، ظاهرة اتّساع مجال... الإنتاج والتجارة ليشمل السوق العالميّة بأجمعها»[٢]. وعليه، فإنّ أوّل ظاهرة من ظواهر العولمة هو أن ينحصر النشاط الاقتصاديّ على مستوى العالم بيد «مجموعات قليلة العدد، وبالتالي تهميشُ الباقي أو إقصاؤه»[٣]. وإثباتًا لهذا، نجد اليوم خمسَ دول فقط هي الولايات المتحدة، واليابان، وفرنسة، وألمانية، وإنكلترة، تتوزّع محتكرةً مئةً واثنتين وسبعينَ شركة من أصل مئتين هي كبرى شركات العالم.

والعولمة تنطوي كذلك على إيديولوجيا خاصّةٍ بها، بل تتبنّاها تبنيًّا تامًّا، تقوم على «محاربة الذاكرة الوطنيّة والتاريخ والوعي بالتفاوت الطبقيّ وبالانتماء الوطنيّ والقوميّ...»[٤] وبالتالي تحارب الوعي الإيديولوجيّ لأنّه يمكن أن يواجهها.

لذلك فإنّ عالم العولمة عالم بلا دولة، ولا أمّة، ولا وطن. إنّه «عالم المؤسَّسات والشبكات»، وعالم فيه قلّة من «الفاعلين» تسيّر الجميع، وفيه كثرة غالبة من «المُنفَعلين» هم المستهلكون لكلّ ما يُفرَض عليهم. ووطنهم هو السَايبرسبايس (أو الفضاء السايبرنيتي)، أي الفضاء الذي تصنعه شبكات الاتصال، وفيه الاقتصاد والسياسة والثقافة.[٥]

وتتّسم العولمة بالسرعة الفائقة في التحوّل؛ وهي تحمل فيها النظام والفوضى في آن، بل إنّهما سمتان أساسيّتان فيها. «فالتناقض الذي تفرزه الظاهرة من جهة، وسرعةُ التحوّلات من جهة أخرى، تجعل النماذج الفكريّة المدرسيّة القديمة عاجزة عن فهمها وتحليلها والتنظير لها...»[٦] فالعولمة تشتمل

١. محمّد عابد الجابري، **قضايا في الفكر المعاصر**، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربيّة، ط١، ١٩٩٧، ص ١٣٦.

٢. المرجع نفسه، ص ١٣٩.

٣. المرجع نفسه، ص ١٤٠.

٤. المرجع نفسه، ص ١٤٣.

٥. المرجع نفسه، ص ١٤٨.

٦. الحبيب الجنحاني، **العولمة والفكر العربيّ المعاصر**، بيروت: دار الشروق، ط١، ٢٠٠٢، ص ٢٥

على جملة توجُّهات عالمية مستقبليّةِ البُعد، مهمةٍ جدًّا، إلاّ أنّها ليست متضامنةً ومتّسقة في جوهرها[٧]. لهذا السبب نجد بعض القوى العظمى تسعى إلى التنظير لإيديولوجيّة تسهم في تقديم نموذجها هي، وخصوصًا الولايات المتحدة- ولعلّ ظاهرة الرئيس السابق جورج بوش الابن تمثّل هذا. والعولمة تركّز على مفهوم الديمقراطية، لكنّها تحمل مفهومًا مطاطًا يمكن أن نوجهه إلى نقيضه.

على هذا، فإنّ ثقافةَ العولمة ليست متجانسةً بالضرورة، وعناصرَها متباينةٌ في عدد كبير من المسائل بفعل التنوّع الذي يدلّ على اختلاف الاتجاهات، «ولكنّ هذا الكيان غير المتجانس للثقافة لا يمنع من الحديث عن توجّهها العامّ».[٨]

وإذا عدنا إلى هموم الإنسان الحضاريّة والثقافيّة في كلّ مكان وجدناها متشابهة ومتداخلة، فالقضايا المختصّة «بسقوط الحتميّة التاريخيّة، وانفتاح التاريخ الإنسانيّ، وتحطُّم الأبنية الشموليّة السياسيّة أو الفكريّة، واتّساع دائرة الاختيار أمام البشر، فضلاً عن انتهاء طغيان العقائد الإيديولوجيّة الجامدة... ومجابهة تلوّث البيئة...» ومسائل الفقر والتكاثر السكّانيّ... كلُّها قضايا وهموم يعانيها الإنسان اليوم في كلّ مكان، ولا ترتبط بالعالم العربيّ حصريًّا.[٩]

لقد أسهمت العولمة في خلق انفتاحات على كلّ المستويات، وفي كسر الانعزالات بشتّى أنواعها، لأنّها تضع قيمَها الثقافيّةَ العالميّةَ في مواجهة القيم الثقافيّة المحليّة، أو القوميّة. هكذا «تُسهم خصوصيّة هذا الزمن في تحديد خصوصيّة ثقافتِنا العربيّة المعاصرة... لأنّها ثقافة تواجه مكوّناتها الذاتيّة المتعارضة في عالم يَنْبَني بدوره على تعارضات متكثّرة في سياقات متجاوبة لم تعد تسمح لطرف من الأطراف العالميّة بالانغلاق على نفسه، أو التقوقعِ داخلَ حدوده، أو الانكفاءِ على ماضيه»[١٠]. وسنعود إلى هذه المسألة لنقرأ انفتاحَ النصّ الشعريّ الحديث. من هذه النقطة نصل إلى مفهوم «عالميّة الأدب». فهذه النزعة وجدت ما يدعمها في العولمة. ولتوضيحِ هذه المسألة يمكننا أن نقول إنّ العالميّةَ الأدبيّةَ تعمل على مجاوزة أعمالٍ أدبيّة معيّنة... وتحويلها إلى أعمال مقروءة أو منتشرة في العالم كلِّه عن طريقِ الترجمةِ أو حتّى بلغاتها الأصليّة.[١١]

٣. الأدب الحديث والعولمة/ نقاط التقاطع:

لا بدّ لنا أوّلاً من أن نركّز على أنّ الحداثة كمفهوم وحالة، تمثِّلُ انفجارَ الفكرِ في حضارةٍ من نوع جديد، تختلف في جوهرها عن حضارةِ ما قبلَ الحداثة، وتتميّز أوّلاً بالمُدُن والتحضُّر والتحوّل التكنولوجيّ السريع، وبطابع المُغفَل، وبالرفض والتجديد المستمرّ. كما أنّها أتلفت العقل الذي أفرزته رواسبُ القمعِ التقليديّة في مفاهيم القيم، وطوّرت رؤيا خاصّة بها، منذ نيتشه وماركس، تُراوح بين مركزيّة الذاتِ في العالم، وبينَ تحرُّرِ الذات من المركزيّة مع نيتشه والعبثيّة والوجوديّة، وأخيرًا مع التفكيكيّين. وفي الحقيقة، فإنّ التاريخَ مع الحداثة، وخصوصًا معَ مرحلة العولمة، لم يعد أمرًا يتطوّر بصورة منطقيّة، لأنَّ كلَّ ما يهمّها هو الحاضرُ الملحّ على الإنسان. والإنسانُ اليومَ محاصَرٌ بالزمن، كما هو محاصر بالغياب المداهم. فهو مهمّ لا كفرد، بل كإمكانيّة للإنتاج في المقام الأول على كلِّ المستويات. إنّها مرحلة يدعوها بعضهم «مرحلة ما بعد الحداثة»، لأنّه ينظر إلى مفهوم «الحداثة» على النحو الذي عُرف في الغرب، وهو يشمل عصرَ الأنوار، في حين أنّ العصر الذي يليه هو، عنده، «ما بعد الحداثة». ونحن نقصد بالشعر الحديث شعر هذه المرحلة بالتحديد، لذلك فإنّ المصطلح الذي نستعمله هو مصطلح خاصّ، ويشمل مرحلتي الحداثة وما بعدها لأسباب لا مجال لذكرها هنا.[١٢]

٧. المرجع نفسه، ص ٢٦.

٨. جابر عصفور، **حوار الحضارات والثقافات**، بيروت: جريدة السفير — كتاب في جريدة، عدد ١٠١، ٣ كانون الثاني ٢٠٠٧، ص ٦.

٩. المرجع نفسه، ص ٨.

١٠. المرجع نفسه، ص ١٠.

١١. المرجع نفسه، ص ١٤.

١٢. يمكن الرجوع في هذا الموضوع إلى دراساتنا:
- حركة الحداثة، بيروت: منشورات ميريم، ١٩٩١.
- دراسة: الشعر والحداثة، مجلّة المشرق، تمّوز — كانون الأوّل، ١٩٩٣.
- دراسة: الشعر والتكنولوجيا، مجلّة الحكمة، عدد ٢٨، السنة ٣، تشرين الأوّل، ١٩٩٧.
- دراسة: الحداثة وما بعد الحداثة/ انفجار العقل، التشظّي واللاإنسان، مجلّة كتابات معاصرة، عدد ٤٢، تشرين الأوّل- كانون الأوّل، ٢٠٠٠.





والعقل الجديد يُفرغ الكون من سقفه المتعالي، ويدفع بالتجريب إلى أقصى الممكن. لقد أفرزت هذه المرحلة «ميلاً واضحًا وشديدًا إلى اللاانتماء السياسيّ والحضاريّ، وموقفًا سلبيًّا تجاه مختلف أشكال التوحيد العقلاني»[١٣]. وإذا أردنا أن نلحّ أكثر على مفهوم الحداثة وما بعدها بالمنظور الذي نتكلم عليه، وهو منظورُ مرحلة العولمة، أمكننا أن نقول إنّه يتمحور حولَ ما لا يمكن أنْ يكونَ ثابتًا من الناحية العلميّة والعقليّة. إنّه مرحلة فلسفة «الكاوس» (فلسفة الفوضى). والكاوس، تحديدًا، هو «منظومة ديناميّة، متحرّكة، قابلة للتغيير اللاتوازنيّ بطريقة مطلقة، وبحساسيّة فائقة»[١٤]. ومعنى هذا أنّ المنظومة الديناميّة المذكورةَ لا تخضع للحساب العقليّ المتواتر الدقيق، بل هي منظومةٌ متغيِّرة باستمرار، ولكنَّ تغيّراتِها لا تنضبط في قانون المنطق. إنّ لها منطقَها الخاصَّ، إذا شئتَ، المخالفَ للمنطقِ العقليّ. وهي تتواترُ من غير أن تكونَ واحدًا، وتخضعُ للمصادفةِ. وسواءٌ أكانَ في الرياضياتِ، أو في الطبيعةِ والفيزياءِ، أو في الاقتصادِ والمجتمعِ وعلمِ المناخِ، فإن الكاوسَ يبقى نظامًا مشوّشًا غيرَ خاضعٍ لحركةٍ واحدةٍ أفقيّةٍ— طوليّة. فـ«المنطقيُّ يتعامل مَعَ ما هو مُشَكْلَن، وينصبّ على شُكول منطقيّة، وما هو غيرُ قابلٍ للشَكْلَنَة لا يدخلُ المجالَ التجريبيَّ لأنّه يستعصي على التجربة. وهذا المجالُ الاستحاليُّ يكوّنُ جزءًا من الكاوس الكونيّ، بحيث يكونُ هذا المجالُ جزءًا مهمًّا من الكون، لكنّه لا يكونُ بمفرده بعيدًا عن مجالِ الشَكْلَنَة، فهو مختلطٌ مَعَها، وهذا يعني بأنَّ الكاوسَ هو خليطٌ من شَكْلَنَةٍ ولاشَكْلَنَةٍ، أي من نظامٍ ولانظام»[١٥]. لقدْ باتَت للعصرِ الجديد صفةٌ أساسيّة يمتازُ بها عَنْ سِواها هيَ سقوطُ المركزيّة. ومعنى هذا أنّ الخطابَ القديمَ برمّتِهِ قدِ انتهى. وإذا كانَ يُمكِنُنا أنْ نَستخرِجَ صفةً جديدةً لما بعدَ الحداثةِ كمُصْطَلَحٍ، فهي اللامركزيّةُ والكاوسيّة والتشظّي. إنّهُ عصرُ التفتيتِ بامتياز.

لهذا السببِ قلنا إنّ مجالَ الدراسةِ في مسألةِ الشعر والعَوْلَمَةِ لا يمكن أن يشملَ إلا الشعرَ الحديثَ. فهذا الشعرُ ينحو نحوَ العالمِ الذي وُلِدَ فيه وانتشَرَ ونما. ولعلّ أبرزَ ما في هذا الشعرِ أنّه لا يقبلُ القَبليّاتِ. فالشعرُ الحديثُ يتحوّلُ باستمرارٍ، ولا يهدأ في شكلٍ مِنْ أشكالِ التعبيرِ الشعريّ، ولا نقصدُ بالشكلِ القالَبَ الشعريَّ وحدَه، بلْ كُلَّ ما يجعلُ مِنَ الشعرِ شعرًا، بما في ذلك اللغةَ.

وهذا الشعرُ نسبيٌّ، تمامًا كالعالم الذي يحيا فيه، بمعنى أنّه لم يعد يقومُ على قِيَمٍ نهائيّةٍ، بل صار متغيّرًا بتغيُّرِ مَنْ يكتبُه، ولا يخضعُ لقاعدةٍ نهائيّة، وبالتالي فَقَدْ سقطَ مركزُهُ- والمركزُ هنا هو القاعدةُ القَبْلِيَّةُ (من: الما- قَبْل: المُسْبَقَة) التي نعود إليها للتقويم والفهم. لذلك سَقَطَ أمامَه الحَدّ، وتوسّع باتّجاهِ الفضاء، فكسرَ السقفَ الذي انحصر فيه الشعرُ في السابقِ.

من جهة أخرى، فإنّ سقوطَ الحدود التي أزالتها العولمةُ والفكرُ الجديد انعكسَتْ في الأدبِ اليومَ، ومنه الشعرُ، فسقطَ في تجارب الغرب المكتوبةِ مفهومُ الأنواعِ الأدبيّة، كالمسرح والشعر والنثر والرواية وسواها، وصرنا أمامَ مفهومِ «النصّ» الذي يمكن أن يتسلّل إلى أيّ نوعٍ من الأنواع يحتاج إليه للتعبير، ويدمج كلَّ هذه الأنواع في نصّ واحد. بل إنّه يمكنُ أن ينتقل إلى الصورةِ نفسِها، أو إلى ما هو مرئيٌّ، أو مسموعٌ، ويدخله في إطار دعم التعبير الكتابيّ. وهكذا سقطَتِ الحدودُ في الكتابة بينَ الأنواعِ نفسِها، تمامًا كما أسقطَتِ العولمة حدودَ البلدان وفَتَحَتْها على بعضها. وفي هذا المجالِ، يمكنُنا أنْ نذكرَ الشاعرَ والقصّاصَ السوريَّ سليم بركات الذي تمكّن مِنْ كسرِ الحدودِ بينَ الشعر والسَرْدِ، فاقترنَتِ الكتابةُ عندَه بانفتاحٍ تامّ، منذ أواخرِ السبعيناتِ أو أوائلِ الثمانيناتِ، بينَ النصِّ الشعريّ والرواية، لا بمعنى الشكل الخارجيِّ وحسب، ولكن أيضًا بمعنى الجملة السرديّة والشعريّة للنصّ، فكثير من قصائده يقوم على بنية سرديّة وكثير من نصوصه السرديّة- إن لم أقل كلّها- يتضمّن الشعرَ والتركيب الشعريّ.

وسنتناول بعضَ أعمال أدونيس لدراسةِ تفاعلها مع معطياتِ المرحلة الجديدة التي نذكر. وسنستعرض تأثيرَ العولمة في كتابين هما «الكتاب»، و«تاريخ يتمزّق في جسد امرأة»، ونتناول فيهما تداخلَ الأنواعِ الكتابيّة، لكي نتمكّنَ من حصرِ الموضوع.

٤. أدونيس: الشاعر والعولمة:

قد يكون أدونيس أكثر شعراء الحداثة العربيّة انفتاحًا على المستجدّات الحضاريّة والكتابيّة، وأكثرَهم استيعابًا لها. وهو،

١٣. سليمان الديراني، **مقال: الثقافة العالميّة: الثقافة المحليّة العالمَثالثيّة و«ما بعد الحداثة»**، كتابات معاصرة، عدد ٣٠، ص ٢٥.

١٤. سامي أدهم، **ما بعد الفلسفة**، بيروت: دار كتابات، ط ١، ١٩٩٦، ص ٥٥.

١٥. المرجع نفسه، ص ٢٦

إلى هذا، خلاّقُ أشكالٍ، فنحن نجدُ في كلِّ مجموعةٍ جديدةٍ له قفزةً جديدةً في العمليّة التجديديّة للشكل وللغة الشعريين.

وأدونيس ينطلق في مفاهيمه من أمرين أساسيين: الانفتاح والحريّة. فالأوّل واجب من أجل استيعاب المعطيات التي ترسلها الحضارة الإنسانيّة في أثناء تطوّرها، وهو في هذا المجال لا يميّز بين الغرب والشرق، بل يرى إلى الحضارة ككلّ، ولكنّه يأخذ في الاعتبار خصوصيّة كلّ من هاتين المنطقتين. أمّا الأمر الثاني: الحريّة، فضروريّ من أحل التحرّك والتغيير، لأنّ هذه الحريّة تسمح بإعادة النظر المستمرّة في القضايا، كما تتيح للإنسان التحرّك غير المرتبط، والتحرّر من كلّ ما هو مسبَق، بهدف إعادة تنشيط ما يحتاج إلى تنشيط في سبيل التطوير. فالقضايا والمفاهيم متحرّكة بالنسبة إلى أدونيس، وحركتها تأخذ بُعدًا أوسع وأكثر تألُّقًا من الانفتاح على كلّ ما حولها.

أ. أدونيس: الهويّة/ الشعر/ التغيير: يعتبر أدونيس التراث الشعريّ العربيّ شجرة فيها أصول وفروع. أمّا أصولها فقليلة جدًّا، بخلاف الفروع. وهذه الأصول هي النقاط المضيئة في التراث، وهي، بالتالي، ما يمكن الانطلاق منه لاستيعاب فكرة الحداثة، ولتجديد الشعر. أمّا الفروع فكثيرة، ولكنّها ليست إلاّ تنويعًا على الأصول التي ذكرنا.

وأصول التراث العربيّ تمثّل نقاطه المضيئة، بمعنى أنّها تتألّق في عصرها بشكل يميّزها عن سواها، ولكنّ هذا التألّق لا يزول في العصور اللاحقة. فأبو نواس، مثلاً، أو أبو تمّام، أو المتنبّي، أو سواهم كانوا في أيّامهم مناراتٍ شعريّة، ولكنّ شعرهم لم يخبُ ضوؤه اليوم، بخلاف الآخرين ممّن عاصرهم. لذلك، فإنّ الحداثة، بالنسبة إلى أدونيس، تبدأ من التراث العربيّ، وتهدف إلى إعادة بعث القوّة الحيّة في الشعر العربيّ، وذلك من خلال التركيز على ما يجعل تلك النوى المضيئة في التراث الشعريّ على إضاءتها[١٦]. وفي الواقع، فإنّ أدونيس، عندما وضع «الثابت والمتحول»، كان مقتنعًا بأنّ التجديد يقوم على أمرين اثنين رئيسين: الأوّل هو اكتشاف اللغة، والثاني هو افتتاح أفق آخر للكتابة والفكر. ويقول: «كنتُ مقتنعًا أنّ هذين الأمرين يقتضيان تفكيك التاريخ والماضي... في هذا التفكيك نعيد قراءة التراث العربيّ من أجل فهمه في ضوء الحاضر، ومن أجل اكتشاف العلاقات القائمة فيه بين التاريخ والسياسة، بين الدين من جهة، والفكر والشعر والفلسفة، من جهة ثانية.»[١٧]

وبما أنّ الحريّة مفهوم يأتي في أساس التجديد، فإنّه يستتبع إعادة النظر المستمرّة في الأمور، لأنّ المساءلة والتساؤل هما اللذان يفتحان الباب أمام التغيير الحيّ، التغيير الذي يمكّن الإنسان من صناعة المستقبل، ويمكّن الشاعر من تجاوز مخلّفات القديم والمُهترئ والمحنّط في التفكير والتعبير. ومن هنا أيضًا، وبفعل هذه الحريّة، رأى أدونيس أنّ الهويّة ليست شيئًا ثابتًا، بل متحرّك باستمرار، وبالتالي هي فِعلُ تَمَيُّز عن الآخر. ولأنّها كذلك لا يجوز أن تستقرّ على النوى التي تربطها بالماضي وبالمثيل. يقول: «الهويّة، في المنظور الإبداعيّ، ليست في إنتاج الشبيه، وإنّما هي في إنتاج المختلف، وليست الواحد المتماثل، بل المثير المتنوّع. فالهويّة إبداع دائم — تغلغل مستمر في فضاء التساؤل والبحث، الفضاء الذي يفتحه السؤال: مَنْ أنا؟ لكنْ دون جواب أخير».[١٨]

هذا الموقف يحيلنا إلى مسألة العلاقة بين الذات والآخر: فالتساؤل: مَنْ أَنا؟ يفترض أن يرى إلى الذات في- الموضع، أي في المكان الذي يحيط بها ويشترك بالتالي في تحديد هويّتها. وبهذا يكون الآخر جزءًا من الذات نفسها، لأنّه جزء من تحديدها نفسه. ولكنّ هذا الآخر- المكان متحرّك باستمرار، ويخضع لتغيّرات مستمرّة، لذلك فإنّ الإنسان يبدو، في الإبداع، «مشروعًا لا يكتمل، ولا يعود الآخر أجنبيًّا عن الذات، وإنّما يصبح بُعدًا من أبعادها، أو يصبح صورتَها الثانية»[١٩]. وهو إذ ينتقد الغرب ضمنًا في موقفه المتعالي من العالميّة[٢٠]، يركّز على التواصل بين الشرق والغرب في حركة التطوّر المستمرّ، ويرى، بالتالي، أنّ

١٦. لقد أوضح أدونيس هذا المفهوم في كتابه «**الثابت والمتحوّل**»، وهو أطروحته لنيل شهادة الدكتوراه.

١٧. أدونيس، **محاضرات الإسكندريّة**، دمشق: دار التكوين، ط ١، ٢٠٠٨، ص ٧ — ٨.

١٨. أدونيس، **سياسة الشعر**، بيروت: دار العودة، ط ١، ١٩٨٥، ص ٦٩.

١٩. المصدر نفسه، ص ٦٩ — ٧٠.

٢٠. يقول: «كان الغرب الأوروبيّ يبدو وكأنّه هو أفق الإنسان كإنسان، وكان على الذات العربيّة أن تتحدّد به وفيه، وكأنّ هذا الأفق هو وحده المكان الذي ينبثق منه معنى العالم وصورته، في آن. تمثّلَ هذا المناخ أدبيًّا في مفهوم العالميّة. واتّخذ منه الغرب الأوروبيّ مقياسًا مارس فيه قمعًا كبيرًا على الآداب العربيّة، تجلّى في عزلها، وفي النظر إليها نظرة دُنيا». (المصدر نفسه، ص ٦٤).



التطور عملية مشتركة بينهما، لا تقوم في مكان دون الآخر. وهو، من خلال هذه النظرة، تفاعل، لا انقطاع، مع الاحتفاظ بالهويّة والملامح المميّزة لكلّ طرف من الطرفين: «المسألة... ليست في انقطاعك عن الآخر، بل في تفاعلك معه وبقائكَ أنتَ أنتَ... التأثير هنا نوع من الشرارة تسطع عند الآخر، وتوجّه الذات إلى مزيد من معرفة نفسها».[٢١] واستمرار الخصوصيّة شرط لاحتفاظ الذات بكيانها[٢٢] ، لكنّ الآخر «هو الباب الذي تدخل منه الذات إلى الكون».[٢٣]

من هنا، فإنّ الآخر، بالنسبة إلى أدونيس، «عنصر تكوينيّ من عناصر الذات. وإذا كانت هويّة الإنسان في فرديّته، وكان الإبداع هويّته الحقّة، فإنّ هذه الهويّة مفتوحة بلا نهاية. وهي أبدًا في تعالق مع هويّات الآخر»[٢٤]. إنّها «مفتوحة كأنّها تجيء باستمرار من المستقبل»[٢٥]. ولهذا السبب لا يمكننا، بنظره، أن نحدّد الهويّة.[٢٦]

والهويّة الحقيقيّة، عند أدونيس، حوار، فالإنسان «لا يفهم نفسه، ولا يحقّق هويّته إلاّ في أفق من الحوار، وفي بنية ثقافيّة حواريّة»[٢٧]. فالحوار يمثّل الانفتاح، وهو أيضًا امتداد وتماهٍ مع الآخر في ظلّ خصوصيّة لكلّ من الذاتين المتحاورتين.

ولقد عبّر أدونيس، في تنظيراته المبكرة أيضًا، عن موقف التكامل المشار إليه هذا، معتبرًا أنّ «تغيير العالم» هو هاجس الشاعر الأوّل، أيِّ شاعرٍ[٢٨]. والشعر عنده «خرق للعادة»[٢٩]، والجماعة الحيّة هي تلك التي تمثّل تغايرًا، ويخرج إنسانها من التماثل إلى الاختراع وابتكار الجديد[٣٠]. والسبب، برأي أدونيس، أنّ «الحقيقةَ في الشعر غير ثابتة وغير واضحة... إذ لا شيء يبقى في الحقيقة الشعريّة كما كان»[٣١]، فـ«الشعر سؤال»[٣٢]، ولما كان سؤالاً، فهو غير ثابت. إنّه بحث عمّا يمكن أن يعطي الكون معنى.

من هنا ندخل إلى العلاقة الوثيقة بين الشعر والعولمة. ومن هنا أيضًا نحاول أن نتبيّن نظرة أدونيس إلى العلاقة بين العرب والعالم، وبين الفكر العربيّ والفكر العالميّ في هذا العصر المتحوّل. والسؤال الأوّل الذي يُطرح في هذا المجال هو: كيف يمكن للعرب أن يفيدوا من هذا العصر ومن معطياته المتغيّرة باستمرار؟ وما هو الغرب بالنسبة إليهم اليوم؟

في الواقع، ليست الإجابة عن هذا السؤال سهلة، لأنّ لأدونيس مواقف من السياسة العربيّة ومن أنظمتها، ومن علاقة العربيّ عمومًا بالدين، فكلّ شيء عنده مترابط: السياسة، والشعر، والدين، والهويّة... والحداثة لا مفرّ منه في المجتمعات العربيّة، «فهي مفروضة عليها، مجروفة بها شاءَت أم أبَتْ. وسوف تتفكّك البُنى القديمة التقليديّة في هذه المجتمعات عاجلاً أَم آجلاً»[٣٣]. والعولمة، كالحداثة، لا مفرّ منها أيضًا، سواءٌ أكنّا مشاركين بها أم لم نكن[٣٤]. ولكنّ علينا أن نستعير الوجه الإيجابيّ من العولمة،

---

٢١. المصدر نفسه، ص ٧٧.

٢٢. يقول: «مهما انفتحت الذات على الآخر، تفاعلاً وتبادلاً، تظلّ لها خصوصيّاتها التي تميّزها عنه. بعبارة ثانية، مهما ائتلفت الذات لا بدّ أن تظلّ مختلفة عنه، وألاّ تبطل أن تكون هي هي». (أدونيس، **موسيقى الحوت الأزرق**، بيروت: دار الآداب، ط ١، ٢٠٠٢، ص ٣٤).

٢٣. المصدر نفسه، ص ٢٧٨.

٢٤. المصدر نفسه، ص ٢٨٦. ويقول في هذه المسألة أيضًا: «كلّ هويّة مشروع. وهذا المشروع انفتاح بلا نهاية». (أدونيس، **المحيط الأسود**، بيروت: دار الساقي، ط ١، ٢٠٠٥، ص ٢٢٥).

٢٥. أدونيس، **محاضرات الإسكندريّة**، ص ١٢٦.

٢٦. يقول إنّ الهويّة «لا تُحدَّد، لأنّنا لا نستطيع أن نحدّد إلا ما يكون ساكنًا، مستقرًّا، ومكتملاً. والهويّة نقيض هذا كلّه. فهي مشروع مفتوح، إبداع متواصل في أفق مفتوح. فالإنسان يبدع هويّته فيما هو يبدع عمله وفكره». (المصدر نفسه، ص ٩٥).

٢٧. أدونيس، **الكتاب الخطاب الحجاب**، بيروت: دار العودة، ط ١، ٢٠٠٩، ص ١١٥.

٢٨. يقول: «ليس شاعرًا... مَنْ لا يكون تغيير العالم في أساس حدسه الشعريّ... فالعالم جسد الشاعر لا يستطيع إلا أن يحرّكه ، إلا أن يغيّره». (أدونيس، **فاتحة لنهايات القرن**، بيروت: دار العودة، ط ١، ١٩٨٠، ص ٣١).

٢٩. المصدر نفسه، ص ٢٧.

٣٠. المصدر نفسه، ص ١٩١.

٣١. أدونيس، **الكتاب الخطاب الحجاب**، ص ٤١.

٣٢. المصدر نفسه، ص ٤٢.

٣٣. المصدر نفسه، ص ٨٠.

٣٤. أدونيس، **المحيط الأسود**، ص ١٤٠.

ونترك سلبيّاتها؛ كما علينا أن نتحصّن منها بقوّتنا الذاتيّة، وبأصالة شخصيّتنا وهويّتنا. ونحن في هذا الواقع الجديد نواجه مَن هو أقوى منّا بمنجزاته وفكره، وإذا لم نتمسّك بإحياء نقاط القوّة في هويّتنا ونجعلها متحوّلة باستمرار في هذا العالم المتحوّل صرنا مَطِيّةً للآخر. و«الرأسمال الغربيّ يستخدم منجزاته التقنيّة لكي يستخدمنا نحن «الآخرَ» أيضًا: لكي تزداد السيطرة علينا، ولكي يزداد قوّةً وتوسّعًا بهذه السيطرة»[٣٥]. هذا أحد وجوه العولمة السلبيّة. والولايات المتحدة تريد من العولمة أن تحوّل العالم على سوق تديرها هي، وتصدّر فيها منتجاتها[٣٦]. وهي، إلى ذلك لا تكتفي باحتكار «الحقّ»، بل تحاول امتلاك الوعيَ أيضًا، لأنّها لا تكترث لغير مصالحها، ولا مكان في الخطاب الأميركيّ لحقوق الإنسان إلاّ بناء على رؤياها هي[٣٧]. وهي بهذا تفرض نفسها «وريثًا» للاستعمار الأوروبيّ الذي تحاول أوروبا أن تتطهّر منه.[٣٨]

لهذا السبب، على المجتمعات العربيّة أن تتطوّر لكي تتمكّن من البقاء في ظلّ هذا الواقع الضاغط. وعليها أن تبدأ، من أجل هذا، بالعَلْمنة، وبتغيير نظرتها إلى الأمور. فالدولة لا يجوز أن تؤسَّس «على الدين، بل على قيمٍ مدنيّة كاملة[٣٩]»، ومن أجل ذلك على الثقافة العربيّة أن تدخل في نسيج الثقافة الكونيّة»[٤٠]. وهذا الدخول هو الذي يحصّنها، لأنّ العولمة لا يمكنها عندئذٍ أنْ تغيّب تراثنا. فهي «تطمس من ليس له حضور خلاّق. وأسوأ ما توصف به أنّها الشكل الجديد للاستعمار القديم، وهي لا تعمَّم بالصنف، وإنّما بالإنتاج. وهي بدلاً من أن تحوّل الكونَ كلّه إلى حرب تحوّله إلى سوق. وهي بالقَطعِ لا تلغي الإبداعَ، لكنّها ستُلغي ثقافة مَنْ يَعملون على إلغاء ثقافاتهم، أولئك الذين ما زالوا يصرّون على الرقابة والتضييق على المفكّرين والمثقّفين ومحاصرتهم».[٤١]

وفي الواقع، لا يمكننا أن نعتبر الحداثة مجرد ظاهرة محليّة ومرحليّة. إنّها «ظاهرة كونيّة». ولكنّها على الرّغم من ذلك ليست لها لغة واحدة. العولمة تعمل على تحويل لغتها إلى لغة كونيّة واحدة. وإذا سمح العرب بهذا فهم عندئذٍ يتخلّون عن اللغة العربيّة وشعريّتها.[٤٢]

لهذا السبب يرى أدونيس أنّ العرب كان عليهم أن يفيدوا من الانقلاب التقنيّ والمعرفيّ الذي حصل في الغرب، لكي يتمكّنوا من أن يتواصلوا مع «قيم التجديد والإحداث في التاريخ العربيّ»[٤٣]. فالحداثة لا تكون حداثة إلاّ إذا انفتحت على كلّ ما هو حضاريّ ومتنوّع[٤٤]. ومن هنا جاء مشروعه الكبير في «الثابت والمتحوّل» الذي يدعو فيه إلى إعادة قراءة التاريخ العربيّ في نقاطه المضيئة التي يشير إليها، وكذلك كتابه «الكتاب» الذي يعيد قراءتها شعرًا، ويحاول فيه أن يطبّق ما طرحه في «الثابت والمتحوّل».

هكذا تصير الكتابة كشفًا عن أفق جديد، ويصير الشعر اختراقًا للسائد ودعوةً إلى التغيير المستمرّ. وفي الواقع، فإنّ مفهوم الشعر عند أدونيس، منذ البداية، لا يجوز أن يكون «شكلاً أو قاعدةً ليصبح طاقةً وينبوعًا: عالمًا فسيحًا لانهائيًّا من الأوضاع والحالات التفجيريّة والتعبيريّة، فيما وراء الحدّ والنوع، وفيما وراء كلّ قاعدة وكلّ تغيير»[٤٥]. الشعر فوق القواعد، وفوق الأشكال. إنّه لا يقبل بالحدّ، ولا بما هو مُسبَق، فالقانون يحدّ من طبيعته، ويحجّمه في حدود. لهذا السبب كان من البديهيّ أن يقف هذا الشاعر موقفًا معارضًا لمفهوم الشعر عند القدماء كما حدّده ابن خلدون، أي أنّه الكلام الموزون المقفّى، فهذا التحديد لا يصلح إلاّ للنظم، أمّا الشعر فيبقى متجاوزًا له.



٣٥. المصدر نفسه، ص ١٢٢.
٣٦. المصدر نفسه، ص ١٤٠.
٣٧. المصدر نفسه، ص ١٦٣.
٣٨. المصدر نفسه، ص ١٧٥.
٣٩. يقول أدونيس: «المدينة مستقبل». (المصدر نفسه، ص ١٣٨).
٤٠. أدونيس، **محاضرات الإسكندرية**، ص ١٢٥.
٤١. المصدر نفسه، ص ١٢٦ — ١٢٧.
٤٢. أدونيس، **موسيقى الحوت الأزرق**، ص ٣٥.
٤٣. أدونيس، **الكتاب الخطاب الحجاب**، ص ٤٧.
٤٤. المصدر نفسه، ص ٦٧.
٤٥. أدونيس، **فاتحة لنهايات القرن**، ص ٣٣.

بالنسبة إلى أدونيس، النصّ الشعريّ لا يجيب، بل، على العكس، يحفّز على التساؤل، ويطرح باستمرار أسئلة. ولهذا السبب فهو لا يقدّم أجوبة[٤٦]. إنّه يثير، ويُحدث تغييرًا في نفس من يقرأه، بل يترك فيها بعثرةً كبيرة، فالتغيير ضرب من الزلزال الذي يحصل في الداخل[٤٧]. إنّه نص مناقض للقدسيّة، لأنْ لا قدسيّة لنصّ إلاّ إذا كان يحضّ على البحث والسؤال، ويدفعنا إلى طرح الأسئلة.[٤٨]

وهذا يقودنا مرّة أخرى إلى العولمة والحداثة وعلاقتهما بالشعر. فالتقدّم في التقنيّة لا يعني بالضرورة أنّ الطرف المتطوّر تقنيًّا هو الأفضل على مستوى الفنيّ. لذلك لا يعتبر أدونيس الغرب متقدّمًا فنيًّا على الشرق بالضرورة. فللتقنيّة أشكال قد تكون متطوّرة، إلا أنّ تطورها لا يعني أنّها يمكن أن تخلق شعرًا متطوّرًا[٤٩]. لهذا السبب، فإنّ التعدّديّة التي تكون في مجتمع ما هي الدليل على صحّته، لأنّ هذه التعدّديّة تخلق نماذج متحررة ومتحوّلة أيضًا، وهي ما يُكسب الهويّة انفتاحها وغِناها. فالمجتمع الذي يفتقد التعدّديّة يخسر تاريخه، والمجتمعات العربيّة تخسر بالتالي تاريخها إذا قمعت التفكير والتعبير[٥٠]. والمخالفة في المجتمع لا تعني سقوط ما سبق، بل تعني تخطّيًا له وتجاوزًا من غير أن تنفيه. وهكذا، فإنّ «الكتابة الخلاّقة هي... خروج من الزمن الخَيْطِيّ المنسجم والمتآلف. وهي، تاليًا، ليست نتيجة منطقيّةً لما سبقها. إنّها، على العكس، انشقاق وزلزلة.[٥١]»

وإذًا، بالنسبة إلى أدونيس، العولمة التي يحاول الغرب الأميركي أن ينشرها ليست هي العولمة الحقيقة، بل هي التصوّر الأميركيّ لها، وهو ليس بالضرورة تصوّرًا صحيحًا. ومشكلتها الأولى أنّها تُلغي خصوصيّة الآخر لتفرض خصوصيّة أحاديّة عليه لا تناسبه. ولا عولمة حقيقيّة وواقعيّة «إلاّ بدءًا من اكتشاف الكونيّة الإنسانيّة، في هذا الضوء: ضوء الواحد المتعدّد، الحرّ، السيّد على وجوده ومصيره».[٥٢]

ب. الكتاب: «الكتاب» أحدُ أبرز إنتاجات أدونيس الشعريّة، أوّلاً بسببِ حجمِه الكبير، فهو في ثلاثةِ أجزاء تبلغُ أكثر من ألفٍ وأربعمئة وستّين صفحةً، وثانيًا بسببِ مضمونِهِ الخطير- فأدونيس يُعيدُ كتابةَ التاريخِ العربيّ عبرَ رؤيتهِ من خلالِ عينَي المتنبّي-، وثالثًا بسبب شكلِه الجديد الذي لم يُسبَق إليه. ولكنْ ما الذي قدّم أدونيس في مسألة تفاعله مع معطيات العولمة؟

يؤكّد أدونيس أنّه أدخل على الشعريّة العربيّة ثلاثة أشياء أساسيّة:

١. الأوّل هو مفهوم قصيدة النثر.
٢. والثاني هو مفهوم «القصيدة الشبكيّة المركّبة»، وهي نصّ مزيج فيه أنواع الوزنيّة وأنواع النثريّة.
٣. والثالث هو الشكل الذي يصير شيئًا لاحقًا، وبالتالي غير جوهريّ ولا مقدّس (وهذا ما يسميه «لاحِقيّة الشكل») في مقابل أسبقيّته في التقليد الوزنيّ الخليليّ.[٥٣]

وما يهمّنا في هذه الدراسة هو النقطة الثانية التي يطرحها أدونيس، مع الإشارة إلى أنّ النقاط الثلاثة مترابطة جدًّا.

وإذا كان مفهومُ سقوط الأنواع الأدبية معَ انتشار العولمة أمرًا لافتًا، فإنّ تحوّلَ القصيدةِ من «نوعٍ كتابيّ» إلى «نصّ» مكتوب تتداخل فيه الأنواع الكتابية بات شيئًا من صلب المفاهيم الجديدة. ففي «الكتاب» ينشطر صوتُ أدونيسَ- المتنبّي أربعةَ أصواتٍ تستغرقُ أجزاء الصفحة التي تُكتَب فيها: صوت الشاعرِ- المتنبّي الذي يحتلّ وسط الصفحة، وصوتٌ ثانٍ يصدرُ عنه، تفسيرًا لما يأتي في المتن، وهو بمنزلةِ حاشية شعريّة تضيء شيئًا خاصًّا في جوهر معناه، وصوتان آخران: يمثّل الأوّل نصًّا إلى جهة اليمين رديفًا للنصّ الأساسيّ الذي في وسطِ الصفحة وفوقه تأريخ معيّن يرتبط بالشخصيّة التاريخيّة أو التراثيّة التي يتكلّم عليها النصّ، ويمثّل الثاني الذي على اليسار حاشية نثريّة هي تعليقٌ تاريخيّ

٤٦. يقول: «أجمل وأعمق ما في الشعر أنّه لا يحدَّد، أنّه لا يقدّم أجوبة». (أدونيس، **الكتاب الخطاب الحجاب**، ص ٧٩).
٤٧. يقول: «النصّ الشعريّ العربيّ الحديث حقًّا- في سياق الثقافة العربيّة أصولاً وتاريخًا، هو ما يدخل إليه القارئ فيرى، فيما يقرأ، أنّ كلّ شيء يتبعثر متفتّتًا، أشياء الماضي والحاضر... ويرى أنّ كلّ شيء يتزلزل... للتاريخ ستائر يجب تمزيقها». (أدونيس، **موسيقى الحوت الأزرق**، ص ١٦١).
٤٨. أدونيس، **الكتاب الخطاب الحجاب**، ص ٧٥.
٤٩. أدونيس، **موسيقى الحوت الأزرق**، ص ٣٦.
٥٠. المصدر نفسه، ص ١٨٨.
٥١. أدونيس، **المحيط الأسود**، ص ٣٦٣.
٥٢. المرجع نفسه، ص ٣٦٤.
٥٣. أدونيس، **سياسة الشعر**، ص ٧٣ — ٧٤.

لنقاطٍ تتعلّق بالنصّ الرديف المذكور على جهة اليمين. ولعلّ صورة الصفحة الآتية توضح هذا الأمر[٥٤]:

ـــــ ١٦٣ م.

حفيد الخليفة عمر بن عبد

– ق –

لَمْ يَكُن آدَمُ(١) يتَزَنْدَقُ،
ما قالَهُ
جاءَ فَيْضًا منَ القلبِ،
مِنْ طَرَبٍ وانتشاءٍ.
كانَ هذا مُجونًا،
ويؤَكِّدُ أصحابُهُ:
لمْ يكُنْ آدَمُ مُشْرِكًا.

– ر –

كانَ خليعًا(٢)
يَهوى الغِلْمانْ
ويعيشُ رفيقًا للمُجّانْ.

– ض –

ما أقولُ لهذي الدروبِ، لتلكَ
الدروبِ التي سبَقَتْها، وماذا أقولُ
لِذاكَ الورَقْ؟
للهُيامِ الذي مرَّ في حَيرةٍ واحترَقْ؟

ما أقولُ لِشِعريَ فيها،
وهوَ المُلتَقى، وهو المُفترَقْ؟

* ليس النورَ ليَحيا في الليلِ بعيدًا،
ولكي يبقى
لامرئيًّا.

١- هو آدم

العزيز. ضربه المهديّ ثلاثمئة سوط بتهمة الزندقة. كان يقول: «واللهِ ما أشركْتُ بالله طرفةَ عين. ومتى رأيتَ قرَشيًّا تَزَندَق؟ ولكنَّه طرَبٌ غلبَني، وشِعرٌ طفحَ على قلبي، وأنا فتًى من فِتيانِ قريشٍ أشربُ النبيذ، وأقولُ على سبيلِ المجونِ».

٢- إبراهيم بن سيّابة، كما وصفه الأصفهانيّ.

هذا النموذج من الكتابة دفعنا إلى إعادة النظر في الكتابة النصيّة القديمة، لأنّه يشكّل نموذجًا جديدًا لما بعد النصّ الشعريّ، للنص المؤسَّس على نصوص، أو أنواع نصيّة متداخلة: فهو يجمع بين ثلاثة أشكال من النصوص: النصّ البَحثيّ (من خلال المتنين والحاشيتين)، والنصّ التاريخيّ (من خلال التفسير الذي يُعطيه المتن الذي على شمال الصفحة)، والنصّ الشعريّ الذي نجده في النصّ الأوسط الأساسيّ، كما نجده في النصّين الآخرين: حاشية النصّ الأوسط، والنصّ الذي على اليمين. كما أنّنا نجد شكلاً آخرَ خامسًا من أشكال الكتابة القديمة هي التعليقاتُ على النصوص التي عَرَفَتْها طبعاتُ الكتب القديمة، فقد كانت هذه الشروحُ تُكتَب خارجَ إطار النصّ وحولَه.[٥٥]

بالإضافة إلى هذا، نجد الكتابَ يتضمّن بعض العناصر التي تُستعمَل في الدراسات، كـ«هوامش»، يستعملها الشاعر في نهاية كلّ قسم من أقسام القصيدة الطويلة، وفي كل من هذه الهوامش ظهور لعدد من الشخصيّات التراثيّة، ولاسيّما الشعراء، و«فاصلة» يسمّيها الشاعرُ «فاصلة استباق» لأنّه يستعملها ليكشف عن بعض الأمور التي سيتناولها في الكلام اللاحق، ويختم بها القسم (ومحلُّها بعدَ «الهوامش»)، و«أوراق» و«مخطوطة»، وهي بمنزلة إضافات على النصوص في نهاية الكتاب، وما يشبه عناوين الدراسات القديمة، وهو هنا «الفوات في ما سبقَ من الصفحات»، وفيه يظهر السجع على طريقة العناوين القديمة (الفوات/ الصفحات). وأخيرًا يستعمل الشاعر العنوان «توقيعات»، والتوقيعة

٥٤. أدونيس، **الكتاب أمس المكان الآن**، بيروت: دار الساقي، ط١ ، ١٩٩٨، ٢/ ٣٦.

٥٥. يمكن العودة إلى شروح تقسيمات الكتاب التي يقدّمها أدونيس عنه في: أدونيس، **رأس اللغة جسم الصحراء**، بيروت: دار الساقي، ط١ ، ٢٠٠٨، ص ٤٦ وما بعدها.

ضرب من الموسيقى، يلجأ إليه أدونيس هنا من أجل الترتيب النصيّ الذي يشبه هنا ترتيب التوقيعات الموسيقيّة، لا من حيثُ أصواتُه، بل من حيثُ هو ترتيبٌ فقط. كما أنّنا نشاهد في بعض المواقع ظهورَ طريقة «اليوميّات»[٥٦]، واليوميّة، كما نعرفُ، ضربٌ من الكتابة النثريّة، يستعملها الشاعر هنا على طريقة الشعر. واللافت أيضًا أنّ أدونيسَ لا يجعل لكلّ قسمٍ عنوانًا خاصًّا به، بل يضع محلَّ العنوان شطرًا من بيت للمتنبّي، ليكسِرَ طريقةَ العَنْوَنَة المألوفة، وليُمعِنَ في ترسيخِ رؤيا المتنبّي- الشاعر من خلال استجلابِ الأبيات المناسبة من شعر المتنبّي لكلّ قسم، وهو يعيد قراءتها من خلال النصّ الجديد الذي يكتبه[٥٧]. ويمكن أن يتغيّر هذا الترتيب، كما هي الحال في الجزأين الثاني والثالث، منعًا من أن يصير الكتاب متوحِّدَ الشكل، ولكن مع هذا، فإنّ أدونيس يحافظ على شكله العامّ الرئيس في تشكيل الصفحة الرباعيّ الذي أشرنا إليها.[٥٨]

كما يستعمل أدونيس المشهديّة التي نجدها في العمليّة السينمائيّة، وهي مشهديّة نابعة من السيناريو أساسًا. فـ«الكتاب» يعرض مشاهدَ متلاحقة، تتغيّر أشكالها من وقت إلى آخر، ولكنّها تمثّل تعبيرًا بصريًّا يدعم المعنى الآخر للنصّ.

وعليه، يكون الشاعر قد استعمل للتعبير في نصّه هذا جملة أشكال تعبيريّة: النصّ الشعريّ، والنصّ البحثيّ، والنص التاريخيّ، والسيناريو، والحركة السينمائيّة، والشروح حول المتون (متون المخطوطات خصوصًا).

بالإضافة إلى شكل النصّ، فإنّ مضمونَه ملائمٌ لمثل هذا التغيير، وفيه يدعو الشاعر إلى تجاوز الماضي، والدخول في المستقبل من خلال رؤيا جديدة للعالم:

«رُبّما تأخذُ الريحُ هذي الطلولَ. نَبوءَاتُ رُعْبٍ
تتفتَّحُ في قدَمَيَّ وفي العُشْبِ. خُذْني
أَيُّها الضوءُ في ساعِدَيْكَ، وفي خطَواتِكَ. عَينا
هذهِ الصخرةِ التِباسٌ
في طريقيَ. نِسْيانُ هذي الطريقُ؟ أيَنسى
قدَرٌ ناظِرَيْهِ؟
أتُراهُ القدَرْ
لُغَةُ اليأسِ في شَهَواتِ البشَرْ؟»[٥٩]

فالقدر هو عند أدونيس «لغة اليأس»، لأنّه يمثل خضوعًا، وبالتالي يمنع التساؤل، ويوقف التوتّر الذي يمكن أن يقوم بين الذات والوجود، في حالة إعادة النظر المستمرّة فيه. وهو يجعل الموقف في تناقض بين ما تمثّله الطلول وما تمثّله الريح، وهو توتّر بين قوّة التغيير المستمرّة وبين القبول المستمرّ الذي يستمدّ قوّته وفاعليّته من الماضي وأشيائه ومنظوره.

---

٥٦. راجع، مثلًا: أدونيس، الكتاب، ٣/ ٣٧، حيث نجد العنوان: «هوامش (يوميّات المتنبّي)». ويحمِّل كلّ يوميّة عنوانًا.

٥٧. يقول أدونيس في شعر المتنبّي وفي اتّخاذه من هذه الشخصيّة الشعريّة نواة لـ«الكتاب»: «"الكتاب" الذي كتبته مرتديًا قناع المتنبّي إنّما هو نشيد داخل "غربته" القديمة وداخل الغربة الحديثة المتواصلة. نعم، لا يزال شعر المتنبّي صامتًا. "الكتاب" محاولة أولى لجعله ناطقًا». (أدونيس، رأس اللغة جسم الصحراء، ص ٤٠)

٥٨. يشرح أدونيس نفسه تقنيّته الشكليّة في «الكتاب»، يقول: «"الكتاب"... حلقة في مشروع. وهو في ذلك يفيض عن حدود الشعر، بالمعنى الحصريّ الموروث والشائع. هكذا يتقاطع فيه الشعر والتاريخ، حينًا، ويتواكبان حينًا آخر... ولئن كان النصّ التاريخيّ نقلاً للحدث ووصفًا، فإنّ النصّ الشعريّ اختراق واستشراف». (أدونيس، **رأس اللغة جسم الصحراء**، ص ٤٥) ويتابع قائلاً: «هكذا أخلق حوارًا، يبدو أحيانًا معقّدًا، وأمشي ملتبسًا بين الحاضر والماضي، متطلِّعًا إلى المستقبل في مستوى الحرية، وفي مستوى الكينونة. أدّت طبيعة هذا الحوار إلى أن أنتجنّب البناء السرديّ الملحميّ، وأن أبتكر شكلا بنائيًّا تتداخل فيه الأزمنة والأشكال. هكذا جمعتُ في كلّ صفحة من "الكتاب" بين الماضي والحاضر والمستقبل، وبين أساليبَ فنيّة متعدّدة، على نحو متداخل ومتشابك، وهو بناء مستفاد من الفنيّة السينمائيّة في المقام الأوّل». (المصدر نفسه، ص ٤٦) ويتابع: «هكذا يبدو "الكتاب" في أجزائه الثلاثة كأنّه رواية حبّ لتاريخنا العربيّ، وصراع مرير معه، في آن». (المصدر نفسه، ٤٨) ويقول: «هكذا يمكن أن يقرأ "الكتاب" بوصفه رواية- قصيدة، أو بوصفه شذراتٍ وتشظّيات، أو بوصفه هيكلاً معماريًّا مقسّمًا إلى "غرف"، بشكل يتيح لكلّ منها أن تكون، في آن، منفصلة ومتصلة، عبر خيط هندسيّ جامع وصالح». (المصدر نفسه، ص ٤٩) ويتابع: «وقد يخيّل أنّ مفتاح "الكتاب" ضائع. والحقّ أنّ هذا المفتاح ليس موجودًا في أيٍّ من "الغرف"، وإنّما هو موجود في مكان آخر، في غرفة- جامعة، أو في "بيت" جامع، لا يُدرَك إلا بدءًا من إدراكِ حركيّة الاستقصاء والاستشراف التي توجّه "الكتابَ" وتهيمن عليه». (المصدر نفسه، ص ٤٩).

٥٩. أدونيس، **الكتاب**، ٣/ ٩٠. ومن الواضح هنا أنّ أدونيس يرفض مفهوم القبول ممثّلاً بالقدر، كما يرفض الثبات ممثّلاً بالرمل والصخرة ويتبنّى مفهوم التحوّل المستمرّ ممثّلاً بالريح وبالرعب (لأنّه رعب التغيير) وبالنسيان.

من هنا يدعو الشاعر إلى رفض ثبات في الماضي، والتمرّد عليه لتغيير الواقع وجعله أغنى وأكثفَ فيستوعبَ تعقيدات العالم الجديد:

«سأقولُ لكمْ إنّني خائنٌ — خائنٌ

لمَعاييرِكمْ وتَعاليمِكُمْ».[٦٠]

فالشاعر ينفتح على المعطيات الحضاريّةِ الجديدةِ (وهذا ما يقصده بالخيانة)، ويدعو إلى قراءةِ التاريخِ والتراثِ العربيَّين من خلالِ هذه المعطيات، لكي يُعيدَ العَرَبُ مَوضعَةَ أنفسهم من خلال هذه القراءة. وأدونيسُ، بالتالي، يرفض القراءة المدرسيّةَ المحدودة للتراثِ العربيّ، لأنّها لا تستطيعُ أن تُضيءَ نقاطَه الحيّةَ المشعّة، ولا أن تستخرجَ منه ما يمكّنُ العربَ مِنْ أن يشتركوا اليومَ في صِناعةِ الحضارةِ الإنسانيّةِ على النحو الذي قاموا به في السابق. وقد تمكّنَ أدونيسُ من تطبيقِ دراستِهِ التي أصدرها في السابق بعنوان «الثابت والمتحوّل» على النصِّ الشعريّ، بل إنّه أعادَ صياغةَ هذه الدراسةَ في أنموذجٍ شعريّ حديث، يطمح إلى أن يكونَ على مستوى التعبير العالميّ، وأنْ يقدّمَ شكلاً جديدًا لمحتوًى جديد، كما سبق أن أشرنا في هذه الدراسة.

ج. **تاريخ يتمزّق في جسد امرأة**: يمثّل كتاب «تاريخ يتمزّق في جسد امرأة» الصادرُ بعدَ سابقه «الكتاب» تجربةً جديدة من تجارب الكتابة عند أدونيس. فهذا الكتابُ قصيدة طويلة تتوزّعَها خمسُ شخصيّات، هي: المرأة، والرجل، والجوقة، والراوية، وبعضُ الأصوات (في نهاية النصّ). وكلّ هذه الشخصيّاتُ لا اسمَ لها، بل يستعملها أدونيس كما أشرنا إليها تمامًا. واللافتُ أنّه في هذه التجربة يُفيدُ من تقنيّةِ المسرحِ (من غير أن يكونَ الكتابُ مسرحيّةً)، ومن تقنيّتي الشعرِ والقصّةِ الشعبيّة المرويّة (بدليلِ ظهور الراويةِ كشخصيّةٍ أساسيّة). هذا بالإضافة إلى تقنيّة السيناريو (المشهد- المكان).

والنصّ يُعالج مسألةَ موقفِ الرجلِ الشرقيّ من المرأة واعتبارها تابعًا له، ونظرتَه الجسديةَ إليها. كما ينقل الموقفَ التراثيّ والدينيّ (الإسلاميَّ خصوصًا) منها، وهو موقف سلبيّ جدًّا، يرفضه الشاعر:

«إنَّها امرأةٌ

نِصفُها رحِمٌ وجِماعٌ

والبقيّةُ شَرٌّ.

هكذا رسّموها.

هكذا وصفوها».[٦١]

ولكنّ التعبيرَ عندَ أدونيس هو ما يهمّنا. فالشاعرُ يحوّل ما يكتب إلى نصّ يتداخلُ فيه أكثرُ من نوعٍ من أنواع الكتابة وغير الكتابة: فالشعرُ نوع مقروء، بمعنى أنّه يُكتَب ليُقْرَأ، ولاسيّما الشعر الحديث، والشعر بمفهوم أدونيس، يجب أن يزول عنه طابع الشفاهيّة الذي يجعله مجرّد نظم، ويتّصف بالإنشادِ. والشفاهيّة تعني أن يكون النصّ تابعًا لمقاييس الماضي، أي خاضعًا للوضوح بعلاقاته الداخليّة، بمعنى أنّه نصّ مقفل، معناه واحد، ويركّز على الفكرة، كما هي الحال في الحِكَم مثلاً، ويقوم على الصوتِ من خلال إنشاده، فلا يحتاج كثيرًا إلى التفكير. أمّا الكتابيّة فتجعل النصّ متوتّرًا بعلاقاته الداخليّة، لا يركّز على الفكرة بل على الحالة والموقف، معقّدًا بعلاقاته الداخليّة، وبعيدًا تمامًا عن النظم، فيكون بذلك نصًّا مفتوحًا، متعدّد التفاسير، ولا يقوم بالتالي على الإنشاد.

هذا التعبير المتّصف بالكتابيّة عند أدونيس نُقِل بطابع جديد: فالشعر كفنّ من فنون الأدب، وكنوع من أنواع التعبير، يلجأ إليه أدونيس كنوع أساسيّ في نصّه، أي أنّه يبني عليه هذا النصّ. ولكنّه يستعمل أنواعًا أخرى من التعبير، يجرّها إلى النصّ، وهي في الأساس ليست من طبيعته. فالمسرحُ نوع من التعبير يقوم على المشهد، ومعَه السيناريو، لأنّ المسرحيّةَ تُشاهَد ولا تُقرأ؛ إنّه تعبيرٌ مشهدِيّ يلجأ إلى تقنيّاتٍ مختلفة عن التقنيّات الشعريّة. وعناصرُه الرئيسةُ هي الحركةُ والشخصيّةُ والصوتُ والأضواءُ وشكلُ المكانِ (الديكور)، إلخ...

---

٦٠. المصدر نفسه، ٣/ ١٣٥.

٦١. أدونيس، **تاريخ يتمزّق في جسد امرأة**، بيروت: دار الساقي، ط ١، ٢٠٠٧، ص ١٣.

أمّا تقنيّةُ القصة الشعبيّة المرويّة فهي أيضًا لا تقومُ على الكتابةِ، ولا توضَعُ في الأصلِ من أجلِ أن تُقرأَ بمقدارِ ما توضَعُ من أجلِ أن تُروى، بدليل سهولةِ لغتها (قياسًا إلى عصرها طبعًا)، وتواترِ السجعِ فيها. وهي تحتاج إلى راويةٍ لإنجاز روايتها. والراويةُ هنا شخصيّة تأتي من خارج القصّة ولا تتدخّل في أحداثها، ولكنّه ينحو بالقصّة باتجاه المشهديّة، فيمثّلها ويحرّكها فيما هو يرويها. هذا الراوية صار في كتاب أدونيس المشار إليه جزءًا من قصيدة، وعنصرًا من اللعبة الشعريّة التي يمارسُها الشاعر. فهو دليلٌ على أنّ الشاعرَ يستعمل هذه التقنيّة- تقنيّةَ القصّة الشعبيّة المرويّة-. وهو إنّما يستعمل هذه الشخصيةَ الشعبيّة من أجلِ نقلِ ما يريدُ الإشارةَ إليه، أي التراثَ القديمَ الذي تنتمي إليه المرأةُ في الشرق، والذي يمزّقُ حياتها ويكسّرها باسم التاريخ والدين والله. وكلُّ طرفٍ يروي موقفه من زاوية خاصّة به: فالمرأةُ تنقل مأساتها الشرقيّة ورفضَ الشاعر لهذا الموقف الدينيّ والاجتماعيّ من المرأة، والرجلُ يعكس موقفه المتسلّطَ المنبثقَ من معطياتٍ دينيّة واجتماعيّة وتراثيّة، والجوقةُ تنقل أصداءَ هذين الموقفين، والراويةُ ينقلُ موقفَ الشاعر من المرأةِ الرافضَ للنظرة الشرقيّة التراثيّة.

ويتجلّى موقف أدونيس من هذه المسألة من خلال تصويره للمواقف التراثيّة بطريقة يجعلنا ننفر منها، فهو يتّخذ موقفَ المنحاز إلى صوت المرأة في النصّ من غير أن يصرّح بهذا في النصّ.

وبهذا نجد أدونيس يحوّل تقنيّة النصّ المرئيّ إلى نصّ مكتوب، ويجعل هذا النصّ شعرًا، وكذلك النصَّ المسموع. وبذلك يصيرُ كلٌّ من الراويةِ والمرأةِ والرجلِ والجوقةِ والأصواتِ عناوينَ لقصائدَ في الكتابِ المذكور، فيأتي إخراجُ القصيدةِ بشكلٍ جديدٍ يُفيدُ من الأنواعِ الفنيّة الكتابيّةِ والمسموعةِ والمقروءة.

٤. نتيجة:

بهذا نلاحظ أنّ أدونيس أفاد من التجارب الجديدة للكتابة- وهي تجارب تخضع للعولمة، وتُعيد النظر في ما سبق. إنّها وليدةُ هذا العصرِ الجديد الذي أسقطَ الحدودَ، وفتحَ العالمَ على بعضِه، كما فتحَ الأشياءَ على بعضِها. وهو وليدُ عقل يتحرّى الأشياءَ بمساعدةِ الشعورِ، ولا ينفكُّ يجذبُ التناقضاتِ لتَتَناتَلَ فيه.

وإذا عدنا إلى ما كنّا قد قلنا سابقًا في أثناءِ كلامنا على العولمة، وجدنا أنّ ما سبق قولُهُ ينطبق على النصّ الذي نعالج:

١. فنصّ أدونيس، أوّلاً، قد فقد عنصر الانتماء، لأنّه نصّ لم يعد ينتمي إلى نوعٍ واحدٍ من أنواعِ التعبير، بل بات متعدّدًا في تعبيريّته، مخالفًا للسائد.[٦٢]

٢. وهو نصّ متحوّلٌ باستمرار، بمعنى أنّ قراءتَه لم تعد واحدةً ولا يمكنُ أن تكونَ كذلك، فهو يفرضُ عليه إعادةَ القراءة، ويطرحُ عليكَ جديدًا كلّما أمعنتَ النظرَ فيه، ولا يقدّمُ إليكَ إجاباتٍ بمقدارِ ما أنَّهُ يجعلُكَ تتساءَلُ، والتساؤُلُ يكونُ بدايةَ التغيير.

٣. وهو نصّ متشظٍّ، بمعنى أنّه يحملُ في طيّاته نصوصًا أخرى تراكَمَتْ فيه، وشكّلَتْ عمودَه الفقريّ، فلم يعد البحثُ العقليّ وحدَهُ يُجدي فيه، بل صارَ يحتاج إلى الشعورِ أيضًا للتمكُّنِ منَ الدخولِ إليه، والشعورُ شيء متحوّلٌ جدًّا، وغيرُ ثابتٍ، ومعَ ذلك فإنّ له منطقَه ونظامَه الخاصّين، ومثلُهُ تراكُبُ النصوصِ المُتَشَظِّيَةِ فوقَ بعضها، تمامًا كفلسفةِ الفوضى التي نتكلّم عليها.

٤. وأخيرًا هو نصّ لامركزيّ، بمعنى أنّه لا ينطلقُ من محور ثابت ليتحرّك في أفقه، بل يكسِرُ المحور ويُكَدِّس فيه نصوصًا كثيرةً ومن أشكالٍ مختلفةٍ، ليؤلِّفَ جسَدَه التامَّ، وهي نصوصٌ ليست متجانسةً في طبيعتِها وجوهرِها، ولكنّها باصطفافها تشكّل نوعًا جديدًا من الكتابةِ يقومُ على اللاتَمَرْكُزِ والتحوّلِ المستمرّ.

وفي الواقع، فإنّ كتاباتِ أدونيسَ كلَّها تتغيّرُ بشكلٍ مذهلٍ، ولا تهدأ عندَ حدّ، ما يجعلُه بحقّ الشاعرَ العربيَّ الأوّلَ الذي تمكّنَ من كسرِ حدودِ الكتابةِ المألوفة في التجربةِ الشعريّة، ومنَ التحليقِ في فضاءاتِ التحوّل المستمرّ. إنّه شاعرٌ عالمِيٌّ بامتياز.

٦٢. يقول أدونيس: «لم يعد ينتمي الإنسان إلى وطنه، إلاّ بمقدار ما ينتمي هذا الوطن إليه، خصوصًا أنّ حدودَ الوطن القوميّة تصبح، شيئًا فشيئًا، ضيّقة على حدوده الثقافيّة». (أدونيس، **المحيط الأسود**، ص ٣٥٩).

وعي المعلومات:
فرصة للتعليم الجامعيّ الرسميّ وكتابته



د. كلاديس سعادة

نعيش في عصر تتسارع فيه الاكتشافات والتطوّر التكنولوجيّ في مجال الاتصالات. نلهث، نحن البلدان المستهلكة، وراء مستلزمات مجتمع المعلومات الجديد ومفاهيمه، عاملين على تبنّي بعضها والتغاضي عن البعض الآخر. يمنعنا عن المجاراة التامّة ضعف الإمكانيّات حينًا، وعدم وجود الرغبة أحيانًا، وضرورة القيام بجهود طويلة الأمد لمواءمة ضرورات المفهوم مع المجتمع المعنيّ، عبر تحضير الأرضيّة الماديّة والفكريّة الحاضنة.

هذا حال مفهوم وعي المعلومات في بلداننا .فلقد نشأت الفكرة، كما نعلم منذ العام ١٩٧٤، ولاقت صدى حينها، حيث تلقّفها المكتبيّون الأميركيّون والنيوزيلنديّون أوّلا ثمّ انتشرت، فيما أصبح يعرف بوعي المعلومات، ووضعت له معايير (Information Literacy Competency Standards for Higher Education, n.d) وشروط وطرق تقييم. واتّسع نطاق الحماس في المجتمع الدوليّ (وأصدرت) وتتالى إصدار البيانات – (براغ ٢٠٠٣، الإسكندريّة ٢٠٠٥ (Horton، ٢٠٠٨) وغيرها من المؤتمرات العالميّة في سلوفينيا ٢٠٠٦ كوالالامبور ٢٠٠٦ الخ) – التي ركّزت في محتواها على أهميّة المعلومات وضرورة إتقان التعامل معها كعامل محفّز ومهارة شرطيّة لامتلاك المرحلة والتفاعل معها (Actualités, 2006). وما فتئ مفهوم وعي المعلومات يتطوّر إلى أن ظهرت الحاجة لدمج الميديا ضمن المهارات الضروريّة لمقاربة العصر.

غير أنّ المجتمع العربيّ العريض لم يسمع بذلك عمليًّا، بما فيه عدد كبير من الجامعات والمؤسّسات التعليميّة وغيرها، باستثناء الجامعات الأميركيّة والأميريكيّة المنحى في لبنان التي تفرّدت بتبنّي وعي المعلومات وإنتاج طرق ووسائل لنشرها تماشيًا مع ما يحدث في أميركا. وتجاهلت في المقابل جامعات عديدة أخرى وعي المعلومات ولم تدرجه من ضمن أهدافها حتّى اليوم.

ولمّا كانت فئة الشباب في العالم العربيّ قد أظهرت رغبة ونهمًا في استخدام تقنيّة الإنترنت (ارتفع عدد مستخدمي الإنترنت إلى ٣٠ مليون في شهر مارس الفائت ٧٥ بالمئة منهم من الشباب) (مؤسّسة الفكر العربيّ، ٢٠١١)، فإنّه غدا من الضرورة بمكان خدمة هذه الشرائح بالشكل الأفضل وتسهيل امتلاكها نواصي البحث واسترجاع المعلومات ونقدها، لما لذلك من أهميّة في حياتهم العمليّة والتعليميّة وللفائدة المرجوّة من ذلك في المساهمة في التعلّم المستمرّ لاحقًا والانخراط في عالم متغيّر.

نتناول في هذه الورقة واقع مجتمع المعلومات وتجاوب المجتمع العريض معه، ثمّ نعرض الأسباب الموجبة لاعتماد مفهوم وعي المعلومات في الجامعات، وصولاً إلى طرح فكرة سرتيفيكا في وعي المعلوميديا وشروط تطبيقها، متّخذين من الأرضيّة اللبنانيّة غالبيّة الشواهد.

الحاجة إلى تدجين مفهوم مجتمع المعلومات والميديا:

تدجين مجتمع المعلومات؟

في الواقع نحن في لبنان لم نسائل مجتمع المعلومات (Miège, 2009)– ولا أعتقد أنّ المجتمع العربيّ قد طرح هذه الإشكاليّة بعمق أيضًا– ولا المفاهيم المصاحبة أي مجتمع المعرفة، اقتصاد المعرفة، التكنولوجيا وغيرها (Ischy. 2009)، حتّى أنّنا لا نعرف إن كنّا مستوفين شروط الدخول إلى مجتمع المعلومات، التي تعرّفها الأدبيّات الأسهل بأنّها مرحلة ما بعد المجتمع الصناعيّ وطرق الإنتاج المصاحبة، ممّا يطرح علينا أسئلة بديهيّة حول إن كنّا يومًا مجتمعات صناعيّة؟ أو هل شاركنا في الدخول في المرحلة التي نحن بصددها؟ بالطبع الجواب بالنفي، بسبب أنّنا لم نقولب المفاهيم لتجيب على احتياجاتنا، بل تسلّلت التكنولوجيا بما هي



صناعة واقتصاد وأدوات اتصال وهيمنة إيديولوجيّة محدثةً ثورة في المجتمعات بشكل لم نع تأثيراتها بعد. كما أنّ وسائل الاتصال أحدثت ضغطًا ناتجًا عن ضرورة التعامل مع الخارج وإتباع معاييره وسوقه المعولم، قبل أن ينخرط المجتمع في نقاش يحدّد خياراته وسياساته وتوجّهاته حول الموضوع.

لذا نحن أحوج ما يكون حاليًّا، أقلّه، إلى وعي المرحلة وخصوصيّاتها ومشاركتنا بها ودراسة تداعياتها علينا. كما أنّنا بحاجة إلى نشر ثقافة المعلومات ومناقشتها لتظهير الإشكاليّة بكلّيتها.

لقد قمنا- على سبيل المثال- ببحث في قاعدة معلومات جريدة النهار اللبنانيّة حول مفهومي مجتمع المعلومات ووعي المعلومات، فأتت النتيجة ١٧٠ مقالاً لمجتمع المعلومات منذ ١٩٩٥ ولغاية أيّار ٢٠١١، أمّا وعي المعلومات فلم يحظ بأيّة نتيجة للفترة الزمنيّة ذاتها.

أمّا لو سألنا موقع Google مثلاً عن مفهوم وعي المعلومات باللغة العربيّة لحصلنا على ٧٧ نتيجة، ولو سألنا عن وعي المعلومات مضيفين شكل pdf لما تجاوزت الإجابة أربع وثائق؟!!!!!!!

إنّ انعدام المحتوى يشير صراحة إلى عدم وجود اهتمام أو نقاش مجتمعيّ أو علميّ عربيّ حول الموضوع، بالإضافة إلى عدم وضع النقاش العلميّ الدائر، أقلّه، في الجامعات بتصرّف العامّة. من هنا يمكن الاستنتاج أنّنا بحاجة إلى نشر ثقافة المعلومات وإثارة جدل واعتماد وعي المعلومات ضمانة لتأكيد فائدته في المجتمع عامّة والمجتمع الجامعيّ خاصّة.

فالغرب أنتج أدوات الاتصال والتواصل مرتكزًا على أرضيّة فلسفيّة وفكريّة وقانونيّة وممارسة سمحت له بالتأسيس. فلم تحدث تقنيات التواصل فيه قطيعة مع المفاهيم والممارسة السائدتين بالمجتمع. وذلك لاعتماده بشكل عامّ الديمقراطيّة واعترافه بحقّ المعلومة لمواطنيه، حتّى لو شاب هذا الحقّ بعض العثرات.

أمّا عندنا فالمعلومة ترتبط في ذهننا مباشرة بالاستخبارات الأمنيّة أكثر من كونها معلومة علميّة أو شخصيّة أو مرتبطة بالمواطنيّة وغيرها. كما أنّ احتباس المعلومة يمكن أن يكون موقفًا شائعًا. فشفافيّة المعلومة لم تكن يومًا صفة ملازمة لخصوصيّة مجتمعنا، كما أنّ امتلاك المعلومة يرتبط بموقع وبمركز اجتماعيّ يضفي على حاملها، وحتّى إشعار آخر سلطة ورفعة ومكانة تميّزه وهو ليس حقًّا مكتسبًا بفعل المواطنيّة. بالإضافة إلى أنّ التلاعب بالمعلومة وإخفاء أثرها من الأمور الشائعة عندنا. ومثالاً على ذلك الإحصائيّات ومضامينها وغيره.......

في ظلّ كلّ ذلك، هيمنت تكنولوجيا مجتمع المعلومات والميديا على مجتمعاتنا، ونحن لم نع بعد تأثيراتها وتداعياتها. فهل ينكر المرء- على سبيل المثال لا الحصر- أنّ أدوات التواصل أنتجت ظواهر جديدة عل صعيد اللغة. فأيّة لغة يستخدم أهل الإنترنت العرب؟

أظهرت إحصائيّة قامت بها إحدى الطالبات في كليّة الإعلام في لبنان، وقد أخذت عيّنة من ١٠٠ طالب ، أنّ ٨٥ بالمئة منهم يتواصلون بلغة هي العربيّة المحكيّة المكتوبة بالحرف اللاتينيّ، أمّا لغة البحث لديهم فهي الإنكليزيّة، مع العلم أنّ هؤلاء الطلاّب درسوا الفرنسيّة كلغة أجنبيّة أولى.

إنّ ذلك يشير صراحة إلى نشوء لغة وطريقة كتابة، تبتعد كليًّا عن عادات الماضي القريب السائدة التي كان فيها الطالب يكتب بالعربيّة أو الفرنسيّة أو الإنكليزيّة، وأصبح حاليًّا يكتب إمّا بالإنكليزيّة ولو أجاد الفرنسيّة، أو بلغة جديدة عربيّة المحتوى أجنبيّة الشكل كما اقترح سعيد عقل (شاعر لبنانيّ) في الستينيّات.



صحيح أنّ اللغة الإنكليزيّة فرضت نفسها على كلّ مستخدمي الإنترنت. ولكن أيّة إنكليزيّة هذه؟ إنّها تلك العمليّة التي توحي بالسهولة، ولكنّها لا تعني قطعًا (امتلاكًا للغة)، ذلك الامتلاك الذي يحتاجه الطالب الذي يعالج نصوصًا علميّةً متينة.

باعتقادي أنّ اللغة تطرح إشكاليّة بحاجة إلى دراسة، نظرًا للعلاقة الجدليّة بين اللغة والفكر وطريقة التفكير.

تدجين الميديا:

على صعيد الميديا، بمفهومها العريض، بما هي انفتاح على لغات أخرى ومتون أخرى متعدّدة. فإنّ العالم، والعربيّ منه بالتحديد، يشهد إغراقًا في استعمال الصورة والصوت بما أتاحته وسائل الاتصال السريعة وتنامي الفضائيّات وخدمات الإنترنت التي سهّلتها تقنيّات الويب.

فتنامي قنوات البثّ التلفزيونيّ العربيّة والأجنبيّة أدّى إلى ازدياد الكمّ الفيلميّ، وساهمت تقنيّات الاتصال بنشر الصورة عبر الفضائيّات أو عبر الإنترنت، ممّا أتاح للشبّان الفرصة لإنتاج موادّ لاقت إعجابًا وجماهيريّةً في أوساطهم، من دون الحاجة



إلى المرور بالقنوات التقليديّة. فتقرّب الشبّان من هذه التقنيّات منتجين موادَّ لاقت إعجابًا وجماهيريّة في أوساطهم.
إنّ الشباب بامتلاكهم لأدوات الاتصال وإنتاج أفلامهم وأغانيهم الخاصّة على الإنترنت، وتدجينهم لهذه الأدوات لتعبّر عن واقعهم ومشاعرهم وهمومهم، بات لهم جمهورهم (بيترسون، ٢٠١٠) وإنتاجهم المميّز الذي ما كان ليرى النور عبر القنوات التقليديّة المعتمدة. ولقد أشارت دراسات حول الممارسات الثقافيّة للشبان العرب أنه في هذه المرحلة «غدت ممارسات الشباب نقضًا واستملاكًا لوسائل الاتصال في آن ....» (عبد المسيح، ٢٠١٠)
يشكّل تبنّي مفهوم وعي المعلوميديا ومهاراته، عاملاً ضروريًّا مساعدًا للتأقلم مع واقع متغيّر ومعقّد، فيتعلّم المستخدم استعمال ثروة المعلومات وقواعد الاتصال، كما يتعلّم نقدها وعدم قبول ما تنقله بعد أن أصبحت قنوات العالم في متناوله، إضافة إلى أنّه يكثّف مشاركته في عمليّة الإبداع.
هذا، ويشكّل لبنان مثالاً على ما نقول إذ يعاني الإعلام اللبنانيّ على سبيل المثال لا الحصر مشكلة افتقاده الأخلاقيّات المهنيّة بصورة مخجلة منذ فترة طويلة نسبيًّا. تتمثّل هذه المرحلة بخلط الرأي بالخبر وتقديم الأوّل على أنّه الثاني والثاني على أنّه الأوّل، وفبركة الخبر وتحويره انطلاقًا من الموقف المسبق. وقد أدّى ذلك مرارًا إلى زعزعة السلم الأهليّ. إنّ التربية على تنمية الملكات النقديّة، تخفّف من الإزعاج الذي تسبّبه مواجهة القناعات الأخرى، (ذلك الإزعاج الناتج عن اهتزاز في القيم أو الأفكار المتبناة والتي يهدّدها الرأي الآخر)، وبالتالي تزيد من وعي المواطن وقدرته على الانتقال إلى وعي آخر، وهو هدف التعليم المستمرّ.

الأسباب الموجبة لاعتماد وعي المعلوميديا في الجامعات

لماذا ثقافة المشاركة والتشبيك، ثقافة المعلومات؟

أنّ الجامعات تشكّل بدون منازع مجتمع المعرفة، وتعتبر المعلومات، استخدامًا وإنتاجًا، علّة وجودها. فالجامعات- أيًّا كانت أهميّتها وجدّيتها- ما زالت ترتوي بالمعلومات منذ نشأتها، وتعيد إنتاج هذه المعلومات مقدِّمة قيمة مضافة تزيد وتجدّد العلم والثقافة والفكر.
ضمن هذا الإطار، يجد وعي المعلوميديا أرضيّة مؤاتية في الجامعات مستلهمًا ثقافة العصر المتمثّلة بالمشاركة والتشبيك.

فمن نافل القول أنّ الطلاّب يستخدمون بنسبة عالية وسائل الاتصال، ومن نافل القول أيضًا أنّهم يقومون باستخدام الشبكة بشكل كثيف. ولمّا كانت الشبكة تأوي ملايين المواقع، وتعتبر نسبة ٦ بالمئة فقط من تلك المواقع علميّة، فإنّ تعليم الطلاّب أفضل الوسائل لبلوغ أهدافهم يعدّ عملاً مساعدًا لا بل مؤسّسًا في العمليّة التعلميّة.
لقد أدّى وجود التقنيّات إلى تجديد العمليّة التعليميّة بتبنّيها فلسفة البنائيّة كنظريّة تعليميّة؛ تلك التي تعتبر الطالب محور العمليّة، وتنادي بضرورة توجيه التعليم نحوه كي يساهم في بناء مداركه. يقوم الطالب بالمشاركة في بناء تعلّمه، ويتيح له التعلّم الحاليّ هذه الإمكانيّة عبر دفعه إلى تنمية طرائق تعلّمه.
وفي ظلّ هذا الواقع، ارتفع عدد المشاركين في العمليّة التعليميّة إلى ثلاثة: المكتبيّ كأخصّائيّ معلومات، والتقنيّ كوسيط، والأستاذ كمحفّز وناقد لبنية المعلومة ومنطقها، من حيث كونه يضع الطالب في علاقة جدليّة بين النصوص أيًّا كانت والتجربة الفكريّة، فيشكّل الثلاثة فريقًا متضامنًا متكافلاً في العمليّة التعليميّة، كلّ يساهم في تقديم خبراته ومهاراته بهدف مساعدة الطالب على خطّ طريقه العلميّ.

المكتبيّ:

إنّ مهنة المكتبيّ بشكلها الجديد والمهارات المطلوبة حاليًّا منه غير معروفة للعموم، نظرًا لهامشيّة دوره في تاريخنا البعيد والقريب، فهو لم ينخرط يومًا في قضيّة، ولم يخدم هدفًا، ولم يُعرف له أعلام احتفظت بهم أيّ ذاكرة جماعيّة. حتّى الفيكونت دي طرازي الذي ناضل لإنشاء المكتبة الوطنيّة ومن ثمّ لاستمرارها ليس من الشخصيّات المعروفة في لبنان مثلاً.
ولا تزال إلى اليوم صورة المكتبيّ أو المكتبيّة سلبيّة متأثّرة بتلك التي ظهّرتها الأفلام العربيّة: حيث يتمّ تكليف الموظّف العمل في المكتبة كقصاص له ودليل عدم رضى رؤسائه عنه.
ومع التغيّرات التي طالت وظائف المكتبات بدخول التكنولوجيا الحديثة، فإنّ ثورة الاتصال والتواصل دفعت مهنة المكتبيّ إلى تغيير تكوينها بشكل مستمرّ، وحوّلتها من مهنة مبنيّة أساسًا على العمل الروتينيّ الفرديّ المملّ إلى أخرى أقرب إلى التواصل والتقنيّة العالية. لكن يبقى أنّ هذا التحوّل ليس كاملاً وناجزًا في مجتمعنا إذ تتجاور الحداثة والماضي في بعض الأمكنة، ويتداخل التقليديّ مع الحديث في مرحلة انتقاليّة سريعة.

لذلك تقوم كليّات المعلومات وعلم المكتبات منذ عشر سنوات تقريبًا بتغييرات دائمة في برامجها لمواكبة تغيّرات المهنة. وهذا ما تدلّ عليه أيضًا التغييرات المتلاحقة في تسمية الشهادة المتخصّصة نفسها.[١]

ولقد أشارت دراسة أنجزت حول مهنيّي المعلومات (Stephan & Saade 2003) في لبنان إلى أنّ جمهور المهنيّين يختار اختصاص المكتبات عادة من دون قناعة. هو غالبًا ليس خيارًا، وإنّما موقف ناتج عن ضياع أو عدم وضوح هدف محدّد لدى الطالب. أمّا حاليًّا فقد زاد الطلاّب سببًا إيجابيًّا ألا وهو سهولة إيجاد عمل في هذا الاختصاص. هذا وقد أعرب العاملون عن عدم رضاهم عن خيارهم هذا، واعتبروا أنّ ظروف العمل وضعف إمكانيّات الترقّي الوظيفيّ وضعف المردود الماليّ والصورة الاجتماعيّة النمطيّة التقليديّة هي من الأسباب الرئيسيّة لهذا الاستياء.[٢]

إنّ جمهور مهنيّي المعلومات بغالبيته من الإناث، وهذا مكمن من مكامن ضعفه. وهو بحكم أنثويّته ضعيف التنظيم والالتزام بقضايا مجتمعيّة (يعمل لأجلها) ونضاليّة لتحسين ظروفه.

إلاّ أنّ هناك مؤشّرات إيجابيّة. فالرابطة التي أنشئت سنة ١٩٦٠ بدأت تعي أكثر وأكثر دورها والمسؤوليّات الملقاة على عاتقها بفعل ازدياد أعداد المهنيّين وتطلّعهم إلى عمل جماعيّ وإلى تحسين وضعهم، لذلك انضوت الرابطة ضمن برنامج لبناء قدراتها.

لكلّ هذه الأسباب وغيرها، نعتقد أنّ شهادة وعي المعلوميديا ستدفع بالمكتبيّ إلى موقع يثمّن فيه مهاراته، ويحسن من وضعه الوظيفيّ، ويدمجه بدور جامعيّ واجتماعيّ أكبر. ولا شكّ أنّ قيامه بهذه المهامّ سينشر صورة متقدّمة عن تلك القديمة الباقية في الأذهان، وسيوسّع من دائرة شركائه.

التقنيّ:

إنّ دور التقنيّ في التعليم جديد في الجامعات، وهو مرتبط بدخول الحاسوب. ونواجه راهنًا ما واجهه الغرب سابقًا من ترفّع المهنيّ وثقته بتقنيته وبعدم رغبته غالبًا بتطويع الأداة لمصلحة التعليم، كما نواجه صعوبة إدخال التكنولوجيا كأداة تعليميّة (بلّة، ٢٠٠٥) بسبب ارتفاع كلفة هذا التعليم المرتكز على تجديد دائم لتلك التقنيّات.

إلاّ أنّه، وبالحدّ الأدنى، يمكننا القول إنّ الحاسوب قد أصبح من الموادّ الإجباريّة في مرحلة ما قبل الجامعة، ربّما لا يطال كلّ المدارس الرسميّة والخاصّة، إلاّ أنّ التلامذة يدخلون بسرعة في عالمه ويمتلكون ما استطاعوا من إمكانيّاته فيأتي التعليم الجامعيّ ليكمل ما فاتهم من وظائف.

Google

الأستاذ:

يواجه الأستاذ حاليًّا معضلة تدفّق المعلومات بشكل مقلق. وتختبر مصداقيّة محاضراته أمام مجهر غوغل لدى كلّ هفوة.

لذا بات الأستاذ مجبرًا على تحوير دوره كناقل للمعلومات وكمحاضر وحيد، وتحوّل إلى مساهم أوّل في بناء الملكات الفكريّة العليا حسب تصنيف بلوم؛ حيث أنّ الملكات الأولى المتمثّلة في اكتساب المعرفة والفهم، والتي يحدّدها بلوم بأفعال مثل تعريف، حفظ، إعادة، وتذكّر، تبويب. وإيجاد المعلومة بات هامشها ضيّقًا جدًّا، إذ يمكن للطالب، بمساعدة المكتبة والإنترنت، الوصول إليها، خاصّة إذا ما اكتسب مهارة وعي المعلومات.

أمّا الملكات العليا المتعلّقة بالتطبيق والتوليف والتحليل لبلوغ الإبداع، فإنّ هذا الدور لا ينازعه عليه أحد. وهو مدعوّ لتطويره لأنّ الطالب بات يأنف من الاطّلاع على ما يمكنه أن يصل إليه بمفرده. هذا بالإضافة إلى أنّ الأستاذ أصبح مضطرًّا إلى التفكير بطرق التعليم والتواصل التربويّ أكثر من ذي قبل ومماشاة الشبّان والشابّات ومراعاة خصائصهم؛ إذ يمكننا أن نتكهّن أنّ لهم خصوصيّات مشابهة لطلاّب الغرب، من حيث إقبالهم على التكنولوجيا وكونهم متعدّدو المهارات، ويستطيعون القيام بعدّة أمور بوقت multitask قليل. كما أنّه، أي الأستاذ، أصبح معنيًّا بمساعدة الطلاّب على بناء معارفهم (Serres, 2010) والتأكّد من أنّ هذا البناء قد أحدث تغييرًا في وعيهم (Ramsden, 1988)، والتأكّد أيضًا من حسن استخدام طلاّبه للمصادر العلميّة، وعدم استبعاد الضروريّ منها، إذ أنّ أهميّة وعي المعلومات تكمن في استخدام مهاراتها من قبل جمهور الطلاّب. وفي نهاية المطاف، فالأستاذ هو المقوّم الوحيد والأخير للمهارات المكتسبة في وعي المعلومات، ذلك الوعي الذي ينمّي النقد الفكريّ.

إنّ تطوير ملكات النقد لدى الطالب تشكّل حاليًّا إحدى القدرات التي ينتظرها المجتمع العلميّ ويعوّل عليها لتقدّم العلوم والإبداع.

---

(١) لقد تحوّل تسمية الاختصاص من التوثيق إلى علم المعلومات إلى إدارة المعلومات.

(٢) لقد تعاقدت الجامعة اللبنانيّة على سبيل المثال مع ٤٠ مكتبيًّا من حملة شهادة المكتبات (بكالوريا + ٤ سنوات) وأجبرتهم الجامعة على اتفاف يدفع لهم بموجبه مرّة سنويًّا. وقد مضى على الحال الموقّته ثلاث سنوات حتّى الآن، وما زال المكتبيّون يقبضون سنويًّا لقاء أتعابهم اليوميّة، ولم تحرّك الرابطة ساكنًا لإعلاء صوتهم.

بالإضافة إلى أنّنا كمجتمع يغلب عليه طابع الاستهلاك للمعلومة والميديا بشكل عامّ، نحن مدعوّون إلى مساءلة المعلومة والتنبّه إلى ما تنقله بين طيّاتها من معان ثقافيّة وسياسيّة وفلسفيّة وإعادة إنتاج مبدع للمحتويات.

نتيجة لكلّ ذلك، يعاني بعضٌ من أعمال الطلاّب من التفكّك لاعتماده على نقل نصوص كاملة من دون الإشارة إلى مؤلّفها، وإلى اعتماد قراءة zapping، وكأنّهم يعتبرون أنّهم أصحاب النصوص لمجرّد إيجادها على الإنترنت. كما أنّهم عندما يقومون بعمل بحثيّ، تبدو المعلومات وكأنّها هي التي تسيّرهم وتسيطر على فكرهم. فالمعلومة تفرض نفسها عليهم، فيتبنّون منطق كلّ ما يقرؤون. ولمّا كانت مصادرهم غير علميّة غالبًا ومتنوّعة، فإنّ أعمالهم تأتي مفكّكة تتّبع عدّة مسارات فكريّة. تصل هذه الأعمال في نهاية المطاف إلى الأستاذ الذي يشكّل تعاونه مع المكتبيّ وخروجه من برجه العاجيّ ضمانة لحسن تأديته لدوره واعتبار الحثّ على تنوّع مصادر المعلومات جزءًا لا يتجزّأ من عمله، ممّا يعني للكثيرين أيضًا إتباع دورات في وعي المعلومات وحثّهم على العمل الجماعيّ.

إنّ الطلاّب يعانون من علاقة مأزومة مع المعلومة العلميّة، إذ أنّهم يغرقون في تدفّق المعلومات ويعملون جاهدين على الابتعاد عن قواعد المعلومات العلميّة المتخصّصة، فيتوجّهون إلى غوغل مسائلينه عن كلّ شاردة وواردة، خاصّة وأنّ تاريخ قواعد المعلومات العلميّة على شيء من الجدّة في الحياة الجامعيّة. ولما كانت نتيجة البحث تُقدّم باللغة الإنجليزيّة آلاف المواقع، فأنّهم نظرًا العدم امتلاكهم آليّات البحث المجدي يتوجّهون إلى المواقع الأولى التي يجدونها لبلوغ أهدافهم. وهم غالبًا لا يميّزون بين معلومة تجاريّة أو تربويّة أو غيرها. ونودّ الإشارة هنا إلى أنّ هذه المواقف تكاد تكون عالميّة، إذ يعمد الطلاّب إلى ممارسة البحث السريع فكلّ ما لا يظهره محرّك البحث في تراتبيّته الأولى هو عمليًّا غير موجود (Kim & Sin, 2011).

إنّ هذه العلاقة المأزومة بين الطالب والمعلومة ترتبط بشكل أساسيّ بخلفيّة الطالب اللغويّة (لأنّ الشبكة طابعها الأغلب أميريكيّ) والفكريّة وتجربته العلميّة وطموحه المعرفيّ، وربّما مكانته الاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة. فمن يملك الخلفيّة النقديّة والثقافة والمعرفة، هو قادر على أن يقوم بجهد نقديّ أفضل من الذي لا يمتلك هذه المهارات. لذلك، لا بدّ لطرق التدريس أن تواكب التقنيّات، وأن تعتمد طرقًا تتحاور فيها النصوص والمعلومات، لدفع الطلاّب- أكبر عدد منهم- إلى الارتقاء إلى ملكات ذهنيّة أعلى.

لا بدّ لنا من الاعتراف أنّ الطلاّب يلجؤون غالبًا إلى الشبكة، نظرًا لعدم وجود قواعد معلومات علميّة بعد في العديد من الجامعات وحتّى وقت قريب. وتشير دراسة ((Al-Khatib & Johnson, 2001 (Stephan-Hachem, 2004)) إلى أنّ طلاّب الجامعات الأميريكيّة العريقة يتوجّهون إلى المقالات، والآخرين إلى الكتب. غير أنّ هذا التوجّه يتمّ فقط في أيّام الامتحانات، وبناء على طلب من الأستاذ. إنّ ضعف وجود قواعد المعلومات العلميّة، وعدم الرغبة باستخدامها متى وجدت، يشكّلان أسبابًا تدفع باتجاه غوغل.

لكلّ هذه الأسباب نعتقد أنّ اقتراح سرتيفيكا وعي المعلوميديا يساهم مساهمة فعّالة في تصويب استخدام المعلومات (Ureña, 2003)، وفي تحسين أداء الطلاّب وتغيير العمليّة التعليميّة، فتتغير العلاقة بالمعرفة، التي يريدها القرن الواحد والعشرون دائمة، متجدّدة، فيكون الطالب بكامل الجهوزيّة للتعامل مع التغيير.

سرتيفيكا معلوميديا؟

عرف القرن الماضي أميّة وحيدة وهي أميّة القراءة التي لم نتخطّها بعد، والكتابة والحساب. إلاّ أنّه منذ الثمانينات شهدنا نشوء أميّات متتالية: أميّة الكمبيوتر، أميّة المعلومات، أميّة الصورة، أميّة الميديا، وأميّة المعلومات والميديا. تشير هذه الأميّات إلى تعقيد المهارات المطلوبة وسرعة وتيرة تغيّرها، بتأثير من تطوّر التقنيّات والمهارات المطلوبة.

هذا بالإضافة إلى أنّ التقنيّات تتّجه نحو سرعة تدفّق المعلومات بطريقة أكبر وأسرع، ما يستدعي امتلاك نواصي الوصول إليها وامتلاكها ونقدها.

فكما أنّ أميّة القراءة والكتابة تفتح الباب عريضًا لدخول آفاق النصّ المكتوب وتساعد المتعلّم على صياغة واقعه والتأثير عليه، فإنّ أميّة الحاسوب (بحدّه الأدنى) تقترب من أميّة الكتابة، أي اكتساب الأداة؛ وبالتالي، فأنّ وعي المعلومات والميديا[٣] يؤمّن

(٣) ومن الملاحظ أنّ الحاسوب لم يثر ما آثاره التلفزيون في الستينيّات من رفض وخوف. فهذا الأخير جوبه بحرب ضروس في المجال الأكاديميّ بالمقارنة مع الحاسوب. ولم يجد إلاّ في أعين القليلين من التربويّين استحسانًا وتقبّلاً. وها هي الأفلام والمصوّرة والمغنّاة عبر إنترنت لا تحظى إلاّ بالشجيع والمباركة.

لمستخدم الإنترنت ولوجًا ذكيًّا وفعالاً[٤] لثروات الإنسانيّة بكلّ أشكالها المكتوبة والمرئيّة والمسموعة، فيساهم في مساعدة المستخدم على بناء معرفيّ يرتبط بعلاقة جدليّة مع الفكر والممارسة.

إنّ سرتيفيكا وعي المعلوميديا يعطي للطالب أو أيّ مواطن بدون شروط مسبقة معرفة أساسيّة في فهم عالم المعلومات وفي تأمين وصول المستخدم إلى ما يريد منها.

فكما اعترفت السرتيفيكا الابتدائيّة بقدرة المواطن على دخول القرن العشرين، تعطي سرتيفيكا وعي المعلوميديا للطالب الجامعيّ الشهادة نفسها في دخول القرن الواحد والعشرين.

ما هي الأهداف التي تتوخّاها هذه السرتيفيكا؟

تتضمّن أهداف سرتيفيكا وعي المعلوميديا نشر ثقافة المعلومات والميديا والتعلّم على إيجاد المعلومات وتقييمها ونقدها، فتكون أهدافها لطلاّب الليسانس:

١. نشر مبدأ الحقّ بالمعلومة. ٢. نشر ثقافة شفافيّة المعلومة. ٣. فهم المعلومة كعمل مركّب هادف. ٤. فهم المعاني الثقافيّة المستترة التي تحملها المعلومة. ٥. تمييز أنواع المعلومات. ٦. تمييز أشكالها. ٧. إتّقان طرق البحث عنها وإيجادها. ٨. تقييمها. ٩. كتابة المراجع حسب المعايير. ١٠. أخلاقيّات استخدام المعلومة.

محتوى سرتيفيكا وعي المعلومات والميديا:

يتوجّه برنامج وعي المعلومات إلى طلاّب جامعيّين ما زالوا في سنتهم الأولى، وهم حكمًا ضمن اختصاص ما. يشكّل اختصاصهم الأرضيّة التي ستبنى عليها هذه المهارات الأساسيّة.

يتعلّم الطالب:

١. استخدام محرّكات البحث والفرق بينها. ٢. استخدام الأدوات البيبليوغرافيّة في ميدان الاختصاص. ٣. فهارس المكتبات. ٤. تدوين. ٥. كتابة مستخلصات. ٦. التعرّف على مصادر المعلومات التي تدخل ضمن اختصاصه باللغات التي يتقنها. ٧. قواعد المعلومات الضروريّة في مجاله. ٨. الخرائط. ٩. المعلومات الحكوميّة. ١٠. Podcast. ١١. مصادر المعلومات المفتوحة. ١٢. الويب (ال) غير المرئيّ. ١٣. البّوابات. ١٤. الإحصائيّات. ١٥. المؤسّسات المنتجة ضمن اختصاصه. ١٦. المؤسّسات المهنيّة. ١٧. استخدام قواعد المعلومات المتخصّصة. ١٨. استخدام المكانز. ١٩. تجزئة الأسئلة إلى مفاتيح كلمات. ٢٠. كيفيّة تقييم الموادّ التي يحصل عليها. ٢١. التمييز بين المعلومة التجاريّة والمعلومة العلميّة. ٢٢. وضع بيبليوغرافيا حسب الأصول معتمدًا نسقًا معيّنًا. ٢٣. الاستشهاد. ٢٤. استخدام تحميل تنزيل صور وأفلام وأغانٍ ونصوص. ٢٥. تمييز أشكال الوثائق واستخدامها pdf, html, jpg. ٢٦. العمل على التحليل والتوليف.

بالطبع، إنّ هذه المهارات (Alava & Romainville, 2001) تُكتسب بتعاون مختبر الكومبيوتر الذي يساهم في الجانب الذي يخصّه. أمّا طريقة استخدام هذه الموادّ والتدرّج فيها وبناء معرفة الطالب ارتكازًا على كلّ المهارات التي امتلكها حسب تصنيف بلوم، فإنّ هذا جوهر عمل الأستاذ حاليًّا[٥]. إنّ هذه الملكات ضروريّة للطالب، ولكن يبقى الأهمّ (إلاّ) وهو معرفة استخدام هذه الأدوات لتنمية مهاراته النقديّة وتحليل المعلومات.

شروط نجاح سرتيفيكا المعلوميديا:

تعزيز دور رابطة المكتبيّين:

تجد مهنة المكتبيّين في مفهوم وعي المعلوميديا دورًا أساسيًّا في تظهير مساهمتها في المجتمع بشكل عامّ، وفي المجتمع التعليميّ على كلّ المستويات الابتدائيّة والثانويّة والجامعيّة. إذ أنّ المعلومات كداتا تتّخذ أشكالاً تواصليّة. ويبدو أنّ التكنولوجيا تدفع بالمكتبيّ إلى أن يلعب دورًا في المعلومات التي يمتلكها وإنتاجها ونشرها، أي التواصل. إنّ ذلك الدور يدخل في عمق نشاط المرحلة التي نعيش، ولا بدّ من استنهاض المكتبيّ لتأدية دوره. إنّ هذا الاستنهاض ليس خيارًا للمكتبيّ وللمجتمع، إذ لا يمكن له تجاهل الدور الكبير للمجتمع الذي يعمل معه.

(٤) لقد أظهرت دراسة قمنا بها السنة الماضية لشبّان لا تتجاوز أعمارهم ١٦ سنة من مرتادي المدارس الرسميّة، ومن الذين رسبوا عدّة مرّات، وبالتالي لديهم صعوبات لغويّة جمّة. إنّ هؤلاء الشبّان يمضون أقلّه ٣ ساعات في مقاهي الإنترنت، لأنّهم لا يمتلكون الأداة في منازلهم، وهم يتواصلون مع آخرين وينزلون الأغاني والصور، ولكنّهم جميعًا غير قادرين على التفتيش بشكل منطقيّ أو مغاير عن وضع كلمة في علبة غوغل.

(٥) يقول MIT أنّ الطلاّب يقومون عادة في الفصل الثاني بحضور دورات مجّانيّة– تقدّمها الجامعة– في وعي المعلومات، والتسجيل فيها اختياريّ. ولكنّ جميع الطلاّب يقومون بتلك الدورات خلال دراستهم. وهم غالبًا ما يتسجّلون بتلك الدورات عندما يطلب منهم الأساتذة القيام بأبحاث، ويوحون لهم بمصادر المعلومات المنتظرة.

صحيح أنّه غير معتاد على الظهور وصحيح أنّه غالبًا ليس مؤهّلاً لحمل لواء المرحلة. ولذلك، فإنّ الدعوة موجّهة للمكتبيّين ولروابطهم لتأهيل ذواتهم في خدمة المجتمع. وانطلاقًا من هذا الهمّ، نعتقد أنّ فكرة سرتيفيكا المعلوميديا هي مناسبة جيّدة يجب على الرابطة أن تتلقّفها لإنشاء سرتيفيكا على صعيد محليّ، تكون تحت إشرافها وتضع برنامجها، وتحدّد أطر تقييمه وإعطائه المستخدمين. إنّ ذلك يعني أيضًا، وعلى صعيد كلّ بلد، أن تقوم الرابطة المعنيّة بإنشاء وحدة تهتمّ بهذا الموضوع، وتعمل على تدريب المدرّبين في الجامعات كافّة بالتعاون معها، لإرساء مفهوم المعلومات ولتسويقه أمام الأفرقاء في العمليّة التربويّة والتعليميّة. مع العلم أنّ لهذا الاقتراح محاذيرَ يجب التفكّر فيها أيضًا من الناحية المنهجيّة:

إنّ وعي المعلوميديا يتعلّق بمهارات تكتسب وبمسار تعليميّ، وبالتالي فهو يشمل أقلّه فريقين. ٢. إنّ تعليب البرامج ليس بالضرورة مفيدًا نظرًا لتنوّع المواقف التعليميّة. ٣. صعوبة مراعاة خصائص الاختصاصات العلميّة. ٤. إنّ عنصر التكنولوجيا متحوّل. لذلك يفترض العمل على تعليم مستمرّ وتغيير مستمرّ للبرامج. ٥. عدم الارتكاز كليًّا على العنصر التكنولوجيّ، خاصّة في البلدان التي لا تستطيع تأمين عدالة توزيعها. ٦. ضرورة التعاون مع القطاع التعليميّ وبناء علاقات متينة مع الأفرقاء لضمان حسن سير المشروع (Ureña, 2003).

إنّ فكرة عمل جماعيّ دونها صعاب ونزاعات، إلاّ أنّ المرحلة التي نعيش تسمح بكلّ الآمال. فلقد اعتمد الشبّان ثقافة التشارك والتشبيك. ونحن أقلّه المكتبيّين أكثر ما نكون بحاجة إلى هذه الثقافة التي هي في الغرب من العناصر المهنيّة المميّزة لهذا الاختصاص.

ثمّ أنّ قيام رابطة المكتبيّين في كلّ بلد بمناقشة أهميّة وعي المعلومات مع الجامعات والمراجع الرسميّة المعنيّة يعطي الرابطة اعتبارًا لعملها واعترافًا بأهميّته؛ إذ أنّ من مهامّها تدريب المكتبيّين على امتلاك الأسس ضمن دورات تأهيل مستمرّ في وعي المعلومات وتطبيقه.

إعادة النظر في برامج تأهيل المكتبيّين:

اعتمدت العديد من جامعات الدول الأوروبيّة وغالبيّة أميريكا الشماليّة تكوين طلاّب المكتبات والمعلومات بعد الليسانس. وهي تقبل في صفوفها الطلاّب من أيّ اختصاص أتوا، وترحّب بتنوّع اختصاصاتهم. إنّ ذلك يرفع من مستوى المكتبيّ العلميّ، ويمكّنه من اختصاص علميّ ما، وبالتالي فإنّ مواكبته طلاّبًا جامعيّين في نفس الاختصاص تأتي أجدى وأنفع. لذلك ربّما كان من الملحّ البحث في تكوين المكتبيّ وضرورة رفع مهاراته ليتلاءم تكوينه مع متطلّبات المرحلة وربّما اعتماد ازدواجيّة الاختصاص.

التزام المكتبيّ بقضايا المجتمع:

تكمن أهميّة المهن بمدى حاجة المجتمع إليها، وبأهميّة الخدمات التي تقدّمها للناس. لذلك يشكّل التزام المهنة بخدمة المواطنين في قضايا مفيدة لهم، بحيث تحدّد في كلّ بلد انطلاقًا من حاجته وطلبات المستفيدين أو حتّى من قضايا طليعيّة يثمّنونها (تسليط الضوء على ضعف القرائيّة والعمل على نشر القراءة) أو من أفكار جديدة يعملون على نشرها في الإطار الذي يعنيهم، أي المكتبات ومراكز المعلومات: كمحو الأميّة مثلاً أو اعتماد دورات وعي معلومات لجمهور المكتبات العامّة، أو المهنيّين في أيّ اختصاص غير جامعيّ، أو أيّ مجموعة يمكن استهدافها وخدمتها.[٦]

تغيير العلاقة بالمعرفة

من نافل القول إنّ الجامعات العربيّة تعاني من العديد من المشاكل البنيويّة الأساسيّة (Al-Rashdan, 2009)، وهي في معظمها في أسفل سلم تراتبيّة الجامعات من حيث الإبداع والإنتاج. كما أنّه وحسب تقرير التنمية البشريّة، فإنّ المنطقة العربيّة تعاني عامّة من ضعف القرائيّة وضعف استهلاك الكتب بشكل عامّ. زد على ذلك ضعف الاهتمام بالمكتبات في الجامعات من حيث الإمكانيّات البشريّة والماديّة. كلّ ذلك يدفعنا إلى الاهتمام بتنمية دور المكتبيّ وتثمينه واعتباره عنصرًا شريكًا في إدارة العمليّة التعليميّة، واعتبار غيابه الحاليّ عن الساحة، أو لنقل ضعف مشاركته، عنصرًا من عناصر فشل الأداء.

فالعلاقة بين الجامعة والمجتمع والطلاّب بحاجة إلى إعادة نظر، وإلى رسم سياسات ديناميّة تعمل لخدمة قضايا التنمية الوطنيّة

(٦) إنّ مكتبة جورج بومبيدو العامّة تقدّم لزائريها خدمة المساعدة على كتابة السيرة الذاتيّة والتفتيش على عمل.

المباشرة. إنّ استجابة الجامعات لمشاكل مجتمعها ضمن أطر تعليميّة ديناميّة يساهم في تغيّر أساليب التعليم أيضًا من جهة توجّهها لمعالجة مشاكل وإعطاء حلول والابتعاد عن التعليم التقليديّ، خاصّة وأنّ تقنيّات التواصل قد فرضت نفسها بلا منازع عنصرًا محفّزًا، ثوريًّا دافعًا إلى التغيير.

خلاصة:

غالبًا ما يصل الطالب إلى الجامعة وفي جعبته ممارسة قرائيّة ضعيفة، ويتعامل مع أنظمة تعليميّة لا تعتمد بغالبيّتها ثقافة المشاركة، وتحمل طابعًا تعليميًّا تقليديًّا. وهو يواجه عالم المعلومات، ويتواصل مع أقرانه، وينشط على الشبكة، ويتعامل مع العديد من النصوص.

هو متعامل مع المعلومة، ولكنّه لا يمتلك نواصي هذا التعامل، ويعاني من صعوبة ترشيده لذلك، ومن ضعف تنمية الفكر النقديّ. لذا يشكّل وعي المعلوميديا وسيلة تساهم في امتلاكه أدوات يستخدمها بشكل شبه يوميّ، وتعطيه الخلفيّة التي تساعده على عدم الانجرار وراءها من دون التأكّد من صدقيّتها وإعادة إنتاجها. في ظلّ ذلك يشكّل سرتيفيكا المعلوميديا أداة تسهم في هذا الهدف، وفي تثمين دور المكتبيّ الذي أهمل على مدى عقود؛ فتؤدّي علاقة الأوّل بالثاني إلى علاقة جدليّة يستفيد منها جميع أفرقاء العمليّة التعليميّة.

نعتقد أنّ التكنولوجيا لا تطرح مشكلة استعمال تقنيّة بحال ما وجدت وكانت أتاحتها ممكنة، ولكنّ الجانب الثقافيّ المواكب هو الذي يحتاج إلى سياسات محفّزة وتشجيع وجهد. فلإنجاح برامج وعي المعلوميديا، نحتاج إلى عمل دؤوب يتناول تثمين عمل المكتبيّ، وتعاون أفرقاء العمليّة التعليميّة في جوّ تطغى عليه ثقافة المشاركة والمواطنة والديمقراطيّة.

Bibliographie

- *Actualités*. (2006, June 01). Retrieved May 14, 2011, from Unesco Web site: http://portal.unesco.org
- Alava, S., & Romainville, M. (2001, Septembre). *Les Pratiques D'étude Entre Socialisation Et Cognition.* Retrieved Mai 12, 2011, from Institut français de l›Education Web site: www.inrp.fr
- Al-Khatib, S., & Johnson, I. M. (2001). *Libraries in Major Universities*. Retrieved May 13, 2011, from LibriJournal Web site: http://www.librijournal.org/pdf/2001-4pp209-224.pdf
- Al-Rashdan, A.-F. (2009). *Higher Education in the Arab World: Hopes and Challenges*. Retrieved May 17, 2011, from International Relations and Security Network: http://www.isn.ethz.ch
- Forest Woody Horton, J. (2008). *Understanding Information Literacy: A Primer*. Paris: Unesco.
- *Information Literacy Competency Standards for Higher Education*. (n.d.). Retrieved May 10, 2011, from Association of College and Research Libraries: http://www.ala.org/ala/mgrps/divs/acrl/standards/informationliteracycompetency.cfm
- Ischy, F. (2009, December 01). *La «société de l'information» au péril de la réflexion sociologique?* Retrieved May 17, 2011, from Revues Web site: http://ress.revues.org/603
- Kim, K.-S., & Sin, S.-C. J. (2011, February 28). *Selecting Quality Sources: Bridging The Gap Between The Perception And Use Of Information Sources*. Retrieved May 5, 2011, from Journal Of Information Science Web site: http://jis.sagepub.com/content/37/2/178.short
- Miège, B. (2009, April 3). *L'imposition d›un syntagme: La société de L›information*. Retrieved May 9, 2011, from Revues Web site: http://ticetsociete.revues.org/467
- Ramsden, P. (1988). Studying Learning: Improving Teaching. *Improving Learning*. New Perspectives, 13-31.
- Serres, A. (2010). Educations Aux medias A L'information et Aux Tic: Ce Qui Nous Unit Et Ce Qui Nous Separe. In F. Chaperon, *L'Education A La Maitrise Informationnelle* (pp. 76-87). Villeurbanne: ENSSIB.
- Stephan, M., & Saade, G. (2003). *L'information Documentaire Au Liban: Profession, professionnels et Formation*. Beyrouth: Publications de l›Universite Libanaise.
- Stephan-Hachem, M. (2004, August). *Les Moyens De La Recherche En Sciences De l'Information*. Retrieved May 2, 2011, from BDB Des Sciences de l'Information Web Site: http://www.cndwebzine.hcp.ma/IMG/pdf/3226_fr.pdf
- Ureña, C. P. (2003). *The International Information Literacy Certificate: A Global Professional Challenge?* Retrieved May 19, 2011, from IFLA Web site: http://archive.ifla.org/IV/ifla69/papers/202e_trans-Pasadas_Urena.pdf

– بلّة، ف. (٢٠٠٥). مبادرة اليونسكو للثقافة الحاسوبيّة: نحو ردم الهوّة الرقميّة في لبنان. In ا. ا. التربويّة، *التربية والتعليم وتكنولوجيا المعلومات في البلدان العربيّة: قضايا واتجاهات* (p. 26). بيروت: الهيئة اللبنانيّة للعلوم التربويّة.

– بيترسون، ج. (٢٠١٠). الشباب المصريّون وأغاني المولد. In. باحثات، *الممارسات الثقافيّة للشباب العربيّ*.(p. 80) بيروت: باحثات.

– عبدالمسيح، م. ت. (٢٠١٠). تناقضات الحداثة في الممارسات المرئيّة للشباب. In. باحثات، *الممارسات الثقافيّة للشباب العربيّ*. (p. 102) بيروت: باحثات.

– مؤسّسة الفكر العربيّ. (٢٠١١، نيسان ٥). أفق. Retrieved أيّار ٢٠، ٢٠١١ from، مؤسّسة الفكر العربيّ: http://www.arabthought.org/node/790

خطورة الفساد: أمثلة من العالم



د. لويس حبيقة

يتبيّن للمجتمع الدوليّ أكثر فأكثر أهميّة، بل ضرورة محاربة الفساد لتحقيق النموّ. فالمرشّح الاشتراكيّ «فرنسوا هولاند» جعل من الفساد إحدى أهم المشاكل التي تعاني منها فرنسا، علمًا أنّ الفساد الفرنسيّ أدنى بكثير ممّا نعرفه في لبنان أو في العالم العربيّ عمومًا. في مؤشّر الشفافية العالميّة الذي يقيم ١٨٢ دولة، تقع فرنسا في المرتبة ٢٥ مقارنةً بالمرتبة ٥٤ للكويت، ٥٦ للأردن، ١١٢ لمصر و١٣٤ للبنان. لا شكّ أنّ من أهمّ أسباب الانتفاضات الشعبيّة العربيّة هي الفساد السياسيّ والماليّ الذي تزايد في غياب الديموقراطّة وانعدام الشفافية والمحاسبة. هنالك شعوب عربيّة تعي وجود الفساد، إلاّ أنّها تغضّ النظر عنه آنيًّا، لأنّها تستفيد من التقديمات والخدمات الاجتماعيّة والحياتيّة السخيّة، وأحيانًا المجّانيّة. فشعوب اليوم عمومًا لم تعد تقبل بالفساد، بل تعي سيّئاته وتحاول التخلّص منه. أملنا أن لا ننتقل عربيًّا من أنظمة فاسدة إلى أخرى لا تقلّ فسادًا. هذا هو التحدّي الأكبر الذي يواجهنا.

روسيا، وكما يعلن الرئيسان ميدفيديف وبوتين، تعاني من الفساد، أي تقع في المرتبة ١٤٣ في مؤشّر الشفافية. من أسوأ مظاهره تضارب المصالح الذي منع الاقتصاد حتّى اليوم من إعطاء نتائج أفضل. يقول الرئيسان إنّ روسيا تحتاج إلى منافسة أكبر، ليس في السياسة فقط، وإنّما في الاقتصاد أيضًا. تحتاج روسيا إلى تطبيق القوانين واحترام المؤسّسات، كما إلى تعزيز الانفتاح الاقتصاديّ والمحاسبة والشفافية في كلّ شيء. ما زال الاقتصاد الروسيّ يعتمد على النفط للانفاق حيث يشكّل أكثر من ثلثي الصادرات ونصف الايرادات الرسميّة. ٨٥٪ من الصادرات الروسيّة هي من الموادّ الأوليّة ممّا يشير إلى سوء تنوّع الاقتصاد بعد سنوات من الانتقال إلى النظام الاقتصاديّ الحرّ. عندما أتى الرئيس بوتين إلى الحكم، كان سعر البرميل ٢٧ دولار، واليوم أعلى بكثير. مشاكل روسيا هي طويلة الأمد، إذ تحتاج إلى توفّر سعر ١٢٥ دولار للبرميل الواحد لتحقيق التوازن الماليّ، في وقت يشيخ فيه الشعب وترتفع تكلفة التقاعد والضمانات المرتبطة به. فهل هنالك ما يضمن بقاء سعر البرميل مرتفعًا، في وقت يتمّ خلاله اكتشاف موارد جديدة مع طلب خجول باستثناء آسيا؟ من ناحية أخرى، إنتاجيّة العامل ما زالت ضعيفة مقارنة بالغرب، بالاضافة إلى غياب الاستثمارات في الصناعة والزراعة والخدمات. لا تكفي الاستثمارات في النفط وحدها لتحقيق النموّ الطويل الأمد، بل التنمية الحقيقيّة للجميع.

لم تكتف روسيا بإهمال الاصلاحات الاقتصاديّة والإداريّة والسياسيّة، بل دخلت في حروب عدّة، أهمّها في مواجهة جورجيا، ممّا أثّر سلبًا على الأداء الاقتصاديّ. ارتفع الناتج ٩ مرّات بدولار اليوم خلال ٩ سنوات حيث بلغت حصّة روسيا ٢،٨٪ من الاقتصاد العالميّ. يبلغ الناتج الفرديّ حوالى ١٢ ألف دولار، أي حوالى ربع الأميركيّ. من أهداف الإدارة الجديدة للرئيس بوتين رفع الناتج الفرديّ إلى نصف المستوى الأميركيّ قبل سنة ٢٠٢٠. فهل يستطيع تحقيق الهدف بالرّغم من التحدّيات التي يمكن تلخيصها، بالاضافة إلى الفساد، بتردّي نوعيّة البنية التحتيّة، خاصّة الطرق وضعف الاستثمارات من الناتج مقارنة بالدول المجاورة وعدم القيام بإصلاحات كافية في قطاعات أساسيّة كالتعليم والصحّة وتحديث القوانين. ما زالت الإدارة العامّة في إنتاجيّتها وسوء أدائها تشكّل عائقًا أمام التقدّم وأمام التنفيذ المقبول للسياسات الحكومية. بالاضافة إلى التضخّم المرتفع



المقدر بـ ١٥٪، تسيطر ٥ مصارف رسميّة على القطاع ممّا يؤكّد على سوء الأداء في الأسواق التنافسيّة. العامل الايجابيّ الأساسيّ هو انضمام روسيا إلى منظّمة التجارة العالميّة بعد سنوات من الجهد، ممّا يجعلها مقبولة أكثر في المجتمع الدوليّ بحيث يرتفع نموّها السنويّ بين نصف وواحد بالمئة إضافي كنتيجة مباشرة للعضويّة.

الصين دولة أدهشت العالم في نموّها وأصبحت مضرب مثل للتضحيات المجدية والناجحة. تدّخر الصين نصف ناتجها بالرّغم من المستوى المتدنّي للناتج الفرديّ. ترافق التحرير الماليّ المتواضع مع زيادة في المنافسة والتنافسيّة في الاقتصاد، ممّا أبقى على النموّ قويًّا، أي عكس ما حصل مع اليونان. تقع الصين في المرتبة ٢٧ في مؤشّر التنافسيّة الدوليّ السنويّ الذي يصدره مؤتمر دافوس. فنموّ العشرة بالمئة لسنوات طويلة فريد من نوعه، ممّا جعلها الاقتصاد الثاني في العالم وقريبًا جدًّا الأوّل، أي ستتفوّق على الولايات المتحدة خلال أقلّ من عقد من الزمن. لكنّ الاقتصاد الصينيّ ليس مثاليًّا، إذ تبقى له مشاكل كبرى، أهمُّها الفساد المقنع بالسياسة، وسوء توزّع الدخل، وارتفاع الفقر في المناطق الريفيّة، وسوء التقديمات الصحيّة كما الكثير من التحدّيات في قطاع الطاقة والتأثير على البيئة. المطلوب من الصين اليوم، وبسبب دورها الدوليّ المتزايد، أن تنشّط استهلاكها لمصلحة الاقتصاد العالميّ. نسبة الاستهلاك من الناتج لم يتعدّ الـ ٥٠٪ بعد، والمطلوب غربيًّا رفعه إلى حدود ٧٠٪ عبر تعديل سعر الصرف، لكنّ المشكلة تكمن في إقناع المواطن بتغيير عاداته الادّخاريّة التي مارسها لعقود إن لم يكن لقرون.

تواقر الفساد وبالدرجة التي ينتشر فيها لا يرتبط بالضرورة بالغنى الماديّ، بل يتعلّق كثيرًا بالثقافة والتاريخ والقوانين. رواندا دولة أفريقيّة فقيرة تناضل من أجل النموّ، وتنعم في نفس الوقت وتاريخيًّا بفساد قليل جعلها تحتلّ المرتبة ٤٩ في مؤشّر الشفافية. بالرّغم من الكثير من التقدّم، ما زال الروانديّون فقراء ويعتمدون إلى حدّ بعيد على الهبات الخارجيّة. إنتاجها وصادراتها الأساسيّة هي البن أي غير متنوّعة وإيراداتها الرسميّة ضعيفة وتحتاج إلى استثمارات كبيرة في البنية التحتيّة. طقسها رائع وتجذب السوّاح وفي مقدّمهم الألمان، بالرّغم من أنّها كانت تحت الاستعمار البلجيكيّ. يهدف مشروع الدولة لسنة ٢٠٢٠ إلى نقل الاقتصاد من وضع فقير إلى متوسّط. تكمن المشكلة في التمويل الذي تحتاج إليه البلاد، ليس فقط لتطوير البنية التحتيّة، وإنّما أيضًا لتعزيز الموارد البشريّة.



بسبب الأزمة الماليّة العالميّة انخفض النموّ الروانديّ السنويّ من ١١٪ في سنة ٢٠٠٨ إلى حوالى ٤٪ في سنة ٢٠٠٩، ممّا فرض تدخّلاً سريعًا من الحكومة لتنشيط الاقتصاد. لا زالت الزراعة تشكّل ثلث الاقتصاد ويعيش منها حوالى ٨٠٪ من المواطنين. في التقديرات، نما الاقتصاد بنسبة ٦٪ في سنة ٢٠١٠ وبنسبة سنويّة تتراوح بين ٦ و ٧٪ للسنوات التي تلي. من العوامل الايجابيّة الجديدة، تحسين المناخ الاستثماريّ وتطوير الأسواق الماليّة والتنويع التدريجيّ للصادرات، بالاضافة إلى استثمارات عامّة حديثة في البنية التحتيّة. ما يميّز رواندا أيضًا هو عدم حاجتها للاقتراض من صندوق النقد كما هو حال الدول الأوروبيّة. كلّ هذا ضمن الحفاظ على فساد مضبوط، بل غير متزايد.

الفساد يعيق التطوّر، أي يضرب النموّ والموازنات، ويوسّع فجوة الدخل بين الأغنياء والفقراء. في باكستان مثلاً، وحدهم ١٥ مليون شخص من أصل ١٧٩ مليون يدفعون الضرائب، ممّا يجعل الاقتصاد غير الرسميّ أو اقتصاد الظلّ يشكّل حوالى ٣٦٪ من الناتج. باكستان ليست وحدها التي تحتوي على قطاع غير رسميّ كبير، إذ تبلغ نسبته من الناتج ٤٤٪ في روسيا، ٣٩٪ في البرازيل، ٣٥٪ في مصر، ٣١٪ في تركيا ٢٢٪ في الهند و١٣٪ في الصين. حتّى في الدول الغربيّة ينتعش القطاع غير الرسميّ للتهرّب من الضرائب، إذ يصل إلى ٩٪ في الولايات المتحدة، ١٦٪ في كندا، ٢٧٪ في إيطاليا و ٢٨٪ في اليونان. تهتمّ الحكومات بتصغير هذا القطاع لزيادة إيراداتها وتمويل إنفاقها، لكنّ النشاط غير الرسميّ، بالتعاون مع الفسادَين السياسيّ والإداريّ، يبقى كبيرًا وقويًّا. يرتبط اقتصاد الظلّ بالنشاطات الممنوعة التي تزعزع هيكليّة الإنفاق العامّ، أي عوض الإنفاق على الحاجات المعيشيّة الأساسيّة تضطر الدول إلى إنشاء السجون وتعزيز الشرطة كما وسائل المكافحة والرقابة.

يا الإِنْسانُ الحامِلُ في ذاتِهِ بَذْرَةَ شَقائِه



عبده لبكي

أُريدُ بادِئَ ذي بَدْءٍ أَنْ أَطْرَحَ سُؤالاً فَلْسَفيًّا، لَمْ يَطْرَحْهُ آدَمُ عَلى نَفْسِهِ، وَلا طَبْعًا حَوّاءُ، لا عَلى نَفْسِها وَلا عَلى الحَيَّة: «ماذا يَفْعَلُ الإِنْسانُ في هذا العالَم، وَماذا يَفْعَلُ العالَمُ بِهِ، عَلى هذِهِ الذرَّةِ الكَوْنِيَّةِ الَّتي اسْمُها الأَرْضُ، وَالضّائِعَةُ بَيْنَ آلافِ المِلْياراتِ مِنَ الكَواكِب؟!»

إذا كانَ الإِنْسانُ هُوَ مِحْوَرَ الوُجودِ، فَما هيَ كِيانيَّتُهُ؟ أَهيَ الفَرْدِيَّةُ أَمِ المُجْتَمَعيَّةُ أَمِ البَشَرِيَّةُ أَمِ الكَوْنيَّة؟ وَهَلْ لِهذِهِ الكِيانيَّةِ ما يَصونُها وَيَقيها الشَّرَّ وَالفَساد؟ المُلاحَظُ أَنَّ مَفْهومَ الإِنْسانِ في العَقْلِ مَغْلوطٌ فيه. وَأَنَّ هذا العَقْلَ لَمْ تُفِدْهُ تَجارِبُ الصِّراعِ مَعَ الطَّبيعَةِ، طَوالَ أَرْبعينَ أَلْفَ سَنَةٍ وَأَكْثَر. وَلَمْ يُفِدْهُ ما كانَ يَنْبَغي أَنْ يَكونَ ضَمانًا لِصَيْرورَته. وَأَنَّهُ لا يَزالُ يُخْطِئُ في اعْتِبارِهِ أَنَّ الإِنْسانَ شَيْءٌ آخَرُ غَيْرُ ذاتِهِ، مِمّا يَعْني أَنَّهُ مُنْذُ آلافِ السِّنين، لَمْ يَتَطَوَّرْ. وَها هُوَ اليَوْمَ يَتَعَثَّرُ في بِدائِيَّةٍ مَوْروثَةٍ، حَيْثُ المَعارِفُ العِلْميَّةُ وَالتِّكْنولوجيا مَشاريعُ عَداءٍ مُخيفٍ، وَسِلاحٌ يَتَباهى بِهِ، مُهَدِّدًا بِاسْتِخْدامِهِ، لا لِيَأْكُلَ الثَّمَرَ وَيَقْنِصَ الحَيَوانَ، بَلْ لِيَبْسُطَ سَيْطَرَتَهُ عَلى العالَمِ، وَيَسْتَهْلِكَ جَميعَ ثَرَواتِهِ وَلَوِ اضْطَرَّهُ ذلِكَ إلى تَدْميرِ العالَم. أَلَيْسَ هذا مُنْتَهى الجَهْلِ وَالغَباء؟!

يَقودُنا الكَلامُ في هذِهِ المُقَدِّمَةِ إلى مُراجَعَةِ ما يَروجُ في هذا العَصْرِ مِنْ أَفْكارٍ وَنَظَرِيّاتٍ وَفَلْسَفاتٍ، بَعْضُها بَلْ مُعْظَمُها مُناقِضٌ في الصَّميمِ لِثَوابِتِ المَنْطِقِ وَقَواعِدِ العَقْلِ، بَدَلاً مِنْ أَنْ تَكونَ نابِعَةً مِنْ تِلْكَ الثَّوابِتِ وَالقَواعِدِ لإِرْسائِها، وَهِيَ غَدَتْ عامِلاً مِنْ عَوامِلِ إِبْطالِها.

وَالسُّؤالُ المُلِحُّ الَّذي نَطْرَحُهُ، وَنَحْنُ في مَعْمَعَةِ هذا العَصْر: مَنْ يَتَحَكَّمُ بِالعالَمِ، وَيَتَلاعَبُ بِالبَشَرِيَّة؟

أَآلِهَةٌ وَأَنصافُ آلِهة؟ أَمْ أَطْفالٌ دَيْدَنُهُمُ اللَّعِبُ حَتّى تَحْطيمِ أَشْيائِه؟

وَيَبْدو أَنَّ مَنْ يُريدونَ امْتِلاكَ العالَمِ، يَعْلَمونَ تَمامَ العِلْمِ أَنَّ مُبْتَغاهُم لا يَتَحَقَّقُ إِلاّ مِنْ خِلالِ التَّحَكُّمِ بِإِنْسانِهِ. وَما السَّبيلُ إلى ذلِكَ غَيْرُ مُخَطَّطٍ مَرْسوم، لا يَخْدُمُ في كَثيرٍ مِنَ الأَحْيانِ هَدَفَ الله في خَلْقِه؛ فَإِذا كانَ الإِنسانُ كِيانيًّا، عَقْلاً وَضَميرًا وَإِرادَةً، فَهُوَ أَيْضًا غَريزَةٌ وَانْفِعالاتٌ وَطَبْعٌ وَمُيول. فَبِمَ تُراهُمْ يَتَحَكَّمونَ، وَكَيْفَ يَعْمَلونَ لِلإِمْساكِ بِهذا الكائِنِ عَنْ قُرْبٍ حَتْمًا، ولكِنْ أَيْضًا عَنْ بُعْدٍ، لا مِنْ أَطْرافِ الأَرْضِ فَقَطْ، بَلْ حَتّى مِنْ أَقاصي الفَضاء. الجَوابُ بَسيطٌ وَتِلْقائِيٌّ وَلا يَحْتاجُ إلى كَثيرٍ مِنَ البَحْثِ وَالتَّحْليل، إِنَّهُم يَتَحَكَّمونَ بِالغَريزَةِ وَالانْفِعالِ وَالطَّبْعِ وَالمُيولِ، فَيُثيرونَها في وَجْهِ العَقْلِ وَالضَّميرِ وَالإِرادَةِ وَيُغَلِّبونَها عَلَيْها. في هذا التَّوَجُّهِ وهذِهِ الرُّؤْيا المُسَنَّنَةِ، يَسْعى العازِفونَ عَلى وَتَرِ الإِيهامِ بِالجَديدِ وَالتَّجَدُّدِ وَالتَّطَوُّرِ وَالتَّحْديثِ وَالوَعْدِ بِالمَراعي الخَصْبَةِ وَالنَّماءِ وَالازْدِهار، وَغَيْرِ ذلِكَ مِنَ المُغْرَياتِ المِثالِيَّةِ الَّتي لَيْسَتْ في الواقِعِ أَكْثَرَ مِنْ صُوَرٍ وَهْمِيَّةٍ تُضَلِّلُ مَنْ يَتَشَبَّثُ بِها، فيما يَظَلُّ مُبْتَدِعوها وَمُرَوِّجوها في مَنْأًى مِنَ النَّقْدِ وَالشَّكِّ. أَمّا المَجالُ الأَكْثَرُ تَقَبُّلاً وَانْفِتاحًا، وَالأَسْوَأُ حَظًّا لأَنَّهُ أَشَدُّ تَذَوُّقًا لِلدَّسَمِ دُسَّ فيهِ السُّمُّ، فَهُوَ المَجالُ التَّرْبَوِيُّ، حَيْثُ يُمْكِنُ لِلأَفْكارِ العابِثَةِ أَنْ تَرْتَعَ بِكُلِّ حُرِّيَّةٍ مُقَنَّعَةً بِالأَفْعالِ المَجْهولَة.

أَوْصافٌ جَمَّةٌ نُعِتَ بِها الإِنْسانُ، وَرافَقَتْ مَسيرَتَهُ في الزَّمَن؛ فَمِنْ حَيَوانٍ ناطِقٍ إلى حَيَوانٍ اجْتِماعِيٍّ إلى حَيَوانٍ صِناعِيٍّ إلى حَيَوانٍ إِعْلامِيٍّ إلى مُجَرَّدِ حَيَوانٍ عِنْدَ مَنْ يَعْتَبِرُ أَنَّهُ كائِنٌ لا بُدَّ مِنِ اسْتِعْمالِهِ، مُسْتَعيدًا بِذلِكَ تَراكُماتِ عُصورِ الظُّلْمِ وَالاسْتِبْدادِ، يُكَثِّفُها في نَفْسِهِ، وَيَشْحَنُ بِها أَدَواتِ الاسْتِغْلالِ وَالاسْتِهْلاك. وَهكَذا، فَإِنَّ إِنْسانَ اليَوْمِ لَمْ يَعُدْ إِنْسانًا حَقيقيًّا في مَفْهومِهِ الفَلْسَفِيِّ، وَلَمْ يَعُدْ أَمَلَ المُسْتَقْبَلِ المُشْرِقِ، في النَّظْرَةِ التَّرْبَوِيَّةِ المُعاصِرَةِ، فَهذِهِ قَدِ اسْتَبْدَلَتْ بِهِ الإِنْسانَ الظِّلَّ. وَالتَّساؤُلُ حَوْلَ

الفَرْقِ بَيْنَ الإنسانَيْنِ يَقودُنا إلى التَّساؤُلِ عَنْ مَعْنى تِلْكَ النَّظْرَةِ الَّتي تَتَذَرَّعُ بِالحَداثَةِ، وَعَنْ غايَتِها المُبَطَّنَةِ، في إطارِ مُخَطَّطِ العَوْلَمَةِ الشّامِل.

أَمَّا الإنْسانُ الظِّلُّ، فَهُوَ الكائِنُ الَّذي امْتُهِنَتْ إنْسانيَّتُهُ، حَتَّى غَدا كِنايَةً عَنْ آلَةٍ تُنْتِجُ وَتَسْتَهْلِكُ، وَفي كِلا الحالَيْنِ تُثْري مَنْ يَتَحَكَّمُ بِها. وَلَوِ اكْتُفيَ بِهذا القَدْرِ، لَهانَ الأَمْرُ، فَقَدْ تَجاوَزَ المُسْتَفيدونَ هذا الواقِعَ، مُخْتَرِقينَ الحَواجِزَ المادِّيَّةَ البَحْتَةَ لِبُلوغِ حالَةِ اللَّذَّةِ المُسْتَهْتِرَةِ، لَذَّةِ انْتِهاكِ كَرامَةِ الإنْسانِ وَالتَّمادي في احْتِقارِ غائيَّتِهِ، لَذَّةٍ ساديَّةٍ حَتَّى النَّشْوَة.

هذا الإنْسانُ الظِّلُّ هُوَ صَنيعَةُ المَشاريعِ التَّرْبَوِيَّةِ الَّتي تَدَّعي الحَداثَةَ وَالتَّطَوُّرَ، وَهِيَ في الواقِعِ طُرُقٌ مُبْتَكَرَةٌ وَمُلْتَوِيَةٌ لِوَضْعِ النّاشِئَةِ في حالَةٍ مِنَ البَلْبَلَةِ وَالسَّطْحِيَّةِ وَالعَجْزِ عَنْ تَحْكيمِ العَقْل. وَالمُلاحَظُ مِمَّا أَصْبَحَ راسِخًا في الأَذْهانِ، وَحالاً فيها مَحَلَّ التُّراثِ الثَّقافِيِّ وَالتَّرْبَوِيِّ الحَقِّ، أَنَّ التَّرْبِيَةَ الحَديثَةَ قَدْ تَخَلَّتْ تَمامًا عَنِ الهَدَفِ الأَساسيِّ لِبِناءِ الإنْسانِ وَالمُجْتَمَعِ، وَأَخْرَجَتْ مَقولاتِ التَّثْقيفِ وَالتَّهْذيبِ وَالرُّقِيِّ الفِكْرِيِّ مِنْ ذاتيَّتِها وَبُناها، كَما أَفْرَغَتِ المَفاهيمَ الأَخْلاقيَّةَ وَالفَضائِلَ وَالقِيَمَ أَفْرَغَتْها مِنْ مُكَوِّناتِها الجَوْهَرِيَّةِ، مُبْتَعِدَةً بِها عَنْ أُصولِها، بَلْ مُشَوِّهَةً حَقيقَتَها، بِإنْكارِها أَهَمِّيَّةَ دَوْرِها في صَوْنِ الحَياةِ الإنْسانيَّةِ وَالارْتِقاءِ بِها.

هذا ما يَحْدُثُ اليَوْمَ في جَميعِ بُلْدانِ العالَمِ، سَواءٌ احْتَلَّهُ الفِكْرُ البَرِّيُّ أَوْ سادَ فيهِ الفِكْرُ المُتَمَدِّن.

مُجَرَّدُ الاطِّلاعِ عَلى ما تَحْفِلُ بِهِ البَرامِجُ الدِّراسيَّةُ في مُخْتَلِفِ المَوادِّ التَّعْليميَّةِ، يَجْعَلُنا نَتَساءَلُ: هَلْ بَلَغَ التَّرَبُّصُ بِإنْسانِ المُسْتَقْبَلِ، عَنَيْتُ كُلَّ مُتَعَلِّمٍ طَوالَ سَنَواتِهِ الدِّراسيَّةِ، حَدَّ تَحْويلِهِ إلى صُنْدوقٍ آليٍّ لِحِفْظِ المَعْلوماتِ، يُشْحَنُ بِهِ، وَتُسْهِمُ في تَكْثيفِها مُلَوَّثَةً وَسائِلُ الإعْلامِ المَكْتوبَةِ وَالمَسْموعَةِ وَالمَرْئيَّةِ، مِنْ خِلالِ الصِّحافَةِ وَالرّاديو وَالتِّلِفِزْيون وَالانترنيت وما تَمَّ تَسْخيرُهُ مِنْ أَدَواتٍ أُخْرى لِهذِهِ الغايَةِ، فَضْلاً عَنْ اسْتِخْدامِ حَقائِقِ عِلْمِ النَّفْسِ في مَجالاتِ الإعْلانِ الرَّخيصِ لِاسْتِثارَةِ الغَرائِزِ؟ وَأَكادُ أَشْعُرُ أَنَّ الهَواءَ نَفْسَهُ، وَعَمَّا قَريبٍ، سَيُصْبِحُ خاضِعًا لِلإرادَةِ مَجْهولَةٍ، تَقومُ بِاسْتِخْدامِهِ لِنَشْرِ الأَفْكارِ المُكَبِّلَةِ لِلإنْسانِ، تَتَحَكَّمُ بِهِ وَتُوَجِّهُهُ، وَفْقَ ما تَرْتَئيهِ مُناسِبًا لِمُخَطَّطاتِها وَأَهْدافِها. وَلا أَدْري، أَتَتَحَوَّلُ مَسيرَةُ البَشَرِيَّةِ عَنْ خَطِّها الصّاعِدِ نَحْوَ السَّماءِ، لِتَتَّخِذَ لَها مُنْحَدَرًا مُعاكِسًا نَحْوَ الهاوِيَة؟!

أَمَّا السُّؤالُ المَطْروحُ حَوْلَ إعادَةِ تَحْريرِ التَّرْبِيَةِ مِنْ أَسْواقِ المُنْتَجاتِ المُعْتَقَدِيَّةِ وَالعِلْمِيَّةِ، فَإنَّما يُعَبِّرُ عَنِ القَلَقِ الدَّفينِ الَّذي يَعْتَمِلُ في الوِجْدانِ الاجْتِماعيِّ، وَإنْ تَقَلَّصَ حُضورُهُ في ظِلِّ الحالَةِ المَأْساوِيَّةِ لِلصِّلاتِ الاجْتِماعيَّةِ السّائِدَةِ حاليًّا. فَقَدْ أَخَذَ الفِكْرُ التَّرْبَوِيُّ يَنْحو مَنْحى الاسْتِهْلاكِ، تَمَشِّيًا مَعَ مُسْتَلْزَماتِ السُّوقِ، وَما تُمْليهِ عَلى الوَعْيِ، وَتَحْقُنُ بِها اللاَّوَعْيَ، مِنْ إحْساسٍ بِالحاجَةِ إلَيْها وَالتَّزَوُّدِ بِها، حَتَّى الخَوْفِ مِنْ فِقْدانِها بِالافْتِقادِ إلَيْها، إذا ما انْتَفى وُجودُها. هذِهِ الحالَةُ الَّتي باتَ فيها الفِكْرُ التَّرْبَوِيُّ يَلْهَثُ وَراءَ ما يَظُنُّهُ بَراءَةَ حَداثَةٍ وَتَجْديدٍ، وَتَبْرِئَةً لَهُ مِنْ تُهْمَةِ التَّخَلُّفِ، هُوَ ما يَدْفَعُ بِهِ إلى الارْتِماءِ في هذا البَحْرِ الهائِجِ مِنْ مُنْتَجاتِ التِّكْنولوجيا، مَثَلُهُ في ذلِكَ مَثَلُ مَنْ يَتَوَهَّمُ أَنَّهُ يَسْتَطيعُ، بِتَراكُمِ المَعْلوماتِ، سَواءٌ ما يُفيدُ مِنْها أَوْ ما يُفْسِدُ، أَنْ يَبْنِيَ إنْسانًا جَديدًا، دونَ دِرايَةٍ مِنْهُ بِما سَيَؤولُ إلَيْهِ أَمْرُهُ في خِضَمِّ أَمْواجٍ عاتِيَةٍ تَتَقاذَفُ سُفُنَ المُغامِرينَ، وَلَنْ تَلْبَثَ أَنْ تُحَوِّلَها إلى حُطامٍ يَطْفو عَلى اليَمِّ الشّاسِع.

وَما يُؤْسَفُ لَهُ أَنَّ المَسائِلَ الفَلْسَفيَّةَ وَالقَضايا الاجْتِماعيَّةَ ذاتَ الصِّلَةِ بِالمَصيرِ، سَواءٌ عَلى مُسْتَوى الفَرْدِ، أَوْ عَلى مُسْتَوى الجَماعَةِ، هِيَ، اليَوْمَ، شِبْهُ مَعْدومَةٍ في بَرامِجِ التَّعْليمِ الحَديثَةِ، وَقَدْ حَلَّتْ مَحَلَّها تَوْجيهاتٌ صارِمَةٌ وَهادِفَةٌ، تَحُثُّ المُتَعَلِّمينَ عَلى البَحْثِ العِلْميِّ المادِّيِّ المُجَرَّدِ، وَتُصِرُّ عَلى الْتِزامِها (أَي التَّوْجيهاتِ) بِرَصانَةٍ وَمَوْضوعيَّةٍ، وَلَوْ عَلى حِسابِ الإيمانِ وَالأَخْلاقِ وَحُرِّيَّةِ الفِكْرِ وَالتَّوَجُّهِ، وَبِالرُّغْمِ مِنَ القَهْرِ الَّذي قَدْ يُعانيهِ النّاسُ في حَياتِهِم اليَوْميَّةِ أَوِ الضَّرَرِ الَّذي قَدْ يُصيبُهُمْ مِنْ جَرَّاءِ ذلِكَ، وَالثَّمَنِ الباهِظِ الَّذي قَدْ يَدْفَعونَهُ صِحِّيًّا وَمَعْنَوِيًّا وَمادِّيًّا وَمَعيشيًّا وَبيئيًّا.

إنَّها حَقًّا لَمِنَصَّةٌ مَجّانيَّةٌ ذاتُ مَرْدودٍ دَسِمٍ، يَنْتَفِعُ بِها وَيُوَظِّفُهُ لِلأَغْراضٍ شَتَّى مَنْ يَهُمُّهُ التَّرْويجُ لِمَذْهَبِهِ بِالشُّحْناتِ المُعْتَقَدِيَّةِ، سَواءٌ أَكانَتْ دينيَّةً أَمْ دُنْيَوِيَّةً! فَهَلْ غَدا الإنْسانُ الَّذي خَلَقَهُ الله لِتَمْجيدِهِ شَيْئًا لا بُدَّ مِن اقْتِنائِه؟!

ثُمَّ تَهُبُّ، وَمِنْ جِهاتِ الأَرْضِ الأَرْبَعِ أَخْبارٌ وَأَخْبارٌ، تارَةً بارِدَةً وَطَوْرًا ساخِنَةً، وَمِنْها العِلْميُّ وَالفَنِّيُّ، وَمِنْها السِّياسيُّ وَالاقْتِصاديُّ، وَمِنْها

الطَّريفُ وَمِنْها التَّليدُ، لِتُبَدِّدَ ما تَبَقَّى مِنْ غَيْمَةٍ تُظَلِّلُ المُجْتَمَعَ لِتَقيَهُ حَرَّ الجِهادِ نَهارًا، وَتُرَطِّبَ أَجْواءَ الأُلْفَةِ لَيْلاً. إنَّها الضَّرْبَةُ القاضيَةُ، وَقَدْ أَصابَتْ عُرى التَّواصُلِ الاجْتِماعيِّ بَيْنَ الأَفْرادِ، لِتَصِلَ في ما بَيْنَهُمْ بِوَشائِجَ جافَّةٍ بَلْ مَحْروقَةٍ، سُرْعَتُها مِنْ سُرْعَةِ الضَّوْءِ، أَفْرادٍ لا جامِعَ يَجْمَعُهُم إلاَّ الغُرْبَة: يَتَخاطَبونَ وَيَتَسامَعونَ وَيَتَهامَسونَ وَيَتَصافَحونَ وَيَتَكاتَبونَ وَيَتَواجَدونَ في غَلائِلَ وَشَبَكاتٍ، تَعَمَّدوا إرْضاءَها لِيَتَعَمَّدوا بِوَهْمِها على أَيْدٍ مَجْهولَةٍ. إنَّهُ عَلى أَكْمَلِ وَجْهِ الانْفِصامُ الاجْتِماعيُّ المُتَمَثِّلُ في التَّوَحُّدِ، تَوَحُّدِ الفَرْدِ وَتَفَكُّكِ المُجْتَمَعِ. هكَذا هيَ السُّوقُ، تَنْظُرُ إلَيْها عَنْ بُعْدٍ فَتَرى بَشَرًا لا رابِطَ في ما بَيْنَهُمْ، تُحَرِّكُهُم جيئَةً وَذَهابًا، دونَما وِجْهَةٍ أَوْ جِهَةٍ دَوافِعُ العَرْضِ وَالطَّلَبِ. لكِنَّ الأَكْثَرَ دَهاءً هُوَ مَنْ يُوقِعُ في الحَبائِلِ المَنْصوبَةِ، الَّتي سُرْعانَ ما تَسْتَلِبُ ضَحاياها، فَيَسْتَسْلِمونَ لَها كَما تَسْتَسْلِمُ الفَريسَةُ لِأَفْعى البَيْثون، مَسْحورَةً بِتَحْديقِها. فَماذا تَبَقّى، وَالحالَةُ هذِهِ مِنَ المُجْتَمَعِ؟! مُجْتَمَعِ العائِلَةِ، وَمُجْتَمَعِ الأَصْدِقاءِ، وَمُجْتَمَعِ المُؤْمِنينَ، وَمُجْتَمَعِ القَرْيَةِ، وَمُجْتَمَعِ الحَيِّ، وَمُجْتَمَعِ العَمَلِ، وَمُجْتَمَعِ المَدْرَسَةِ، وَمُجْتَمَعِ الوَطَنِ؟!

وَإذا كانَتِ المَدْرَسَةُ هيَ المُعَوَّلُ عَلَيْها في إنْتاجِ إنْسانِ المُسْتَقْبَلِ وَصانِعِهِ، عَلى الصَّعيدَيْنِ الاجْتِماعيِّ وَالوَطَنيِّ، فَأَيْنَ هيَ اليَوْمَ مِنْ هذا التَّحَدّي الكَبيرِ، بَلِ الخَطَرِ الدّاهِمِ، وَهَلْ يُمْكِنُ في ظِلِّ الظُّروفِ القائِمَةِ إعادَةُ بِناءِ الإنْسانِ، وَبِالتّالي المُجْتَمَعِ، عَلى أَساسِ اسْتِدامَةِ الحَياةِ بَيْنَ أُناسٍ يَعْمَلونَ عَلى تَدْعيمِ مَشْروعِ تَحْقيقِ إنْسانِيَّتِهِم؟

لا يُمْكِنُ تَصَوُّرُ إنْسانٍ مُجْتَمَعيٍّ إلاَّ وَقَدْ تَمَّتْ تَنْشِئَتُهُ داخِلَ نِطاقِ المَدْرَسَةِ. فَالنُّظُمُ الفِكْريَّةُ وَالسُّلوكيَّةُ وَموادُّها المُخَصِّبَةُ وَالمُشْتَمِلَةُ عَلى مُخْتَلِفِ نَواحي الحَياةِ الطَّبيعيَّةِ وَالفيزيائيَّةِ وَاللُّغَويَّةِ وَالماوَرائيَّةِ وَالدّينيَّةِ، وَبَرْمَجَتُها وِفْقَ التَّدَرُّجِ النُّضْجيِّ لِلْمُتَعَلِّمِ، هيَ ما يَكْفُلُ إعادَةَ صَوْغِهِ تَعْليمًا وَتَأْهيلاً، بِحَيْثُ يَعي حَقيقَةَ إنْسانيَّتِهِ، وَمِنْ ثَمَّ دَوْرَهُ ضِمْنَ شَبَكَةِ تَشَكُّلاتِ المَنْتوجِ العَقليِّ وَالمِهَنيِّ لِلْبَشَرِ، في دَوْرَةِ حَياةٍ بيئيَّةٍ مُحَدَّدَةٍ، تَتَكامَلُ فيها أَسْبابُ الاسْتِمْرارِ وَالتَّطَوُّرِ. لكِنَّ شَرْطًا أَساسيًّا يُفْتَرَضُ العَمَلُ بِمُوجِبِهِ في هذا السَّعي، أَلا وَهُوَ التَّوازُنُ الجَسَديُّ وَالرُّوحيُّ لَدى الكائِنِ الحَيِّ، أَي الأَخْذُ بِعَيْنِ الاعْتِبارِ جَميعَ مُؤَهَّلاتِهِ مِنْ أَجْلِ صَقْلِها وَإِغْنائِها وَإِعْدادِها، أَكانَتْ بِالقُوَّةِ أَمْ بِالفِعْلِ. عَفْوًا، لا أُبَشِّرُ مُطْلَقًا بِالمَدينَةِ الفاضِلَةِ؛ فَأَنا عَلى يَقينٍ تامٍّ بِأَنَّها لا تُبْنى بِحِجارَةِ هذا العالَمِ النَّخِرَة.

وَهذا الشَّرْطُ الأَساسيُّ إنَّما يَقومُ عَلى حَقائِقَ ثابِتَةٍ مَرْكوزَةٍ في العَقْلِ. وَحذارِ التَّلاعُبَ بِها، وَمِنْها قُدُراتُ التَّحْليلِ، وَصياغَةُ المَبادِئِ، وَقَدْ بِتْنا نَشْكو اليَوْمَ مِنْ عَجْزٍ يَكادُ يَكونُ تامًّا في هذا الشَّأْنِ، بِحَيْثُ أَضْحى المُتَعَلِّمُ أَسيرَ ما يَتَلَقَّفُهُ، مَتْلُوًّا عَلَيْهِ مِنْ خارِجٍ بَلْ مُنَزَّلاً تَنْزيلاً دونَ أَنْ يُكَلِّفَ نَفْسَهُ عَناءَ تَمْييزِ الغَثِّ مِنَ السَّمينِ، وَالخَطَأَ مِنَ الصَّوابِ، وَالمُضِرِّ مِنَ المُفيدِ، وَالقَبيحِ مِنَ الجَميلِ، وَالسَّويِّ مِنَ العائِبِ، وَالرَّذيلَةِ مِنَ الفَضيلَةِ، وَالشَّرِّ مِنَ الخَيْرِ، وَالظُّلْمِ مِنَ العَدْلِ، وَالصِّدْقِ مِنَ الكَذِبِ، وَالحَقِّ مِنَ الباطِلِ، وَالحَقيقَةِ مِنَ الزَّيَفِ، وَالفَوْضى مِنَ النِّظامِ، وَأَسْبابِ الهَلاكِ مِنْ أَسْبابِ الخَلاصِ، وَهَلُمَّ جَرًّا... فَقَدْ بَلَغَ بِهِ الجَهْلُ أَنِ اخْتَلَطَتْ عَلَيْهِ الأُمورُ وَهُوَ عَلى مُفْتَرَقِ الخِياراتِ المَصيريَّة.

هذا هُوَ المَأْزِقُ الَّذي وُضِعَ فيهِ العالَمُ، فَغَدا مُنْتَشيًا بِما تَمَّ التَّرْويجُ لَهُ مِنْ مُخْتَرَعاتٍ عِلْميَّةٍ، مُكابِرًا وَمُدَّعيًا بِأَنَّ العِلْمَ وَحْدَهُ قادِرٌ عَلى الإجابَةِ عَنْ أَيِّ سُؤالٍ مُحَيِّرٍ، سَواءٌ أَمامَ المَظاهِرِ المادِيَّةِ أَمْ عَلى مَشارِفِ الماوَراءِ، وَمَدْفوعًا بِهَوَسِ المَعْرِفَةِ العِلْميَّةِ البَحْتَةِ. ها هُوَ يَتَخَلّى عَنْ مَوْروثاتٍ أَخْلاقيَّةٍ وَإيمانيَّةٍ، مُسْتَبْدِلاً بِها قَناعاتٍ حُقِنَ بِها حَقْنًا، مُؤَدّاها أَنَّ عَلى المَرْءِ في هذِهِ الدُّنْيا أَنْ يَقْتَنيَ وَيَسْتَهْلِكَ. لِذا، عَلَيْهِ أَنْ يَمْتَلِكَ مِنَ القُدُراتِ وَالخُطَطِ، مَهْما كانَتْ جُهَنَّميَّةَ النَّزْعَةِ، ما يُتيحُ لَهُ الامْتِلاكَ مُتَمَثِّلاً قَوْلَ المُتَنَبّي:

إنَّما أَنْفُسُ الأَنيسِ سِباعٌ ... يَتَفارَسْنَ جَهْرَةً وَاغْتِيالا

مَنْ أَطاقَ الْتِماسَ شَيءٍ غِلابًا ... وَاغْتِصابًا لَمْ يَلْتَمِسْهُ سُؤالا

هذا هُوَ القانونُ السّائِدُ في دَغَلِ البَشَرِ، كانَ وَلَمّا يَزَلْ، لكِنَّهُ اليَوْمَ أَكْثَرُ ضَراوَةً، يَرْتَدي لِباسَهُ المُحارِبونَ، مُسْتَخِفّينَ بِكُلِّ ما عَدا سِلاحَهُمُ الفَتّاك.

فَبِمَنْ نَسْتَجيرُ إذًا؟ وَإلامَ نَلْجَأُ؟ نَحْنُ المُسْتَنيرينَ المُتَّصِلينَ بِالعَقْلِ الكُلِّيِّ، وَمِنْ خِلالِهِ نَرى ما يَجْري وَنَخافُ، لا عَلى العَيْشِ العابِرِ، بَلْ عَلى الحَياةِ في جَوْهَرِها، وَفي وُجودِها وَاسْتِمْرارِها وَبَهائِها وَقِيَمِها وَبُعْدِها الماوَرائيِّ وَأَبَديَّتِها. هذِهِ الحَياةُ المُتَجَلِّيَةُ في الإنْسانِ جَسَدًا وَروحًا.

إنَّ المُؤَسَّسَةَ الَّتي أَثْبَتَتْ جَدارَتَها في مُعالَجَةِ هذِهِ المُعْضِلَةِ عَلى امْتِدادِ الزَّمَنِ هِيَ المَدْرَسَةُ. إلاّ أَنَّ عَلى هذِهِ المَدْرَسَةِ أَنْ تَلْتَزِمَ مَفْهومَها الأَصْليَّ، أَي أَنْ تُعيدَ النَّظَرَ في وَظيفَتِها الأَساسيَّةِ، مُسْقِطَةً عَنْها ما عَلِقَ عَلى جَسَدِها مِنْ طُفَيْليّاتِ هذا العَصْرِ، وَما اضْطَرَّتْ إلى مُعايَشَتِهِ حَتّى التَّبَنّي، مِنَ النَّوافِلِ المَظْهَريَّةِ الخادِعَةِ الَّتي تُشَوِّشُ الرُّؤْيَةَ الحَقَّةَ لِواقِعِ الأُمورِ، وَتَحُدُّ مِنَ الرُّؤْيا وَاسْتِشْرافِ المُسْتَقْبَلِ، وَتُعَطِّلُ حَرَكَةَ الفِكْرِ النّاشِطِ، مِنْ أَجْلِ اسْتِثْمارِ القِيَمِ في الإنْتاجِ المُعاصِرِ، بَدَلاً مِنْ إلْغائِها. عَلى المَدْرَسَةِ أَنْ تُعيدَ النَّظَرَ في بَرامِجِها، واضِعَةً نُصْبَ عَيْنَيْها هَدَفًا واحِدًا، أَلا وَهُوَ بِناءُ الإنْسانِ كَقيمَةٍ في حَدِّ ذاتِهِ، وَكَمَشْروعٍ حَضاريٍّ في تاريخِ مَسيرَةِ البَشَريَّةِ نَحْوَ خالِقِها.

وَثَمَّةَ طَرْحٌ آخَرُ لِمُعالَجَةٍ قِوامُها الإرادَةُ الصّادِقَةُ وَالثَّقافَةُ الَّتي لا تَسْقُطُ ثِمارُها قَبْلَ النُّضْجِ، طَرْحٌ لا يَسْتَقيمُ إلاّ مَعَ الإحْساسِ بِالجَمالِ الَّذي شُوِّهَ وَأُبْطِلَ أَثَرُهُ، إذْ لَمْ نَعُدْ نَرى في البَرامِجِ المُسْتَحْدَثَةِ لِلُّغَةِ وَلِلأَدَبِ غَيْرَ نُصوصٍ مِنْ حَطَبٍ، أَوْ هي كَالجُثَثِ، لا حَياةَ فيها وَلا فَنَّ وَلا ذَوْقَ وَلا خَيالَ وَلا عاطِفَةَ وَلا جَمالَ، قُضِيَ فيها عَلى الحَياةِ، وَكَأَنْ لا حاجَةَ بِنا إلَيْها، وَلا عَلاقَةَ لَها بِالإنْسانِ، وَكَأَنْ لا هَمَّ لِلْمُتَعَلِّمِ غَيْرُ وَصْفِ قُشورِ الكَلِماتِ، وَتَحْديدِ طَبيعَتِها المادِّيَّةِ، هكَذا يُقْضى عَلى الذّاتِ في الآخَرِ المُجْتَمَعيِّ، وَعلى التَّواصُلِ عَبْرَ الزَّمَنِ، مَعَ مَنْ وَضَعوا تَجارِبَهُمْ وَقَضاياهُمْ في مُتَناوَلِ الأَجْيالِ. ولكِنَّ صَوْتَ أَرْبابِ العِلْماويَّةِ scientisme الرُّوبوتيّينَ يَعْلو اليَوْمَ عَلى صَوْتِ الأَصْفياءِ، بُغْيَةَ إخْضاعِ مُعْطَياتِ هذا العالَمِ لِمَنْهَجِ التَّحْليلِ العِلْميِّ، بِما في ذلِكَ العَقْلُ وَالرُّوحُ، كُلُّ ذلِكَ لِنَشْرِ ثَقافَةِ العَوْلَمَةِ، بَلْ قَوْلَبَةِ الشُّعوبِ في عَمَليَّةٍ مُمَنْهَجَةٍ لِلاسْتيلاءِ عَلى مَقْدِراتِها، مُتَوَسِّلَةً مُنْجَزاتِ العَصْرِ وَأَدَواتِها التَّأْثيريَّةَ، مِنْ سَمْعيَّةٍ وَبَصَريَّةٍ وَإعْلانيَّةٍ وَسينِمائيَّةٍ وَتَرْفيهيَّةٍ سافِرَةٍ، وَحاشِدَةً لَها الأَمْوالَ وَالبَرامِجَ وَالتِّقْنيّاتِ التِّكْنولوجيَّةَ عَلى كُلِّ صَعيد. إلاّ أَنَّ نَقْدَ العَوْلَمَةِ لا يَعْني الانْكِفاءَ وَلا هُوَ نَقيضُ الانْفِتاحِ عَلى النِّتاجاتِ وَالثَّقافاتِ وَالتَّجارِبِ الإنْسانيَّةِ، لِلإفادَةِ مِنْها، في تَفاعُلٍ يَتَجاوَزُ الحُدودَ الجُغْرافيَّةَ وَخُصوصيّاتِ التَّقاليدِ الحاضِرَةِ في المُمارَساتِ الحَياتيَّةِ بَعْدَما تَرَسَّبَتْ في الوِجْدانِ الاجْتِماعيِّ. فَماذا يَبْقى مِنَ الإنْسانيَّةِ عِنْدَما تُشَيَّأُ تَشْييئًا؟ أَو ماذا يَبْقى مِنَ الإنْسانِ إذا ما أُخْرِجَ مِنْ ذاتيَّتِهِ اللُّغَويَّةِ؟ أَلَيْسَتِ اللُّغَةُ هِيَ الَّتي تُكَوِّنُ شَخْصيَّتَهُ الفَرْديَّةَ وَالاجْتِماعيَّةَ وَالتّاريخيَّةَ؟ أَلَيْسَ الأَدَبُ هُوِيَّةَ أَبْنائِهِ وَرِباطَ انْتِمائِهِ إلى وَطَنٍ وَتُراث؟

أَيْنَ الإنْسانُ الفَرْدُ في كِفاياتِهِ وَأَبْعادِهِ العَمَليَّةِ وَالأَخْلاقيَّةِ وَالعَقْليَّةِ وَالإيمانيَّةِ وَالثَّقافيَّةِ وَالفَنِّيَّةِ وَالاجْتِماعيَّةِ وَالوَطَنيَّةِ وَالإنسانيَّةِ الشّامِلَة؟ لَيْسَ هذا الكَلامُ مِنْ قَبيلِ المِثاليَّةِ الخَياليَّةِ، بَلْ هُوَ الواقِعُ الَّذي تَتَطَلَّبُ مُقارَبَتُهُ وَالتَّصَرُّفُ فيهِ بِما يَخْدُمُ الإنْسانَ. إنَّهُ الارْتِقاءُ الَّذي لا يَتَحَقَّقُ إلّا في رِحابِ المَدْرَسَةِ. المَدْرَسَةُ كَمُؤَسَّسَةٍ تَرْبَويَّةٍ تَأْخُذُ عَلى عاتِقِها تَوْفيرَ المَعْرِفَةِ وَالعِلْمِ، طَبْعًا، وَكُلِّ ما يُغَذّي العَقْلَ، وَلكِنْ أَيْضًا صَقْلَ الإنْسانِ في شُعورِهِ وَعَواطِفِهِ وَمَواهِبِهِ الإبْداعيَّةِ وَقُدُراتِهِ الإنْتاجيَّةِ وَتَطَلُّعاتِهِ الحَضاريَّةِ، وَلَيْسَ فَقَطْ تَخْريجَ أَعْدادٍ مِنَ المُتَعَلِّمينَ وَحامِلي الشَّهاداتِ الَّتي تَتَشَبَّثُ بِمُصْطَلَحاتِ التِّكْنولوجيا، حَتّى تَكادَ تَخْتَنِقُ بِها، وَتَخْضَعُ لِمتَطَلِّباتِ هذا العَصْرِ وَمَطامِعِهِ الماليَّةِ، إذ مَنْ وَجَدَ نَفْسَهُ في مَجاهِلِ المادَّةِ فَقَدَها، وَمَنْ فَقَدَ نَفْسَهُ في مَدينَةِ الرُّوحِ وَجَدَها.

لَيْسَتِ المَسْأَلَةُ مَسْأَلَةَ عَيْشٍ نَباتيٍّ أَوْ حَيَوانيٍّ أَوْ عُبورٍ في الأَرْضِ، إنَّها مَسْأَلَةُ وُجودٍ مَصيريٍّ وَخُلودٍ، يُمَيِّزُنا مِنْ سائِرِ الكائِناتِ الحَيَّةِ والجامِدَةِ. لِذلِكَ، فَإنَّ السَّعْيَ إلى الاسْتِئْثارِ بِخَيْراتِ العالَمِ، وَالسَّيْطَرَةِ عَلى مَوارِدِ العَيْشِ بِواسِطَةِ الإمْكاناتِ الماليَّةِ، وَاتِّخاذِ القَراراتِ المُضِلَّةِ المُدْخِلَةِ في مَتاهَةِ الصُّقْلوبِ، قَد يُؤَدّي إلى خَرابِ البَشَريَّةِ، إذا لَمْ نَتَدارَكِ الأَمْرَ بِإعادَةِ الاعْتِبارِ إلى القِيَمِ نُبَوِّئُها المَقامَ الأَوَّلَ في الإنْسانِ وَنَجْعَلُ مِنْها المَرْجِعيَّةَ الأُولى في المُجْتَمَع.



جَرَسُ إنذار تفاديًا لمقولة «سَبقَ السّيفُ العَذَل»



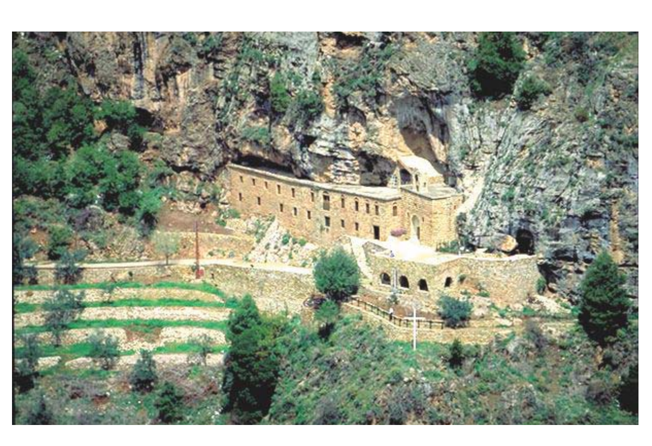
سيمون بطيش

من يتأمّلْ تاريخ البشريّة تطالعْه حقيقة ساطعة كالشمس وهي توالي الجماعات والشعوب والأمم والممالك والدّول والحضارات في خطوط بيانيّة متفاوتة تؤرّخ لها وتسجّل ما لها وما عليها. والثابتة المحوريّة التي لا يمكن لأيٍّ عاقل تجاهلها أو تجاوزها هي جدليّة الحياة والموت التي من وجوهها جدليّة الحضور والغياب، الثبات والتحوّل، الارتقاء والانحطاط، البقاء والفناء، الديمومة والاندثار...فثمّة قبائلُ شعوبٌ ومدنيّات دالت بعد عزٍّ دام قرونًا وصارت جزءًا من التاريخ أي من مقبرة الماضي الذي ولّى إلى غير رجعة، وهناك في المقابل حضارات ناشئة حديثة النشأة نسبيًّا تحتلُّ موقع الصّدارة في قيادة العالم المعاصر، ممّا يعني أنَّ لبقاء الجماعات كما لاضمحلالها شروطًا، وأنَّ الأمم العريقة في وجودها ليست محكومة بالتلاشي تلاشيَ الجسم الحيّ الضّارب في الشيخوخة والعجز، و كذلك المدنيّات الحديثة ليست بمعمّرةٍ حكمًا. مسألةُ الاستمرار في الزمان والمكان أو عدمه رهنٌ بشروط معيّنة يعود بعضها إلى ظروف موضوعيّة مناسبة ويرجع بعضها الآخر إلى وعي الانسان تلك الظروف وإلى حنكته في التعامل معها ومع متغيّراتها.

عليه، ما هي أبرز الشروط التي أفاد منها الموارنة فأمّنت لهم البقاء الكريم الحرّ في هذه البقعة الصّغيرة من العالم التي اشتُهرت باسم لبنان؟ كيف استمرّوا حيث استقرّوا لسبعةَ عشرَ قرنًا ويَزيد؟ وهل أصابت هذه الشروطَ في عصرنا متغيّراتٌ جذريّة تستدعي إعادة نظر جذريّةً في دراسة أسباب البقاء لأزمنة آتية؟ بعبارة أخرى، هل ثمّة لدى موارنة هذا الزمان (مرصدٌ) يُنبئ مسبقًا بالأخطار الدّاهمة التي تهدِّدُ وجودهم ويستشعرُ من بُعْد ما يتهدّد كيانهم التاريخيّ الذي لا يملكون إلاّه وهو لبنان؟ مَنِ القيّم «الرسميّ» على هذا المرصد؟ وهل أتت مؤشّراته ودراساته واقعيّة وعمليّة وخلاصيّة وعلى قدْر رغبات أبناء مارون؟ وأخيرًا هل من رؤيا تستشرف الغد والمستقبل القريب والبعيد للموارنة وللبنان، وما مقوّمات هذه الرؤيا؟ وهنا تجدر الإشارة إلى أنّنا عندما نقرن ذكر الموارنة بلبنان، فهذا ليس افتئاتًا على مكوّنات النسيج الاجتماعيّ والثقافيّ اللبنانيّ ولا احتكارًا لوطن كان وسيبقى لجميع أبنائه، وإنّما هو اندغام واندماج بالوطن الأوحد الأحد الذي لا بديل منه لدى الموارنة، وما هو حقّ لهم على هذا الصّعيد هو حقّ لسواهم من أبناء الطّوائف الأخرى، إن شاؤوا ذلك.

١. التحصّن بالجبال وبالأودية

لجأ الموارنة إلى شماليّ لبنان أوّلَ نزوحهم عن مواطن الاضطهاد واتّخذوا من جباله وجروده ووديانه ملاذًا لهم يقيهم مفاعيل السيف ويضمن لهم عيش الحريّة بأبعادها جميعًا، فابتنوا لهم الصّوامع واتّخذوا المغاور منازل، وألِفوا الوعر والصّخر، وحوّلوا بإيمانهم وبسواعدهم المنحدرات جُلولاً تطعمهم اللقمة الحلال المجبولة بالعرق والكفاح، والوادي المقدّس (قنّوبين) خير شاهدٍ على شخصيّتهم. وعندما امتدّ توسُّعهم الى مناطقَ لبنانيّة أخرى كان الجُرد معقلَهم ومرتعَهم وموئلَهم وبيتَهم المنيع. وثمّة ظاهرة



تكشف شغَفَهم بالعيش في القمم والمرتفعات وهي انتشار الأديرة والكنائس والمزارات على رؤوس التلال وقد عُرفت بما يُسمّى القبضَ على رؤوس الجبال. ولا يخفى ما لهذه الظاهرة من دلالات أبرزُها السيطرة على المكان والإشراف على ما دونه، والتشبّث بما لا مجال مكانيًّا بَعْده، ممّا يُشير إلى التشبّث بالحريّة وبالسيادة إلى آخر مدىً... هذا عدا معاني الأنفة والشموخ والرسوخ في الأرض والتطلُّع إلى فوق...

٢. حُبّ الأرض

الأرض عند الموارنة أكثرُ بكثير من مكان يعيشون على سطحه ويدفنون في باطنه موتاهم. الأرض كانت لهم أمًّا ورفيقة ومعلّمة، فقد وقّعوا حياتهم على فصولها وعلى نتاجها ومواسمها، وجعلوا أفراحهم وأتراحهم موصولة بتغيّرات الطبيعة، ووحّدوا ما بينهم وبينها في قصّة عشق طويلة يرويها الأجداد للأحفاد ويفخرون بها لأنّها مزيج من عشق وبطولة وإيمان بالله. من الأرض مأكلُهم ومشربُهم، وفي هذا تجسيد لحرفيّة قول الله لآبن آدم «بعرق جبينك تأكل خبزك»، ومنها ضرورات العيش في ذلك الزمان، وكانت تميل إلى القلّة والتقشّف، ومنها أيضًا ألواحُ النعش، وفيها مثوى الرحلة الأخيرة إلى بارئ الحياة والموت. من الأرض نهلوا القيمَ بعفويّةِ بسطاءِ القلوب الذين يعاينون الله، فكان للعطاء والكدّ والعصاميّة والجمال واحترام الكائنات بحُسْن استعمالها لا باستغلالها... محلٌّ أثيرٌ في حياتهم وفي سلوكيّاتهم.

ولعلَّ ما يُسمّى «أدب القرية» في الأدب اللبنانيّ ولدى الشعراء الموارنة بخاصّةٍ، هو محصّلة الجمع بين الشعور بالطمأنينة والأمان في كنف الجبال والوديان والشعور بحُبّ الأرض مصدرِ الخير والوجهِ الظّاهر للخير المطلق. بعبارة أخرى، الأرضُ مِساحة لعيش القداسة والقيَم المسيحيّة، وهْي بالتّالي من أقدس المقدّسات في الوِجدان المارونيّ. فلا عجب إن رأينا أدب المهجر حافلاً بالحنين إلى لبنان الأرضِ والجبلِ والوادي، وإلى نمط العيش في ظلّ قرية يسودها الصفاء العائليّ وروحُ الوداعة والبراءة. المغترب المارونيّ بخاصّة يعيش في المهجر جسدًا وقلبُه أبدًا معلّق بمسقط رأسه.

٣. الاستبسال في الدّفاع عن الأرض

التحصّنُ بالجبال والأودية وعشقُ الأرض جعلا الانسان المارونيّ صلبًا جَلودًا قادرًا على احتمال قسوة الظروف الطبيعيّة، وقنوعًا بما ينتزعه من خيرات الأرض انتزاعًا، وطالِبَ حريّة بامتياز. فلم يتوانَ يومًا عن الدفاع عن موطنه ليقينه بأنْ لا موطن بديلاً له، وقاسى الأمرّين حفاظًا على هذا الإرث التاريخيّ الغنيّ بالشهادة وبالشهداء. علاقة الموارنة بالأرض جعلت منهم مقاتلين جُلُّ طموحاتهم أنْ يعيشوا آمنين أحرارًا على أرضهم فلا يُعتدى عليهم ولا يعتدون على أحد. صحيحٌ أنَّ تاريخهم حافلٌ بالانقسامات والتطاحن في ما بين زعاماتهم وقياداتهم الزمنيّة، والزمنيّة والدينيّة، لكنّهم على مستوى الدّفاع عن كيانهم ووجودهم في هذه البقعة الصغيرة من الشرق كانوا رزمة واحدة في معظم مفاصلِ تاريخهم، لأنّ سقوط السقف على رؤوس الجميع لا ينجو منه أحد. ولعلّ التفافهم حول بطريركهم في الظروف العصيبة- وهو تاريخيًّا قائدهم الأوّل الزمنيّ والمدنيّ ومرصدُ يومهم وغدهم- هو عاملٌ رئيس من عوامل وحدتهم وصمودهم وبقائهم. الأرض إذًا ترقى إلى مستوى المقدّسات، والذّودُ عنها واجبٌ ولا خيارَ آخر يَصلح بديلاً منه عند الضرورة. الموارنة كانوا دومًا مدافعين ولم يكونوا يومًا مهاجمين أو بادئين بالقتال حبًّا بالتوسُّع أو الهيمنة على ما للآخرين.

٤. حُبُّ التعلّم



أدرك الموارنة بفطرتهم، وفي ظلّ حياتهم التقليديّة الزراعيّة الفقيرة بالموارد، أنَّ العلم والمعرفة ثروة ومَجْلبة للثروة الماديّة والمعنويّة، فسعَوا إليها بكلّ قواهم يحفزهم إلى مراقيها بطاركةٌ وأساقفة وخوارنة ورهبانٌ يعرفون ما للعقل من قدْرات تجترحُ الأعاجيب إن أُحسِنَ تفعيلُها. فكانت مدرسةُ تحت السنديانة حجرَ الأساس في صناعة الفرادة المارونيّة في الشرق، وقبلها صوامعُ الرهبان ومناسكُهم وصلواتُهم، ثمّ جاءت المدرسةُ المارونيّة في روما لتضيف إلى التراث المارونيّ زادًا

فكريًّا لاهوتيًّا تربويًّا تعليميًّا وحضاريًّا من نوع جديد، فيه أثر بيّنٌ للتلاقح والتثاقف ما بين الشرق والغرب، فطار للمتخرّجين منها صيتٌ طبّقَ الآفاق، وذاع التشبيه الشهير (عالم كمارونيّ) ليسِمَ مسيرة الموارنة بالعِلم ولا شيءَ سواه. وهذه مفخرة تفرَّدَ بها شعبٌ انتصر بالفكر وبالقلم على ضآلة مساحته وهشاشة موارده وقلّة عدد أبنائه. ولعلَّ أهمّ تجلّيات حُبّ الموارنة للتعلّم انفتاحهم الفكريّ والثقافيّ والحضاريّ على ثقافات العالم من أقصاه إلى أقصاه، فلا قوقعةَ في لغة أو إقليم أو دين، ولا تعصّب بل تبادلٌ معرفيّ في إطار الخضوع الراقي للحقيقة العلميّة أيًّا يكن مصدرها. وقد أُخِذَ عليهم هذا الانفتاح في بعض مراحلِ تاريخهم ولم يُفهَم على حقيقته وصُنِّفَ تحت عناوين مُخزية لا تستحقُّ الردّ لأنّها اتهامات باطلة تهدف إلى الاحتواء والحدّ من هذا الانفتاح الذي يُخيفُ بعض المتزمّتين.

٥. تمثيل الوجود المسيحيّ في الشرق

ربّما كان هذا العامل أبرز الدواعي إلى اعتبار الموارنة وكيانهم التاريخيّ والجغرافيّ في هذه النقطة من الشرق العربيّ تجسيدًا للوجود المسيحيّ بل حاجة حرص الغرب والفاتيكان وفرنسا بخاصّة على بقائها وحمايتها كعلامة فارقة في هذا المكان من العالم الذي شهد ولادة الأديان السماويّة واحتضنها، إذ ليس من العدل أن تستأثر ديانةٌ أو أكثرُ بالمنطقة كلّها على حساب من عداها. بهذا المعنى كان الموارنة حاجةً لا بدَّ منها لإيمانهم أوّلاً بمسيحيّتهم وبأنّهم شهود السيّد المسيح في الأرض التي مشى عليها ابن الله، وكانوا كذلك حاجة للفاتيكان وللعالم الكاثوليكيّ الذي لا يمكن أن يتنكّر لمشرقيّة منابعه وجذوره. وهذا العامل الذي شكّل نوعًا من الضمانة لبقاء الموارنة ولبنانَ كان في مراحلَ معيّنةٍ مصدرَ ويلاتٍ ودموع، إذ اعتُبرت حماية الموارنة تدخُّلاً في السياسة الداخليّة وتغليبًا لطائفة على أخرى، وقد دفع الموارنة بسبب هذه التهمة أثمانًا باهظة في الأرواح والأرزاق نتيجة اتهامهم باستجلاب القوى الخارجيّة قهرًا للأعداء واستقواءً عليهم.

هذه أبرز أسباب بقاء الموارنة في تاريخهم إلى يومنا وضعناها في عناوينَ عريضةٍ، وتحتها تندرج أفكارٌ أشرنا إليها تلميحًا تصلح أن تفصَّلَ وتشكِّلَ أسبابًا أخرى للبقاء والديمومة. فأيٌّ من هذه الأسباب لا يزال قائمًا في الحاضر، وأيُّها اندثر وانطوى وامّحى أثرُه؟

١. زوال فكرة الوطن المحصَّن المعزول عن المخاطر

غنيٌّ عن القول إنَّ وسائل المواصلات الحديثة كما وسائل الاتّصال والمعلوماتيّة قد أطاحت بالوطن- العشّ الدافئ والملاذ الآمن، وحملت الحضارة إلى كلّ زاوية في الكون، وقلبت الثورة التكنولوجيّة أنماط العيش رأسًا على عقب. وجاءت الأسلحة المتطوّرة بفعل التقدّم العلميّ الهائل لتُسقطَ مقولة الاحتماء بالجبال العاصية على الاختراق، وبالوديان العميقة التي يستعصي على الغزاة بلوغُ أغوارها. لبنان بات اليومَ أرضًا مكشوفةً سهلة المَنال، فقدت طابَعها الآمن، وبالتالي صارت أقربَ إلى المخاطرِ وعنصرَ قلقٍ، ولم يستمرَّ مرقدُ العنزة موئلَ سلام، ولا صاحبُه محسودًا ولا مغبوطًا على نعمة الأمان. هذا، ولم يكن الموارنة في تاريخهم طلاّب انعزال حبًّا بالتقوقع والانكماش، وإنما كانوا دومًا طلاّب سلام وسلامة يَنشدون البقاء الحرّ الآمن.

٢. انقلاب جذريّ في مفهوم الأرض

إنكمشتِ العاطفة حيال الأرض، ويبسَ الحُبّ والزرع معًا، وبات العقل يَقيسُ ويَستغلُّ ويَحسبُ طولها وعرضها وعُمقها بالأرقام، والآلة الحاسبة تأتيه بالجواب عن الثّمن والمربح. الأرض في أيّامنا باتت- للأسف الشديد- سلعةً كسواها من السّلع، ونحن اليومَ نبيع ونشتري ونساوم على مَن كانت لأجدادنا ومفكّرينا أمًّا ورفيقة ومعلّمة. صارت جثّةً باهظة الثّمن، هربت من جنباتها القداسة والبراءة ونأى عنها الجمال، والسّماسرة يعرضونها على الموسرين في أسواق النّخاسة تحت أنظار كبار الموارنة ولا مكابحَ لهذه الهستيريا إلاّ بعضُ صرخات وتدابير اتّخذت مع تولّي غبطة البطريرك مار بشاره الراعي سدّة البطريركيّة. الأرض ما كانت قبلاً تُباع إلاّ قسرًا، إمّا لتعليم الأولاد وإمّا سدًّا لعوز لا يُحتَمل. والشاري ما كان يرغب كثيرًا بالمتاجرة بالعقارات كما هي حال تجّار الأراضي في هذه الأيّام، خوفًا من أن تبقى عين البائع أي قلبه راغبًا بمقتناه الذي باعه على مضض فلا يرافق التوفيق الشاري. هذا الأخير كان يشتري بدافع فكّ الضيق عن قريب أو صديق، لا بحافز عقد الصفقات وتحقيق الأرباح. الأرض

كانت للمارونيّ صكَّ أمان متوارَث، وشيئًا يُشبهُ العِرْض والشّرَفَ، وبيعُها أبغضُ الحلال لا يُلجَأ إليه إلاّ اضطرارًا. أمّا القبض على رؤوس الجبال فبساط يُسحب من تحت الموارنة شيئًا فشيئًا، ومتى أجلوا عن القمم والمرتفعات فإنَّ الغربة تصبح قدَرَهم المحتوم، وهيهاتِ أن يستردّوا عزَّتهم، ففاقد الشيء لا يعطيه. ولا تخفى خطورة انهيار القيم بانقلاب النظرة إلى الأرض، وهذه كلّها من عوامل تغيُّر الانسان المارونيّ في بِنيته التربويّة والأخلاقيّة والروحيّة. فالطبيعة اللبنانيّة الريفيّة التي مجّدها الأدباء وغنّاها المطربون على أنّها جزء من الجنّة وكلّ ما فيها رائعٌ وسامٍ ونظيف صارت اليوم- للأسف- طعامًا للنيران وللجرّافات ومصدرًا للثروات الحرام، ولا من يشفق ويقول (حرام).

٣. إشكاليّة الدّفاع عن الأرض

أيّ أرض؟ أهي لبنانُ بترابه كاملاً؟ الستراتيجيّة الدفاعيّة موضوعُ طاولة الحوار الوطنيّ لم تُحسَمْ بعدُ ولكلّ فريق تصوّرُه حتّى ضمن الفريق المارونيّ نفسه. أرض الموارنة؟ ليس هناك أرض للموارنة بالمعنى الحصريّ، وإلاّ بات لكلّ طائفة ومذهب أرضٌ وحُماة لهذه الأرض، وهذا يتنافى مع فكرة الوطن. ثمّة في لبنان مناطقُ تسودها ديمغرافيّة تقليديّة تاريخيّة تصبغها وتطبعها بطابعها، وهذا ما يضفي على لبنانَ سِمة التنوّع والتعدّديّة من ضمن الوحدة. فلكلّ طائفة ثقلها العدديُّ والسكّانيُّ في مناطقَ معروفة، وتعتبرها موئلاً لها وعرينًا، وتحرص على هذه المنطقة كونها مستقرًّا أساسيًّا لها في الوطن الذي هو للجميع. مفارقة في منتهى الدقّة بين ما هو للوطن وللجميع، وما هو لطائفة بالدرجة الأولى وللآخرين بالدرجة الثّانية. هذا هو لبُّ الواقع، وكلّ تنكّر له انحراف عن الموضوعيّة وإيغال في الوهم. وعند الخطر، سواء أكان مصدره داخليًّا أم خارجيًّا، ينكفىءُ المهدَّد إلى منطقته ويشرع بالدفاع عنها مستعينًا بالقريب وبالبعيد، حتّى لا نقول أكثر من ذلك، حفظًا لوجوده وطلبًا للدفاع عن النفس. والموارنة أحسنوا هذا النوع من الدفاع عن الأرض، بالرّغم من خلافاتهم التي تستفحل كلّما انتشر السلاح بين أيديهم، ولم يدَعوا أحدًا يكسر لهم حريّتهم، ولكنّهم كانوا دومًا يدفعون ثمن انتصاراتهم الدفاعيّة أثمانًا سياسيّة ومعنويّة تعيدهم إلى الوراء وتسلبهم شيئًا من مكاسبهم التاريخيّة. والطوائفُ الأخرى هي بدورها تتقنُ الدّفاع عن الأرض بالمفهوم المشار إليه، لكنَّ عمليّات بيع الأراضي في المناطق المسيحيّة على نطاق واسع وغير مسبوق إلى غير المسيحيّين، والقضم المنهجيّ المنظّم لهذه المناطق، يدعو إلى الرّيبة ويطلق جرسَ إنذار مدوّيًا بضرورة تدارك الأخطار قبل استفحالها، لأنَّ الخطيئة المميتة لا ينفعُ بعدها الندم، ويصبح الدّفاع عنها إذا تجاوزت معقوليّتها ضرْبًا من الانتحار. كلّ الأخطاء والخطايا قد تُغتَفَر وربّما يُصلحها الزمان، إلاّ هذه، فهي كارثة وإبادة لتاريخ بكامله. وهنا لا بدَّ من الإشارة إلى أنَّ هذه النظرة لا تتناقض والمواطنةَ على الإطلاق، ولا تجانب صيغة التعايش من قريب أو من بعيد، فلبنانُ بلد التوازنات الدقيقة بين مكوّناته، وفي احترام هذه المكوّنات اعترافٌ بحقوق الجميع وواجباتهم من غير أن يكون لأحد امتياز على آخر.

٤. ميزة التفرّد بالسَّبْق العلميّ، التي عُرِفَ بها الموارنة، صارت أثرًا منسيًّا بعدما شاعت دُوْرُ العلم من مدارسَ ومعاهدَ وجامعاتٍ في المدُن بخاصّة وحتّى في الأرياف. وصارت وسائل التعلّم متقدّمة جدًّا تتيح المعرفة للجميع .

فالمارونيّ الذي كان يُتقن لغة أجنبيّة أو أكثرَ، وكان حاجة لمواطنيه من الطوائف الأخرى وللعالم الخارجيّ، فقدَ اليومَ هذه الفرادة إذ عمَّ العلمُ أبناء الطوائف كلّها، وبرزَ من هؤلاءِ جميعًا متفوّقون ولامعون ومهَرَة. الإقبال على التعلّم لم يعدِ امتيازًا، بل صار أمرًا لا بدَّ منه لعموم المواطنين اللبنانيّين وللانسان في هذا العصر. ولا شكّ في أنَّ انحسار هذه الميزة التفاضليّة عن الموارنة إنّما يساهم في تقزيم دورهم الذي اشتُهروا به تاريخيًّا، كونُهم منارةً مشرقيّة فكريّة لا يَخفى إشعاعُها على أحد.

٥. تعاظُم التيّارات التكفيريّة في المنطقة العربيّة والدّاعية الى إقامة الإمارة الاسلاميّة في لبنان، وهذه الدعوات ترجمة لمخطّطات سياسيّة- دينيّة جديدة قديمة تهدف إلى الإطاحة بلبنان وبالمسيحيّين والموارنة في مقدّمهم. ويكفي أن نلقي نظرة على ما حلَّ بمسيحيّي العراق وما يتعرّض له أقباط مصر ومسيحيّو سوريا حتّى نرى صورة مصغّرة عن النموذج الذي ينوي أصحابه تنفيذه أو الترويج له في أبسط الأحوال. والأدهى من هذا كلّه أنَّ ثمّة فئة من الموارنة لا يرون هذا المشهد ويعتبرونه فزّاعة ليس إلاّ، مع أنّهم قاتلوا في أثناء الحرب اللبنانيّة مَن كانوا أقلّ من

هؤلاء الدعاة المتطرّفين تطرّفًا. الخوف كلّ الخوف لدى الموارنة اليوم أن ينزلق بعضهم إلى لعبة الأحلاف المتهوّرة، وأن يصنّفوا هذه الدعوات التكفيريّة في خانة المناورات السياسيّة، فيما هي في الواقع تهديدٌ لا لبسَ فيه، وخطرٌ مُحدِق لا يقبل التمويه أو التبرير. ولن يجديَ البكاء على الميت بعد الطوفان.

مشكلة المشاكل عند الموارنة أنّهم لا يملكون- وهذه ظاهرة رافقتهم في مراحل تقهقرهم- جهازًا بشريًّا يعمل على التخطيط السليم لمسيرتهم الحاضرة والمستقبليّة. ليس للموارنة فكرٌ استشرافيّ استراتيجيّ ينتجُ تصوّرًا شموليًّا للمستقبل القريب والمتوسّط والبعيد، لسببٍ بسيط وهو اختلافُهم على قراءة معطيات الواقع. والمعلوم أنّ قراءة الواقع بمعطياته الموضوعيّة الدقيقة حجرُ الزاوية في كلّ بناء استراتيجيّ، فما يُبنى على صواب هو صواب وما يُبنى على خطأ هو خطأ. العلّة في الأساس، في البداية والمرتكز والسطر الأوّل وقد أثبتت التجارب التاريخيّة أنّ الموارنة حين كانوا في مجموعهم يُسلسون قيادتهم لبطريركهم، وحين يمتاز بطريركهم بالامتلاء من الروح القدس بالحكمة والحنكة، إنّما يعيشون في منعة وأمان مهما كانت ظروف عيشهم، وحين يتشرذمون في ظلّ قيادة دينيّة وسياسيّة غير حكيمة يرزحون تحت المصائب والويلات. المطلوب إذًا وضعُ استراتيجيّة للبقاء لا تتناقضُ ومصالحَ الوطن العليا، بل توازيها وتسيرُ معها جنبًا إلى جنب، ينهض بها خبراءُ وأصحابُ اختصاص في مختلف المجالات، وتعمل أوّلاً وأخيرًا تحت مظلّة بكركي وبرئاسة غبطة البطريرك مباشرة.

المطلوب إذًا وضعُ رؤيا للبقاء وللنماء، مارونيّة، تراعي أدقَّ المراعاة الخصوصيّات اللبنانيّة وتُحسن التعامل معها وتحتاط لكلّ متغيّر من المتغيّرات التي قد تطرأ على هذه الرؤيا بمجموعة بدائل وآليّات وحلول. وقد شكّلَ الإرشاد الرسوليّ الذي صيغ إبّان حبريّة قداسة البابا يوحنّا بولس الثّاني إطارًا لهذه الرؤيا ودليلاً عليها، لكنّ مفاعيله التطبيقيّة لم تكن بحجم المتوخّى منه، ممّا يشير إلى أنّ الموارنة لا يزالون إلى الآن خارج قانون الجاذبيّة.

وإذا كان معظم أسباب البقاء التي ذكرنا سابقًا قد زال أو هو في طريق الزوال في أحسن الأحوال، وإذا كانت الرؤيا التي في ضوء تطبيقها تنتظم حياةَ الموارنة وتستمرّ غائبة بل لا وجود لها، فإنَّ جرس الإنذار لا بدَّ أن ينطلقَ مُعلنًا قدومَ الخطر- خطر فقدان الأرض وما ترمز إليه- الذي طالما هزمَه الموارنة في تاريخهم بالإيمان والنّضال والعِلم. كان للموارنة في تاريخهم قيمةٌ ودورٌ وكان وجودُهم ضرورة، فإذا تبخّر هذا الدّور وانحلّت هذه القيمة فإنَّ مبرّرَ وجودهم يُصبحُ موضعَ مساءلة ومثار ريبة، وهذه أفجع الفواجع والنكبات.

من أين يبدأ الحلّ؟ ما البديل الرئيس لدعائم البقاء البائدة؟ ما نقطة الارتكاز للرؤيا المطلوب استيلادها عاجلاً؟ الحلّ يبدأ من ثقافة جديدة تبشّرُ بالدّولة العادلة وبالمواطنة التي توحّد اللبنانيين على أساس القيم الوطنيّة والدينيّة والانسانيّة. هذه مهمّة الموارنة بل زادُهم الفكريّ المأمول لقرون، وعتادهم رغم قلّة عديدهم. وبهذه المَهمّة الجليلة يشكّلون من جديد حاجة للمنطقة العربيّة وللعالم. ما أسماه قولُ قداسة البابا الراحل يوحنّا بولس الثاني لبنانُ الرسالة هو ما ينبغي على الموارنة قبل غيرهم أن يتلقّفوه عملاً وليس فقط قولاً، ويعملوا له ليل نهار فيبقَوا متصالحين مع تاريخهم ومنسجمين مع الحريّة . هذه الرؤيا المنشودة تأسيس جديد بل ولادة جديدة لقرون من الوجود الحرّ للبنان النموذج الحقيقيّ للعيش الواحد بين مختلف مكوّناته.

بداية الربيع سنونوة، فهل ينبري الموارنة لتجديد مسيرتهم بالبحث عن فرادتهم في عالم الحداثة وبريادة قديمة جديدة لهم في هذه البقعة من العالم؟ هل يكونون تلك السنونوة التي تحمل إلى لبنان وإلى العالم العربيّ وإلى الإنسانيّة ربّما، ولِمَ لا؟! أفقًا جديدًا للتلاقي الحضاريّ بين أهل الأرض على قيمٍ ومُثُلٍ ومعانٍ سامية ترفعُ الكائن البشريَّ من حمأة الشّرور والمفاسد المستشريّة وتعيده إلى صفاء طبيعته الأولى؟

جرس الإنذار لا قيمة له بعد فوات الأوان، وأبناء مارون مدعوّون إلى التفكير والعمل تفاديًا لمقولة «سبقَ السّيفُ العذَل».



فشّة خلق



شربل شربل

وما أدراك ما فشّة الخلق؟

إنّها خطأ في التصويب، وتوجيه ردّة الفعل إلى غير هدفها الصحيح.

ولو كان في الأمر شيء من الأخلاقيّة في التصرّف لهان علينا أن نفشّ خلقنا. ولكنّ القضيّة في أصلها هروب من المعركة الحقيقيّة واستعاضة عنها بما هو أسهل، حتّى ولو لم يكن في أوانه أو موضعه. وقد جاء في أمثلتنا «اللي ما فيه لحماتو بيفشّ خلقو بمراتو».

وحرصًا منّي على الدقّة في الكلام، عدت إلى القاموس فوجدت في مادّة «فشّ» ما يأتي: فشّ خلقه في فلان: أنزل فيه غائلة غضبه المسبّب من غيره (عاميّة). فتأكّد لي حينها أنّ فشّة الخلق هي استسهال وهروب ، وتذكّرت الحكاية الآتية:

خرج جنرال من منزله مغضبًا بعد أن أشبعته زوجته لومًا وتعنيفًا لأسباب كثيرة؛ فهو يهمل عائلته، ويقسو على أولاده ويقتّر عليهم، في حين يبدّد الكثير من المال ثمنًا للسيكار والويسكي وغيرهما. ولكنّ الأهمّ من ذلك أنّها على علم بعلاقاته النسائيّة المشبوهة. ولذلك سدّ فمه وخرج من البيت حاميًا فخبط باب سيّارته العسكريّة خبطة قويّة جدًّا، قبل أن يتمكّن مرافقه من إقفاله بأقلّ من ذلك.

قد نقول إنّه فشّ خلقه، ولكنّ ما فعله لم يُزل احتقانه، لذا، صبّ جام غضبه على العقيد الذي يعاونه.

ولمّا كان العقيد يخاف رئيسه فقد كظم غيظه، وأدّى التحيّة العسكريّة، واستأذن للرجوع إلى مكتبه؛ وهناك، فشّ خلقه في النقيب الذي فشّ خلقه في الملازم، لأنّه لم يجد الملازم أوّل؛ فقام الملازم بفشّ خلقه في المؤهّل لأنّه لم يجد المؤهّل أوّل... وهكذا دواليك، إلى أن فشّ العريف خلقه في الجنديّ الذي خرج مغضبًا من المركز فصادف عنزة تتبع صاحبها، فوجّه إليها رفسة من حذائه الأميريّ (الجمهوريّ) قلبتها رأسًا على عقب، وقامت بعدها غاضبة وضربت الأرض بقوائمها، قبل أن تعاود سيرها، ففشّت خلقها. وهكذا، امتصّت أمّنا الأرض غضب... زوجة الجنرال.

قلت إنّني تذكّرت الحكاية، ولكنّني لم أتذكّر صاحبها أو مصدرها، وخرجت من تأمّلي في مغزاها إلى اعتبار فشّة الخلق أمرًا معيبًا. وقلت في نفسي: لو فكّرت زوجة الجنرال بإحراق المراحل، كما يفعل الجنرالات الذين يعتقدون أنّهم بانقلاب عسكريّ واحد يستطيعون نقل شعوبهم إلى الازدهار والتقدّم والديمقراطيّة، وخصوصًا الديمقراطيّة التي يهجسون بها، لو فكّرت بإحراق هذه المراحل كلّها، ولبطت الأرض فاشّة خلقها لوفّرت على جميع أبطال القصّة «البهدلة» و«طلوع الخلق» ثمّ فشّه، ولكن...

وعدت مجدّدًا إلى القاموس علّني أجد فيه معنى لطيفًا للفعل فشّ يسوّغ لي القيام به من دون آثار جانبيّة أخلاقيّة، فوجدت: فشّ قلبه: أظهر ما يكنّه قلبه من عتب أو غيظ (عاميّة).

فقلت: إذًا، هنالك فشّة خلق وفشّة قلب، والفرق واضح بينهما. وأنا أرجّح الثانية على الأولى من الوجهة الأخلاقيّة لأنّ فيها العتاب، وهو صابون القلوب، على ما جاء في المثل. وفي استعماله احتمال عودة الأمور إلى مجاريها الطبيعيّة، ما لم تكن القلوب من النوع الذي عناه الشاعر في قوله:

إنّ القلوبَ إذا تنافر ودُّها مثلُ الزجاجةِ كِسرُها لا يُجبرُ

وأمّا إظهار الغيظ، فقد يكون خيرًا من إخفائه. لأنّ فيه إراحة لقلب صاحبه، وكشفًا لنواياه بعيدًا من الخبث والرياء والمداهنة، ولئن عابه أنّه قد يكون نتيجة انفعال، إلاّ أنّ ما يحمله الانفعال من صدق قد يعطيه مصداقيّة بالغة الأهمّيّة. يبقى أنّك إذا أردت، عن سابق تصوّر وتصميم، أن تفشّ خلقك فعليك أن تفتّش عن الضحيّة البريئة وأن تدبّر الصدفة الملائمة لذلك. وعلى سبيل

الاقتراح والتمثيل لا التعداد والحصر، يمكنك أن تسبّ الحكومة والمسؤولين، حتّى ولو لم تكن لديك أسباب وجيهة وواضحة. وقد تلجأ إلى اغتياب زملائك، أو خيانة صديقتك، أو تعاطي الكحول والمخدّرات، أو صيد العصافير، أو التدخين، عملاً بالقول الشهير «نفّخ عليها تنجلِ» الذي لا يوجد فيه شيء من الصحة... ولو كان عندنا في لبنان «هايد بارك» على غرار ما يوجد في بريطانيا، لأمكنك أن تفشّ خلقك وقلبك من دون حسيب أو رقيب، ولكن، أنّى لنا ذلك، ونحن لا نؤمن، في الحقيقة، بحرّيّة الكلام، ناهيك عن حرّيّة القول والمعتقد!؟ وأنّى لنا ذلك، ونحن كائنات تاريخيّة متحفّظة أعمق ما كيانها، على ما يقول سعيد تقيّ الدين، الطائفيّة؟!

ويبقى أن نشير إلى إمكانيّة تجيير الاحتقان إلى من يجسّده بأوضح صوره، ومن ثمّ إسقاط فشّة خلقه علينا فنرتاح كما لو كنّا الفاعلين الحقيقيّين. ألسنا نرى في الانتصارات الرياضيّة وغير الرياضيّة، خصوصًا عندما نتضامن مع اللاعبين أو المرشّحين، فشّات خلق جماعيّة، سواء جاء ذلك نكاية بالأعداء أو انتقامًا منهم أو...؟

أمّا من اتّقدت في داخلهم شعلة الفنّ فيجدون فيه متّسعًا لفشّ الخلق وفشّ القلب، بغضّ النظر عن القيمة الفنّيّة لما ينتجونه. فإذا ما كان لهم جمهور عريض يتجاوب مع ما يقدّمونه له، استطاع هؤلاء فشّ خلق هذا الجمهور وتحوّلوا إلى أبطال أو ما يشبههم. وأقدر هؤلاء من اتّصفوا بالديماغوجيّة؛ فإنّهم ينطلقون من المبدأ الشهير الذي صاغه المصريّون بلهجتهم المهضومة فقالوا: «الجمهور عاوز كده» (الرجاء قراءة جيم الجمهور على الطريقة المصريّة).

ومن الفنّانين من يختارون المجابهة المباشرة متحمّلين النتائج التنكيليّة من سجن أو نفي أو اغتيال... ومنهم من يختارون طرقًا مواربة قد تحميهم من الاتّهامات المباشرة، وقد لا تستطيع إذا قرأ الحكّام بين السطور، كما يجب أن يفعلوا، فتودّي بهم كتاباتهم ومواقفهم، ويكسبون محبّة قادري نتاجهم ومخلّديهم في دنيا الفنّ.

ولمّا كنت «أداري جنابي» كما يقال في العامّيّة اللبنانيّة، فقد لجأت، منذ زمن بعيد، إلى فشّ خلقي (والأصحّ أن أقول: فشّ قلبي) في الكتابة، وملأت دفاتر ذهبت مع الريح أو قل ذهبت بها عاصفة التهجير التي نالنا منها ما نالنا (وإنّي لو علمت الآن بمكان وجودها لدفعت فدية مقابل تحريرها)، فحزنت مدّة، ثمّ عاودت نشاطي على مقدار ما يتّسع له وقتي، أو بالأصحّ همّتي، لأنّ هنالك دائمًا متّسعًا من الوقت.

وعلى ذكر التهجير الذي كان هدفًا من أهداف الحرب اللبنانيّة ووجهًا من وجوه المؤامرة على لبنان، ممّا ينفي عنها صفة العبثيّة التي اخترعها بعض المحلّلين لذرّ الرماد في العيون، فإنّني لم أشأ أن أدوّن من تجربته المرّة إلاّ النزر اليسير. ومن هذا النزر قصيدة دفعني إلى كتابتها سبب مباشر، هو الحلم.

فلقد رأيت، في ما يرى النائم، حديقة منزلي المتروك بعد سنتين على انسلاخي عنه، أي في نيسان ١٩٨٧.

أمّا تحديد دوافع الحلم وتحليلها فمتروكان للمحلّلين النفسانيّين تلاميذ فرويد، و لمن شاء من المفسّرين العشوائيّين. وإليك ما كتبت:

بيني وبين ترابها عهدُ	باحت به الأشجار والوردُ
فعشقتها وسقيتها أملي	فتناوب الإزهارُ والعقدُ
أيّامَ كان الدهرُ يبسِمُ لي	في حضنها، ويقهقه السعدُ
فهنا، يمدّ العشبُ ساحتَه	وهناك، يحلو الأخذُ والردُّ
وعلى الغصون بلابلٌ عشقت	في عبّها، والعِشقُ يشتدُّ
يا حسنَها والفجرُ مبتسم!	يا طيبها والعطر ممتدُّ!
ولقد رأيتك والنوى حالي	يلهو بك المحتلّ والحقدُ
فوجدت وردك قد ذوى، مثلي،	والشوك يعلو ويبهت الخدُّ
أضحى هشيمًا ذلك العشب	والحوض... إلاّ العظم والجلدُ
فكذا المحبّ، الهجر يذبِلُه	ويحي«ومالي في الخطوب يدُ»!
إن نلتقِ، ودموعُنا حُبُسٌ	نسقِ بها من شاقها البُعدُ

كان لهذه الأبيات وقع مؤثّر على من سمعها تراوح ما بين التحسّر والأسف والغضب الذي وجد في الشتائم أو الدموع متنفّسًا... ممّا دفعني إلى طيّها في «دفتر النسيان» الذي ضمّ أخوات لها أميط اللثام عن إحداها: رسالة إلى ولدي.

وقصّة هذه الرسالة- الوصيّة بسيطة وعميقة في آن معًا. وقد جاءت كتابتها استجابة لدافع مباشر واختمار مطويّ.

أمّا الدافع المباشر فكان إحساس ولدي، وإن صغيرًا نسبيًّا، بما تلا القصيدة السالفة الذكر من ردود فعل قاتمة دفعتني إلى طيّها، وربّما سمع منّي كلامًا حول عدم رغبتي في نظم الشعر مجدّدًا ما دام ينكأ الجراح ويثير مكامن النفوس، في وقت نحن فيه بأمسّ الحاجة لتجاوز المحن، ولتأمين جوّ غير مشحون،

ينمو فيه أطفالنا بأقلّ قدر ممكن من تأثير الحرب ومآسيها. فقد جاءني يومًا، قبيل عيد الفصح، لأسمّع له درس المحفوظات، ولم يكن من عادتي متابعة تدريسه، وكان عليه أن يحفظ قصيدة نزار قبّاني «رسالة إلى أمّي» التي مطلعها: مضى عامان، يا أمّي، على الولد الذي أبحرْ... وبعد أن قمت بما يقوم به المعلّم من تصويب أخطائه وإرشاده إلى مكامن الضعف في الإلقاء، بادر إلى القول: لماذا لا تكتب لي ، يا بابا، رسالة شعريّة تشبه رسالة نزار الجميلة هذه؟

أحسست أنّ الصبيّ طلب منّي أن أسمّع له عن سابق تصوّر وتصميم لكي يجد مناخًا ملائمًا لطلبه هذا. وتدخّلت زوجتي قائلة: تكرم عينك، سيكون لك ما تريده. فأجبتها قائلاً: ولكنّني غير راغب في كتابة الشعر، ولا أستطيع أن أذكر العامين الماضيين بغير السوء والشؤم والحزن. أنسيت قصيدة الجنينة وما تركته في من سمعها؟

- ولكنّها كانت في الوقت عينه «فشّة خلق»، فاجعل الثانية فشّة خلق، أيضًا.
- يصعب عليّ...
- هوّن عليك، يا رجل، «فتحت المصائب تكبر القلوب»، و«التفصيلة» جاهزة!
- ماذا تعنين؟
- نظم الشعر الكلاسيكيّ أشبه بالخياطة. وعروض الخليل أشبه بمجلّة «burda». نحن نحدّد القياس ونرسم التفصيلة الجاهزة على الورق، ولا يبقى أمامنا سوى التطبيق... وها هي قصيدة نزار جاهزة، وهي على مجزوء الوافر الذي تحبّه ، وحرف رويّها الراء، واللغة مشاع، ولم يبق أمامنا سوى التطبيق.
- ولكنّ استسهال العمل في الفنّ يبعده عن الإبداع، و«الشعر فنّ طويل سلّمهْ، إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمهْ، زلّت به إلى الحضيض قدمهْ». وهو صعب، فإذا أراد صاحبه إجادته عليه أن يسهر الليالي، ألا تذكرين قول سعيد عقل:

إذا نقــط حــرف شـــاءه ربّ مرقــم أنيقًا

فقــل: عيــن تعــذّب مــن ســهد؟

- الإبداع ليس شرطًا للإمتاع. أنظر إلى الملابس التي نخيطها متّكلين على التفصيلات الجاهزة في مجلّة burda، ألا نتمتّع بارتدائها؟
- بل نتمتّع بـ...
- قه قه، يا ثقيل!
- قه قه قاه...
- أرجو ألاّ تكسر خاطر الصبيّ بعد أن وعدناه، لحرصك على مسيرتك الفنيّة.
- ولكنّني لم أعده.
- أنا وعدته.
- يجب أن تكون الكلمة الأخيرة لي.
- قلها.
- «أمرك، يا سيّدتي».

وكانت الأبيات المفصّلة سابقًا:

مضى عامان،
أو أكثرْ...
على البلد الذي أقفرْ
على البيت الذي كنّا
بدفء حنانه نكبرْ
على الدرب التي كانت
تفيض المسك والعنبرْ
على أجراس قريتنا
على تيناتنا السكّرْ
على زيتون ربعتنا
وسحر نبيذنا الأحمرْ
على أعياد ساحتنا
وكرم عريشنا الأشقرْ
على ليمون روضتنا
وماء الزهر يُستقطرْ
على دمعات نبعتنا
ومن يلهو ومن يسمرْ
مضى عامان يا ولدي
بها يلهو الذي هجّرْ!
مضى عامان يا ولدي
وعيد الفصح لم يحضرْ!
مضى دهران يا ولدي!
فلا تنسَ، ولا تغفرْ!



أفشّة خلق، هذه الأبيات، أم فشّة قلب؟

«مدينةُ الله العُظمى»:
بينَ الفوضى والإندثار



أنطوان افرام سلامه*

لطالما جذبتنا أنطاكية إلى عرينها، فبهرتنا بـ«تاجِها المشرقيّ الجميل»، وأجلستنا على كرسيِّ أميرها بطرس، وفقّهتنا بلاهوتها وليتورجيّتها، وسكبت علينا من روحانيّتها، وغمرتنا بوحدتها وأصالتها...

أنطاكية الدّين والدُّنيا

«مركز ولاية الشرق»، «مُديريّة الشرق»، «عاصمةُ الإقليم الشرقيّ في الإمبراطوريّة الرومانيّة»، عاصمةُ سوريا قبلَ الفتح الإسلاميّ، «أروعُ مدن الشرق اليونانيّ»... هذه هيَ أنطاكية، مُلتقى الطرق التجاريّة، ومدينةٌ إداريّة وثقافيّة وعسكريّة في ذاكَ العصر. لقرونٍ خلت، هزّها موت الناصريّ وقيامته، خبرًا سارًّا ألهبَ القلوب، وأنارَ العقول، فـ«دُعيَ فيها التلاميذ لأوّل مرّةٍ مسيحيّين» (أعمال الرسل ١١/٢٦). ثُمَّ غادرها رئيس الرّسل بطرس مُطمئنًّا إلى كنيستها الرّابضة على صخرة الإيمان القويم المُنجلي في ثقافاتٍ ولغاتٍ مُتعدّدة. غداةَ التدبير السياسيّ والإداريّ الرّومانيّ سنة ٢٩٢م.، أضحت أنطاكية عاصمة «أبرشيّة الشرق»، شاملةً بنفوذها كلَّ القُطرِ من جبال طورس إلى حدود مصر، مرورًا بسوريا والعراق ولبنان وفلسطين.

من رحم «أمّ الكنائس» أورشليم، وُلِدَت الجماعة الأنطاكيّة. هيَ كنيسةُ العنصرةِ والكرازة والعمل الرّسوليّ، كنيسةُ الأُمم «بنتُ الشعوب»، عاشقةُ الخلاص وشموليّته. وافاها الرّسل هربًا من الإضطهاد اليهوديّ، وجعلَها بولس، أحد «المُرسَلينَ الدّائمين الإنطاكيّين»، منارةً لرحلاته التبشيريّة. ساحلها الهلّينيّ وداخلها الآراميّ السريانيّ، قَبِلا الإنجيل وأخصباه في ربوعها، فأزهرت المدارس الفكريّة في الرُّها ونُصيبين، وراحت تُجسِّدُ الكتابَ المُقدَّس بخطابٍ منطقيّ عقلانيّ لتُقدِّمَهُ لاهوتًا مُستنيرًا بلُّغةٍ ساميّة قريبة من لغة «العهد القديم». قُربانها صنعَتهُ ذِكرًا، عهدًا، ووليمةً عملاً بوصيّة السيِّد، بحسب تقدمة يعقوب أخي الرّبّ رأسِ كنيسة أورشليم، وعلى رنيمِ الشعراء السّريان الحكماء، أفرام ويعقوب السّروجي وبالاي، فبانَ لنا طقسًا أورشليميًّا- أنطاكيًّا موحّدًا يعكس ليتورجيّا أورشليم العُليا، مُغذِّيًا العائلاتِ الأنطاكيّة.

أنطاكية الخُواء والانفصام

الآن، كلّ شيءٍ يميلُ إلى الحزن في المدينة وجماعتها، وقد دُكَّت أسوارها وأُخمِدَت منارتها وكُسِرَت أبراجها وأُفرِغَت قصورها، وهجرها الإخوةُ مُتناحرين، وأمسى ذكرها مع المشرق برُمّتِهِ، لقبًا وحِبرًا. فما من حضارةٍ تسامت وسَلمت، وما من مدينةٍ قامت ودامت، وما من شعبٍ نما وانتمى، أما يُعلِّمُ الكتاب: «باطلُ الأباطيل، كلّ شيءٍ باطل» (الجامعة ١/٢)؟... لكنَّ الكتاب ذاته يعودُ سائلاً آسفًا: «كيفَ تصرَّعَت الجبابرة؟» (٢ ملوك ١/٧)...

لا جبّار إلاّه وحده! كلّنا قبسٌ ضئيل من جبروته اللامتناهي. وحدها، نعمة الرّوح المُحتجب في العمق الكيانيّ، تُجَدِّدُ صِبانا، ترفعنا جبابرةً عظماء، أنقياءَ أتقياء، حالمينَ خالدين. والعارُ في

* أنطوان افرام سلامه: باحث في التاريخ والليتورجيّا والعلاقات الإسلاميّة – المسيحيّة. مُعِدّ لأطروحة دكتوراه في الحوار الإسلاميّ- المسيحيّ في جامعة القدّيس يوسف- بيروت.

النسر، المرض والوهن، الشيخوخة والزوال. أهذه حالُنا، نحنُ ورثةَ أنطاكية العظيمة؟

أترانا نتغرَّبُ عن مشرقيّتنا، عابثينَ بـ«مدينة الله»؟

اتّهمونا بشرخ أخوّتنا على جدالاتٍ فلسفيّة، في القرنين الثالث والرّابع، ثُمّ عادوا ورمَونا بفصمِ وحدة أنطاكيّة والإسكندريّة بعدَ مجمعَيْ أفسس وخلقيدونيا في الجيل الخامس، وحمّلونا تبعات انشقاق القسطنطينيّة وروما في الجيل الحادي عشر. ودفاعنا مُعلَّقٌ بينَ الضعف البشريّ والنقد الفكريّ لروحانيّةٍ فريدة في ديانةٍ حديثة. فلسنا ملائكة كما يتصوّرون، ولا شياطين كما يتوهّمون، نحنُ بينَ الصّفتين نترنّحُ بالطمع والأنانيّة وعشق السّلطة، وبالصّراع العقائديّ المُتأجِّج في ذهبيّة عصره، تائهًا بينَ الحضارات ومحيطها، واللغة وألفاظها، والقبول والرفض. المسيحيّون الأوائل، جاهدوا مرارًا في غربتهم، لبلوغ ملء قامة المسيح، مُصطدمينَ بالواقع الأرضيّ الإنسانيّ، وبالتعدّديّة الثقافيّة والدينيّة، وهم أبناء العالم، الذينَ «لا يتميّزون عن غيرهم من الناس لا بالبلد، ولا باللغة، ولا بالثياب...» على ما أخبرنا مجهولٌ، من القرن الثاني، في رسالته إلى «ديوغنيطس».

الرواية سليمة، لكنّ عمق المسيحيّة في وحدتها المجبولة حُبًّا. المسيح ربطَ بشكلٍ تامّ، قبول العالم رسالته، بشهادة وحدة أخصّائه: «ليكونوا واحدًا... ليؤمن العالم» (يوحنّا ٢١/١٧). هذه كانت صلاته وهوَ يُنازع، هذه كلماته الأخيرة كمحكوم بالموت. فأينَ نحنُ من وصيّة المصلوب؟

أنطاكية العقدة والقضيّة

لن نُحَمِّلَ أنطاكية مسؤوليّة تمزيق ثوب المسيح. الوحدةُ المسيحيّة مسألةٌ عالميّة، تَحلمُ بها الكنيسة كلُّها جمعاء. أنطاكية مُتَّهمةٌ بفسخِ عهدها الإلهيّ والخروج على روحانيّتها المشرقيّة. هذه عقدتها، أمّا قضيّتها فتبقى مُعلّقة بينَ الماضي والحاضر، بين الأصالة والحداثة. عهدها هذا، خُطَّ بالنّار لحظة قبولِها الرّوح القدس من أيدي الرّسل، وسُطِّرَ بالدّم يومَ إسعافها أورشليم الجائعة على عهد كلُوديوس، وخُتِمَ بالقداسة لدى استشهاد أسقفها إغناطيوس. ثُمَّ أتى الزمن بغباره طامِسًا، لكنَّ الذكر المجيد يبقى، في كلماته ونصوصه المُحيية. فهلاّ تأمّلنا؟

أنطاكية العتيقة عاينت وآمنت، أنطاكية الأصيلة عشقت وضحّت، أنطاكيّة الأولى استشهَدَت وتقدّست. ومدينتنا الآنيّة، تائهةٌ مع مواطنيها في متاهة الرّوحانيات المُتقاذفة شرقًا وغربًا، مُكبّلةٌ بالأنا القاتلة، وعاجزةٌ عن النطق والتعبير، فالحياة. مِزقُها عقيم، لإنفصامها الكيانيّ، وكأنّها تُعيدُ إلى وِجداننا الشعبيّ تلكَ الميثة الأسطوريّة عن التوأمين حفرون ونفرون من أنصاف الآلهة، المولودَيْن على رأس جبلٍ حادّ يُسمّى «قرن»، قرب بلدة إهمج من أعمالِ جبيل. فحفرون، كما يُشيرُ إلى ذلك اسمه، هوَ الذي «يَحفر» الصّخر ويَفلحه وينكشه، ولكنّه عبثًا يفعل. سنجِدهُ يومًا مائتًا من الجوع، ومن البرد ومن البؤس فوق صخرته العقيمة. أمّا أخوه، نفرون، كما يوحي لنا اسمه، فقد هاجر إلى البعيد «نَفَر»، باحثًا عن ثروةٍ خارج وطنه. قادَه البحر إلى المجهول، فقدنا أثَرهُ أو هو نفسه أضاعَ طريق العودة.

أهذا واقعنا نحنُ الأنطاكيّين؟ أنُلاقي بحالنا التّائه الواهن، كآبة هذه الأسطورة؟ أم نعود إلى ميثاتٍ أُخرى مُصحِّحين، مُرتَفعينَ من رمادِنا كطائر الفينيق، ومُنبعثينَ على مثال أدونيس لنعيشَ فصولَ ربيعٍ جديدة؟

أنطاكية المُشتهى والمُرتجى

حاشا لمدينة الله العُظمى الإندثار! ستعبر يومًا جحيمها وتنهَضُ مع الشرق إلى قيامةٍ مجيدة، في مسيرِ القائم من بين الأموات. ونحنُ المُنحنينَ السّاجدين في «الأسبوع العظيم المُقدّس»، المُترقّبينَ فصحنا الخلاصيّ، نتذكّر، ندمَعُ، ونترجّى في دهرنا قيامة البشر لا الحجر.

مُشتهانا عودةُ الإنسانيّة إلى إنسانيّتنا الأنطاكيّة المشرقيّة، لنمضي معها إلى العمق، بعيدًا عن حضارة الصّورة والمادة، مُنقّبين عن المعنى والوجود والسعادة. حاجتنا إيمان الآباء والأجداد، إيمان العقل والقلب، الخالي من فلسفاتٍ غريبة وروحانيّاتٍ تافهة، تؤجِّجُ العواطف وتُبعدنا عن سرّ المسيح الأسمى. أملنا بعائلاتٍ ترنو إلى الكمال، مسلكًا روحيًّا، خلقيًّا وجسديًّا، فتُثمر عقولاً على هدي الضمير والإنجيل. شوقنا، ديمومة رُهبانٍ يبحثونَ عن المسيح، لا في روما حيثُ هوَ مُعذّبٌ وحزين، ولا في بيزنطيا حيثُ هو مُنتصرٌ قائم، بل في الإنحناء الرّهبانيّ العتيق نحوَ باطن الأرض، صوبَ

أعماقها حيثُ المسيح رهين أسير الجحيم في فراغ سبت النور المُزَيِّن تُراثنا الليتورجيّ الرّهبانيّ الإنطاكيّ.

تبقى الوحدة وحدها صانعة المعجزات، تفضُّ الإشكاليّة الأليمة بين أرثوذكسيّة بيزنطيا وكثلكة روما، تُبَطِّىءُ مسارَ المُغامرة المأسويّة للكنائس الأنطاكيّة نحوَ الشرق، وتُعيدُ إلى مدينة الله مجدها السماويّ. فكيف ومتى تكون؟

يَقيني أنّ التاريخ سينتفِضُ يومًا، مُجاهِرًا بأنطاكية الأصيلة، فلا تَعودُ الكنائسُ الشرقيّة مُختَزَلَةً بأرثوذكسيّة بيزنطيا، ولا يظلُّ تاريخ الفكر والحياة المسيحيَّين ذاك التاريخ الذي يدوِّنه الرّوم واللاتين، بل تَميلُ الرؤى أكثر إلى تلك الوثائق الليتورجيّة الخاصّة بالنّساطرة والسُّريان والموارنة، المُشكِّلة لاهوتًا ساميًّا، أو تقليدًا يهوديًّا- مسيحيًّا، سُريانيًّا، يوسِّعُ بمخزونه الأساسيّ دائرة الحوار بينَ المسيحيّة كلّها جمعاء كما مع الإسلام، بكونه نشأ في بيئةٍ مهّدت لظهور الإسلام. أمانة هذا التراث العتيق وإعادة اكتشافه، تَقَع أوّلاً على ورثته، هُم الذينَ يُشكِّلونَ مُختَلَف الكنائس التي اعتمدت العربيّة في طقوسها: السّريان الكاثوليك والأرثوذكس، الكلدان، النّساطرة، الموارنة، وأيضًا الرّوم الكاثوليك والأرثوذكس المُنتمين إتنيًّا إلى الشعب نفسه، والمُرتبطينَ سابقًا بأنطاكية ليتورجيًّا وقانونيًّا.

حينها، تنطلِقُ مواكبُ النّصر نحو المدينة، لِتُحرّرها من الكراهية والبغضاء، وتُعيدَ مَن دُعُوا بإخوةٍ ومسيحيّين إلى نقطتهم الكونيّة الثابتة، يسوع المسيح. فلا يَحيون وحدة التدبير، بالرّغم من ضرورتها وصعوبتها في آن، ولا ينبَهِرون فقط بجمال ومعاني رموزهم وألحانهم الدينيّة على ما أوصاهم مجمعٌ فاتيكانيّ، بل يشرعون في بناء حضارة سلاميّة، بمحبّتهم القلبيّة والعقليّة لربّهم، كما لقريبهم، مُتِمّمينَ رسالة الناصريّ، بالغين الكمال. أمّا الرّهان في استحالة بلوغ المدينة الفاضلة والأخوّة الحقّة، فيبقى ضعيفًا، لأنَّ تجلّيات الرّوح أقوى من معطوبيّة الجسد.

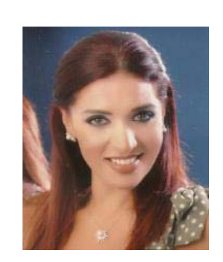
لا أدري! ثمّةَ نشاطٌ مأمول ينبغي أن يُقام، أكبر من مجمعٍ شرقيّ أو غربيّ، بابويّ أو بطريركيّ، بالرّغم ممّا في ذلك من حسناتٍ ماضية وحاضرة. لربّما الحاجةُ مُلِحَّة للأخذ بنصوص المجامع والعمل بها، ولِتكاتُفٍ مسيحيّ مشرقيّ متين بوجه مُخطّطات التهجير والتفريغ، يتمثَّلُ باستشراف المُستقبل وبمقوّمات العيش، من طبابةٍ وعملٍ ومسكنٍ، لتنطلق بعدها مسيرةُ إصلاحِ النفوس وتربية العقول على تُراثاتٍ أصيلة ضيّعناها أو أضاعوها علينا. فيُكتَبَ عن مسيحيّين، ما دبّجه لوقا الطبيب الرّسول عن الكنيسة الأولى في سفره: «وكانَ المؤمنون يجتَمِعونَ معًا، ويتشاركون في كلّ شيء» (أعمال الرّسل ٢/٤٤).

وسطَ الضوضاء، بقيّةٌ باقية، ترتمي في أحضان الكنيسة، ضارعةً الرحمة والملجأ، من زمهرير شتاءٍ عربيّ، وفشل مفهوم الدولة وبناء الأوطان. هل من سميعٍ، والكنيسةُ فحواها «جماعةُ المؤمنين بيسوع المسيح»، إكليروسًا وعلمانيّين، يتكاتَفون لخير الإنسان ومجد الله؟

وحده الرّجاء يُناجي ابتهالنا الصّامت: «سندخلكِ يومًا يا أنطاكية الحبيبة، مُعتَلينَ هيكلك الجديد، مُقرِّبينَ قربانَنا، تراثًا وشهادة، بعد عودتنا إلى دُنيانا في مُصالحةٍ صافية، إنسانيّة وإيمانيّة، فرديّة وأخويّة، لأنّ روحًا قُدسًا فينا، كما خاطبنا فيلسوفٌ وثنيّ رومانيّ «سينيكا» (٤ ق.م-٦٥ ب.م) في رسالته إلى صديقه «لوكيليوس»: «...إنَّ في قلبِ كلّ إنسانٍ صالح إلهًا مُقيمًا، وإنْ كُنّا نجهل من هوَ...»».



الأبعاد النفسيّة في الزواج



دكتورة ديزيره القزّي

١. مقدّمة:

إذا انطلقنا من فكرة أنّ تلاقي الـ«أنا» بالـ«أنا» الأخرى يحقّق الحبّ، فكيف يتلاءم الشريكان؟ وعلى أيّ أسس يبنيان زواجهما؟ وما هي طبيعة مبدأ الثنائيّة الزوجيّة؟ فإذا قلنا coupler عنينا الارتباط بشكل زوجيّ (ارتباط زوجين)، ما يعني التخطّي التامّ للـ«أنا» للوصول إلى معرفة الآخر، وبناء علاقة متينة وسويّة معه.

٢. الزواج شركة أساسها الحبّ والاحترام:

لا بدّ من أسس معيّنة لإنجاح رابطة الزواج. فما هي المبادئ الأساسيّة اللازمة لهذا الغرض؟

قبل الدخول في تفاصيل متعلّقة بالحياة الجنسيّة، نستعرض مبادئ عامّة محرّكة وموجّهة لتفكيرنا:

١. البعد العاطفيّ الجنسيّ:

إنّ البُعد العاطفيّ- الجنسيّ في حياة الإنسان هو، بحدّ ذاته، هبة، شيء حسن، جميل وممتع، ولذيذ ومُفرح. إنّ البعد الجنسيّ والهويّة الجنسيّة ليسا كما صوّرتهما «أسطورة أندروجين» قصاصًا من «الآلهة»[١]، ولا كما تعتبرهما بعض الفلسفات شيئًا محتقرًا ودَنِسًا يجب تجنّبه وترويضه وعدم التلاعب به، لأنّه كقنبلة تُحدث انفجارًا خطيرًا متى تعرّضت لأيّة صدمة.

وفي المجتمعات الشرقيّة عمومًا، ينظر أكثر كبار السنّ (خمسون سنة أو أكثر) إلى البعد العاطفيّ- الجنسيّ كأنّه حقيقة سلبيّة خطرة؛ فحتّى داخل الزواج كانت العلاقة الجنسيّة تعتبر شيئًا دنِسًا، حتّى حدّدت الكنيسة أهميّة الجنس بثلاثة أطراف رمزيّة: الوحدة، والإخلاص، والخصوبة.[٢]

وليس هذا البعد الجنسيّ المترسّخ في عقل الإنسان شيئًا مبتذلاً أو موضوع استخفاف وسخرية، كما أنّه ليس وسيلةً للاتّحاد بالألوهيّة أو بقوى فائقة الطبيعة، كما اعتبرته الطبيعة، وكما اعتبرته أغلب الديانات الوثنيّة، وعايشته في هياكلها تحت شكل حفلات «البغاء المقدّس»[٣]، إنّما هو هديّة ثمينة من الله ائتُمنّا عليها ويجب المحافظة عليها وتنميتها ومحبّتها[٤]. لكنّ الحياة الجنسيّة، في

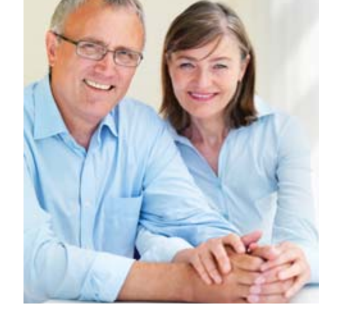
---

(١) كان الاعتقاد قديمًا بأنّ الطبيعة الإنسانيّة مختلفة عمّا هي عليه اليوم، نظرًا لوجود ثلاثة أنواع من الكائنات: المذكّر والمؤنّث وآخر مركّب منهما معًا: الخنثويّ (أي الأندروجين)، كما أسماه أفلاطون (راجع: أفلاطون، **المحاورات الكاملة (محاورة: سمبوزيوم أو المأدبة)**، تعريب: شوقي داود تمراز، بيروت: الأهليّة للنشر والتوزيع، ٤/ ١٤٦ وما بعدها، وفي مواضع متفرقة.

(٢) Philippe Audollent & autres, **Sexualité et vie chrétienne**, Paris: Centurion, 1981, p. 48.

(٣) يمكننا أن نكوّن فكرة عن نظرة الديانات عامّة، والوثنيّة القديمة خاصّة، إلى الجنس وتأليهه، انطلاقًا من هذه المراجع المختصّة:
Marcel BERNOS, **Sexualité et religion**, Cerf, Paris, 1988; Clifford BISHOP, **Le sexe et le sacré**, Albin Michel, 1996 ; Nikos A. VRISSIMTZIS, **Amour, sexe et mariage en Grèce Antique**, 1996.
ونشير في هذا المجال إلى أنّ المرأة الملتحقة بالهيكل في حفلات البغاء المقدّس كانت تجسّد مؤقتًا، وعبر اللقاء الجنسيّ، الآلهة التي تخدمها، وكان شريكها يمثّل الإله. وقد جاء ذكر بغايا المعبد في العهد العتيق نفسه، وعُرفت به خصوصًا مدينتا قبرص وبيبلوس الفينيقيّتان، ومعظم البغايا كنّ بغايا معبد عشتار إلهة الخصب. بل إنّ كلّ امرأة كان عليها، في جزيرة قبرص الفينيقيّة، أن تمارس البغاء المقدّس، قبل الزواج، وأن تهب نفسها لغريب في المعبد. وكانت هذه العادة أيضًا منتشرة في عدد من معابد آسيا الغربيّة. وكذلك الأمر في بابل، حيث كان على المرأة أن تنظر أحيانًا في معبد عشتار سنوات قبل أن تجد رجلاً تمارس معه هذه العادة المقدّسة. (James Frazer, **The golden bough**, Forgotten books, 2008, p. 340. وقارن: ديزيره سقّال، **مفتاح الآلهة**، الذوق: المكتبة الأهليّة، ط١، ص ١٣١)

(٤) نستطيع أن نعتبر المفكّر الفرنسيّ Marc Oraison من أوائل اللاهوتيّين، الذين دافعوا عن جمال حقيقة الإنسان العاطفيّة- الجنسيّة وحسنها، وذلك في مطلع الخمسينات. هذا الجرّاح الماهر ترك الطبّ ليفكّر في اللاهوت والآداب الجنسيّة، فواجه صعوباتٍ كبيرةً جدًّا وملاحقةً حادّةً حين نشر أطروحته بعنوان: **Vie Chrétienne et problèmes de sexualité**. ولقد أجرى، على الرّغم من كلّ الصعاب، تغييرًا مهمًّا في النظرة إلى الحياة الجنسيّة لدى الإنسان الملتزم مسيحيًّا في إطار الكنيسة الجامعة.
نذكّر هنا بكتابه **Le Mystère humain de la sexualité** وقد استشهدنا به سابقًا، وبكتابه **Ce qu'un home a cru voir**, Robert Laffot, Paris, 1980، وهي مذكّراته التي نُشرت بعد موته عام ١٩٧٩، وفيها تكلّم على معاناته وعلى الثمن الذي دفعه ليحرّر نظرة الناس المتحجّرة إلى الجنس، مركّزًا خصوصًا على العلوم النفسيّة. فيذكر، مثلاً، في نهاية كتابه المذكور هذا خلاصة ما توصل إليه بعد جهد واضح وصعوبات كبيرة: «إنّ الأفكار التي تمكّنت من إدخالها ضمن العلوم اللاهوتيّة والتفكير الدينيّ، وذلك بفضل العلوم النفسيّة، توصّلت لأن تنتشر بتوسيع داخل الفكر الكاثوليكيّ، إذ تمكّن أخيرًا من تقبّلها. وأستطيع أن أصرّح بكلّ تواضع أنّني استطعت أن أشارك في تطوير الأفكار حول حياة الانسان الجنسيّة داخل الكنيسة وتعميقها». (Ibid, p. 265.)



علم النفس، تعبير عن الرغبات الكامنة في الإنسان؛ والغريزة، بحسب فرويد، تعبّر عن قوّة نفسيّة راسخة تصدر من صميم الكائن العضويّ، وتنبع أصلاً من حاجات الجسد، ولا يستغني عنها الكائن الحيّ.[٥]

٢. بعدٌ جوهريّ:

إنّ البعد العاطفيّ- الجنسيّ بعد أساسيّ، بل جوهريّ في حياة الإنسان اليوميّة، وهو يبقى راسخًا في كلّ عمل وتفكير. وسواء أ كنتَ متزوّجًا أو عازبًا، موظّفًا أو ربّ عمل، فتاةً أو شابًّا، مهووسًا جنسيًّا أو متّزنًا عاطفيًّا وجنسيًّا، ومؤمنًا دينيًّا أو ملحدًا أو مستخفًّا بالأمور الدينيّة، ورجلَ علمٍ أو أميًّا، ورجلَ دين أو علمانيًّا... يبقى البعد الجنسيّ- العاطفيّ حاضرًا في حياتك، مع أنّه ليس البعد الوحيد لَدَيْكَ، ولا يجوز اعتباره كذلك. فإلى جانب البعد الجنسيّ في حياة الإنسان، هناك البعد الروحيّ الذي يتخطّى الجسد والنفس، والبعد الاجتماعيّ، والبعد العلائقيّ، والبعد الفكريّ والثقافيّ...[٦] ولكلّ واحدٍ منها أهميّته وتفاعله مع الأبعاد الأخرى؛ فالإنسان كائن متكامل.

وغالبًا ما نسمع ردّة فعل الشباب في لقاءاتهم المشتركة، وخصوصًا مع المرشدين، فنجدهم يقولون: «إنّ حياتنا مبنيّة على هويّتنا وميولنا الجنسيّة وكلّ ما نعايشه مرتبط ببعدنا الجنسيّ». وغالبًا ما يستشهدون بما قرأوه من مقتطفات يتسنّى لهم الاطّلاع عليها في مواضيع علم النفس أو علم الاجتماع... وكم يشعرون بارتياح عندما يشدّد أمامهم إلى جانب البعد الجنسيّ على البعد العاطفيّ والاجتماعيّ- العلائقيّ والإنتاجيّ، والفكريّ والماديّ... فيكتشفون بذلك مكنونات أساسيّة في حياتهم كانوا يجهلونها أو يتغاضون عنها.

وعلى عالم النفس أن يولي أهميّة للناحية الجنسيّة والعاطفيّة والعلائقيّة والثقافيّة والفكريّة والروحيّة... فبشموليّتها تسمح للإنسان بمعرفة كنه نفسه، والانفتاح على الآخر، بلا خوف أو ذعر؛ فالخوف في العلاقة بين الشريكين هو الذي يخلق البعد. وهنا علينا التأكيد أنّنا لا نستطيع فصل الشريك عن هذه الأبعاد، بل علينا تقبُّله كمجموعة مركّبة. حتّى فرويد، عندما تكلّم على الحبّ، قال: «إذا كانت (أي الكلمة) لي، فهي أيضًا لك، لأنّني كلّي وبكلّيّتي لك».[٧] وقال أيضًا: «إنّ نماذج علاقة الكره الحقيقيّة لا تنسلّ من الحياة الجنسيّة، بل من صراع الـ«أنا» من أجل الحفاظ على ذاته وتأكيدها»[٨]، ما يعني أنّنا نرفض العلاقة الجنسيّة بالآخر أحيانًا، خوفًا من زيادة التعلّق، أو الانصهار الكامل به.

٣. مسيرةُ نموّ:

الحياة العاطفيّة – الجنسيّة هي مسيرة حياةٍ نامية ومتطوّرة، متفاعلة مع معظم الأبعاد الأخرى المكوّنة للإنسان، فيها الصعوبة والسهولة، والفرح والحزن، واللذة والألم، والفشل والنجاح، والانشراح والكرب... وهذا البعد المحرّك يدوم ما نبض قلب الإنسان في عروقه ولا يتوقّف عن تحريكه- على ما يبدو- إلاّ مع آخر رمق من حياته، حين يصبح جسده من غير نَفَس أو قلب يضج بالحياة.[٩]

لا يفقد الإنسان أحاسيسه وعاطفته وشهوته مع العمر، فهي تبقى حاضرة معه ويشهد على ذلك المرشدون والأطبّاء وكلّ من استمع لشهادة المسنّين.

٤. بُعدٌ إنسانيّ:

البعد العاطفيّ-الجنسيّ بُعدٌ إنسانيّ؛ وقولنا إنّه «بُعد إنسانيّ» يعني أنّه بُعد متعلّق بالإنسانيّة المحكومة بالمحدوديّة وعدم الكمال، إلى جانب الجماليّة والغنى الذي حَباه إيّاه خالقه. غير أنّ هذه

---

(٥) سيغموند فرويد، **ما فوق مبدأ اللذة**، القاهرة: دار المعارف، ط٥، ص ٨.

(٦) إنّ الاشتراك في القيم والميول والعادات، والتقارب في المستوى التعليميّ والثقافيّ، والتقاليد والعادات والقيم في حياة الإنسان المجتمعيّة، والعاملين الاقتصاديّ والدينيّ، كلّها من أبرز العوامل التي يوصل أخذها في الاعتبار إلى زواج نناجح. (راجع: أحمد محمّد مبارك الكندريّ، **علم النفس الأسريّ**، الكويت: مكتبة الفلاح، ط٢، ١٩٩٢، ص ٧٢ وما بعدها).

(٧) Sigmund Freud, **Introduction à ls psychanalyse**, Paris: Payot, 2001, p. 37.

(٨) Sigmund Freud, **Le malaise de la cuture**, Paris: PUF, 2000, p. 8.

(٩) نستشهد هنا بتيّار اللاهوتيّ كزافييه تيفينوت Xavier Thevenot وأفكاره المتجدّدة التي تركّز على أهميّة مسيرة النموّ والتطوّر والتحرّر البنّاء في حياة الإنسان العاطفيّة-الجنسيّة. ونشير خاصّة إلى كتابيه اللذين نستخلص منهما أفكاره حول هذه النقطة:

Repères éthiques pour un monde nouveau, Salvator, 1991, et **Vie Sexuelle et vie Chrétienne**, Mame, 1982.

الصورة ليست كاملة، بل في طور الاكتمال، إذ لا وجود للكمال على هذه الأرض. ليس هناك سوى قابليّة له عند الإنسان المحدود؛ فالكيان الإنسانيّ يدفع صاحبه دومًا نحو هذا الكمال، على الرّغم من محدوديّته ومشاكله وإعاقاته وشذوذه وعقده ومخاوفه... حتّى لو طالت حياة الإنسان وبلغت سني الشيخوخة التي يظلّ يطمح خلالها إلى توازنٍ وكمالٍ عاطفيّين. والمهمّ بنظرنا هو الخطوة التي يقوم بها هذا الإنسان نحو الأمام، في اللحظة التي يعيش فيها، وهي خطوة نحو هذا الكمال ليحقّق من خلاله فيه صورة الله ومثاله.[١٠] وليس المهمّ أين تكون نقطة الوصول؟ بل المهمّ هو السير الحثيث نحو الكمال، ونحو إنسانيّة أفضل وأشدّ اكتمالاً.

٥. اختبارُ الصبر:

يتطلّب البعد العاطفيّ-الجنسيّ في حياة الإنسان منّا الصبر: صبرًا تجاه نفسه وتجاه سواه، وبالتالي تتطلّب أن يحترم الإنسان ضعفه الشخصيّ ومشاكله وظروف حياته وبُطأه، لا برضوح ويأس أمام ثقل الواقع، بل بإنعاش الأمل والطموح والايمان في الذات، حيث تقدير للنِعم والإيجابيّات والإنجازات التي تطبع، في الوقت نفسه، هذا الواقع عينه. ومتى احترمنا التباطؤ وعامل الوقت المفروض على كلّ عمل من أعمالنا الإنسانيّة وقدّرنا مواهبنا، تمكّنا حينها من احترام بطء الآخرين وتقدير مواهبهم، وأدركنا عظمة قيمتنا الإنسانيّة ومواهبنا. ولا ننسى أنّ الإنسان، على الرّغم من معاناته محدوديّات جسديّة ونفسيّة واجتماعيّة، يحافظ على مساحة حريّة تتيح له النموّ الإنسانيّ وأخذ القرار الواعي. غير أنّ الحريّة لا تكون حقيقيّة ومتنامية إلاّ عندما تأخذ بعين الاعتبار الواقع بكلّ جماله وتناقضاته وغموضه.[١١]

وما يقوله فرويد يندرج في هذا السياق: «لم نُحرَم قطُّ من أن نكون محميّين من العذاب إلاّ حين نحبّ. ولا نكون في حال التعاسة إلاّ عندما نخسر موضوع الحبّ أو محبته»[١٢]. إنّ سبب الشعور بالقلق هو فقدان الآخر الذي يجعلنا قليلي الصبر.

٦. سبيلٌ إلى تقبّل الذات:

الحياة والتصرّفات والاعتبارات العاطفيّة- الجنسيّة نوع من «التَعْبير» والتنظيم في تنازع القيم وتعارضها وتضاربها. فالأنسنة تكمن في رفض اعتبارين اثنين:

- «أريد أن أحصل على كلّ شيء وإلاّ أرفض كلّ شيء»،
- والثاني: «أريد الحصول على كلّ شيء في الحال».

لذلك علينا أن نقتنع بأنّنا نبحث عن إنسانيّتنا، ونحقّقها داخل التسويات التي تحصل في القرارات غير الكاملة، ضمن مسيرة الزمن البطيئة. وتفترض الأنسنة، أمام كلّ قرار وعمل، اختيار الحلول والمواقف والتسويات المعقولة والممكنة التي تحتاج إلى الصبر، والتواضع وملاقاة الآخر، والعيش معه بمنتهى التعاون والتكامل.

وهنا علينا تقبّل فكرة عدم وجود مثاليّة متحقّقة في هذه الحياة. فأنا لست مثاليًّا، ولا الآخر كذلك، لهذا فإنّ الثنائيّ الزوجيّ الذي أبنيه بعيد عن المثاليّة، وإن كان يسعى إليها؛ فبكلمات معقدة قليلاً. يقول مصطفى صفوان: «ما يميّز الذات من كلّ ما يمكن تسميتُه خارجَها في اللغة، هو أنّ اسمه خاصّ به إن حباه هويّة، ولكنّه يسلبه إيّاها أيضًا».[١٣]

٣. خاتمة:

إنّ كلّ إنسان، مهما عظم اضطرابه، وكثر خلله ونقائصه، مدعوّ إلى الأنسنة الدائمة. وعندما يكون مؤمنًا بقيمته الإنسانيّة السامية، يدرك تمامًا أنّه مدعوٌّ إلى الأنسنة، على الرّغم من محدوديّته وضعفه وفشله وشذوذه وعقده، وسائر نحو كمالها وملئها. ويمكننا القول في هذا المجال إنّ أحد الشروط الأساسيّة للأنسنة هي ألاّ نحبس أنفسنا أو الآخرين داخل جدران الفشل، والضعف، متخطّين بذلك منطق الحكم المبرم.



---

(١٠) تك/ ١: ٢٧.

(١١) يحلّل دينيس فاسّ Denis Vasse في كتابه **Le poids du réel, la souffrance**, Paris: Seuil, 1983 خبرة الصبر هذه والنموّ الذي يقترن دائمًا بالألم. فالألم هو نتيجة المقارنة الرافضة للواقع بالصورة المعكوسة عنّا أو عن أعمالنا في داخلنا والتي نريد أن تتطابق مع حقيقتنا. ولكن لن نحقّق نموّنا الحقيقيّ إلاّ متى قبلنا بالواقع، وأخذنا موقف الحداد على هذه الصورة المثاليّة غير الحقيقيّة التي نريد التحلّي بها. يقول: «في الألم، ما يحصل لنا يكون مخالف دائمًا لما تخايلناه: فننقاد حينها داخل طريق لا نريدها أو نجهلها. نكون حينها في حالة تناقض. فاللقاء مع الآخرين ومع أنفسنا ومع العالم ومع الله لا يتحقّق كما صمّمنا. نتألّم لأنّنا التزمنا طريقًا لم نختره ولم نرغب فيه»... «نتألّم لأنّنا نكتشف كوننا مغايرين للصورة التي نريدها لنا والتي نريدها للأحداث». (Ibid, p. 13)

(١٢) Sigmund Freud, **Le malaise dans la culture**, p. 25.

(١٣) Moustafa Safouan, **Dix conferences de psychanalyse**, Paris: Fayard, 2001, p. 120.

خطاب أحلام مستغانمي غير الرّوائيّ بين الواقع والافتراض

قراءة في «نسيان com»



أ/د.عبد القادر سلاّمي
جامعة تلمسان- الجزائر



تقديم:

تسعى هذه الدراسة إلى الوقوف على مضمون كتاب «نسيان com»، واستعراض خطاب أحلام مستغانمي غير الروائيّة فيه، وذلك بطرح أسئلة متوقّعة ومحاولة الإجابة عليها، الأمر الذي يطلعنا على موقفها من عالم الرجل وعالمها من منطلقي قبول الأمر الواقع ورفضه الافتراضيّ.

في فضاء النصّ:

يقع الكتاب في ٣٣٦ صفحة، تتوزّع إلى ٧٢ قصّة قصيرة.

جاءت هذه النصوص تحت عناوين رئيسة؛ فكلّ مجموعة قصصيّة تنضوي تحت عنوان يشملها، مثل: هكذا تورّطت في هذا الكتاب (عنوان شامل)، يضمّ ما يلي: -الكاتب مرشدًا عاطفيًّا.- الفصول الأربعة للحب. -يشهد الأدب أنّني بلّغت. -شبهة النسيان. -طالبين النسيان. -هكذا تورّطت في هذا الكتاب.

وأحلام مستغانمي في كلّ هذه النصوص تستفتح إمّا بمقولة لكتّاب وفلاسفة، أو بمقطوعة شعريّة من إبداعها الشخصيّ أو لشعراء آخرين، أو بمقطوعة نثريّة.

وهذا الوضع ينطبق أيضًا على خاتمة كلّ نصّ، وإن أضافت الحديث النبويّ الشريف، مثلما ختمت نصّ (يا ظالم لك يوم) بهذا الحديث:

(اتّقوا دعوة المظلوم فإنّه ليس بينها وبين الله حجاب)[1]

ومن المقطوعات الشعريّة: جسمك إشكال لغويّ كبير*

فلا أنا أعرف كيف أحفظه

ولا أنا أعرف كيف أنساه*[2]

ومن المقطوعات النثريّة: -الرجولة هي ثقافة النظرة وسط جهل العيون، وهي حضارة الكلمة وسط حضور الصمت، وهي الذراع التي تمتدّ لتحمي، والعقل الذي يفكّر ليصون، والقلب الذي ينبض ليغفر. (محمّد السيّد محمّد)

إنّ أحلام مستغانمي في هذا الكتاب تقدّم العلاج الروحيّ لكلّ النساء اللواتي تعرّضن للخيانة والهجران من الطرف الآخر. تتكلّم بلغة حادّة صادمة، تعرض الجرح بكلّ ألم وقسوة وضعف وقهر من خلال عرضها لقصص كثيرة من جنس حوّاء، وكيف أنّهن تجرّعن المرارة من كأس واحدة، مزاجُها تسلّط وسطوة الرجل. تهاجم الرجل بشدّة وتدعو كلّ امرأة إلى التسلّح بقوّة النسيان في حال الخيانة، فهي تنظر إليه نظرة المستعمر المستبدّ الذي يبطش بقلب المرأة الضعيفة المستسلمة لشعورها نحوه.

والحقّ أنّ أحلام مستغانمي تقف موقفًا منصفًا تجاه الرجل المخلص، كما أشارت إلى ذلك في بعض الأحيان. بيد أنّ غرضها من الكتاب (النسيان) جعلَها تعدل عن التحدّث عن هذا النوع من الرجال حتى لا تحيد عن مهمّتها في حيازة أكبر عدد من أصوات النساء في حزب النسيان؛ لأنّ كلّ القصص التي وردت في الكتاب محورها الرئيس هو تجبّر الرجل وتسلّطه على المرأة، واستكانة هذه الأخيرة وذهولها أمام سجن هذا الجلاد.

العنوان:

يحمل العنوان الكثير من الإيحاءات، فالقارئ لهذا الكتاب لأوّل وهلة يحسّ وكأنّه رسالة موجّهة لإنسان اقترف الكثير من الذنب

(١) أحلام مستغانمي: نسيان com، ط١، دار الآداب للنشر والتوزيع، ٢٠٠٩م، بيروت، لبنان ،ص ٢٤٢.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٩٤.

وتسبّب في الأذى، فهي دعوة صريحة إلى النفي والإقصاء والمحو والعدول. ويتجسّد العنوان في كلِّ صفحة من صفحات الكتاب بكلّ أسلوب وبشتّى الكلمات:

- بالروح بالدم نفديك يا نسيان[٣]
- صلّي.. ففي سجود قلبك نسيانه.[٤]
- ليس الحبّ وإنّما النسيان هو رجل حياتك[٥]
- أقصر طريق إلى النسيان[٦]
- نساء في مهبّ النسيان.[٧]

الشخصيّات:

أمّا عن شخصيّات هذا الكتاب فهي تتأرجح بين شخصيّة ضعيفة تستكين للعيش على ذاكرة رجل خائن، وشخصيّة حاقدة ثائرة على من سقاها الماء، وشخصيّة نادمة على عقد ميثاق الحبّ مع رجل لا يقدّر ثمن التضحية والوفاء، وشخصيّة حائرة أمام رجل أودعها الأمان ثمّ تركها تصارع علامة استفهام، وشخصيّة عقدت ميثاقًا مع النسيان بعد أن تجرّعت ألم الحرمان... وغيرها.

الزمان:

لم تتقيّد أحلام مستغانمي بزمن معيّن، وذلك نظرًا لتعدّد القصص، وهذا ما جعلها تعتمد على الزمن القصير مثل: الصباح، الليل.. وهو ما عبّرت عنه بمعان مختلفة، على نحو: استيقظت، غفت... وغيرها.

تساؤلات تستوجب الإجابة:

١. النسيان خاصيّة إنسانيّة يشترك فيها الإنسان، ذكرًا كان أم أنثى، ولذلك سمّي إنسانًا. فما أرادته أحلام مستغانمي أن يغدو ظاهرة عرضيّة عند النساء مستلهمًا ممّا يتقنه الرجال أصلاً، هل بوصف الرجل مسؤولاً عن تحديد المولود- ذكرًا كان أم أنثى-، وأنّ المرأة هي الحاضنة والمتعهّدة له حَمْلاً ووضعًا، فاستوجب ذلك التعايش القهريّ بينهما؟

٢. لماذا جعلت أحلام مستغانمي الرجل (الذكر) أحقّ الخيل بالرفض، بعد أن كان أحقّها بالرّكض؟ هل لأنّه مُستعار كما قالت العرب؟ أم أنّ زيادة الوزن أبعد ما تكون عن السّمنة فيه؟ فالأكيد أنّ كليهما ليسا دليل فحولة.

٣. هل تدرك أحلام مستغانمي أنّ الكُره خلاف الرّضا، وأنّ الحبّ نقيض البُغض؛ وعلى هذا، فكلّ بغض كره، وليس كلّ كره بغضًا. فالبُغض حقد وتربّص بفرصته؟

٤. هل تدرك أحلام مستغانمي أنّ العلوّ في شأن الرّجل والمرأة ليس دليل سموّ دائمًا؛ فالقصير بعض الطويل، وليس كلّ طويل قصيرًا، ذلك أنّ العلوّ فقدٌ للجاذبيّة الفيزيائيّة دائمًا وللجماليّة أحيانًا.

٥. هل أدركت أحلام مستغانمي في عمر متقدّم نسبيًّا أنّ الاختيار قيْد، وأنّ الحرّية اختيار؟ لذا وجب أن يُحال ملفّ القَوامة إلى ضفّة المتوسّط الشماليّة بعد أن ظلّ حبيس أدراج ضفّته الجنوبيّة لفترة غير قصيرة، إيذانًا بقرب الخلاص من أسر الحرف العربيّ واستبداله بالحرف اللاتينيّ فيما يستقبل من إبداعاتها الروائيّة؟

خلاصة:

إيمانًا منّا بأنّ القراءة انطلاقًا من مدوّنة هي أكثر المناهج ملاءمة لاستنطاق نصّ مغلق أو مفتوح، لذا يمكننا القول في اطمئنان: إنّ احلام مستغانمي في «نسيان com» يائسة يأس ﴿الكفّار من أصحاب القبور﴾[٨]

لكن ممّ؟

من أن تظلّ مطلوبة لا طالبة؟ أو من الكتابة اللاهثة وراء حقيقة البشر؟ أو من زيف الكتابة؟

الأيّام أو أحلام مستغانمي كفيلة بالإجابة فيما يستقبل من الأيّام عمّا تورّطت فيه بقولها: «هكذا تورّطت في هذا الكتاب» الذي غاب عنه- في رأينا- رونق الأدب، فكانت فيه أبعد ما تكون عن حِرْفة الأدب.

---

(٣) المرجع نفسه، ص ٧٣.
(٤) المرجع نفسه، ص ١١٧.
(٥) المرجع نفسه، ص ٧٩.
(٦) المرجع نفسه، ص ١٥٣.
(٧) المرجع نفسه، ص ٢١٥.
(٨) سورة الممتحنة، الآية ١٣.

وما بعد الدين...؟
في سبَبيّة الفناء المحتّم...!
وما بعد...، سرُّ السلام...!

ولادةُ الإنسان الثانية في ذاتهِ الإنسانيّة



عبده القاعي



هي ولادةٌ للذات الإنسانيّة الخاصّة (الفرد المواطن)، والعامّة (الدولة)، في مواجهة بين ذاكرة الدّفاع عن حالةِ السلطةِ القائمةِ على تثبيتِ واقعِ إخضاعِ الضعيفِ لقوى الإستقواء المسيطرة (ذاكرة المعتقدات)، وبين ذاكرة بناء حالة السلام من خلال تحريرِ الضعيفِ من سلطة هذه القوى (ذاكرة الإيمان).

-هي ولادةٌ للحالةِ الفرديّةِ للإنعتاقِ الإنسانيّ من السلطةِ القامعةِ، وللحالة العامّة للتضامُنِ الجماعيّ المدنيّ الحقوقيّ، من أجلِ التوصُّل إلى التعامُل بين الناس بشكل تفاعليّ يجمعهم كأفرادٍ في مساحةٍ من البحثِ عن المساواة، من خلال السعي الدائم للتحرُّر من سيطرة أنانيّات الذات، من أجل توفيرِ المساواة للجميع كأفراد (الدولة).

هذه الولادة هي مخاضٌ دائمٌ بين الضغوطاتِ السائدةِ لذاكراتِ المعتقداتِ وبين الإنقشاعات التي تفرزُها في المقابل رجاءاتُ ذاكرةِ الإيمانِ لدى أفراد الجماعات المتضامنة في إطار الدولة.

فللدولة، التي هي الحالة العامة للجماعات المنضوية تحت رايةِ المجتمعِ الواحد، كما للفرد الذي هو الحالةُ الخاصةُ للذات المنضويةِ في الجسم الواحد، قانونٌ، أي القانونُ الذي يضعُهُ الإنسانُ، والذي يُدعى القانونَ الوضعيّ، للتمييز بينهُ وبين القانونِ الخاضعِ للنظام الطبيعيّ، والمرتكزِ في حيثيّات أحكامِهِ على الفرزِ البدئيّ بين الكائنات من أجلِ تثبيتِ التوازنِ في ما بينِها إنطلاقًا من قُدرةِ كُلِّ كائن من هذه الكائنات على إثباتِ وجودهِ في مواجهةٍ معها، وصولاً إلى تحقيقِ مشروعِ الطبيعةِ القائم على ثُنائيّة النجاح والفشلِ عبر لُعبةِ القوّةِ والقهرِ، لمصلحةِ الأقوى.

بناءً عليهِ، يُمكننا القولُ أنّ هذا القانونَ الوضعيّ لم يكن ممكنًا في الماضي، لجهة تطبيقهِ عمليًّا، ولن يكونَ بالإمكانِ العملُ على إعادة تفعيله اليوم، إلاّ إذا أُعيدَ اعتبارهُ انطلاقًا ممّا كان يُطلَبُ منهُ أن يكون. ولن يكونَ بالإمكانِ التوجُّه به نحو المطارحِ الإنسانيّةِ المتروكةِ من قبلهِ والمعزولةِ عنهُ لإعادةِ معالجتِها الحقوقيّةِ بواسطتهِ، إلاّ إذا تمّت قراءتُهُ من جديد بالإستنادِ إلى ما كان يُنتظرُ منهُ أن يحقّقَهُ، وأن يتمَظهرَ بهِ في الأصلِ في كُلِّ لحظة من لحظات الوجودِ الفرديّةِ والجماعيّةِ، وأعني بذلك هذا الرّمزُ للقرارِ الخُلُقيّ، الذي يُفترَضُ إتخاذُهُ، وبشكلٍ واضحٍ، إبّانَ كُلِّ مواجهة سيكونُ على الإنسان الفرد أن يُجريهَا بين ذاكرتيهِ المتقابلتين والمتناقضتين داخل طبيعتهِ البشريّةِ المُركبّةِ، وهما: ذاكرة الاعتقاد و ذاكرة الإيمان.

على هذا الأساس، قُمتُ بقراءاتي البحثيّة لهاتينِ الذاكرتينِ. لكنّ قراءاتي هذهِ، التي تناولت حركةَ تمظهُر كُلٍّ من هاتين الذاكرتين في سجلاّت الرموزِ والعلاقاتِ والإشارات العائدةِ لهما، أظهرت لي أنّ المواجهة بينهما كانت موجودةً على مرّ العصور، وأنّهُ، غالبًا ما تغلّبت عبر التاريخ، في هذه المواجهة، ذاكرةُ الاعتقاد على ذاكرةِ الإيمانِ، بحيثُ أنّ كلاً من مؤسّساتِ الأديانِ ومؤسّسات المجتمعات، كانت أكثرَ ميلاً إلى أن تتأثّر بالسلطةِ، ما جعلها تُصبحُ مساحاتٍ للإنشقاقاتِ البشريّةِ في ممارساتها، بدلاً من أن تكونَ ساحاتٍ للّقاءِ والتعاطُفِ والانشدادِ نحو الوحدة.

وقد وقع في هذا الفخّ، خاصةً، مؤسّساتُ المجتمعاتِ والأديانِ المتأثّرةِ بخُلُقيّة الثقافاتِ الإبراهيميّةِ التوحيديّةِ التي تحملُ في ذاكرةِ معتقداتِها معاركَ داميةً وأليمةً طبعت هذه الذاكرة بشكلٍ

حادّ، ما جعلَ الدخولَ إليها يتطلّبُ مسبقًا الغفرانَ الكامل وإعادةَ النظر الشاملة في الرؤيةِ إلى الحدث التاريخيّ إنطلاقًا من وحدةِ الإيمانِ المبنيّةِ على الرحمةِ والمحبّةِ والغفران. لكنّنا نعلمُ كُلَّ العلم أنّ وحدةَ الإيمان هذه، لا وجودَ لها إلاّ في ذاكرةِ التخطّي والنسيان التي تسبق الحدث، كلَّ حدثٍ، والتي تلي الحدث، كلَّ حدثٍ، إنطلاقًا من بعدٍ خلاصيٍّ واحد، وهذا ما جعلَ العملَ على الذاكرة أمرًا أساسيًّا من أجلِ معالجةِ التفسيرات والإستنتاجات والرؤى والنظراتِ الخاطئةِ التي يتفاعل بواسطتها بعضنا مع بعض ومع الآخرين.

وفي لفتةٍ إلى لبنان، هذا المطرح العجيب، الذي تُكتَنَزُ فيه عصاراتُ الأزمنة والذي لا يصلحُ وطنًا إلاّ كالنبيذِ الثمين، أي كالرحيقِ الذي لا يُرتَشف منه إلاّ ما قلَّ وندر، ليبقى روحًا هاديةً للجميع، فهو نراهُ اليوم ينطوي على نفسهِ هربًا من الضياع، الضياعِ خارجَ المنطلقات التي بُنيَ عليها، في صلب تكوينهِ كأُقنومٍ للوساطةِ والحوارِ الإنسانيّين، في ما يتخطّى المعتقدات المتحجِّرة، بعد أن أصبح حقلاً للنزاع الدامي بين من أصابهم التحجُّر، فراحوا يرفضون بعضَهم للبعضِ الآخر على أساس تحجُّراتهم المتبادلة التي شوَّهت الدين في ظُلمات معتقداتهم.

فلبنان، وهو سائبٌ هكذا في حقلِ النزاعِ الداميّ هذا، تتصارعُ عليهِ اليوم ثماني عشْرة ذاكرةَ اعتقادٍ، تفصلُ في ما بينها أقلّهُ ثماني عشرةَ معركةً أليمةً أبعدتْ هذه الذاكراتِ بعضَها عن بعضٍ وعن العطفِ الإنسانيّ الذي قد يعيدُ جذبَها بعضِها لبعض.

وعليه، فالسؤالُ الذي يبقى مطروحًا اليوم، بمعنى السؤالِ الصحيح الذي يُفترضُ بنا طرحُهُ، هو ذلك السؤالُ الذي قد يقودُنا إلى إعادةِ البحث عن روح القانون، وعن الأسباب التي أدّت إلى تعثّراتنا في استجلابِ هذا الروح نظرًا لتصلّباتِ رموزِ الذاكرةِ المشدودةِ نحو معتقداتها التي تعيدُها إلى أصولِها الداميةِ، المؤلمة والعنيفة، حيث العداءُ هو في أصل التكوين. ويمكن طرح هذا السؤال كالآتي:

ما العملُ اليوم لإعادةِ بناءِ الدولةِ عبرَ المواطنة الحقّة، والمواطنةِ الحقّة عبر القانونِ الحقّ، أي ذلك القانونِ المستندِ أوّلاً إلى روحه، بمعنى ذاكرةِ الإيمانِ التي تُحييهِ، لتتمكّنَ هذه الذاكرةُ من أن تُصبحَ ذلك النظامَ الذي لا يُبنى إلاّ في ذاكرةِ الإنسان، وفي عمقِ نواياه الخُلقيّةِ، عبرَ مواجهةٍ بين التصلّبات البِدئيّة القائمةِ في كلّ حدبٍ وصوبٍ ضمن هذه الذاكرة، وبينَ روحِ المحبّةِ والعدلِ التي تكمُنُ في الضواحي الصافيةِ من قلبِهِ المحبّ.

ولأُعطي مثالاً على كلامي هذا، سأتطرّقُ إلى موضوع الكتاب الذي تجادلت على صفحاته مع ذاكرتي، أي مع نفسي كباحثٍ مضمورٍ في هذا المجتمع الذي حكَمَ على نفسه بأن يفتّت ذاتَه ليعود إلى حالتهِ الجماعيّةِ الطائفيّة السائدةِ. وقد حاولتُ، بشكلٍ خاصّ في هذا الكتاب، أن أحاورَ ذاتي كشخصٍ حَلَمَ بمدينةِ الإنسان في لبنان، وعملَ مع الذين شاركوه في هذا الحلم، على رسم معالمِ هذه المدينةِ، وعلى بناءِ مداميكها بحجارةِ المطارحِ المديدة التي حطّت فيها الكلمة، والتي كان آخرُها جامعة سيّدة اللويزة. وأُقرُّ بأنّي، إذ وصلتُ إلى نقطةِ الصفرِ في حلمي هذا، فقد باشرتُ بكتابةِ هذا الكتاب، باللغة الفرنسيّة، تحت عنوان ***Mémoires d'outre croyance***، مذكّرات ما بعد المعتقد

وانتهيتُ من مشواري مع صفحات هذا الكتاب في صيف سنة ٢٠١٠. لكنّهُ، وبعد المناقشات الإيجابيّة التي كان لهذا الكتاب أن يحظى بها، عُدتُ وتابعتُ الكتابة، مستنيرًا بفكرة جديدة، اقتبستُها لتكون عنوانًا جديدًا، عنوانًا معبّرًا عن الحالة اللا-خُلقيّة السائدة في لبنان والعالم، وقد أتى هذا العنوان، بصيغةٍ تساؤليّةٍ، وباللغة الفرنسيّة، كالآتي: L'après religion(s) religare; le pourquoi de l'apocalypse?، ما معناه باللغة العربيّة، في ما بعد فقدان الصّلة بين المادّة والروح (الدين، الأديان)، بحث في سبب وقوع البشريّة في خطر الدمار الإنسانيّ الشامل. في هذين الكتابين، تمكّنتُ من بناءِ مواجهة بين ذاكرتين متقابلتينِ ومتفارقتينِ داخل ذاتي، كما وداخل كلّ ذاتٍ فرديّةٍ أو جماعيّةٍ، وبخاصّة الذات الجماعيّة والفرديّة اللبنانيّة، هما وكما ذكرتُ سابقًا: ذاكرةُ المعتقد وذاكرةُ الإيمان.

في هذه اللمحةِ الموجزةِ لما اكتنزتهُ صفحاتُ هذين الكتابين، سأحاولُ أن أحدّد المعالِم الشخصيّة لهويّتي المتقاطعة مع الإشكاليّة اللبنانيّة الراهنة، كما تحسّستُها في القراءات المتتالية التي قمتُ بها لذاكرتَي المعتقد والإيمان، المُختزَنتَين في تواريخِ الحياةِ الماضية والحاضرة.

ذاكرة الإيمان أو الذاكرة الإنسانيّة المؤمنة

لقد تبيّن لي من خلال القراءات التي قمتُ بها لهذه الذاكرة، أي ذاكرة الإيمان، وهي الذاكرة التي ترتسمُ في أُطرِها مساراتُ حياةِ الأنبياء والرُّسل والقدّيسين الذين تجرّأوا على الإرتقاءِ بذاتهم إلى

منارات الروح، حيثُ كانت لهم ولاداتٌ جديدة في ما يتخطّى نظام الطبيعة، سَمحت لهم بمحبّةِ هذا النظامِ والعمل على التخفيفِ من عبءِ الثنائيّة التي يَستمِدُّ منها بيانَ كيانهِ. إنّ الأبحاث التي نقوم بها في المركز اللبنانيّ للأبحاث المجتمعيّة، بشكلٍ عامّ، وتلك التي تناولها هذان الكتابان بشكلٍ خاص، تنبع في أساسها من عمق أحلام هذه الذاكرة، إنطلاقًا من المحطّات الزمنيّة الكبرى التي لامست هذه الأحلام.

وأنا في أجواء هذه التخطيّات التي وضعتني في ظلّها قراءاتُ ذاكرةِ الإيمان، شعرتُ أنّهُ في كتابيّ هذين عن الذاكرة والدينِ والإيمان، قد اقتربتُ فعلاً من صورةِ الإنسانِ الذي يبحثُ عن ذاتهِ الحاملةِ في طيّاتِها مشروع الخلاص، وبشكلٍ أخصّ من صورة الإنسان الذي يبحثُ عن سبيل الخلاص على طريق المسيح. أقولُ هذا لأنّهُ في هذين الكتابين، كان البحثُ عن ذاكرة الإيمان من داخلِ الذاكرة الإنسانيّةِ التي تسعى بدورها للإرتقاء إلى الخلاص كتجربة عطاءٍ لامتناهٍ. فالإيمان من على صفحاتهما يتجلّى ليظهرَ بصورة هذا الرجاء الكبير الذي تعرَّفتُ من خلالهِ على نفسي، وأنا هائمٌ على دروبِ المسيح الذي أؤمنُ بهِ بكلِّ جوارحي.

بناءً عليهِ، وانطلاقًا من إيماني هذا، تمكَّنتُ فعلاً من أن أتصالحَ مع رواسبِ ذاكرةِ جيناتي فيّ، فأصبحَ بمقدوري أن أعترفَ بهذهِ المصالحة كبابٍ مفتوحٍ على الزمن، يُعيدُني إلى ذاتي التاريخيّة المتعدِّدة الجوانب، أي هذه الذات التي سمحت لي أن أقرأ أحداث الذاكرة العائدة لي، والتي علّمتني أن أُقدِّر مدى الإحتمالات التي تَكمُن وراء نسبيّة مقدارِ كلّ أصلٍ من الأُصولِ في تكويني الذاتيّ. فتمكّنتُ، بشكلٍ خاصّ، من أن أكتشفَ الإحتمالَ الكبير في أن أكونَ في أصلِ الأصول التاريخيّة : فينيقيًّا، كنعانيًّا، ساميًّا، إبراهيميًّا، يهوديًّا...، عربيًّا...، فارسيًّا...، شركسيًّا...، تركيًّا...، لبنانيًّا...؛ وفي أصل الأصول الروحيّة: يوسفيًّا، مريميًّا، يسوعيًّا، مارونيًّا، محمديًّا، وهائمًا في سيرة حياة العديد مِمّن اختاروا أن يولدوا من جديد على طريق قُدسيّةِ الروح، وإلى أيّ دينٍ انتموا.

وأصبحَ بمقدوري، من جهةٍ أُخرى، أن أقومَ بالجهدِ اللازم لأتمكّنَ من التعرُّف إلى ذاتي، ومن الإعترافِ بها كذاتٍ تسعى لتلتقي مع جميع الذين أحبّوا المسيح في طائفتي المارونيّة، وخارجها في العالمِ المسيحيّ وخارجهِ، وبخاصّةٍ الذين أحبّوا شربل ورفقا والحرديني، وغيرهم، وغيرهم من القدّيسين والصّالحين.

وأصبحَ بمقدوري بوجهِ الخصوص، أن أتعرّفَ على ذاتي كفردٍ شاء أن يكونَ ذاتًا فرديّةً، وبحثَ من أجلِ ذلك عن الإيمان؛ فأحبّ مار مارون، كما أحبّ لبنان المدنيّ، وسعى طيلةَ حياتهِ لتحقيق الدولة المدنيّة فيه، انطلاقًا من فكر الفلاسفة اليهود، وأخصّ منهم Levinas Emanuel (إيمانويل يفيناس)، et Jacques Derida (جاك ديريدا)، et Henry Atlan (هنري اتلان)، في كتابه **الرحم المصطنع** **L'utérus artificiel**, et David Saada (دافيد سعادا)، في كتابه **النقطة الداخلية، في سرّ الخلق** **Le point intérieur, le secret de la création**

لكنّهُ، ومن مكان الذاتِ الفرديّةِ التي تكوَّنت إنطلاقًا منها خصائصُ الشخصيّةِ اللبنانيّةِ في داخلي، وهي الخصائصُ التي لطالما دافعتُ عنها، فإنّي لا أرى اليوم، وأنا أنظرُ من منظورِ ذاكرةِ الإيمانِ هذه، من وجودٍ مستقلٍّ للبنان بشكلٍ موحّدٍ، إلاّ وقد قضى هذا اللّبنانُ تمامًا على طائفيّتِهِ؛ ولا أرى لأبنائِهِ من مصالحةٍ في ما بينهم إلاّ وقد اضطلعوا بيهوديّتِهم ، كما وبساميّتِهم وبإبراهيميّتِهم، وهي أعماقٌ متنوِّعة لهويّاتِهم المشتركة، اكتشفتُها عند ليفيناس، وجاك ديريدا، وبول ريكور، ومن خلالها تعلّمتُ أن أحبَّ فلسطين، وأورشليم–القدس.

وهكذا، فإنّي ما زلتُ أعملُ من أجل توضيح الأفكار والمشاعر والأحاسيس، بالعودة إلى المصادر والمراجع هذه التي أحببتُها بعد أن أحيَتني في داخلي، إذ كانت وراءَ استلهامي لهذا التطلُّع إلى الأُفُقِ الإنسانويّ الذي يُفترض أن ينتهجهُ أبناء لبنان، ولو تعثّرت خُطاهم في مُلاءات إنتماءاتهم. وإنّي ما زلتُ أعملُ أيضًا على ذاتي لأبقى نظرةً، وكلمةً، وصمتًا، ووحدةً، في حالةِ تحوّلٍ دائمٍ لبلوغِ إيمائيّةِ الروحِ في قلبِ المدينةِ Gestus.

وفي نتيجة هذه الجهود، اكتشفت إنّي أُريدُ أن أبقى هذهِ الإيمائيّة، التي أتت عنوانًا لكتابٍ استلهمتُه كنقطةِ انطلاقٍ نحو الخلقِ، حيث يتمُّ الالتصاقُ بمشروعِ المدينةِ، بأورشليم، وحيث يلتقي أبناءُ إبراهيم جميعًا في لبنان، كما في فلسطين، ويُعيدوا الحلم الذي لم يتحقّق في أزمنةِ البؤسِ الغابرةِ. اكتشفتُ أنيّ أُريدُ، من ناحيةٍ أُخرى، أن أتحوَّلَ إلى تلكَ الكلمةِ التي تتمكّنُ من تحريرِ نفسِها من قيودِ المعرفةِ لتعودَ إلى طريقِ الإنسان الباحثِ عنها ليُنتِجَ نفسَهُ معها وبها.



ذاكرة الإعتقاد الراهنة

في سجلِّ هذه الذاكرة، الذي جهدتُ على تصفُّحِهِ مرارًا، ظهَرَ لي بكلِ وضوحٍ أنّ حالتي الإنتمائيّة البدئيّة تتغلّبُ على أيّةِ حالةٍ تكوينيّةٍ أُخرى للذات الثقافيّة؛ فإذ بي أرى نفسي في هذا السجلّ، من ناحية، مدوّنًا في خانة المولودين في بلدة سهيلة، هذه البلدة التي تقع على ارتفاع ستماية متر عن سطح البحر من جهة سفوح جبال قضاء كسروان. وإذ بي أيضًا، وأنا أتحسَّس بالصِّلة التي تربطني بهذا المكان من ناحية أُخرى، ينكشف أمامي واقع جديد، وهو هذا الواقع الذي يُلزمني مؤسّسيًّا بانتمائي البدئيّ هذا.

إنّهُ الرّقم ١١١)) الذي أُعطي لعائلتي، والذي يرافقني في كلِّ خطواتي للدلالة عن هويّتي انطلاقًا من أُصولي التي تُعرِّفُ عنّي، بأنّي مارونيّ، من آلِ القاعي التابعين للطائفة المارونيّة، والمنتسبين لأبرشيّة صربا. وبالتالي، فعندما حاولتُ أن أتعمّق في قراءة هذا السجلّ، وجدتُ أنّ طابعَ الذاكرة التي يحتويها ينحو باتجاه التكوينات البطركيّة للعلاقة مع السلطة. وتبيّن لي، من ناحية أُخرى، أنّ هذه الذاكرة هي ذاكرة نمطيّة لأُسرة مسيحيّة تقليديّة، يرأسُها أبٌ، عملَ بجدٍّ طيلةَ حياتِهِ في سبيل أن يدافع عن سُلّمِ القيم السائدة في الأنظمة التي ترعى هذه القيم.

أبي لم يكن وحدَهُ يناضل من أجل التطابُقِ مع القيم التقليديّة، بل قد ساعدتهُ أُمّي في هذه المهمّة، وهي التي كانت، ككُلِّ والدةٍ حنونةٍ، مداومةً على الصلاة كسيرةِ حياةٍ، سيرةٍ هي وحدَها ستكون كفيلةً برسمِ طريقِ الخلاص، بحسبِ رأيها ورأيي، ما جعلها تتقبّلُ أن يكون أبي حزبيًّا، من المؤسّسين لحزبِ الكتائب، وللشعار: الله، الوطن العائلة، وأكثر من ذلك، أن يكونَ بيتُ الكتائبِ لبلدتَي سهيلة وجعيتا، مُقيمًا في ديارِها الخاصّة.

بناءً عليهِ، فكلّ من أراد أن يتعمّق في قراءة هذا السجلّ، سيجد أنّي من المتعلّمين في الطائفة، وأنّي لبنانيّ بلغ السابعةَ والستّين من العمر، وعمل ناشطًا في الحقول الإجتماعيّة والثقافيّة، ولم يستطع أن ينتخبَ ولو لمرّةٍ واحدةٍ في حياتهِ، لأنَ صورة لبنان، التي كانت تلاحقُه في ذاكرتهِ، والتي هي جزئيّات لأممٍ لها ذاكراتٌ لذكرياتِ معارك ودماء، كانت تُزعجُه وتهدّده في وعيه.

وفي نتيجة هذا التعمُّق في القراءةِ، سيجدُ القارىءُ نفسَهُ وكأنّهُ هو أيضًا يعيشُ في خِضمِّ هذه الذكريات، وقد عادت لتشتعل شيئًا فشيئًا، ولترتَفع حرارتُها مجدّدًا عبر التجذّرات التي يحملُها المرشّحون، والتي يؤكّدون عليها في شعاراتهم، وهي إذ تُثير اليوم المخاوفَ والأحقادَ والتصلّبات في المواقف، فهي تدغدغُ مشاعرَ التباعُدِ والعداء بين الناس.

إنّ قراءة هذا السجلِّ تؤدّي إلى اكتشاف معنى كوني ما زلتُ أُصِرُّ على أن أبقى مديرًا للمركز اللبنانيّ للأبحاث المجتمعيّة، في جامعة سيّدة اللويزة، وكاتبًا باللغتين العربيّة والفرنسيّة. هذا المعنى الخفيّ المنظور، هو ما جعلني أُواظبُ على التعليم الجامعيّ كرسالةٍ تربويّةٍ طيلةَ أربعةِ عقودٍ، وهو ما طرحني ويطرحُني من جديد اليوم، وبالرُّغم منّي خارجًا عن حظيرتي، متمزّقًا في كياني الاجتماعيّ ومتألّمًا تجاه التجاهل الكامل للمحصول العامّ وللكيان الإنسانيّ والخُلُقيّ الشامل، هذا الشعور الذي دفع بي إلى هجرة التعليم الجامعيّ اعتبارًا من هذه السنة.



المؤلّف — د. علي خليفة — المطران بولس روحانا — الأمّ دانيلّا حرّوق

ومن أهمّ ما يُمكن ذِكرُهُ في هذا المجال، أنّ جامعة سيّدة اللويزة تمكّنت من إصدار خمسة وثلاثين كتابًا، بإدارة وإشراف الأُستاذ سهيل مطر مدير مكتب العلاقات العامّة، وتضمّنَ كُلّ كتاب منها بحثًا حولَ إشكاليّة إجتماعيّة راهنة كُلِّفتُ بمعالجتها في إطار مشروع الشأن العامّ، وذلك حول مواضيع دولة الحقوق، والمجتمعيّات، والخُلقيّات، والإلهيّات، والإنسانويّات... و...إلخ...،

ومن أهمّ ما يمكِن التوقُّف عندَهُ من مجالاتِ الأبحاث والإنتاجات التحليليّةِ الصادرةِ عنها، هو أنّي ما زِلتُ مواظبًا عليها، وأنا كما أنا وكما كُنتُ عليهِ في السابق، أنشرُ، وكأيّ باحثٍ قَبِلَ بأن يُكرِّسَ حياتهُ للبحثِ عن الصورةِ التي تَكوَّنت معالم مشاهدها في عُمقِ ذاتِهِ، أن تُعطى لي فُرصة الدخولِ إلى مندرجاتِ مشاهدِ هذهِ الصورةِ، صورةِ الخَلقِ الرائعةِ التي تَتراءى لهُ في مُخيِّلتِهِ، فتَجعَلُهُ يَعرفُ كُلَّ المعرِفةِ أنّهُ مِنها ولها.

وبالتالي، فأنا إذ أَطمحُ إلى متابعةِ طريقِ البحثِ في إطار هذه الصورةِ، فما زلتُ على موعدٍ معها في جامعة سيّدة اللويزة في إطار جديد للبحث، أحبّت الجامعة أن تُعطيه مكانةً خاصّةً من ضمنِ نشاطاتها البحثيّة التي تقوم بها، فكان أن أَنشأتُ المركز اللبنانيّ للأبحاث المجتمعيّة سنة ٢٠٠٣، وكان لهذا المركز أن يلعبَ دورهُ بكلِّ جديّة، فأصبحَ لهُ اليوم أكثرَ من أحد عشرَ إنتاجًا بحثيًّا بشكلِ كُتبٍ صادرةٍ عنه.

ومن أهمِّ الأسئلة التي يُمكن التقدُّم بها اليوم للنقاشِ والحوار من خلال قراءة إنتاجات المركز اللبنانيّ للأبحاث المجتمعيّة، هو السؤال الذي تمّ طرحُهُ للبحث، سنة ٢٠٠٩، بشكلٍ إشكاليّ، حول مصير المجتمع اللبنانيّ، وبالصيغة الآتية: *أين ذهب المجتمع اللبنانيّ، أين نحنُ من هذا الحلم؟ المواطنيّة بين الهويّة والعولمة.*

إنّ هذه الأهميّة تعودُ إلى أنّ الأبحاث والنقاشات التي تلتها سنوات ٢٠١٠، ٢٠١١ و٢٠١٢، كانت قد بُنيت، في مُجملها، حول التربية والجامعة والدين والسياسة. وبيّنت هذه الأبحاث أنّ المجتمعاتِ الشرق أوسطيّة تتلاشى اليوم كوعود قادرة على التحقُّق في مجالات بناء مساحات فعليّة للحقوق الإنسانيّة إنطلاقًا من وعيِ الإنسانِ لذاتهِ الفرديّة، كذاتٍ تسعى للإرتقاء إلى منابعها الغيريّة، عبر التمرُّس بالإصغاء إلى هذه المنابع في مناداة الآخرين لها.

إزاء هذا الواقع، نحن نتلمّسُ طريقًا للرجاء عبر إرادةِ التغيير، التغيير في المقاييس، مقاييس الإعتبارات التي تبنى عليها مؤشّرات النجاح والفشل، ومعايير الصحّة والمرض، وأحكام الخير والشرّ، وحسابات الصحّ والخطأ. وذلك من خلال إعادة بناء التربية على قرب من ومضات الخُلق.

على قربٍ من ومضات الخُلق، يَحسنُ بالإنسان أن يَطمئنَّ إلى مصيرِهِ، لأنّ خُلُقَهُ هو بابُ خلاصِهِ من المصير الطبيعيّ الذي تنتهي في إطارِهِ صراعات الثنائيّات، ولأنّ الإنسان الخلوق، هو وحدَهُ الذي من شأنِهِ أن يصونَ وعدَ الحياةِ... بمحبّتهِ، ليُبعد شبح الفناء المُحتّم عنهُ، وعن العالمِ...

براعم

صباحٌ خريفيّ



نور زاهي الحسنية
علم التمويل والبنوك- السنة الرابعة
الشوف

أبعدتا اللّحاف عنهما،
تثاءبتا بدلعٍ شرقيٍّ.
فالنعاس يحملُ حقائبه ويهمُّ بالرحيل،
وعيناي تستقبلان صباحًا جديدًا...
صباحٌ هادئٌ رقيق،
شمسُه تغمز لنا من البعيد...
ونسيمُه يتسلّل نحونا،
فنرتعش بردًا. بردٌ يحتضننا بقوّة لنتنشّقه...
وما ألذَّ نسيمَ صباحٍ خريفيٍّ بارد!

ضبطهما بالجرم المشهود...
عيناي تتكاسلان،
النعاسُ نَسِيَ إحدى حقائبه عندهما...
وعاد كما يفعل كلّ مرّة...
ولكنّه لن يطيل البقاء...
سيرحل ليزور من ينتظره...

صباحاتٌ خريفيّةٌ أعشقها...
أشعر خلالها بأنّ فائضًا من الحنان يسيطر على الجوّ!
أوراقٌ متساقطة تفترش الطرقات،
وتثور مع هبّات الرياح.
طيورٌ مهاجرة تحتلّ السماء،
وتغرّد «إلى اللقاء» لا «وداعًا».
أهالٍ يودّعون أطفالهم بقبلة،
فـ«باص» المدرسة بالإنتظار.
سحبٌ تعانق الشمس،
وتجعلُ نورَها خافتًا وحنونًا...
دائمًا نبحث عن شمس الخريف،

في حين أنّنا نهرب من صيف الشمس...

خريفيّةٌ أنا...
يشبهني الخريف أو أشبهه؛
فهادئةٌ أبدو للعَيان،
وفي داخلي تمرّد.
لا أعرف في أيّ لحظةٍ تتلبّد سمائي بالغيوم،
وتمطر دمعًا ساكنًا،
أو مصحوبًا ببرقٍ ورعد...
لا أعرف في أيّ لحظةٍ تعصف رياحي،
وتقتلع كلّ مَنْ وما حولي مِن مكانه...
أشبهُ الخريف بتقلّبه، بمزاجيّته، بجنونه...
بدفء أوراقه المتساقطة، بحريّة طيوره...
في نصف الخريف تقريبًا أبصرت النور،
وفي الخريف أعيش نفسي...



كولسيوم روما: عرس الدم

من وحي الصليب المرفوع
عند مدخل كولسيوم روما



جان توما

.... والقيصرُ يبتسمُ
في عينيه بريقُ الانتصارْ
وفي أعينِ الضّعفاءِ
ذاك هو بريقُ الانكسارْ.
ضجيجُ الأنينِ يملأُ الرّحابْ:
قلوبٌ واجمةٌ
ركبٌ ساجدةٌ
أيدٍ تمتدُّ كسيولِ المطرْ
من قلبِ السّحابْ.

.... والقيصرُ يبتسمُ
أمامَ خرافٍ تُساقُ للذّبحِ
ولا تعرفُ سببَ موتِها!
ألايمانِها؟
ألِسُكنى الله في أفئدتِها؟
أم لأنّها ليست على دينِ
ملوكِها؟

.... والقيصرُ يبتسمُ
لأمٍّ تحضُنُ رضيعَها
قبل أن تنهَشَهُ أنيابُ الأسودْ.
ضاعت أمّي بين حمايتي
وبين ما في معصميها من قيودْ
تحرّرت أمّي وحرّرتني
وعلى وجهِ الالهِ
رضىً يرتسمُ
فيما القيصرُ
يظنُّ أنّه يبتسمُ.

... أيُّ ترابٍ هذا المرميُّ في
أرضِ الملعبِ؟
لا بيدرَ يشبهُهُ
لا طاحونَ
لا يشبِهُ أيَّ مكانٍ
لكأنه خارجَ الأزمانِ
والأكوانِ
بل لعلّهُ هو الزّمانُ
والمكانُ.
هنا استنار كثيرونَ
لَطمًا
دَوسًا
نَهشًا
هنا صارَ القيصرُ وحشًا
تنّينًا
هنا تسمع ألمًا ووجعًا
وأنينًا
هنا يظنُّ القيصرُ نفسَه إلهًا
والآخرين بشرًا
حجرًا
يقرّر مصائرَهم بإبهامِهِ
حَسْبَ أحلامِهِ
وعُقَدِهِ
يَعدُّ القيصرُ ضحاياه
وينسى عددَ أيّامِهِ.

... والقيصرُ يبتسمُ
لتحيّاتِ جمهورِهِ
لأدعيةِ حاشيته.
لا يرى في وجوهِ البائسينَ
إلاّ تسليةَ الفرحينَ
كلّما علا الصراخُ باسمِهِ
أكثرَ من عددِ الموتى
ملبيًّا طموحَ المستأسَدينَ
لم يَعدِ الأسدُ في الم...لعبِ
بل بينَ صفوفِ المتفرّجينَ
كلّما نهشَتْ أنيابُ الأسدِ لحمًا
بريئًا
استَمْتَعتْ بالطّعمِ أفواهُ
الجائعينْ
المصفقّينْ
الفرحِينْ
كم أطالَتِ الآلهةُ بعمرِ
الحاكمينْ
منذ بدأَ عرسُ الدّمِ
لإخمادِ ظمأ الآلهةِ
وغضبِ التِنّينْ.
... والقيصرُ يبتسمُ
ولقانونِ الغابِ يحتكمُ
عندَهُ البشرُ دمىً
يقرّرُ السّلطانُ مصيرَها:
لكبيرِها ولصغيرِها
سلطانُهُ من فوقْ
من حيثُ يأتي النّاسْ
بيدِهِ اليسرى الكأسْ
وبيدِهِ اليمنى
مصيرُ كلِّ نفسْ.
لا اعتبارَ
للحبِّ للحقيقةْ
وحدَهُ القيصرُ
يَشعرُ ، يعرفُ
يُنشِدُ شعرًا
يَرسُمُ لوحةً
ويَعزِفُ.
وحدَه القيصرُ
يُحرِقُ روما والجوارْ
يَقتل الأبرياءْ
بالحديدِ والنّارْ
مغفورةٌ خطاياه
لأنّه ابنُ السّماءْ
وهو إلهٌ بارٌّ
فيه النّاسُ ترضى وتختصمُ
والقيصرُ دائمًا... يبتسمُ

روما ١٩ تمّوز ٢٠١٢



من منشوراتنا





